

يوسف

من وحي القرآن والسنة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

2017م

القاهرة

المحتويات

6	المقدمة
30	يوسف من وحي القرآن
131	من صفات النبي يوسف
131	1 . راء:
131	2 . مؤول الأحاديث والرؤى:
135	3 . آية:
136	4 . مبتلى:
137	5 . مُعَلِّم:
142	6 . مجتبي:
143	7 . تام النعمة:
150	8 . مستعصم:
151	9 . بشرى:
154	10 . نبي:
154	11 . رسول:
163	12 . متقى:
165	13 . مُخْلِص:
166	14 . صادق:

168	15	مستغفر:
175	16	مُنْبِيء:
177	17	حنيف:
179	18	داع:
180	19	عليم:
187	20	مُتَبَوِّئ الأَرْض:
191	21	مُحْسِن:
192	22	متسامح:
193	23	صبور:
198	24	مستجاب الدعاء:
199	25	خازن:
201	26	مفت:
202	27	صدّيق:
203	28	مالك:
208	29	مكين:
210	30	أمين:
211	31	فائز بالجنة:
211	32	حفيظ:
215		الحفيظ المانع:

215 الحفيظ الوكيل:
216 الحفيظ الرقيب:
217 الحفيظ المقيت:
218 الحفيظ المهيمن:
219 الحفيظ الأواب:
220 من وجوه حفظه:
224 من مظاهر حفظه:
236 حَفِيظٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ:
238 طلب الخلافة للحفظ:
246 خصائص اسم الحفيظ:
262 الكيد مفهومه وأنواعه:
264 الكيد بيوسف:
282 يوسف وعزيز مصر:
295 الزّوج والمرأة:
295 الزّوج:
324 المرادوة والهييت والهمم:
324 المرادوة:
325 الهييت:
337 الاستباق:

343	يوسف ونسوة في المدينة:
347	السّجن مثوى:
353	الاجتباء وما يتعلّق به:
355	دلائل الاضطفاء:
357	أنواع الاضطفاء:
361	أحداث السّجن:
371	قصة يوسف
371	(رواية)
426	النبي
426	يوسف من السّنة
429	كيد النساء والرّجال:
442	يوسف في السّجن:
444	جمال يوسف:
459	يوسف يدير الدّولة:
461	يوسف خير مثال:
461	أعمال أخوة يوسف لم تجعل منهم أنبياء:
463	ابتلاء يوسف وفتنته:
464	دعاء يوسف دعاء أهل جنّة:

المقدمة

بسم الله الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام
على محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

وبعد:

ما من شك أنّ البحث في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام هي
مثير من عدة جوانب، ذلك لأنّ قصة النبي يوسف بالتحديد هي قصة
موصوفة بأنها أحسن القصص {لَحْنٌ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ}1، ومن هنا؛ فأحسن القصص تستوجب
البحث في نوع الحُسن وطبيعته وأسلوبه ومضامينه.

ونعتقد أنّ وصف الله عزّ وجلّ لهذه القصة بأحسن القصص،
يوجب أن يكون البحث منصباً باتجاه تميّز العلاقة بين يعقوب ويوسف،
ولذلك فلا يمكن للهوى أن يكون ماثراً على ما نبذله من جهد موضوعي،
الذي لا يمكن أن يتأتى بالوصف والثناء، وإنما بالتحليل والبحث المعمق.

ومن ثمّ، نقول: إنّ قراءة أحسن القصص أثارت فينا الكثير من
التساؤلات التي دفعتنا بقوّتها تجاه البحث فيها، وخاصةً تجاه ذلك الهمّ
الذي فيه ما فيه من المعاني والدلائل الدالة على أهمية التمسك بالفضائل
الخيّرة والقيم الحميدة.

وفي هذا المجال لا بدّ من التنويه إلى أنّ البحث في قصة سيدنا يوسف
صلّى الله عليه وسلّم يتأثر بشكلٍ من الا شكّال بما يسمّى الإسرائيليات
تلك الإخبار التي وردت فيها مغالطات كبيرة بحقّ أنبياء الله ورسله،

¹ يوسف 3.

ويوسف عليه السّلام الذي يعتبره البعض من أنبياء بني إسرائيل لا شك أنّه ورد في هذه الإسرائيليّات على صعيد واسع، لذلك ومن هذا المنطلق آثرنا ترك كلّ هذه الأخبار واعتمدنا النصّ القرآنيّ والسّنّة الكريمة مصدرا أساسا في كلّ مراحل البحث ومستوياته، وهذا كما نعتقد أقوى وأوثق للبحث.

كما أنّ التحليل المنطقي الذي اتبعناه أوصلنا إلى تأويل جديد يناسب مكانة الرّسول المجتبي من الله وهو ما يزل غلاما؛ فكان همّها ما كان، وكان همّ يوسف غمّه بما تدعوه إليه، فقد نظر إليها أمّا بينما شُغفت به حبّا، وهذا التأويل يناسب إلى حدّ كبير سردية الحدث من البناء القصصي، فيوسف (البطل) لم يظهر عنده مثل هذا المتغير لا في القول، ولا في السّلوّك، فمن غير المجانس للسّرد الأحسن أن تحدث المغايرة الانقلابية في الحدث الذي يشع بهالة الإيمان والتقوى والورع ليظهر من يوسف همّ في هذه الحالة يشوّه جو التقوى، هنا حتى في القصة وبناء الحدث فيها سيحدث نوع من الخلل في بنية السّرد وتشويه لمشهد المكان وإخلال بتزامن أفعال الحدث السردية.

وتمثل هذا التحليل عاجنا بقية قضايا قصة سيدنا يوسف صلّى الله عليه وسلّم، فبدأنا في مؤلّف سابقٍ الحديث عن يعقوب صلّى الله عليه وسلّم باعتباره الأب والنيّ الأسبق والمعاصر لرسالة يوسف صلّى الله عليه وسلّم، وهو نبيّ للابن ومعلمه العقيدة الصّحيحة ومنبئه باجتماع الله له، ومصدرا من مصادر القيم والسّلوّكيات عند يوسف صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ هو من بعد ذلك المصدّق برسالة يوسف صلّى الله عليه وسلّم، والشاهد على طاعة إخوته له رسولا نبيا.

وتحدّثنا بالتفصيل المطلوب والموجب عن النبيّ يوسف، وركّزنا الحديث على التعريف به وعلى صفاته، بينما تركنا قصّته تنساب في أثناء

الحديث كما شئناها في مشيئة الله عز وجل، لأنّ المولى عز وجل أراد أن تكون قصّة يوسف درسا من الدروس العظيمة التي يستقى منها كثير العبر.

فبعد أن رأى يوسف الرّؤيا عرضها على أبيه يعقوب صلّى الله عليهما وسلّم، فطلب منه أبوه أن لا يقصص رؤياه على إخوته، الذين هم قادرون على عمل المكائد إن تدخّل الشيطان بينهم، ولذا يتضمن قول يعقوب ليوسف الحرص كلّ الحرص على يوسف، مصداقا لقوله تعالى: { قَالَ يَا بُيَّيْ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ }² فقله (لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ) هو قول الحريص (يعقوب) على ابنه يوسف من دون إخوته لأسباب معرفتها قد لا تكون غائبة عن نبوة يعقوب، أي لعلم يعقوب بما عليه أبنائه وبالنبوة التي بها هو ممكّن من المعرفة الوافية، ولذلك جاء تفسير يعقوب لرؤيا يوسف على التمام كما فسّرها وهي المحمّولة للدلالة والمعنى في القرآن الكريم.

الأخوة وأي أخوة يرون أنفسهم أمام بعضهم ووالديهم هم على التساوي، ولكن أن يحس البعض منهم بأن أحدهم مفضّل أو مميّز عند أبيه بما تميّز به أو مميّز به من عند الله، فقد يتداركهم الشيطان بما يتداركهم به فيجعل الفتنة تحلّ بين الأخوة محلّ المحبة، ووفقا لهذا المبدأ جاءت المكائد ليوسف من أخوته والشيطان.

فيوسف يعد الصغير بالنسبة لأخوته باستثناء أخ منهم، فكيف يُعظّم بما عظيم به من محبة أبيه ومحبة الله إليه، قال تعالى: { إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }³ هذه المحبة جعلت أخوته أسماعهم في بعض الأحيان وكأنّ بها وقرا يحيل بينها

² - يوسف 5.

³ يوسف 8.

وبين ما يُسمع عن كلِّ جميل يقال أو يُفعل ليوسف، وفي البعض الآخر
أسماعهم لأخباره تُصدِّعهم كثيرا وهم بما يصدِّعهم من عظيم لا يطيقون
وبخاصَّة وأنَّ الشيطان كان أقرب إليهم من يوسف، ولأنَّه الأقرب إليهم فقد
ضلهم ضلالا آخر، ألا وهو وصفهم لأبيهم بأنَّه في ضلال، (إِنَّ أَبَانَا لَفِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

وعليه: كان تحذير يعقوب لأبنة يوسف في محله رؤية أخرى في رؤيا
يوسف، ولهذا لقد تحققت الرؤيتان:

. تحققت رؤية يعقوب في كيد الإخوة، وكذلك في اجتناء الله ليوسف
وتعليمه تأويل الأحاديث وإتمام النعمة عليه وآله، مصداقا لقوله تعالى:
{وَكَذَلِكَ يَجْتَنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ
وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 4.

ولأنَّ القرآن حقٌّ؛ فإنَّ ما جاء فيه عن يوسف ويعقوب هو ذلك
الحق الذي تحقَّق في زمنهما ونحن به مؤمنون، تصديقا تاما ومنه نأخذ العبر
في أبنائنا وإخوتنا وعلينا أن نتعظ ولا نضل ولا نطغي، ولا ننحاز لغير
الحق فنشقى.

وعليه: لو سأل سائل:

هل هناك من يعتقد أنَّ أبنائه سيكونون على علاقات وحسن
معاملة واحترام لبعضهم بعضا وأنهم سيكونون أفضل من أبناء النبي يعقوب
صلَّى الله عليه وسلَّم (الأحد عشر كوكبا)؟

نقول:

4 يوسف 6.

في دائرة الممكن، كل شيء ممكن، ونأمل من الله حفظ أبنائنا على الحق والمنع من العيب والفتنة.

افتراءات على يوسف من إخوته وهو مما يُفتري عليه براء، فقولهم لأبيهم لقد أكله الذئب قولاً لا مصادق له، فهم الذين رموه في الحب اعتداءً وظلماً دون أسفٍ على ما فعلوا به، وهم الذين فكروا في قتله قبل أن يُرمى في الحب، وهم الذين جاءوا لأبيهم بدم كذب، قال تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} 5، ولكن بالرغم من كذبهم فلم يصدقهم أبوهم (يعقوب) فيما قالوا (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)، وقوله (سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا) دليل يقيني على أنهم كاذبون، ومع ذلك قَبِلَ يعقوب بأن تكون الفرصة المتاحة حُجَّةً دامغة لأقاويلهم المفتراة على يوسف، أي وكأنه يود أن يقول لهم سنتنظر يوماً تُشَخَّصُ فيه الحقيقة التي تجعلكم أمامي كاذبين.

بقي يوسف في البئر، حتى أتى ذلك اليوم الذي مرّت به قافلةٌ متجهةً إلى مصر، فأرسلت القافلة واحداً منهم لجلب الماء لهم من البئر، فلما ألقى بالدلو في البئر تعلّق به يوسف، فلما رأى الرجل يوسف فرح كثيراً واستبشر به؛ فأخذته القافلة إلى مصر كي يعرضوه للبيع، وبينما هو في السوق معروضاً للبيع، أتى عزيز مصر ليشتري غلاماً له؛ فوقع عينه على يوسف وقرّر أن يشتريه، فاشتراه ببضع دراهم. ثمّ عاد به إلى البيت وطلب من زوجته أن تهتمّ بيوسف وتحسن معاملته فقد يصبح ولدًا لهما.

⁵ - يوسف 17، 18.

كبر يوسف وترعرع في بيت عزيز مصر، وكان جماله مثيرا لامرأة العزيز؛ فعجبت به ولفتت نفسها إليه شهوة، وبدأت إغرائه بكل ما يلفت النظر، غير أنّ يوسف كان مستعصما؛ فلم تقدر عليه، وقد أوقعها كيدها به في نفسها فخسرت الرهان.

ومن هنا تعدّ قصة يوسف عليه السلام من أروع القصص وبخاصّة في العفة.

فقد راودته امرأة العزيز عن نفسه؛ فرفض يوسف وحاول الهروب منها وعندما حاولت إمساكه وهو هارباً من كيدها وصل إلى الباب وفتحه؛ فوجد سيدها عند الباب وقميصه قد مزّق من دبرٍ، ولخشيتها من أن يخبر زوجها عن فعلتها، أو لقهرها منه، لقت قصة متهمه إيّاه فيها بالتحرش بها، فاحضر حكم ليحكم بينهما فقال الحكم إن كان قد قميصه من دبرٍ فهو صدق وهي من الكاذبين، وإن قد من قبل فهي صدقت وهو من الكاذبين؛ فراوا قميصه قد من دبرٍ؛ فعرف العزيز أنّها الكاذبة.

وقد سمعت امرأة العزيز أنّ مجموعة من النسوة في المدينة يتكلمن عن فعلتها فأحضرتن وأحضرت يوسف ثمّ أحضرت لكلّ واحدة منهنّ سكّينا ليقطعن الفاكهة؛ فقالت زليخة ادخل؛ فلما دخل عليهن يوسف قطعن أيديهنّ من شدّة جمال يوسف؛ فدعى يوسف ربّه أنّ السّجن أهون عليه ممّا يمكرن به النسوة تجاهه.

فكانت الدّعوة استجابة؛ فوضع يوسف في السّجن بسبب الفتنة التي أثارها في قلوب نساء المدينة، ودخل معه السّجن فتیان، أحدهما خبّاز والآخر ساقی، ونظراً لما رأياه من أخلاق وأدب يوسف، أقبلوا عليه ذات يوم يقصّان عليه ما رأياه في نومهما. ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا

تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ {6؛ ففسّر لهما الرّوى بأنّ أحدهما سوف يُصلب وتأكل الطّير من رأسه، والآخر سوف ينجو ويعمل عند الملك. وطلب ممّن ينجو منهما بأن يذكر قصّته للملك عسى أن يعفو عنه، ولكنّه نسي أن يقصّ على الملك قصّة يوسف المسجون ظلماً؛ فكان ذلك سبباً في أن يبقى في السّجن سنينا.

وهكذا لقد تعرّض يوسف عليه الصّلاة والسّلام لما تعرّض إليه من ابتلاءات ومكائد ومع ذلك استعصم، وأنجاه الله من كلّ ما تعرّض إليه. وقيل فيه ما قيل كغيره من الأنبياء العظام وهو براءة من كلّ ما قيل فيه بغير حقّ. وقد سمّيت سورة من سور القرآن الكريم باسمه. قصّته من أجل القصص القرآنية التي ظهرت فيها عناية الله تعالى ورعايته له نبيا كريما من الأنبياء المصطفين الأخيار.

كان يوسف عليه السّلام رائع الجمال خلّقا وخلّقا، وله عند ابيه شأنٌ عظيمٌ، فكان ذلك سبباً في حقد إخوته عليه وغيرتهم منه وكيدهم له.

وذات يوم وهو في صباه رأى في المنام أنّ أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر يسجدون له، فأسرع إلى والده يخبره برؤياه جمالا وروعة، {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ {7، ومن خلال نفاذ بصيرة والده علّم أنّه سيكون ليوسف شأنٌ عظيمٌ ومكانةٌ رفيعةٌ، فطلب من يوسف ألاّ يخبر أخوته بتلك الرّؤيا العظيمة حتى لا يكيدوا له ويدبروا له أمرا لا يليق.

وكما قال النبي الوالد لابنه كان بالتمام، حيث اجتمع الإخوة ليدبّروا مؤامرة ليوسف كي يبعده عن والده الذي يحبّه حبّاً شديداً، فاقترح أحد

⁶ يوسف 36.

⁷ يوسف 4.

الأخوة بأن يقتلوا يوسف، بينما اقترح آخر بأن يلقوا يوسف في أرضٍ بعيدة كي ينساه والده ويحبّهم حبّه.

وأخير اتفق الإخوة أن يلقوا يوسف عليه السّلام في بئرٍ على طريقٍ تمرّ به القوافل كي تأخذه إحدى هذه القوافل وتذهب به بعيداً، ثم ذهبوا إلى أبيهم وطلبوا منه أن يسمح لهم بأن يأخذوا يوسف في رحلةٍ معهم.

وبذلك فالكيد هو العمل المسيء الذي يدبرّ ثم يفعل لكيد المحسود أو المرغوب الممتنع، كما هو حال يوسف عليه السّلام الذي كان كيد امرأة العزيز له بأسباب المحبّة وليس بأسباب الكريهة.

ولهذا فالكيد يُفعل بغاية في نفس من يقدّم على أفاعل الكيد التي لا تكون نتائجها إلا مؤلمة على المستهدف بأعمالها وأفعالها وسلوكياتها.

قال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤُودًا} 8.

فقوله تعالى: (وَأَكِيدُ كَيْدًا) هذه الآية ضميرها يعود على المكيد الذي بيده أمر الكيد متى ما شاء وكيفما يشاء، ولأنّه المكيد بالطلق جاء قوله (وَأَكِيدُ كَيْدًا) أمراً مطلقاً أي أنّه يكيد أي كيد دون تحديده، ومهما تنوّع وتعدّد كيد الكائدين.

في هذه الآيات الثلاثة ضمائر ثلاثة هي:

1. الضمير العائد على الكافرين بقوله تعالى: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا).

2. الضمير العائد على المكيد الأعظم، (وَأَكِيدُ كَيْدًا).

⁸ الطارق 15 . 17.

3 . الضمير العائد على الشاهد الممهل (النبي محمد عليه الصلاة والسلام) الذي سيشهد العاقبة ماثلة أمام عينيه أنّ الكافرين كيدهم مكادا وهم لا يمتلكون القوّة ولا القدرة مصداقا لقوله تعالى: (فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُؤْدًا). وفي هذا الأمر قصّة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام غير بعيدة، وهي خير قصّة لإبطال الكيد حتى وإن كان سببه حبّا.

ولسائل أن يسأل:

كيف يكون الكافرون مكيدون، ويكون الله مكيدا؟

أقول:

. كيد الكافرون (كيد).

. كيد المكيد تعالى (كيد الكيد).

. كيد الكافرون تعزيز باطل.

. كيد المكيد عزّ وجلّ مناصرة حقّ.

ولتبيان أهمية هذه القيم في ارتكاب أفعال الكيد يتمّ تناول مجموعة من الآيات العظام من القرآن الكريم ذات العلاقة بالتحليل والتفسير استمدادا للقوّة الفكرية والمنطقية والقيمية والفضائية التي ترشد إلى كشف مكائد الكائدين وكيدها من المكيد المطلق.

قال تعالى: { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ }⁹.

⁹ يوسف 4، 5.

قوله تعالى: (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) الكيد جاء نكرة بحيث يدل على أي كيد في دائرة الممكن مما يجعلك أحياناً متوقّعا له ويجعلك أحياناً متفاجئا بأسباب عدم توقّعك له، ولهذا يقول يعقوب لابنه يوسف عليهما الصّلاة والسّلام: لا تستغرب من إخوتك إن كادوا لك كيدا، وهكذا هم فعلوا ما هو متوقّع من قبل يعقوب.

وعليه الكيد: هو العمل الذي يؤسّس على الحسد والمخادعة وسوء النية المبيّنة في دائرة غير المتوقّع، ولذلك يترتّب عليه الاستغراب والمفاجئة وأحيانا نقص حُسن التصرف تجاهه ممّا يجعل البعض يقعون بأسبابه في الفخ، وقد لا يُفك عنهم بسهولة ويسر، ولذا يجدون أنفسهم بين أيدي الكائدين حيث لا قدرة ولا حول ولا قوّة، فتكون المساومة أحيانا في غير موضوعية ومنطق، ويكون الثمن المترتّب على ذلك غالبا إن لم يحدث التدخل الذي به يكاد كيد الكائدين وتكون ساعة الفرج بمفاتيح من المكيد المطلق قوّة وقدرة وعزّة ونصرا.

ولهذا فالكيد هو فعل وعمل ممن نتوقّع غير المتوقّع. كما جرى ما جرى مع يوسف من قبل امرأة العزيز التي نظر إليها في مقام الأُم ونظرت إليه في مقام العشيق.

ولأنّ المكيد هو الله تعالى؛ فهو بكيده المتين يكيد كيد الكافرين والمشركين والضّالين والمنافقين والحاسدين والظّالمين ويجعلهم في أسفل سافلين.

أمّا السّجن فكلمّا أشرنا إليه يظل السّجن فصل آخر من فصول قصّة يوسف عليه السّلام، إذ أدخل السّجن ومعه شخصان، ويقال أنّهم ساقى الملك وخبّازه، فأعجبهما في يوسف عبادته وتوكّله على الله تعالى، وشاهد كلّ واحدٍ منهما رؤيا على شاكلته، فرأى الأوّل أنّه يعصر الخمر

من ثلاث عناقيد عنب قد امتلأت؛ فعصر منها وسقى الملك، والآخر أنّه يحمل ثلاث سلالٍ من الخبز على رأسه، والطيّر تأكل منه، فسألًا يوسف عن ذلك، فأخبرهما في البداية أنّه ما من حلمٍ يحلمانه إلّا ويخبرهما تأويله، وبداية أخبرهما أنّه يوحد الله تعالى، وأنّه على ملّة أبيه وأجداده يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السّلام، وأخبرهما بتأويل حلمهما بأنّ الخبز سيصلب وتأكل الطير من رأسه، وأنّ السّاقى سيخرج من السّجن ويعود لسقى الملك، وأنّ هذا أمرٌ مقضي سيحصل في العاجل أم الآجل، وطلب من الذي ظنّ أنّه ناجٍ (السّاقى) أن يذكره عند الملك وما ألم به من ظلم. لكنّ الشيطان أنسى الناجي أن يذكر يوسف عند الملك لبضع سنين، بقي فيها يوسف في السّجن، والتي من بعدها أراد الله تعالى إخراج يوسف من السّجن، فرأى الملك رؤيا وهي أنّه كان على حافة التّهر فخرجت سبع بقراتٍ سمانٍ يرتعن في الخضرة هنالك، فخرجت سبع بقراتٍ هزال ضعاف فرتعن معهنّ، ثم أكلنهنّ، فاستيقظ مذعورا ونام بعدها، فرأى سبع سنبلاتٍ خضريّ في قصبّة واحدة، فإذا بسبع يابساتٍ آخر يأكلونهنّ، فقصّها على قومه فأخبروه أنّها من الأحلام التي لا تعبّر لها، وأنّ لا خبرة لهم بتفسير الرّؤى، وعندها تذكّر السّاقى الذي نجى من السّجن يوسف عليه السّلام وقدرته على تفسير الرّؤى وأخبر الملك عنه، وطلب أن يرسله إلى يوسف كي يفسّرها له، فأخبرهم يوسف بأنّه يأتيهم سبع أعوامٍ يخضّر فيها الزرع ومن بعدها سبعٌ يأتيهم فيها القحط، ومن بعدها يأتيهم عامٌ فيه الخير ويرزق فيه النّاس ويعودون إلى عصر ما كانوا يعصرونه من الزيتون والعنب والسّمسم وغيره، وأخبرهم ما يفعلون في كلّ من السنين كي يتغلبوا على القحط. عندما علم الملك بعلم يوسف أراد أن يخرجّه ويجعله من حضرته، ولكنّه أبى ذلك وطلب من رسول الملك الذي أتاه أن يعود إلى الملك ويطلب منه أن يسأل العزيز عن التّهم التي وضع على إثرها في السّجن كي تظهر براءته أمام النّاس جميعا، وعندما سأل الملك عن ذلك

أخبرناه أنّه تمنّع عنهنّ وأخبرت امرأة العزيز أنّ الله قد أظهر الحقّ واعترفت بذنبها، كي يعلم العزيز أنّها لم تخنه من دون علمه، فبانت براءة يوسف عليه السّلام أمام الجميع قبل خروجه من السّجن وما كان به من الظّلم، وعندما ظهر للملك ما كان به من الظّلم والعفة وما يمتلكه من العلم والحكمة طلب أن يأتوه به كي يكون من أكابر القوم عنده، وطلب من الملك أن يوليه على خزائن الأرض كي يستطيع إخراج النّاس من الضيق الذي سيحصل بحسب رؤيا الملك، فهو علم أنّه يستطيع ذلك وله من القوّة والعلم والأمانة ما يؤهّله لذلك، ولهذا طلب بنفسه أن يتولاه.

ثمّ نقول: إنّ هذا المدخل إنّما هو باب الدّخول إلى مستويات التحليل فيما بعد وربطاً أساسياً للأحكام التي ستصدر عن التحليلات المتعدّدة أثناء البحث، فهي بمثابة الثوابت التي يركّز عليها المؤلّف، ومن خلالها أظهرنا صفات يوسف ممّا كان يمرّ على البعض دون وقفة مع دلالة الصّفة ومضامينها.

وبعد ذلك أخذنا الاهتمام إلى ميادين القصّة الأخرى، فتحدثنا عن تحليل العلاقات الاجتماعية والعقدية ليوسف صلّى الله عليه وسلّم مع كلّ من أبيه وإخوته والعزيز وامرأته وأصحاب السّجن، ثمّ بعد ذلك الملك، وما تبع ذلك من آيات بارزة ومهمّة في سيرة يوسف صلّى الله عليه وسلّم.

إنّ رسالة يوسف جاءت مقارّبة أو لنقل في زمن متقارب مع نبوّات ورسالات عديدة؛ فكان هذا موضوعاً يثير التساؤلات الموجبة للبحث فتصدينا له بالدراسة والتحليل، ثمّ فصلنا في علم يوسف صلّى الله عليه وسلّم.

وعليه فيوسف صلّى الله عليه وسلّم اجتباه الله عزّ وجلّ نبياً رسولاً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي

شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا
كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ {10}.

فَقوله (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ) أي لقد جاءكم
يوسف من قبل نبيا مُرسلا برسالة تحمل البيّنات لتهتدوا، ولكنكم بقيتم
على الشك لا على اليقين الذي فيه صلاحكم وإصلاح أحوالكم التي
بشأنها اجْتُي يوسف رسولا إليكم ليريكم كيف تصلحونها، وها أنتم اليوم
باقون على الفساد والإفساد لا على الإصلاح والإعمار (فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ
مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ) أي لا زلتم على عدم التصديق مكذبين بالحق.

وقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا)
بمعنى: عند موت الرسول يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان الشاكون
يظنون بأنه بعد موته انتهى الأمر وخلصوا من الرسول الكريم ولن يبعث الله
من بعد يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولا، ولكن الله فعّال لما يُريد فيها
هو يبعث من بعده، (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ).

وعليه: فَقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ
رَسُولًا) هذه الآية الكريمة هي دليل إثبات أن يوسف كان مرسلًا نبيا
رسولا، إنّه رسول الإصلاح وطاعة الله واحداً واحداً مصداقاً لقوله تعالى:
{ يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ
الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ } {11}.

10 - غافر 34.

11 - يوسف 39، 40.

وعليه: تعتبر رسالة يوسف صلى الله عليه وسلم رسالة إصلاح وإعمار وتنظيم الحياة الاقتصادية للمجتمع الملكي في بلاد مصر، أي؛ أنها رسالة عملية تنفيذية كان يوسف على رأس تأدية مهامها في الأرض مصداقا لقوله تعالى: { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } 12.

وكذلك كان يوسف رسول من الله تعالى لتأويل الأحاديث ومفاتيح الرؤيا مصداقا لقوله تعالى: { وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوا أَضَعَاتُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } 13.

ولا شك أن يوسف مرّ بعدد من الابتلاءات التي واجهها من قناعة وإيمان مطلق بالحق؛ فكان لنا عرض وتحليل لهذه الابتلاءات، ومن أهم ذلك ابتلاء المراودة التي وقفنا عليها طويلا وفي أكثر من موضع لأنها كما نعتقد من أهم الابتلاءات التي أهدمت يوسف.

وفي كل ابتلاء كانت النجاة؛ فلزم أن نتحدث في نجاة يوسف فيما ابتلي به، لأنها نجاة محاطة باجتباء الله عز وجل ليوسف، ومقرونة بتسليم وطاعة مطلقة من يوسف لأوامر الله تعالى.

¹²- يوسف 54 . 56.

¹³- يوسف 43 . 46.

وكان لنا وقفة مع موضوع اجتناب الله ليوسف من حيث بيان ماهية الاجتناب، والفرق بينه وبين الاصطفاء والتكليف، وهو أمر خرجنا به بخلاصة نعتقد أنّها مهمّة لم يقف عندها الآخرون من خلال إحالة الكثير من المفسرين الاجتناب على دلالة الاصطفاء مع أنّ كلّ منها غير الآخر كما بيّن البحث من علاقات ونتائج.

ولا شك أنّ حدث السّجن كان من الأحداث المهمّة في حياة يوسف صلّى الله عليه وسلّم إنساناً ونبياً رسولاً، وذلك لأنّه شكّل مثنوى كريم انطلق منه الرّسول يوسف إلى التبليغ بالرّسالة، وإلى التمكين في الأرض وما ترتّب عليه من إصلاح ذات البين مع إخوته، ثمّ إلحاق والديه به، وإقرار الجميع له بالنبوّة والرّسالة.

وبعد العرض التحليلي لمجمل القضايا الواردة في قصّة سيدنا يوسف أحببنا أن نقدّم القصّة بطريقة روائية رغبة منّا في مغايرة الأساليب من أجلّ أن نمنح القارئ فرصة أخرى للوقوف مع أحسن القصص والاستمتاع بالحسن البليغ لهذه القصّة التي تشع بالدروس والعبر.

ولا نقول إنّ البحث في قصّة يوسف اكتمل ببحثنا هذا، بل نقول موقنين: أنّ البحث ربّما يبدأ مع هذا البحث، وهذا ليس تشريفا لبحثنا ولكن استبصارا لغايتنا التي نأمل فيها أن يكون هذا البحث دعوة لبحوث أخرى لا تقتصر على السرد، وتذهب إلى التحليل المستند على الحجّة والمرتكز على المنطق للإتيان بالجديد، وهذا ليس له وجه مبالغة لا من قريب ولا من بعيد؛ فهذا القرآن لا تنفذ موارده؛ فهو كَلِمَاتِ رَبِّي تنفذ البحار ومثلها ولا تنفذ كَلِمَاتِ رَبِّي، {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} 14.

14 الكهف 109.

كَلِمَاتِ رَبِّي وَإِنْ كَانَتْ مَعْرُوفَةً فِي قِصَّةِ يُوسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَوْنَهَا اقْتَصَرَتْ عَلَى سُورَةِ وَاحِدَةٍ قَدَّمَ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ قِصَّةَ مُتَكَامِلَةٍ هِيَ بِحَقِّ مَنْ أَحْسَنَ الْقِصَصِ، إِلَّا أَنَّ الْكَلِمَاتِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَنْفَدَ لَا مِنْ حَيْثُ الْعَدَدِ، وَلَا مِنْ حَيْثُ الدَّلَالَةِ، فَنَحْنُ إِذْ نَعْتَقِدُ جَازِمِينَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامَ اللَّهِ، وَفِيهِ كَلِمَاتُهُ، نَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مَا هِيَ إِلَّا بِمَثَابَةِ الْأُمَّهَاتِ لِكَلِمَاتِ تَوْحِي بِهَا هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَتَدَلُّ عَلَيْهَا، وَلِذَلِكَ؛ فَالْقُرْآنُ لَا تَنْقُضِي عَجَائِبَهُ وَفِيهِ خَبْرٌ مَا قَبَلْنَا وَخَبَرْنَا وَخَبِرْنَا مَا بَعَدْنَا، وَلِذَلِكَ؛ فَهُوَ لَا يَنْفَدُ، وَلَا تَنْفَدُ كَلِمَاتُهُ.

وعليه: لقد كان يوسف صَلَّى الله عليه وسلم عالما بعلم المستقبل ومُنْبَأً به وعاملاً من أجلِّ تحقيقيه، فكان خير منفذٍ لرؤاه التي كانت من أجلِّ صناعة المستقبل الأفضل والأجود والآن فع، ولذا لم يكن يوسف صَلَّى الله عليه وسلم عالماً بعلم الغيب الذي هو بأمر الله إن شاءه كان متى ما شاء وكيفما يشاء وعلى يد من يشاء من الرُّسُلِ مصداقاً لقوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أُبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رَحْمَةً وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} 15.

وفي هذا الأمر يجوز أن يكون يوسف هو أحد الرُّسُلِ صلوات الله وسلامه عليهم الذين شاء لهم الله بالاطلاع على ما شاءه من علمه الذي هو علم غيب بالنسبة لمن لم يعلمه قبل تحقُّقه على أرض الواقع، ولهذا، كان يوسف خير مؤوِّل للرواء، وخير مفسر لما يُرى وخير منفذٍ لما رأى.

وبالرغم من كلِّ ما جرى على يوسف فقد آتاه الله الملك إيتاءً مصداقاً لقوله تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ

الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّيْ
مُسْلِمًا وَالْحَقَّيْنِ بِالصَّالِحِينَ {16}.

وبإيتائه ملكا من مُلك الله الواسع جعل يوسف على خزائن الأرض
التي هي تحت سيطرة ملك مصر مصداقا لقوله تعالى: { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى
خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا
حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } 17

وكذلك الملك الصالح يوهب وهبا كما وهب لسليمان صلى الله عليه
وسلم، مصداقا لقوله تعالى: { وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ ج
سَدًا ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي
إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ
وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ
أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } 18.

وعليه: فالشعوب التي من بينها سادة وعبيد (مالك ومملوك) هم
مُلك الملك الحق، ولذا فالملك الحق، هو الذي يملك المالك والمملوك، وأمر
التصرف فيهم، كجزئية من مُلكٍ عام لكل ما في السماوات والأرض،
ولهذا فإن الملك يملك الخليفة وما يمتلكه الخليفة من مال وثروة وقوة ومنافع
ومغانم وعلوم ومعارف، ويملك ما لم يتمكن الخليفة من معرفته، { وَسِعَ
كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } 19.

إنه الملك الواسع الذي وسع كل شيء خلقه سواء أكان الخليفة
متمكنا من معرفته أم لم يكن متمكنا من معرفته، إنه عالم الغيب والشهادة

16- يوسف 101.

17- يوسف 55، 56.

18 - ص 34 . 39.

19 - البقرة 255.

إنه الرحمن الرحيم، الذي له من الملك ما يرحم مخلوقاته دون استثناء، وله من الملك ما يعاقب به جميع مخلوقاته بدون استثناء، وله الحمد يعاقب من يشاء ويعفو ويتوب على من يشاء من عباده إنه الملك مالك الملك، ولذلك وسع كرسيه السماوات والأرض.

إذا الملك الحقيقي لله وحده لا يشركه فيه أحد وكل من ملك شيئا فإنما بتمليك مالك الملك تعالى الذي أتى ملكا من ملكه ليوسف صلى الله عليه وسلم وفقا لمشيئته عز وجل، ولذا، لا ملك إلا لله.

وعليه: فحقيقة الملك، إنما تتم بالعتاء والمنع والإهانة والإثابة والعقوبة والغضب والرضا والعزل مصداقا لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 20.

ولأن الأمر بيد الملك الحق فهو يؤتي الحكم لمن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، فهو يذل عزيزا ويشفي مريضا ويستر عورة وهكذا يداول الأيام بين الناس سبحانه.

ولأن الملك لله وحده فهو الذي يؤتي منه من يشاء ملكا كما أتى يوسف صلى الله عليه وسلم من ملكه ملكا، به تمكن في الأرض؛ {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ} 21، ولأنه هو مالك الملك الحق، إذن، يملك الحق في أن يؤتي منه ما شاء لمن يشاء من عباده الصالحين دون أي اعتراض على مشيئته.

الملك خير، والملك مالك الخير، وجاء على رأس الملك الخير: الحياة والممات والجنة والنار ويوم البعث العظيم؛ وجاء داخل الحياة والممات

20 - آل عمران 26.

21 - يوسف 56.

خيرات حسان، وجاء داخل الجنة والنار خيرات كثيرة، وجاء يوم البعث خير سرمدي. وبما أنّ الملك هو مالك الخير، إذا هو الذي بيده الملك، ومع أنّ الملك بيده، ولا تصرف فيه إلا بأمره، إلا أنّه جعلنا الوارثين {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} 22. العاقبة هي الأفعال المترتبة على ما تم فعله على الأرض، فإن كان عمل خير تكون العاقبة ثوابا، وإن كان عمل شر تكون العاقبة عقابا، ولأن، كلّ فعل يترتب على فعل، جاء التورث مترتبا على وجود الخليفة.

والسؤال الذي يُطرح مترتبا على ما سبق: كيف يكون الإنسان ملكا في الوقت الذي هو فيه عبدا لملك؟

وعليه قد أنعم الله المنعم على يوسف حتى اتصف بالمنعم عليه، مصداقا لقوله تعالى: (وَيُؤْتِي نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ)، أي بإتمام النعمة على يوسف تتم النعمة على آل يعقوب، وهذا يعني أنّ إتمام النعمة على يوسف نعمة في ذاتها على آل يعقوب من الله تعالى.

إذن؛ فالمنعم هو من بيده أمر النعمة وهو المتفضل على ما خلق بالخيرات والنعم التي لا تُحصى في الدارين، وهو مالك النعم والمتصرف فيها بالمطلق الكلّي والجزئي والمتجزئ، وهو الذي بيده الخير الذي كلّما أوتي نعمة منه تضاعفت نعمه.

ولذا فالمنعم هو المتمكن من إيتاء النعمة لمن هو في حاجة إليها سواء أكان مقدّرا لها ولمنعها أم كان غير مقدر لذلك فهو المنعم، قال

تعالى {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} 23.

والنعم هي كلّ ما فيه خير للمخلوقات هو نعمة سواء أكانت روحية (معنوية) أم مادية (تشغل حيزا ماديا)، ولذلك؛ فالمنعم هو الله الذي أنعم على كلّ ما خلق بما هم في حاجة إليه كي لا يكون فيهم ألما.

والمنعم من أسماء الله الحسنى وصفة تُظهر أفعاله الآن عامية على ما خلق مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} 24.

يفهم من الآية الكريمة السابقة أن من أعظم النعم طاعة الله والرّسول؛ فهي تجعل المطيع لهما على مراتب العليين من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

ولذلك؛ فالمنعم هو الذي أنعم على يوسف بما أنعم عليه به من تمام النعم، وهو الذي أنعم على جميع الأنبياء والرّسل الذين سبقوه والذين بُعثوا من بعده، وكذلك الصديقين والصالحين، وهو الذي أنعم على كلّ خلقه المقدرين لنعمه وغير المقدرين لها، الشاكرين والحامدين وكذلك الجاحدين والضالين عن الهداية والطاعة، ولكلّ حسابه ثوابا (جنة عرضها السماوات والأرض) أم عقابا (نار وقودها النَّاس والحجارة أعدت للكافرين).

ومن نعم المنعم نعمة بعث الآن ببياء مبشرين ومنذرين وفاعلين للخيرات ومحرضين على الحقّ وإتباعه قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا

23 - إبراهيم 7.

24 - النساء 69.

لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} 25. لقد جاء قول موسى صلى الله عليه وسلم لقومه مظهرًا للاعتراف بنعم المنعم عليهم وذلك ببعث الأنبياء فيهم وجعلهم ملوكًا وإبتائهم من النعم التي لم تؤت لأحدٍ من قبلهم من العالمين.

ومن نعم المنعم على خلقه أنه المؤلف للقلوب والمنقذ من المكائد والكروب، كما أنقذ يوسف من كيد إخوته وامرأة العزيز واللاتي قطعن أيديهن، قال تعالى: {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ} 26.

ولأنه المنعم فنعمة على خلقه لا تحصى ولا تعد، قال تعالى، {وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} 27، ولهذا، لم لا تُذكر نعم المنعم بالشكر والحمد له تعالى على ما أنعمه علينا من نعم وما تفضل به علينا من فضائل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} 28.

ولذا، ينبغي على الأقسام والأمم والشعوب التي أنعم المنعم عليها بالأنبياء والرسل أن يكونوا خير شاكر لأنعمه تعالى.

ولأن يوسف يعلم أنه مُمكن في الأرض بقوة وقدرة مطلقة من الله تعالى، وهو محيّرًا في الأرض التي اجتباها الله فيها نبيًا رسولا لأن يختار المكان

25- المائدة 20، 21.

26- يوسف 30، 32.

27- إبراهيم 34.

28- المائدة 11.

الذي يراه مناسباً له فيها حينها قال للملك أجعلني على خزائن الأرض فاجعله، قال تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ حَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} 29.

وعليه: فمن الذي ينبغي أن يُمكن في الأرض خليفة؟

كل من يستمد صفاته من صفات الله تعالى، ولذلك كان الآن بقاء على رأس المستخلفين فيها إصلاحاً وإعماراً.

ورد لفظ (خليفة) في النص القرآني في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 30 وكان ذلك ضمن سياق الآيات العظيمة التي كانت تمثل البداية الأولى للبشرية، فسماع هذه الآية يحيل إلى تشكلات مختلفة كانت تؤسس بداية البشرية ومن بين هذه التشكلات هي الخلافة، فقد وردت ضمن سياق قصة رسمت البداية الأولى في كل تفاصيلها، ومن بين هذه التفاصيل كانت الخلافة، وسياق الخطاب القرآني في هذه القصة اتسم بالتشريف لآدم عليه السلام، فهذا المخلوق شرفه الله تعالى وعرضه للملائكة بطريقة ارتسمت فيها عظمة الله تعالى وقدرته .

ويلاحظ أنّ لفظة الخليفة في النصّ القرآني وردت بصيغة التنكير التي تحمل دلالة الإطلاق المفتوح غير متحقق على اسم شخص بعينه، ولهذا كانت البداية لورود اسم الخليفة بداية لتشكّل نمط معرفي للصورة التي

29 - يوسف 55 . 57.

30 - البقرة 30.

يكون عليها النسق المراد تحقيقه في الأرض، ولهذا كان يوسف من المستخلفين الممكنين في الأرض حكما وعلمًا.

وفي سياق الآيات القرآنية جاءت قصة استخلاف آدم في الأرض، ومنحه مقاليدها على عهد من الله وشرط، وإعطائه المعرفة التي يعالج بها هذه الخلافة، كما أنها تمهد للحديث عن استخلاف بني إسرائيل في الأرض بعهد من الله؛ ثم أعطى مقاليدها للأمة المسلمة الوافية بعهد الله فتساق القصّة مع الجو الذي تساق فيه كلّ الاتساق³¹، إذ يقول تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }³². يلاحظ في الآية الكريمة أن صيغة الخطاب وان قصد بها بني إسرائيل إلا أنها تشمل عموم المؤمنين بالله وملائكته ورسوله.

وإيحاءات لفظية (خليفة) ترسم أبعادا مهمة لما سيتحقق في الأرض بعد خلق آدم صلى الله عليه وسلم، فمهمته لم تكن يسيرة وفق ما تلميه عليه لفظية (خليفة). كما أن الخلافة التي أرادها الله تبارك وتعالى لم تتوقف عنده بل استمرت وذلك من خلال الرسل الكرام صلى الله عليهم وسلم الذين بعثهم الله تعالى إلى أمم في أماكن وأزمان مختلفة، إذ يقول تعالى: { ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَى كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ }³³، واستمر هذا النسق إلى مبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فبمبعثه انقطعت الرسالات والنبوات فكان خاتما لها.

31 - في ظلال القرآن، ج 1، ص 27.

32 - البقرة 40.

33 - المؤمنون 44.

أما من حيث الخلافة فهي تسير كما نعتقد وفق صيغة مطابقة لاستمرار الرُّسل الذين من بينهم يوسف الذي مُكِّنَ في الأرض خليفة، وذلك في قوله تعالى (تَتْرَى) فهذه اللفظة ترسم صورة التابع المتحقِّق للرُّسل، لكن هذا التحقُّق ينتهي بخاتم الرُّسل والآن بياء نبينا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، أما الخلافة فلا تنتهي إلا بنهاية الحياة.

ولأنَّ يوسف نبيا ابن نبي؛ فلا مكابرة أن يستغفر؛ فاستغفر يوسف ربَّه ضمينا على ما حدث معه من قِبَل امرأة العزيز، قال تعالى: {قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي} 34، فقوله: (هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي) يعني ممَّا يعني: وكأنَّه يقول: استغفر الله أن أفعل مثل هذه الأفعال، ولكن هي التي راودتني ظلما وبهتاناً وأنا لم أكن كما هي تبلي، وفي هذه الحالة لم يكن استغفار يوسف على ذنب ارتكبه بل جاء ترسيخا تاما لإيمانه بالله تعالى، ولهذا كان يوسف مستغفرا ربَّه عمَّا ألمَّ به من امرأة العزيز، أي وكأنَّه يودُّ أن يقول: (استغفر الله أن ارتكب هذا الفعل).

ولذا، فالاستغفار ليس بالضرورة أن يكون مقتصرًا على ارتكاب ذنب، بل قد يكون تجنبا له وتيقُّنا بعدم ارتكابه، أي أنَّ استغفار يوسف ربَّه جاء تأكيدا لقوَّة إيمانه بأن لا يرتكب الخطيئة مع امرأة العزيز ولا غيرها. فاستغفار يوسف هو تعوُّد بالله من أن يرتكب هذا الفعل مع امرأة العزيز أو مع ما يماثله مع غيرها.

ونحن إذ نقوم بهذا العمل نرجو وجه الله، وندعوه التوفيق والسداد لكلماتنا التي استقينها من كلماته المعجزة إنَّه مولانا، فنعم المولى، ونعم النصير، وما التوفيق إلَّا من عند الله.

أ.د. عقيل حسين عقيل

يوسف

من وحي القرآن

يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلّاة والسّلام هو نبي كريم خصّه الله تعالى بصفات بها تميّز نبوءة وعلمها ومعرفة ودراية، فكانت رسالته عملية الاتجاه والمسلك، ففي تطلّعه للمستقبل نبيا رائدا، يتصرّف في دائرة الممكن بما يحفظ الثروة من التلف ويوقّي الناس من الشّح والحاجة إذا ما تعرضت البلاد إلى سنين عجاف كان متنبئا بها.

كانت له رؤية استقراء بها حال العلاقات بينه وبين أخوته وما سيؤول الأمر إليه بينهم حلا مرضيا في مرضاة الله عزّ وجلّ، وكذلك له رؤية بها استقراء حال البلاد والعباد وما سيؤول الأمر إليه حلا مرضيا طاعة لله تعالى.

تبدّت لنا شخصية يوسف في القرآن الكريم كما شاءها الله تعالى برؤيا منامية إيحائية كان مفسرّها والده يعقوب صلّى الله عليه وسلّم، وقد وُصفت قصّة يوسف من الله تعالى بأنها أحسن القصص في القرآن، مصداقا لقوله تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنَّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} 35.

قصّة يوسف لم تحدث في زمن محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولهذا فهي لم تُروى من قبله، بل جاءت تنزيلا في الكتاب العزيز من الله تعالى، إنّها الحقّ من الحقّ عزّ وجلّ، ولذا فنحن أوّل المسلمين بها.

في رؤيا يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تطابق عدد الكواكب فيها مع عدد إخوته، وهذا يدلّ على أنّ إخوته وإن كادوا له المكائد إلا أنّهم متميّزون في هذه الرؤيا من حيث المقام، فهم جميع هم كواكب ويدورون في فلك واحد ألا وهو فلك يعقوب ودائرة النبوة فيه، ومع أنّ مقام الكواكب عظيم إلا أنّ مقام سجود الشمس والقمر ليوسف كان هو الأعظم، خاصة وأن عددهما جاء متطابقا مع الاثنين العظيمين ليوسف (أبوه وأمه)، ولذلك؛ فسجود الأبوين للابن إن حدث؛ فهو لو لم يكن طاعة لأمر الله ما حدث خاصة وأن يعقوب نبي كريم، ولكن من وجهة نظر أخرى تتضح عند تحليل الآية الكريمة لاحقا، فقد لا يكون الأبوان قد سجدا ليوسف.

بعد أن رأى يوسف الرؤيا عرضها على أبيه يعقوب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، فطلب منه أبوه أن لا يقصص رؤياه على إخوته، الذين هم قادرون على عمل المكائد إنّ تدخلَ الشيطان بينهم، ولذا يتضمن قول يعقوب ليوسف الحرص كل الحرص على يوسف، مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} 36 فقلوه (لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ) هو قول الحريص (يعقوب) على ابنه يوسف من دون إخوته لأسباب معرفتها قد لا تكون غائبة عن نبوة يعقوب، أي لعلم يعقوب بما عليه أبنائه وبالنبوة التي بها هو مُمكّن من المعرفة الوافية، ولذلك جاء تفسير يعقوب لرؤيا يوسف على التمام كما فسّرها وهي المحمولة للدلالة والمعنى في القرآن الكريم.

الأخوة وأي أخوة يرون أنفسهم أمام بعضهم ووالديهم هم على التساوي، ولكن أن يحس البعض منهم بأن أحدهم مُفضّل أو مُميّز عند أبيه بما تميّز به أو مُميّز به من عند الله، فقد يتداركهم الشيطان بما يتداركهم

به فيجعل الفتنة تجلُّ بين الأخوة محل المحبة، ووفقا لهذا المبدأ جاءت المكائد ليوسف من أخوته والشيطان.

فيوسف يعد الصغير بالنسبة لأخوته باستثناء أخ منهم، فكيف يُعظَّم بما عَظَّم به من محبة أبيه ومحبة الله إليه، قال تعالى: {إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأُخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} 37 هذه المحبة جعلت أخوته أسمعهم في بعض الأحيان وكان بها وقرا يحيل بينها وبين ما يُسمع عن كلِّ جميل يقال أو يُفعل ليوسف، وفي البعض الآخر أسمعهم لأخباره تُصدِّعهم كثيرا وهم بما يصدِّعهم من عظيم لا يطيقون وبخاصة وأنَّ الشيطان كان أقرب إليهم من يوسف، ولأنَّه الأقرب إليهم فقد ضلهم ضلالا آخر، ألا وهو وصفهم لأبيهم بأنَّه في ضلال، (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

وعليه: كان تحذير يعقوب لأبنة يوسف في محله رؤية أخرى في رؤيا يوسف، ولهذا لقد تحققت الرؤيتان:

. تحققت رؤية يعقوب في كيد الإخوة، وكذلك في اجتهاء الله ليوسف وتعليمه تأويل الأحاديث وإتمام النعمة عليه وآله، مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 38.

ولأنَّ القرآن حقٌّ؛ فإنَّ ما جاء فيه عن يوسف ويعقوب هو ذلك الحقُّ الذي تحقَّق في زمنهما ونحن به مؤمنون، تصديقا تاما ومنه نأخذ العبر

³⁷ يوسف 8.

³⁸ يوسف 6.

في أبنائنا وإخوتنا وعلينا أن نتعظ ولا نضل ولا نطغى، ولا ننحاز لغير الحق فنشقى.

وعليه: لو سأل سائل:

هل هناك من يعتقد أنّ أبنائه سيكونون على علاقات وحسن معاملة واحترام لبعضهم بعضاً وأنهم سيكونون أفضل من أبناء النبي يعقوب صلى الله عليه وسلم (الأحد عشر كوكبا)؟

نقول:

في دائرة الممكن، كلّ شيء ممكن، ونأمل من الله حفظ أبنائنا على الحق والمنع من العيب والفتنة.

افتراءات على يوسف من إخوته وهو ممّا يُفترى عليه براء، فقولهم لأبيهم لقد أكله الذئب قولاً لا مصادق له، فهم الذين رموه في الحب اعتداءً وظلماً دون أسفٍ على ما فعلوا به، وهم الذين فكّروا في قتله قبل أن يُرمى في الحب، وهم الذين جاءوا لأبيهم بدم كذب، قال تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} 39، ولكن بالرغم من كذبهم فلم يصدقهم أبوهم (يعقوب) فيما قالوا (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)، وقوله (سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا) دليل يقيني على أنّهم كاذبون، ومع ذلك قبل يعقوب بأن تكون الفرصة المتاحة حُجّة دامغة لأقوابيلهم المفتراة على يوسف، أي وكأنّه يود أن يقول لهم سننتظر يوماً تُشخص فيه الحقيقة التي تجعلكم أمامي كاذبين.

39- يوسف 17، 18.

. تحققت رؤيا يوسف في سجود الكواكب له، مصداقا لقوله تعالى:
 {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ
 مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ
 بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ
 لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}40؛ فبعد أن رفع يوسف أبويه على
 العرش، بعدها سجد له إخوته عرفانا بأنه على الحق وهم عن للحق
 كارهون أي أن رفع يوسف لأبويه على العرش كان لهم استثناء من
 السجود إليه، أي وكأنهما الشاهدان على ما يجري بين يوسف وأخوته.

وفي قوله: {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي
 حَقًّا}41، وكأن المشهد يرسم لنا صورة التفات يوسف تجاه والديه وهو
 يخاطب أباه بما يجري أمام عينيه، ثم استمر في رواية القصة التي حدثت
 معه في زمن غيابه عن أبيه بقوله: (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ
 وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي
 لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ).

وعليه: قصة أكله الذئب والذئب لم يأكله، قصة ذكرتني بقصة ذلك
 الخروف الذي ذبح ليلا وأصبح بخير، ومن لم يعرف كيف ذبح الخروف
 ليلا وأصبح بخير، نقول:

"حضر الضيف إلى المدينة، واتصل بصديقه من الفندق ليبلغه
 بوصوله، فدعا الصديق المقيم صديقه الزائر إلى وجبة الغذاء ليوم الغد،
 وقرر ذبح الخروف الذي اشتراه يوم أمس لهذه الضيافة، وصدر قرار ذبح
 الخروف ليلا، على أن ينفذ صباحا لتتمكن الزوجة من إعداد وجبة الغذاء
 في وقتها المناسب، في هذه الحالة يعد الخروف مذبوحا وفقا لقرار ذبحه،

40 يوسف 100.

41 يوسف 100.

سواء بالنسبة إلى الخروف أو إلى مالكة، ولكن من الناحية التنفيذية لازال الخروف على قيد الحياة، وإن التنفيذ في حقيقته ما هو إلا تأكيد على اتخاذ القرار.

في الصباح الباكر اتصل الصديق الزائر بصديقه يعتذر له عن عدم حضوره وجبة الغذاء التي اتفقا عليها نتيجة ظروف طارئة اضطرته إلى المغادرة في الحال. فمع أنّ العقل قد قرر ذبح الخروف، إلا أن عالم الغيب تركه حيا، ولهذا ذبح الخروف ليلا وأصبح بخير نتيجة علم غيب وليس نتيجة محبة في الخروف"42.

ولذلك؛ فالذنب المتهم بأكل يوسف لو كان بشرا سويا لرفع قضية ج نائية على من اتهمه بما لم يفعله، ومع أنه لم يكن بشرا سويا وهو متهم بذنب عظيم إلا أنّ الله قد برّاه من ذلك الذنب الذي اتهم به وهو لم يقترفه، وذلك بأن جعل الله المتهمين له من الكاذبين، ومن وراء تبرئة الذنب لقد حفظ الله يوسف من كيدهم وما فعلوه به رميا في غيابات الجب، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾43.

ولقد كان الوارد الذي أدلى دلوه ذو حظ عظيم باستخراجه يوسف من الجب فكانت له البشرية بيوسف، ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾44، الذي استخرجه من الجب يبدو أنه من البدو المحتاجين،

42 - عقيل حسين عقيل، البستان الحلم، دار الحكمة، الطبعة الأولى، ص 138.

43 - يوسف 17. 19.

44 - يوسف 19.

ولذا كان مستبشرا ببيعه مما جعل هـ ومن معه ينوون من البدء ببيعه (وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً) ولذلك فكانت بشرى من أدلى دلوه واستخرجه وفقا لما يشبع حاجته أو يسهم في إشباعها، ومع أنه بشرى إلا أنه قد بيع بثمان بخس.

والثمان البخس لأن يوسف قيمته أعظم من أي قيمة (قيمه نبي كريم)، ولذا؛ فأى قيمة دفعت لشرائه هي ذلك الثمن البخس، أي أنّ يوسف صلى الله عليه وسلم لا ثمن له فلا يقارن بأي ثمن. الثمن للعبيد ويوسف لم يكن عبدا، بل نبيا كريما وابن نبي كريم عليهما الصلاة والسلام.

والبشرى أيضا كانت للذي اشتراه من مصر، مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا} 45، ولهذا؛ فإنّ يوسف بشرى خير لمن استخرجه من الجب ولن اشتراه.

ولأنه بشرى خير فقد مكّنه الله تعالى في الأرض تمكين مُلك وعلم ومجازاة فضل وإحسان، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} 46.

وباستقراء قصّة يوسف تتضح لنا صفات ثلاث من الجمال:

أ. جمال الفضائل الكريمة التي أعده الله عليها.

⁴⁵- يوسف 21.

⁴⁶- يوسف 21، 22.

ب . جمال خُلِقَ الذي جعله على بَيِّنَةٍ من أمره وما يدور من حوله
دون أن يخل بالقيم الحميدة والفضائل السامية.

ج . جمال خَلَقَ، الذي هو عليه من الحُسن والتقويم والرفعة.

إذن يوسف على خَلَقٍ عظيم وعلى خُلُقٍ عظيم، ومن هنا؛ فقد
كانت صفات الخلق في يوسف صفات تعظيم؛ فالخالق خلق الإنسان في
أحسن تقويم، مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ
تَقْوِيمٍ} 47 وعليه؛ فالخالق مصدر لكل خلق، فلو لم يكن الخالق ما كان
المخلوق، حيث لا شيء قبل الخلق إلا الخالق عزّ وجلّ.

الخالق هو المنشئ لما يشاء، أو المحدث لما لم يحدث من قبل، وهو
على كل شيء قدير. قال أبو بكر ابن الأنباري: "الخلق في كلام العرب
على وجهين: أحدهما الإنشاء على مثال أبدعه، والآخر التقدير" 48.

الخالق: هو "من يوجد الشيء على غير مثال سابق" 49.

الخالق: هو "الذي يقدر على الخلق وهو الذي يستحقّ
العبادة" 50.

الخالق عزّ وجلّ هو البادئ الذي لا سابق عليه، وهو المعيد لما
يخلق قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى

47 التين 4.

48 لسان العرب، ج 1، ص 889.

49 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 128.

50 كتب العقيدة، ج 1، ص 366.

اللَّهُ يَسِيرٌ قُلُوبَ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ
الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {51}.

الرؤية لا يقصد بها الرؤية البصرية بل يقصد بها الرؤية الإدراكية أي
الإيمانية حيث جاء الاستفسار أو الاستفهام بصيغة (أو لم يروا) عن
الكيفية التي بدأ الخلق عليها، ولذا فبالكيفية التي بدأ بها الخلق تتم الإعادة
بذات الكيفية. أي إذا أدركتم يقينا القدرة على الإبداء والإيجاد فإنكم
ستدركون القدرة الربانية على الإعادة. وبما أنه لا أحد ينكر النشأة الأولى،
فكيف إذن تُنكر النشأة الآخرة، فمثلما جاءت النشأة الأولى بالقوة وجوبا
تأتي النشأة الآخرة بالقوة ضرورةً. وهذه وفقا لقاعدة (لكل بداية نهاية).

ومن صفات الخالق الآتي:

أولا . المبدئ:

قال تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ {52}. بما أنه هو الواحد الأحد الذي لم يكن له مثل ولا
شريك في الملك ولم يلد ولم يولد فيكون هو المبدئ لما خُلق، ولذا فإن
البداية ليس به، بل البداية منه سبحانه وتعالى وهو على كل شيء قدير.
فالمبدئ هو الخالق الأول والآخر ولم يسبقه في الخلق أحد مصداقا لقوله
تعالى: {أَوَّلٌ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ} {53} كل المخلوقات في أساس
خلقها الإنشاء، وفي النشأة الأولى تحددت هيئات كل المخلوقات،
الإنسان والملائكة والجان والحيوان والجماد والنبات وبقية الكائنات الدقيقة
منها وغير الدقيقة. وفي ذلك قال تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ

⁵¹ العنكبوت، 19، 20.

⁵² الإخلاص، 1. 4.

⁵³ العنكبوت، 19.

وَمَا يُعِيدُ} 54 جاء الحقّ تعني جاء الكَلِم الصادق الذي لا يدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنه الحقّ الذي به زُهِق الباطل ولن يعود.

ثانيا . المعيد:

هو المبدئ الأول الذي بقوته خلق الأشياء وبقوته يعيدها إلى نشأتها الأولى، ولأنّ المبدئ هو الأوّل والآخر، فلا وجود لغيره لأن يعيد ما بدأ إلى حالته الأولى. قال تعالى: {أَوْ خَلَقْنَا مَا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا} 55. الذي فطركم أول مرة هو الذي سيعيدكم إلى الحالة التي كنتم عليها قبل أن تكونوا خلقا، ومع ذلك فإن الكافرين مستهزئين بما سمعوا، وذلك بقولهم وهم يهزون رؤوسهم (متى هو؟) ولأنه يقينا وليس كما يظنون قال: (قل عسى أن يكون قريب) أي قل لهم يا محمد لعله يكون قريبا، حيث علم الساعة لا يعلمه إلا هو، وكلمة عسى تدل على أن العود سيكون في الزمن المفاجئ، وحتى لا تضيع الفرصة فعليكم بالإيمان قبل أن تحدث المفاجأة وحينها لا ينفع الندم.

قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} 56. جعل الله تعالى الإعادة كالإبداء في الإلزام بما لظهور برهانها في قوله: (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أي بطبيعة الحال من يبدئ الخلق يعيده، ولا يمكن أن يكون لآخر المقدره على هذين الأمرين إلا الذي خلقهما وجبر العلاقة بينهما. ولذا فإن كل مخلوق يعود للشيء الذي خلق منه. الإنسان يعود للتراب وهو الشيء الذي خلق منه، والملائكة يعودون للنور وهو الشيء الذي خلقوا منه، والجان يعود إلى

54 سبأ، 49.

55 الإسراء، 51.

56 يونس، 34.

النار وهي الشيء الذي خُلق منه. وهكذا كل مخلوق يعود لطينته أي لأصله الأول قبل أن يصبح مُركَّباً من مجموع العناصر المتكون منها أو المركب منها، وفي النهاية يعود الكون إلى الشيء الذي خلق منه وهو الذرة.

في علم الفيزياء اثبت العلماء الروس أن أساس الخلق ذرة ثم حدث لها الانفجار العظيم فامتدت على امتداد الكون كله، وأثبتوا أيضا أن الذرة لا بدّ وأن تعود ذرة مرة أخرى وهي النهاية. والقرآن الكريم سابق على ذلك بقوله تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} 57 وقوله عزّ وجلّ: {أَوَّلَ مَا خَلَقْنَا نَارًا تَلْهُمُ الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَخْتَصِمُ لَكُمْ لِأَمْرِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} 58.

ثالثا . المبعث:

المحيي بعد الممات مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} 59 يقال نزلت هذه الآية في السبعين الذين اختارهم موسى عليه الصلّاة والسّلام حيث قالوا له: (لن نؤمن بك حتى نرى الله جهرة) ولأن الله تعالى لم يكن له شكل ولا هيئة من الهيئات المخلوقة كما هم يتوقعون فهو لا يمكن أن يخضع للرؤية المباشرة، ولأنه الأعظم فلن تكون لهم القوّة المميّنة من اختراق قوته ليروه سبحانه وتعالى عمّا يصفون، وبطلبهم هذا كانت لهم الصاعقة الإجابة القاطعة على تساؤلهم بأنّه مالك الأمر والقوّة التي لا تساويها قوّة، وذلك ليتيقنوا بأنّه

57 الأنبياء، 104.

58 الرعد، 41.

59 البقرة، 56.

الحقّ ووجوده حقّ. ثم نُشروا من بعد موتهم أحياء وهذه الآية معجزة لهم
لعلهم يتذكرون مطلبهم وما جاءتهم من إجابة ليؤمنوا من بعد كفرهم. قال
النحاس: "أنه الاحتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش، واحتجاج
على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا"60

والبعث هو النشور. قال تعالى: {يَأْيُهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ
الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ
وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ
نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُؤَهُ أَشْدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ
الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِمَّن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا
الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ
يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ
اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ}61. إن كنتم في ريب تعني: إن كنتم في شك،
فعليكم أن تتذكروا أحوال السابقين وقصصهم التي قصصناها عليكم لتعرفوا
أسرار الخلق بداية ونهاية وبعثًا. وإن كنتم في شك فعليكم بالتذكر حتى
تيقنوا أنكم من تراب، وما المراحل الخلقية التي تمرّون بها إلا دليل شاهد
على خلقنا وقدرتنا على الخلق في كل مرحلة من مراحل النمو الخلقية.
وبأنّ الخالق عزّ وجلّ هو القادر على الخلق فهو بطبيعة الحال هو القادر
على البعث من جديد.

الخالق هو المحيي، أي: أنّه الذي يبعث الروح فيما يخلق، ولهذا كل
شيء يُسَبِّح بحمده. ولأنه المحيي فهو يحيي المخلوق في نشأته الأولى، ثم
يحييه بعد موته من جديد في نشأته الأخرى. ولذا فمن يؤمن بأنّ الله هو
المحيي فعليه أن يؤمن بأنّه المميت، وبما أنه المميت فإنّه يقدر على الإحياء

60 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الأول، ص 404.

61 الحج، 5. 7.

من جديد. وعلينا أن نؤمن فلو كان الإحياء من المستحيل لكان في الأزل ليس بخالق.

قال تعالى: {وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا} 62. الفرق كبير بين قول المؤمن الذي تمسك باستخلافه في الأرض وبين قول الكافر الذي تخلى عما كان يُراد له أن يكون عليه، فبعسى رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن بوجوده كما آمن بموته الذي لم يأتيه بعد عندما قال ما ورد في الآية السابقة، وآمن بأنه سيُبعث حيا من جديد مثلما خلق أول مرة. فالذي يُؤمن بربه الخلاق يُسلم بما يقوله حتى يراه يقينا، والذي لم يؤمن سيظل في حياته في شك حتى يأتيه يوم الحساب.

رابعا. المحاسب:

قال تعالى: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} 63 إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ: إِنَّ إِلَيْنَا رجوعهم، فإلى الخالق يرجعون للمحاسبة على ما فعلوا في الحياة الدنيا، فإن كانوا من الخلفاء الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا وفقا لما أمر ونهى فسيجازون الجزاء الأوفى وهو دخول الجنة. وإن كانوا من الذين وصفوا الله بما لم يصف نفسه به فسيلقون آثاما وسيكونون حطبا في نار جهنم.

المحاسبة حق حتى تُجزى كل نفس بما كسبت، {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} 64 فالיום يقصد به اليوم الآخر الذي يختلف عن يوم النشأة الأولى، أي أنه اليوم الذي تجاز فيه الأنفس على ما قدمت لنفسها في يومها الأول، الذي أعطي للجميع

62 مريم، 33.

63 الغاشية، 25، 26.

64 غافر، 17.

فرصة لأن يؤمنوا ولا يشركوا ويُصلحوا ولا يُفسدوا، فإن فعلوا خيرا يكون جزاءهم خيرا، وإن فعلوا شرا يكون جزاؤهم العذاب الشديد. وفي هذا اليوم لا يجد الظلم مكانا له، حيث لا سلطان للعباد في شيء كما هو حال يومهم الأول الذي يحكم فيه بعضهم البعض وفيه يظلم العباد بعضهم بعضا، بل السلطان في اليوم الآخر لله الواحد القهار {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} 65.

قال تعالى: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (51) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} 66 الجزاء وفقا لما عملت كل نفس ذنبا أو إحسانا. فالجزاء دائما ليس إثابة، بل الجزاء حساب على ارتكاب أفعال سواء كانت أفعال خير لتنال الأجر الكبير وهو دخول الجنة، أو كانت أفعال إثم وشر لتنال العقاب الشديد وهو الدخول مع أهل النار.

قال تعالى: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ} 67. في هذه الآية عامل الزمن يعد ضرورة للتذكر والتفكير، وإلا ستحدث المفاجأة بقيام الساعة، {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} 68. فالذين يؤمنون يعلمون أن الساعة حق، ويعلمون أن علمها عند رب العلمين، ولأنهم مشفقون منها فهم يتسابقون على فعل الخيرات، أما أولئك الكفرة الفجرة والذين لم يؤمنوا

⁶⁵ غافر، 16.

⁶⁶ إبراهيم، 51.

⁶⁷ الأنبياء، 1.

⁶⁸ الشورى، 17، 18.

كما يُراد لهم أن يؤمنوا فإنهم يستعجلون بها استهزاء دون مخافة، ممّا يضاعف لهم العذاب الشديد.

خامسا . المبقي:

المبقي هو الدائم بالحياة الدائمة، أي بعد الخلق الأوّل في الحياة الدنيا يكون الموت نهاية لفترة من الحياة والعمل سالبه وموجبه، ومن بعد الموت تأتي النشأة الثانية وهي العودة للحياة التي فيها يحاسب الإنسان على أقواله وأفعاله سالبها وموجبها، إلى أن يجازى بإحدى الشيئين الجنة أو النار. وفي اليوم الآخر تكون الحياة السرمدية هي الحيوان التي لا مكان فيها للموت. قال تعالى: { وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } 69. وقال عزّ وجلّ: { بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأُنْبِئِي } 70.

الخالق هو الأوّل والآخر الذي خلق الموت والحياة { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } 71، ولأنّه الأوّل والآخر فهو الذي يحيي ويميت، ولهذا فالموت مخلوق مثلما الحياة مخلوقة، إلا أنّ في البداية الموت يغالب الحياة، وفي النهاية لا بدّ للموت من أن يموت حيث كل مخلوق لا بدّ له من الزوال، ولا يبقى إلا وجه ربّك ذو الجلال والإكرام. ويموت الموت يُبعث النّاس من جديد، وحينها يكونوا أحياء والموت لم يكن كذلك. وعندما يُعدم الموت إذ تصبح الحياة هي الدائمة بقوة المبقي الدائم. ولذلك من حيث الخلق يمر الوجود بالآتي:

⁶⁹ العنكبوت، 64.

⁷⁰ الأعلى، 16، 17.

⁷¹ هود، 7.

1 . خلق الحياة المؤقتة: الحياة الدنيا مؤقتة فهي التي تمتد من الخلق حتى الموت.

2 . الموت المؤقت: وهو الذي يمتد من ساعة الموت إلى ساعة البعث.

3 . موت الحياة المؤقت: وهو النهاية لكل حي مع عدم إضافة الجديد.

4 . موت الموت الدائم: وهو القضاء على الموت نهاية.

5 . خلق الحياة الباقية: وهي الحياة الممتدة بلا نهاية.

وعليه فإنّ النهاية هي الإبقاء على الحياة وليس الإبقاء على الموت، ولهذا الحياة الدنيا ما هي إلا متاع الغرور {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} 72. ولذا ينبغي أن لا تغرنكم الحياة الدنيا، مصداقا لقوله تعالى: {فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ} 73.

الخالق هو البادئ لكل شيء ولا شيء بادئ عليه، وهو السابق لكل شيء ولا شيء سابق عليه، وهو المعيد لكل ما بدأ حتى البقاء الدائم في الحياة الحيوان. {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 74. كيف يبدئ الله الخلق تعني كيف يظهره للوجود ثم يعيده للحالة التي كان عليها، ثم يعيده مرة أخرى ظاهرا للإدراك والملاحظة والمشاهدة. والخليفة هو المؤمن بما يعلم إدراكا وليس فقط مؤمنا بما يرى، فلو كان الأمر كذلك لكان غير مؤمن بالخالق الذي

72 آل عمران، 185.

73 لقمان، 33.

74 العنكبوت، 19، 20.

يرانا ولا نراه. ولذلك فإن الخالق هو الأول وهو الآخر الذي له ملك
السموات والأرض وهو على كل شيء قدير {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ
وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 75.

في هاتين الآيتين الكريمتين تتمركز أفعال الخالق في الصفات الآتية:

1 . ملك السموات والأرض: وهذه تعني أنه مالك كل شيء.

2 . يحيي ويميت: وهذه تعني أنه فعّال لما يريد.

3 . قادر على كل شيء: وهذه تعني أنه خلاق المستحيل.

4 . هو الأول والآخر: لا يتعدد، فليس له سابق ولا لاحق.

5 . هو الظاهر والباطن: ندركه يقينا ونرى آياته ولا نراه وهو يرانا.

6 . إنه بكل شيء عليم: إنه مصدر الأمر والنهي سبحانه.

وعليه فإن الخالق الأول هو خالق الشيء، والشيء نكرة ومصدر

ويتعدد.

نكرة: لأنه غير محدد، ولذا فإن الخالق يخلق كل شيء، كما يشاء

وكيفما يشاء، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 76.

ومصدرا: لأنه أصل لأشياء استمدت منه. {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ

مِنْ تُرَابٍ} 77. والتراب هو الشيء الذي خلق منه آدم.

75 الحديد، 2، 3.

76 البقرة، 20.

77 الروم، 20.

ويتعدد: لأنه يتجزأ من الكل إلى المتجزئ منه. {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ} 78. التراب شيء، والنطفة شيء ثاني، والعلقة شيء ثالث، وهكذا تتعدد الأشياء، فالشمس شيء، وهي مصدر لأشياء أخرى تتعدد، والنجوم أشياء تتعدد، والنور شيء خلق منه شيء آخر وهو الملائكة الكرام، والنار شيء وهي مصدر لخلق الشيطان الذي نستعيد بالله منه في كل حين.

أما الخالق بالإضافة فهو الذي يخلق من الشيء الذي خلقه الله أشياء متعددة ومتنوعة. فيخلق من التراب صناعة، ويخلق بالصناعة ما يُسهم في إشباع حاجاته المتعددة والمتنوعة والمتطورة. وهو الذي بخلقه يُستخلف في الأرض إصلاحا وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. فالخالق بالإضافة هو الخليفة الذي يعلم أنه لن يخلق الشيء المصدر، ويعلم أن ذلك ليس في نطاق مقدرته، وذلك لعلمه أنها من خاصية الخالق المطلق. ويُسلّم بأن الأشياء التي خلقت من أجله ينبغي عليه أن يستمد منها ما يفيد في حياته الأولى دون أن يكون على حساب حياته الآخرة.

والخالق بالإضافة له صفتان: مصداقا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} 79.

الصفة الأولى إصلاحية:

قال تعالى: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} 80. مع أن الخالق خصّ المؤمنين بورثة الأرض إلا أن المستهدف هو العموم حيث أبواب الإيمان مفتحة لمن يريد أن يؤمن، ومع ذلك فكان الاستدراك الضمني لعل

78 غافر، 67.

79 البقرة، 220.

80 الأنبياء، 105.

البعض لا يؤمن، ممّا جعل أمر التخصيص متعلقاً بمن يؤمن، ولذا قال نبي الله شعيب صلى الله عليه وسلم في كتابه عزّ وجلّ: { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } 81. ما ينهى عنه نبي الله شعيب لا لأن يتركه المنهيون عنه من قومه لينفرد به وحده دون غيره، بل ما يريده تبيان الحق من الباطل ليكف قومه عن الباطل ويتمسكوا بالحقّ قولاً وعملاً. يوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا يبخسوا الناس أشياءهم، فيعدلوا ولا يفسدوا في الأرض مصداقاً لقوله تعالى: { وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } 82.

والصفة الثانية إفسادية:

والصفة الإفسادية، أن يخلق الإنسان ما يؤدّي إلى إفساد الحرث والنسل قال تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ } 83. هؤلاء ومن هم على شاكلتهم يقولون ما لا يفعلون ويظهرون ما لا يُطنون، وهؤلاء هم الذين تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى { تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ } 84. هؤلاء هم المفسدون في الأرض الذين نهى الخالق عن طاعة

⁸¹ هود، 88.

⁸² الأعراف، 85.

⁸³ البقرة، 204 . 206.

⁸⁴ الحشر، 14.

أمرهم وما يفعلون {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ} 85.

قال تعالى: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا
يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ
أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا
ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ} 86. يقال كان في مدينة الحجر تسعة من رؤساء القوم المفسدين
الذين أقرروا عقر ناقة صالح عليه الصلاة والسلام، وبطغيانهم في الأرض
أفسدوا القيم الأخلاقية التي بها تعمر الأرض وتصلح الأحوال ويُقوِّم
السلوك، فكانوا يمحرون بقوم صالح، وأقسموا على الفساد دون الإصلاح،
وأقسموا أن لا يعترفوا بذنب يرتكبونه. وبعد أن أخبرهم صالح صلى الله
عليه وسلم بمجيء العذاب اتفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح عليه
الصلاة والسلام ليلا ويقتلوه وأهله المختصين به. قال ابن العباس: أرسل
الله الملائكة تلك الليلة، فامتألت بهم دار صالح، وعندما جاء التسعة
المفسدين تكفل الملائكة بهم رميا بالحجارة حيث هم يرون الحجارة
تتساقط عليهم ولا يرون من يرميها. ويقول السدي: "نزلوا على جرف من
الأرض فاتحار بهم فأهلكهم الله تحته" 87. وهناك أقوال أخرى كثيرة منها
من قال: أنهم اختفوا في غار بقرب دار صالح صلى الله عليه وسلم حيث
سقطت عليهم صخرة أهدم جميعا، وهناك من يقول إن هلاك الكل كان

⁸⁵ الشعراء، 151، 152.

⁸⁶ النمل، 48، 53.

⁸⁷ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثالث عشر، 216، 217.

بصيحة جبريل، وهناك من يقول أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد والله أعلم⁸⁸.

ولأنّ الله عزّ وجلّ هو الخالق، فهوى الذي خلق النشأة الثانية مثلما خلق النشأة الأولى، {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}89. النشأة الأولى من غير سابق، وهي نشأة الشيء المصدر، والنشأة الثانية نشأة لاحقة للنشأة الأولى، أي أنّ النشأة الأولى هي نشأة الشيء من لا شيء. أمّا النشأة الثانية هي: نشأة الشيء من الشيء. ممّا جعل النشأة الأولى تأسيس وبناء، والنشأة الثانية إعادة بناء. وكلا النشأتين مؤسستين على الأمر (كن)، كن من لا شيء فكانت الأولى، وكن من الشيء، فكانت الثانية. وفي الآية السابقة قال تعالى (النشأة الآخرة) ولم يقل (النشأة الأخرى) ممّا يدل على أنّها النشأة الدائمة لمن بُعث في الحياة الحيوان. قال تعالى: {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}90.

ولأنّ الله تعالى هو الخالق بالمطلق الأوّل والآخر، وهو القادر على كل شيء، فهو بذاته العلية لم يتوقف عن الخلق، يُحيي ويميت، ولهذا فإنّ النشأة الأولى لم تتوقف ونحن لم نؤت من العلم إلا قليلاً، لذا كلما تمكّنا من التقدم العلمي، تعرفنا على الجديد وأضفناه لمعارفنا، ولذلك فالمؤمن يُدرك أنّ الخالق لن يتوقف عن الخلق، بل أنّه في الخلق يزيد، ويدرك أنه لن يتمكن من الاطلاع على كل ما خلق، فعقولنا ذات الحيز المحدود لا تسع معرفة ما خلق الله. وعليه لو يدرك الإنسان ذلك ليس له بدا إلا أن يؤمن بالخالق العظيم الذي قال في كتابه العزيز: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ

⁸⁸ المصدر السابق، 217.

⁸⁹ العنكبوت، 20.

⁹⁰ مريم، 9.

مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا
الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا
آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ {91.

خالق الشيء قادر على هديه وإزالته وإعادة بنائه من جديد سواء
على الكيفية التي كان عليها أو على كيفية أفضل، ونحن نعتقد أنّ النشأة
الأخرى التي سنكون عليها هي أفضل مما نحن عليه الآن، ولذلك يترتب
على كل شيء مترتب، فلوا عُدنَا لما كُنَّا عليه ستكون الأطماع والخيانة
ملازمة لنا، ويكون الظلم والنزاع والخصام والجوع والعطش والزنى بصحبتنا
أيما نكون، وإن سلّمنا بذلك نسلم بأنّ الوعد الذي وعدنا الخالق به لن
يتحقق؛ قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا
مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ
بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ {92، في وعد الخالق لنا أنّ نكون من
أهل الجنة إن كنّا من المصلحين في الأرض، وإن لم نكن فلن نستخلف في
الأرض ولا نرث من بعدها الجنة، (اللهم أحفظنا ممّا يُبعدنا عنها ومكنا ممّا
يُدخلنا فيها). قال تعالى: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ
فِيهَا وَلَا تَضْحَى {93 أي أنّ الإشباع والريّ والسترة الراقية في الجنة من
غير اكتساب وسعي أو كدٍ ومعاناة، إنّها دار الوفرة ودار الإباحة المطلقة
بكل خير وحلال ونعيم. قال تعالى: {وَجَنَّاتٍ هُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ {94
قال: (جناتٍ) ولم يقل (جنة) ويعني بالنعيم المقيم النعيم الدائم الذي لم
يتغير، أي أنّ الجنات تتعدد بتعدد الوفرة المتنوعة فيها، وأنّ النعيم الذي
يملاّ الجنة لا ينقص وطعمه لذيد. إنه الوعد الدائم بالجنة الدائمة.

⁹¹ المؤمنون، 14.

⁹² الأعراف، 44.

⁹³ طه، 118.

⁹⁴ التوبة، 21.

قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ أَهْتَمَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} 95 في هذه الآيات يُظهر الله القوّة الإعجازية المبطلّة لكل افتراء أو ادعاء بغير حقّ، وإلا هل هناك من يقدر على بدأ الخلق وإعادة غير الخالق عزّ وجلّ؟ أنه وحده القادر على خلق الشيء، والقادر على هداية الحقّ. أما الخالق بالإضافة فهو الذي يخلق من الشيء أشياء، ولا يقدر على هداية الحقّ إلا بالإيمان به وإتباعه.

قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} 96 القاعدة تقول: (الخالق يتصرّف ويتحكم فيما خلق) ولهذا فالخالق على كل شيء وكيل، أي مسيطر ومتحكم ومتصرف بالقوّة. ولأننا خلقنا من خلقه، فهو المتحكم فينا ونحن بإيماننا نطيع. أمّا نحن الذين نخلق أشياء متعددة من الشيء الذي خلقنا منه الخالق تعالى أو خلقه لنا، فإننا أيضا نسيطر عليها ونتحكم فيها ولكنها لا تطيعنا كما نحن نطيع خالقنا بإيمان. وفوق ذلك مع أنّنا نسيطر ونتحكم فيها إلا أنّها في بعض الأحيان تفاجئنا فتنفجر في وجوهنا حتى تأكلها أو تقضي علينا، وفي هذا الأمر لا تجوز المقارنة مع الخالق الأعظم الذي يتحكم ويسيطر على كل شيء دون أن تحدث المفاجأة. سبحانه لا إله إلا هو.

في الآية السابقة، الله خالق كل شيء جاءت مطلقة، ولذا فإنّ الشيء المطلق لا يخلقه إلا الله، أمّا الشيء النسبي فيخلقه المخلوق المتصف

⁹⁵ يونس، 34 . 36.

⁹⁶ الزمر، 62.

بصفة الخلق من الخالق المطلق، ولذلك فإنَّ أيَّ شيء هو من خلق الله،
وإلا هل هناك من يخلق الشيء؟

الشيء لا يخلقه إلا الله، ولهذا فالشيء في ذاته غير محدد، وإذا
حُدّد أصبح للشيء مسمى كالأرض والقمر والشمس والروح والجن
والإنس وهكذا تتعدد الأشياء بمسمياتها، واصل الأشياء واحد في فعل
الأمر (كن).

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ
السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 97، وهذا يعني أنَّ
ما خُلِق في الأرض من حيوان وطيور وسمك ونبات هو لنا نحن بني
الإنسان، قال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ
قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} 98. والمعاش هي الأشياء التي يمكن استثمارها من
قَبْل من جُعِلت له فيما يعود عليه بالنفع ويشبع حاجاته المتطورة والمتنوعة.
ومن هذه الأشياء يمكنه أن يصنع أشياء تحميه من البرد والحرور ومن
الاعتداء عليه بغير حق، ومنها يكتشف علما وتقنية ليطوّر نفسه بما يُمكنه
من أن يكون خليفة للخالق الأعظم. ولهذا خلق لنا الخالق ما في الأرض
جميعا من كنوز إن استثمرت فيما يفيد صلحت الأرض بالفعل
الاستثماري، وإن استغلت فيما لا يفيد فسدت الأرض بالفعل
الاستغلالي.

وعليه فللخالق صفتان:

الأولى الصفة المطلقة وهي الصفة الإعجازية (صفة خلق الشيء من
لا شيء) وهذه صفة لله تعالى وهي تحتوي صفتين:

⁹⁷ البقرة، 29.

⁹⁸ الأعراف، 10.

1 . خلق الشيء المصدر كالأرض والهواء والنور والنار. وفي ذلك قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} 99 وقال عز وجل: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} 100، وقال: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ حَبِيرًا} 101، وقال تعالى: {وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ} 102. كل هذه المخلوقات التي وردت في الآيات السابقة هي أشياء متعددة: فالسماوات شيء والأرض شيء، وما بين السماوات والأرض أشياء، الظلمات والنور، والليل والنهار، والشمس والقمر، وهكذا تتعدد الأشياء فالجان شيء والمارج الذي خلق منه الجان شيء ثاني، والنار التي خلق منها المارج شيء آخر. فالحمد لله رب العالمين خالق الشيء، وخالق منه الأشياء.

2 . خلق الشيء المستمد من المصدر. كخلق آدم من تراب، وخلق الجان من نار وخلق الملائكة من نور، وفي هذا الخلق الإعجازي تندمج الروح والمادة في وحدة واحدة متكاملة في الحركة والسكون. قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} 103.

هذه الصفة صفة اندماجية فأدم خُلق من تراب ثم دُمجت الروح فيه أو جُبرت، فأصبح على ما أصبح عليه وهو (في أحسن تقويم)، وهكذا

99 الأنعام، 1.

100 الأنبياء، 33.

101 الفرقان، 59.

102 الرحمن، 15.

103 الإسراء، 85.

بقية الكائنات الحية مادة وروح. ولذا فإنّ خلق المادة مع الروح أو خلق الروح منفردة خاصة إلهية.

والثانية الصفة النسبية: وهي خلق الشيء من الشيء المحسوس، وهي الصفة التي يتصف بها الإنسان لخلقه أشياء لم تكن هي كما هي لو لم يقوم بعلمه الذي أظهره الخلاق تعالى عليه ما خلقها (صنعها) كالسيارة والتلفاز وجهاز الحاسوب والمراكب في البحار والمحيطات والعدسة والمجهر وغيرها كثير وهذه وغيرها من إبداعات الإنسان وقدراته الخلاقية هي من تراب أي من مجموع المعادن التي أشار بها الله تعالى على الإنسان حتى يكتشفها ويخلق منها ما يُمكنه من ركوب البر والبحر والطيران في آفاق السماء حتى تَمَكَّنَ من بلوغ مسارات كواكبها ونجومها بالعلم الذي بشأنه قال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ} 104. أي بالرغم ممّا وصل إليه عقل الخالق بالإضافة فهو لم يصل إلا للقليل العلمي. ولأنّ الله تعالى جعل في الأرض خليفة فإنه يُريده أن يبلغ من العلم الذي يُمكنه من الإصلاح في الأرض، ولهذا قال عزّ وجلّ: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} 105

ولأنّ الخليفة يؤمن بأنّ الخالق المطلق هو مصدر العلم التام والكامل استجاب إيماناً بقوله (ربّ زدني علماً) ليستجيب له الرّحمن بقوله تعالى: {الرّحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان} 106. وبهذه الأسباب يرفع الله البعض درجات وفوق كل ذي علم عليم {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} 107.

والخالق بالإضافة يمكن أن تكون له إحدى الصفتين الآتيتين:

104 الإسراء، 85.

105 طه، 114.

106 الرحمن، 3.

107 يوسف، 76.

1 . الصفة الإصلاحية: هي الصفة التي بها تعمر الأرض ولا تفسد. وهذه لا تتم إلا بأفعال الخليفة الذي يؤمن بأهمية الإصلاح ويعتبرها من مهامه الرئيسية. وهؤلاء هم الذين يسعون في الأرض إصلاحاً.

2 . الصفة الإفسادية: هي التي بها تفسد العلاقات بين الخلق ولا تعمر الأرض، وهذه لا تتم إلا بأفعال الآبقين الذين يظنون ظن الجاهلية. وهؤلاء ومن هم على مثلهم هم الذين يسعون في الأرض فساداً.

قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} 108. اللغوب: التعب والإعياء. قال قتادة والكلبي: "هذه الآية نزلت في يهود المدينة؛ زعموا أن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، فجعلوه راحة، فأكذبهم الله تعالى في ذلك" 109 بقوله عز وجل: {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} 110. المعني بالآية (فاصبر على ما يقولون) هو الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي أراد منه الله تعالى أن يتعبّد ويذكر ربّه في أوقات الدعاء المفضلة وهي: قبل الشروق وقبل الغروب وفي الليل وعند أدبار السجود. وهذه لا تخص النبي الكريم فقط، بل هي الباب المفتوح لمن يريد الدخول منه إلى أماكن الرقي التي بها يُستخلف الإنسان في الأرض حتى يرث الجنة من بعدها.

الخالق في كل برهة وثانية يخلق ما لم نستطع إحصاءه، فنحن بني البشر كنا آدم وحواء فقط، ثم أصبحنا المليارات ومع الحركة والزمان نتصل ونزيد، وهكذا من كل كائن حي خلق الزوجين للزيادة إلى النهاية التي لا

108 ق، 38.

109 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء السابع عشر، ص 24.

110 ق، 39، 40.

يعلمها إلا هو. ولهذا لن يُصَدِّقَ أحدٍ من عباده المستخلفين في الأرض ما ادعى به يهود المدينة، بأن الله خلق كل شيء في ستة أيام ثم استراح من التعب والإعياء. المواليد من جميع المخلوقات تُخلق في الأرحام وتخرج للوجود من بشر وحيوان وكائنات قابلة للمشاهدة وأخرى غير قابلة لذلك بالأعين المجردة، مثل الفيروسات المعروفة ممَّا خلق وغير المعروفة، ولهذا تنتشر الأمراض بيننا والكائنات الأخرى والعلم يلاحقها ليقى ويشفي المصابين.

قال تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} 111 أي بما أنه خلق السماوات التي عرفناها ولم نعرفها: عرفناها بمعرفتنا للسماء التي قد عرفناها هي كما هي في علوها عن الأرض، ولم نعرفها لأنها لم تكن سماء واحدة مصداقا لقوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} 112. فنحن نعلم علم اليقين بأنها سبع سماوات ولكننا لا نعلم علمها. فالسماوات ليست فراغ بل هي امتلاء فيها ما خلق ممَّا خلق وسيكون فيها وفي كل ما خلق ممَّا سيخلق. أنه الخالق الدائم، أي الذي خلقه لا ينقطع ولا يتوقف، وهو الخالق بالأمر (كن) وليس ببذل الجهد الذي توقعه يهود المدينة. في توقعهم هذا هم يظنون كل شيء بمقارنة مع ما يستطيعون القيام به. ولذا فإنهم يضعون الخالق عزَّ وجلَّ في موضع المقارنة مع ما خلق، وفي هذا الأمر معصية كلما سمع بها المؤمن استغفر الله على ما يقولون وحمد ربَّه تعالى على نعمة الإيمان.

111 ياسين، 81.

112 الإسراء، 44.

إذن الخالق الذي خلق سبع سماوات والأرض، لم يقف عند هذا الحد، ولهذا قال: (بقادرٍ على أن يخلق مثلهم) أي بقادر على أن يخلق سماوات وأراضٍ أخرى، وهذا يعني أن خلقه غير منقطع (متصل لا منفصل). فنحن نعلم أنه خلق سبع سماوات وسبع أراضٍ مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} 113. ونحن حتى على مستوى معرفتنا للأرض لم نعرف إلا أرض واحدة وهي التي نعيش عليها ولا نعلم بعلم الأراضى الست الأخرى التي وردت في الآية السابقة. وعليه لقد خلق الخالق الشيء، وخلق فيه ومنه أشياء لا تُحصى. اللهم يا الله زدني علما مثلما أمل أن تزدي إيماننا وتجعلني من المصلحين.

القاعدة تقول: (المخلوق دائما في حاجة والخالق دائما هو مصدر إشباعها) المخلوق تعني أي مخلوق، سواء ما خلق الخالق الأعظم أو ما خلق الخالق بالإضافة. فالإنسان وكل كائن مُسَبَّح بحمد الله هو في حاجة لخالقه، وإلا لماذا يُسَبَّح بحمده لو لم يكن في حاجة إليه؟ يُسَبَّح بحمده ليشكره على نعمه وفضله الذي أنعم به عليه حتى جعله من المسبِّحين.

من القاعدة السابقة نعرف أن الحاجة في طبع المخلوق، وإلا هل يمكن أن يلتفت المخلوق لخالقه لو لم يكن في حاجة إليه؟ ولهذا فنحن في حاجة لرضا خالقنا علينا، وفي حاجة لحفظه ورعايته لنا من كل شرٍ وسوء. فهو الذي جعل لنا في الأرض معاشٍ ومنها سكنٍ ولباسٍ.

ومن القاعدة السابقة عرفنا أنّ الخالق ليس في حاجة، وذلك لأنه خالقها، أمّا نحن فهي المخلوقة فينا. ولأن الحاجة مخلوقة مثلما نحن خُلِقنا

113 الطلاق، 12.

فهي بطبيعة الحال هي في حاجة لخالقها، وهي تُسَبِّح بحمده مثلما نحن نُسَبِّح. وإلا هل هناك شيء من خلقه لا يُسَبِّح بحمده؟ قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} 114 ولأنّ الحاجة مخلوقة فهي بطبيعة الحال في حاجة لخالقها الذي ليس في حاجة إليها.

ولأنّ كلّ مخلوق في حاجة لخالقه، فنحن في حاجة لشجرة ونبته نأكل منها، وفي حاجة لحيوان نشرب منه لبنا وهو الآخر في حاجة للماء مثلما نحن في حاجة إليه، وكل من الشجرة أو النبتة والحيوان في حاجة للهواء مثل ما نحن في حاجة، وكلنا في حاجة لأرض نعيش عليها ومطر أو نبع نرتوي منه، والنبع والمطر في حاجة لقوّة تُظهرهما وتسوقهما إلى من هم في حاجة، وهذه القوّة تحتاج لمن يصدر لها الأمر لتكون، وفي هذه الأمور لا يمكن أن تكون الاستجابة إلا من الخالق الأعظم ، ولذا فإن القاعدة (المخلوق دائما في حاجة والخالق ليس كذلك).

وبما أنّ المخلوق في حاجة لخالقه، والخالق هو مصدر إشباع الحاجة، إذن كيف يعتقد البعض في إله لا يُشبع حاجة وهو في حاجة لمن يُشبع حاجته! فمن يتخذ من التمر إلهها أو من الحجر إلهها أو من البشر إلهها فليعلم إنّ ما يتخذه من آلهة هم في حاجة، فالتمر إن لم يُحفظ يفسد ويتعفن، والحجارة تبلى وتتهدم ولا تُشبع حاجة من يتخذها إلهها ولا تسمعه إن تحدث إليها ولهذا فهي لا تجيب دعاءه إذا دعاها، وهكذا البشر هم في حاجة يمرضون ويتألمون ويجوعون ويخسرون ويكذبون ويزورون ويعشون ويزنون ويعملون الفواحش ما ظهر منها وما بطن فكيف مثل هؤلاء يُتخذون آلهة ويُعبدون. قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ

114 الإسرائيليات، 44.

مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا} 115، ولهذا فإنّ في خلق السماوات والأرض آيات لقوم يتفكرون {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} 116.

وعليه فإنّ الخلق بحُسبان، مصداقا لقوله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} 117. لا إله إلا هو سبحانه كل شيء قدره تقديرا ليهيأه لما أراد كتهيأت الإنسان للإدراك والفهم والتدبير والاستنباط والتذكر والتفكير والاستقراء والاستنتاج والعمل والتفاعل والتوافق والتكيف ولذا قال تعالى: {وَمَٰمٌ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} 118. ولذلك فالتقدير والحسبان لم يكونا عبثا. قال تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} 119

ولأنّ القاعدة تنص على أنّ: (الله يَخْلُق ولا يُخْلَق)، فإنّ من يعتقد في غير الخالق ضلّ؛ أي لم يهتدي إلى سبيل الاستخلاف في الأرض، ويفقد البقاء الدائم في الحياة الدائمة.

115 الفرقان، 3.

116 آل عمران، 191.

117 المؤمنون، 15.

118 الفرقان، 2.

119 الحجر، 19 . 21.

قال الزجاج: "فالخالق في اسم الله تعالى هو ابتداء تقدير النشاء، فالله خالقها ومنشئها وهو متممها ومدبرها فتبارك الله أحسن الخالقين"120.

ولأنّ الله أحسن الخالقين مصداقا لقوله تعالى: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}121 فإنّ القاعدة تقول: (الخالق يخلق خلاق) فالله خلق آدم وعلمه الأسماء وهي الأسرار، وخلقه إنسانا وعلمه البيان والحكمة، حتى استمد صفة الخلق منه وأصبح خلاقا. ولهذا فإنّ أحسن الخالقين تعني: أتقن الخالقين وهي تأكيد على وجود الخالقين بالإضافة وهؤلاء هم الذين يخلقون ما يُسهم في إشباع حاجاتهم ممّا خلق لهم خالقهم تعالى. ولكن مع عدم التأكيد على المقارنة فإن خالق الخالقين بطبيعة الحال هو الذي لا يقارن بهم وإن قبلنا بمقارنة ما خلق بما خلقوا فإننا نعود للتأكيد على القاعدة السابقة (الخالق لا يساوي ما خلق).

الخالق هو الله الذي يخلق الأشياء من اللاشيء، فبذلك هو خالق الكون بدون حاجة لأداة أو مادة خام أو حاجة لزمان معين ومحدد، فهو خالق بلفظة "كن".

فالله تبارك وتعالى هو الخالق ولا خالق سواه وكل ما عداه هو مخلوق فالسماوات والأرض وما فيهن وما بينهما من أقدار مقسمة من أرزاق وأعمار وأعمال وأقوال كلها مخلوقة، لأنه هو الذي أوجد جميع الأشياء وركبها ورتبها، قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}122، فالخالق لم يخلق هذا الكون وهذه المخلوقات

120 تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج، ص 36.

121 المؤمنون، 14.

122 المؤمنون 14.

جميعا عبثا وارتجالا، إذ أنه ليس من الحكمة خلق الأشياء وإهمالها، كما هو
ظن الكفار، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا
ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} 123، بل إنه خلق
الخلق جميعا وأعدهم ليوم الحساب.

وقد أنشأ الخالق وأبدع في الخلق، قال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ
شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ
مُهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} 124، إذن فالخالق هو المكوّن لهذه المخلوقات والمقدّر
لها، لأنه يخلق الخلق بعلمه المطلق والمسبق، ثم إنه يقدر الأرزاق والأعمار
وأقواله وأفعاله التي سيقوم بها ويحفظها في اللوح المحفوظ ولكل إنسان منا
مكانٌ فيه، ولكل إنسان قدر يقع عليه من الخالق وحده دون سواه، لأنه
لا أحد يملك القدر إلا الخالق له.

والله تعالى قد خلق العدم، لأنه لم يكن موجودا لولا الخالق له،
والخالق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يتجزأ أو يتركب من أشياء فهو واحد
أحد، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ} 125، والسورة القرآنية السابقة توضح أن الخالق واحد ليس
له شريك من قريب أو بعيد، لهذا فهو عظيم بواحديته وكماله، وبالتالي لا
يمكننا فصل صفة عن صفة فيه، أو فعل عن آخر لأنّ القائم بكل الأفعال
والمتصف بكل الصفات هو إله واحد لا يتجزأ ولا يتغير، وإلا لكانت له
بداية ونهاية لأن التركيب والتجزئة لا بدّ له يوما من التفكك أو التحلل، أمّا
المخلوق فهو مركب من عدة جزئيات بمجمل اتحادها تتكون المخلوقات

123 ص 27.

124 السجدة 7 .9.

125 الإخلاص 1 .4.

وبالتأكيد بتحليل هذه الجزئيات المتحدة وتفكيكها ينتهي وجود هذا التركيب المخلوق ويفنى هذا الشيء.

والإنسان وهو مخلوق من خلق الله تعالى فقد كانت له بداية يبدأ منها ونهاية ينتهي إليها متى شاء الخالق، ومن مجموع هذه التركيبات والتقسيمات تكوّن خلق الإنسان بفعل الخالق وبنفخ الروح فيه.

وخلق الله تعالى الإنسان بتركيبية قابلة للخير والشر، داعي للخير والفتن، في دار ابتلاء وامتحان للخلق، فظهرت للعباد رحمة الخالق وبطشه، ولطفه وجبروته، على حسب درجة الإيمان لكل إنسان، فالغاية من الخلق أساسا هو عبادة الخالق، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} 126، فالإيمان الكامل لا يكون بالمعلوم فقط بل أيضا يشمل الإيمان بخلق الله للغيب.

وقد خلق الله تعالى الإنسان مكونا إياه من عدة أشياء:

خلق الله للإنسان اللسان:

لإخراج ما في القلب والعقل، فالتعبير عما في داخل الإنسان يتم عن طريق اللسان أولا من طيب الكلام وبديع الأفكار هذا من شأنه حدوث التفاعل البشري الفكري والعملي بعد التوصل إلى أعلى مراتب التفاهم، فالإنسان كائن لا يستطيع الحياة إلا وسط جماعات بشرية تأخذ منه ويأخذ منها ويتفاعلون مع بعض وتطلب ذلك لغة ووسيلة للتفاهم فيما بينهم وكانت هذه الوسيلة هي اللسان الذي يتكلم بلغة من حوله، وبذلك هو نعمة من الخالق أهداها لنا وأوصانا بها، فالخلق متفاوتون في حسن استعمال هذه النعمة فبدل أن تكون ألسنتهم شاهدة على الحق ناطقة به، داعية للخير ومخرجة لحسن نوايا القلوب، نجدها أحيانا لا تشهد

126 الذاريات 56.

إلا بالباطل ولا تنطق إلا به ولا نسمع منها إلا سوء القول الناتج عن سوء الفعل، لأنّ اللسان يجب أن يكون ترجمة لما في القلب ووسيلة تعبير عما فيه، فلو كان هذا القلب حاملاً لإيمان صادق نطق به اللسان، وإن كان حاملاً للكفر والمعصية نطق به اللسان، وهناك بعض الأمراض التي خلقت لألسن الجاحدين والعاصين والمذنبين، مثل مرض الافتراء والكذب كما جاء في قوله تعالى: { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ }¹²⁷، فالافتراء على الخالق الذي خلقهم من أشد ما يمكن أن يتقول به الإنسان، لأن من خلق لنا اللسان وجب علينا أن نشكره لا أن نوجهه للكفر به، كذلك مرض النميمة والغيبة ونجد هذا المرض منتشر بكثرة حتى في مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، وهذا من شأنه إحداث شرخ في محبة وثقة الناس ببعض وتخلق العداوة والبغضاء بين المسلمين، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ }¹²⁸، فالتشبيه هنا من شأنه أن يوضح لنا ما الذي يمكن أن يقودنا إليه اللسان إذا تركناه دون رقيب أو حسيب، كذلك من الأمراض المهلكة التي تصيب اللسان شهادة الزور، التي تعمل على إماتة الحقوق وسيادة الظلم بين البشر، قال تعالى: { وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا }¹²⁹، فاللسان الذي لا يشهد الزور هو لسان يخشى الخالق يوم تشهد على الإنسان الألسن التي سينطقها من

¹²⁷ النحل 62.

¹²⁸ الحجرات 12.

¹²⁹ الفرقان 72.

خلقها ووهبها لنا، كما جاء في قوله تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {130}.

فاللسان إذن خلقه الخالق رحمةً بنا فجعله بعض البشر نقمة على نفسه وعلى من حوله، فمن شأن اللسان خلق مجتمع مسلم مترابط واثق قوي إذا أخضعه الإنسان لخالقه وجعله وسيلة مرضاة له فلا ينطق إلا بما أراد الخالق له، ويلزم الدعوة للخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون بذلك خليفة الله في الأرض بالإصلاح الاجتماعي والمادي والديني بين الناس.

وخليفة الله من كان لسانه بلسما لقلوب الناس بالكلمة الطيبة، ومنبرا لدعوة الحقّ دون خوف أو رهبة من أحدٍ من الخلق، ناشرا للحبّ والصدق والرحمة.

خلق الله العينين للإنسان:

وهما جزء لا يقل أهمية عن اللسان، فهما من نعم ورحمة الله بنا فبهما نستطيع إبصار ما في هذا الكون من نعم الله وقدرته وأن نحمده عليها، فعظمة الجبال تراها أعيننا وانتشار النجوم في السماء البعيدة منثورة أمام أعيننا، وتباين المخلوقات في الألوان والأحجام والأنواع تدركها أبصارنا قبل أي شيءٍ آخر، والأهم من ذلك أنهما لا بدّ أن يكونا سببا في حبنا وقربنا للخالق، وإيماننا بعظمة خلقه، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} {131}، فقد أهدانا الخالق هذه النعم لا للزينة والجمال بل لتكون مصابيح تنير لنا طريق الهدى والخير من طريق الضلال والشر، فالعين تستطيع أن تعاون العقل في تمييز الحسن من القبيح من

130 النور 24.

1 البلد 8 . 10.

الأعمال، فبتأملها وتركيزها تعطي إشارة للعقل بالتحليل للوصول إلى النتائج الإيجابية إذا كانت العين من الأساس عيناً جادة باحثة عن عظمة الخالق، لذلك نجد أن الخالق قد لفت انتباه الخلق إلى استعمال أبصارهم في أنفسنا أولاً، وفي هذا الكون ثانياً للوصول إلى منتهى الإيمان والطاعة والاعتراف بوحداية الخالق الذي انفرد بالخلق، قال وتعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} 132، في هذه الآية الكريمة دعوة من الخالق لنا للتأمل بما أعطانا فيما أعطانا، إذ أنه وهب لنا العينين تحللان ما حولنا وتنقلان ما في هذا الكون من عظمة تدل على الخالق العظيم إلى النفس لتطمئن وتطيع وتخشع.

فعيني خليفة الله يجب أن يوجههما للتمتع والتأمل في عظمة الخالق، فثبته القلب والعقل لهذه العظمة التي بدون الإحساس بها يموت الإنسان في الحياة، حتى وإن كان هذا الخليفة فاقد لنعمة البصر، فالعين تستطيع أن تبصر من خلال الروح والنفس، فكم من مبصر هو أعمى تائه في هذه الدنيا ضائع في دروب الضلال والكفر، كما جاء في قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} 133، لأن من صفات الكفار والجاحدين هي فقدانهم لنعمة البصر رغم قدرتهم على الإبصار بعيونهم، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمِّيَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ} 134، إذ أنه لا فائدة تُرجى من عين لا تخشى الخالق.

132 الذاريات 20، 21.

133 البقرة 17، 18.

134 يونس 43، 44.

وصفة البصر من صفات الخالق تعالى مع الاختلاف فيه، فالبصر في حق الله هو البصر المطلق الذي لا حدود له، فهو يبصر ما لا نستطيع إبصاره نحن ببصرنا المحدود، قال تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ} 135، وقوله تعالى: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ} 136، لأنه يبصر حتى ما في القلوب والعقول دون الحاجة إلى إخراجها، فالخالق هو العالم بنا والقادر علينا.

خلق الله السمع للإنسان:

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} 137، فالسمع نعمة من نعم الله علينا يهدينا إلى صواب الأمر، فمن الذي يستطيع أن يسمع كلمات الخالق ولا يؤمن بها ولا يخشع له إلا من كان قلبه وعقله أصمين قبل أذنيه؟ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} 138، أولئك الذين لا يستغلون سمعهم في الوصول للحق والاعتراف به، فيغيبهم الضلال عن الخالق.

وصفة السمع في حق الخالق تختلف أيضا عنها في الإنسان، فسمعه سبحانه وتعالى لا يحده زمان ولا مكان، كيف لا وهو من وهب لنا هذا السمع الذي نتمتع به، فسمعه عز وجل ليس مخلوقا يبدأ ببداية وينتهي

135 الحاقة 38، 39.

136 الواقعة 83 . 85.

137 المؤمنون 78.

138 الأنفال 20 . 23.

بنهاية قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَاللَّهُ يَفْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} {139، فقدره السمع عند الخالق ليست مقتصرة على أقوالنا وكلامنا بل تتعدى ذلك إلى ما في الصدور من نوايا الخير أو الشر.

وعلى خليفة الله أن ينأى بسمعه عن مساوى القول من توافه الكلام وردائله وما من شأنه أن يهوي بصاحبه إلى مستنقع الفساد، فبذلك يحافظ الخليفة على السمع كنعمة من نعم الله تعالى عز وجل، لا يسمع إلا طيب الكلام.

وقد أنعم الله على المتقين بنعمة السمع الطيب سواء كانوا في الأرض أو حتى في جنان الخلد، قال تعالى: {جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا لَا يُسْمَعُونَ فِيهَا لَعْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيًا تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا} {140، فنوع من الراحة والفرح ألا يسمع الإنسان إلا ما هو طيب وجميل.

وقد نجد الكثير من الخلق يفتقدون لنعمة السمع رغم تمتعهم بها، إذ أنه من الجحود والكفر الذي يسكن قلوبهم ما يغطي سمعهم عن قول الحق، قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ} {141.

خلق الله القلب للإنسان:

139 غافر 19 . 20.

140 مريم 61 . 63.

141 الأعراف 179.

وهو الذي يجب أن يكون مكن الطاعة ومستودع المحبة والخضوع والاستسلام للخالق، ومنذ بداية خلق الله للبشر ساوى بينهم في امتلاكهم له كعضو وجهاز ينبض بالحياة، لكنهم تباينوا بعد ذلك في جعله منبعاً للخير أو الشر، أو ملئه بالكفر أو الإيمان، كلٌ حسب ما سعى إليه في حياته.

فالقلب كما نسقيه يُنبت، فإذا سقيناه الطاعة وحب الخالق أنبت الإيمان والتقوى، وإذا شرب من المفاصد واللهو أنبت الجحود والكفر، وفي الحقيقة فإن القلوب هي مركز السمع والبصر والإحساس عامة، وليس أدل على ذلك من الذين نراهم حتى يومنا هذا لا يزالون في ضلال وكفر رغم تمتعهم بنعمتي السمع والبصر، كما جاء في قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} 142، فقد خلق الله تعالى القلوب للإدراك والاستشعار بعظمة الخالق وقدرته، وللخشية من غضبه، وللإحساس بحب الخالق وقربه منا، بذلك تتحقق الراحة والطمأنينة التي يتميز بها قلب المؤمن المحسن التقي الذي استحق أن يكون خليفة الخالق في الأرض، في المقابل يكون القلق والفرع الدائمين من نصيب القلوب العاصية الكافرة، إذن فالطمأنينة صفة ملازمة لقلب خليفة الله، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} 143، لأن الإيمان إذا سكن القلب جلب معه الأمان والطمأنينة من الخالق له، فحب الخالق حين يتمكن من القلب ويتقدم على جميع ما فيه من أنواع الحب الأخرى يخلق الأمان والأمان في القلوب المؤمنة.

142 الحج 46.

143 الرعد 28.

بعكس القلوب المريضة بالكفر والنفاق والرياء، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} 144، تلك القلوب التي استضافت الفسوق والنفاق لم تعد نعمة على صاحبها بل تحولت إلى نقمة تحيط به، لأن النفاق مرضٌ إذا تمكن من قلب الإنسان حوله إلى مهلكة له ومضیعة، فالخالق ينفر من هذا المرض الخطير بالإنسان بالأمة المسلمة، قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} 145.

خلق الله العقل للإنسان:

وهو مركز التحليل والتفكير والتبصر في هذه الدنيا، إذ أنه لا يمكن للإنسان أن يتوصل للحقيقة بدون وجود العقل واستعماله الاستعمال الصحيح، والعقل البشري هو بحد ذاته يُعد إبداع في الخلق بكيفية عمله وتركيبته العجيبة، فبطريقه نتوصل إلى فهم وتحليل ما حولنا من غموض أو دلائل، لذلك نلاحظ أن أكثر مخاطبة الخالق لمن عصى وكفر موجهة للعقل الذي رقد في ظلمات الجهل والضلال: كمثل قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} 146، وكذلك قوله

144 البقرة 6. 10.

145 التوبة 125.

146 البقرة 170، 171.

تعالى: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ} 147، إنه التعجب الذي يدرك جوهره العاقل، فكيف لا يتدبر من كان له عقلٌ صحيح في كل ما يحيط بهم أو حتى في أنفسهم وكيفية معيشتهم وبدائيتهم ونهايتهم التي تتكرر كل لحظة أمام أعينهم في الحياة.

لذلك فالعقل لا فائدة منه إذا كان يقود صاحبه للضلال والهلاك، كمثل عالمٍ اكتشف واخترع وتوصل إلى علوم جديدة لم يسبقه أحد إليها وما زال عقله تائها عن الخالق الذي أوجد كل ما حوله من علوم وحقائق كونية وطبيعية، فمثله كمثل من لا عقل له، قال تعالى: {وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنَ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} 148.

أما خليفة الخالق فإنه لا بد أن يسخر نعمة العقل لاكتشاف حقيقة الكون وليبان عظمة الخالق في تصويره فيدرك الإيمان قلبه باكرا ويضيء دربه في الدنيا بنور العلم الحقيقي.

خلق الله الإحساس والمشاعر في الإنسان:

لكن الإنسان هو الذي يحركها كيفما يشاء باختياره لنوعية الأحاسيس مهما كانت الظروف المحيطة به، فالرحمة مخلوقة مع الإنسان والمحبة والصدق والنقاء وكل الفضائل الأخرى كما أنه توجد في المقابل الصفات القبيحة التي يكون الإنسان مخير في استقبال ما يشاء منها، لأن القلب مخلوق خصب تنمو فيه بذرة الخير أو الشر بسرعة متناهية.

147 يس 68.

148 العنكبوت 63.

وخليفة الله يجب أن يوجّه مشاعره كلها لهدف واحد وهو رضا الخالق، وإذا تمكن حب الخالق من قلب الخليفة خلق فيه أنواعا من الحب منها:

أ- حب النفس على أنها نعمة من الخالق، وإكرامها بالترفع عن المفسدة والضياع، فيحافظ عليها كأمانة سيستردها الخالق وقتما يشاء، وطوبى لمن لقي الخالق بنفسٍ مؤمنة خاضعة خاشعة، قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} 149.

وهنا يكون حب النفس ليس من باب التفضيل والأناية بل كما سبق القول من باب إكرامها وإعطائها حقّها من السمو كما أراد الخالق لها، فالساجد لصنم من حجارة مثلا فهو يسحق حقّ نفسه في عبادة وتوحيد الله تعالى، والمنكر لوجود الخالق لهذا الكون فإنه يسير بذاته إلى وحل الدونية والكفر.

وخليفة الخالق في الأرض هو من يحافظ على نفسه من الشرور والمفاسد، ويقيها نقيه وصافية لحين لقاء الخالق ذلك بالبحث عن معالي القول والفعل وبالتحلي بمكارم الأخلاق، لأنّ من شأن حسن الخلق أن يرقى بالنفس البشرية إلى أعلى درجات الشرف والتقدير، ولنا في رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أسوة حسنة، قال تعالى في رسوله الكريم: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} 150، هذا الخلق الذي هو من خلق الخالق أصلا قد رفع قدر الرسول عليه الصلّاة والسلام حتى بين أعدائه وخصومه، وقد ترك فينا هذا الخلق لنسير عليه فنكون بذلك خير الأمم وأشرفها، " عَنْ مَالِكٍ أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ آخِرُ مَا أَوْصَانِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

149 البقرة 281.

150 القلم 4.

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ وَضَعْتُ رِجْلِي فِي الْعَرْزِ أَنْ قَالَ أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ"151.

ب- حبّ الحياة: لأنّ بقيامها تقوم صلة الخليفة بالخالق، فخلق الحياة من أجلّ التوحيد والعبادة تستحقّ أن نحبها لحب المعبود فيها، هذا الحب الذي يتحكم في نتيجة امتحان الخالق للإنسان في هذه الحياة، فلما كانت الدنيا دار ابتلاء فإذا أحبها الخليفة حبا للتقرب من الخالق تخطى الامتحان بنجاح وتفوق، قال سبحانه وتعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ هُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}152، لهذا يجب أن يكون الشعور بحب الحياة معتدلا بين بقية المشاعر الأخرى كي لا يطغى عليها، ولا يكون هذا الحب هو المحرك الأساسي لحياته.

وحبّ الدنيا ينقسم على قسمين، القسم الأول كما سبق وذكرنا يكون حبّ الإنسان للحياة على أنّها نعمة من خلق الرحمن فنشعر بمسؤوليتها عنها وعلى الحفاظ عليها، فحبنا للحياة يكون من حبنا لخالق هذه الحياة وخالقنا.

والقسم الثاني هو من تغلب عليه حبّ الحياة على ما عداه من حب، فتجره هذه الدنيا بمغرياتها ويقضي العمر لاهثا خلف ملاهي الحياة الدنيا، فيكون هذا الحب نقمة على صاحبه ينقلب عليه يوم الحساب، قال تعالى: {رُزِقَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْحَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}153، وكذلك قوله تعالى: {وَدَرَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ

151 موطأ مالك، ج 5، ص 374.

152 يونس 62 . 64.

153 البقرة 212.

الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ {154}، والحب الذي يعود بالخسارة على صاحبه هو حب فاشل من الأساس لأن من شأن الحب إذا وجهه الإنسان في الاتجاه الصحيح أن يخلق السعادة الأبدية للإنسان.

ج- حب الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:

لقد فضل الخالق الرسول الكريم عليه الصلوة والسلام على الخلق أجمعين، وشرفه بحبه له، وقيل شفاعته لأُمَّته يوم يقوم الحساب، بل إنه ربط الشهاداتين بالإيمان بواحديته تعالى والإيمان برسالة سيدنا محمد عليه الصلوة والسلام في قولنا عند النطق بالشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) وهذا هو الإيمان الحقيقي، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ} {155}.

فحب الخالق يخلق في قلب الخليفة حب رسوله الكريم عليه السلام، فيسعى في الدنيا به مثلاً وقدوة مشرفة يحتذي بها، ومن أحب رسول الله عليه الصلوة والسلام أتبعه وسار على خطاه قدر المستطاع.

د- حب الوالدين: من وسع قلبه حب الخالق وسع حب والديه، لأنهما مرتبطان ببعضهما البعض، إذ أنه يستحيل أن تجد من خلفاء الله

154 الأنعام 70.

155 النور 62.

من هو عاقٌّ بوالديه أو كاره لهما، فمن أطاع الخالق أطاع والديه، قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} 156.

هـ- حب العام لجميع الخلق:

يأتي ضمن هذا الحب الأهل والأصدقاء والأقارب والجيران والإحسان إليهم ومعاملتهم بالمعروف واللين، لأن من شأن حبنا لله خلق هذا النوع من الحب الشامل، قال تعالى: {وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} 157.

و- حب الخير:

الخير اسمٌ جامع لكل معاني البر والمعروف والطاعة والإحسان، فلا يمكن أن يخلق حب المولى في النفوس إلا حب الخير والسعي فيه، قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 158.

ز- حب الآخرة:

يكون المحب دائما بشوق للقاء من يحب، فيكون موعد اللقاء موعد محب لقلبه، وهذا شعور خليفة الله ، إذ أنه يسير في الدنيا بحب الخالق

156 الإسراء 23، 24.

157 النساء 36.

158 آل عمران 104.

ويخرج منها بحب الخالق ولهفة لقاؤه يوم الحساب، لإيمانهم بصدق الخالق في وعده، كما جاء في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ بَـجَرِيٍّ مِنْ تَحْتِهِمْ الْأَنْهَارَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} 159، ومن أحب الخالق فقد أحب يوم اللقاء به وزهد في الدنيا بما فيها، لأنه لا يمكن أن يجتمع حب الدنيا والآخرة في قلب إنسان إلا وتغلب إحداها على الأخرى.

7- خلق الله للإنسان اليدين والقدمين وسائر الأعضاء الداخلية

والخارجية:

وكل لها وظيفة تكمل بها الأخرى فيصل الإنسان إلى مخلوق متكامل الأعضاء والجوارح. فالإنسان مخلوق من عدة أجهزة وأعضاء مختلفة الوظائف تعاون كل منها الأخرى في تنظيم عملية الحياة للإنسان، ولتشكيل وحدة متكاملة هي الإنسان الصحيح.

فخليفة الخالق لا بد أن يكون دائم التأمل في خلقه والشكر والحمد على ما عنده من نعم سواء أكانت تامة أو ناقصة، إذ أن نصيب البشر متفاوت منها فنجد بين البشر من هو فاقد لنعمة البصر أو السمع أو الكلام أو فاقد لأحد الأعضاء أو غيرها، لكن هذا لا يقف عائقا في وجه

من أراد الحياة كخليفة لأن من أهم صفاته أن يتصف بإحياء البصيرة التي تقوده لتحقيق هدف خلقه في هذه الدنيا.

8- خلق الخالق للقوى الكامنة في الشيء:

التي بواسطتها تنمو بها الأشياء وتتكاثر، ففي النواة قوى خفية كامنة تمكنها من النمو إذا توافرت لها الشروط الملائمة لذلك. وكذلك النطفة داخل الإنسان فهي مكنن لقوى خاصة تمكنها من الإخصاب عند لقائها بالبويضة التي تحمل نفس القوى وباتحادهما وانقسام البويضة والانتقام من مرحلة إلى أخرى، كما جاء في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} 160، فعملية خلق الإنسان تتم على مراحل مرتبة متناهية في الدقة تتجلى فيها عظمة الخالق، إذ أنه بالرغم من تقدم العلوم والطب إلا أنه لم يتم الوصول إلى كنه هذه القوى التي تستمر بها الحياة.

وبما أن كل تلك النعم من خلق الخالق تعالى فهي بالضرورة تأتمر بأمره إذا شاء ومتى شاء، {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} 161، فكيف لا تطيع من خلقها وأوجدها؟

ومن الظلم تشبيه الخالق العظيم بالمخلوق الضعيف، لأن الله متفرد ومتوحد في صفاته وأفعاله سبحانه وتعالى، فهو واحد لا يتجزأ ولا يتغير ولا يفنى.

¹⁶⁰ المؤمنون 12 . 14.

¹⁶¹ النور 24، 25.

والخالق بكل ذلك هو متضمن لعدة صفات وأفعال منها:

أولاً: الخالق هو الرحيم بخلقه:

الرحمة في حق الخالق هي اتصافه بالرحمة المطلقة التي تأتي في صور متعددة منها: هو الرحيم بهدايتنا للحق، والابتعاد عن خطوات الشيطان، قال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَنَّا بَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ بَاطِحٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} 162، فالهدى هو هدى الخالق لخلقه، بهدف شكر الخلق له وقرّبهم منه تعالى، مع أننا نجد الكثير منهم جاحدون ومنكرون، كما جاء في قوله تعالى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} 163، وهو الرحيم بقبوله التوبة عن عباده التائبين المستغفرين من ذنوبهم، قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} 164، قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} 165، فرحمته تأتي نجاة وأمان للمذنب الراجع للخالق، فاتحة أبواب الأمل والرجاء مما يحفز النفس المخلوقة على التوبة والعمل الصالح، وتوصد أبواب اليأس والخوف، فبذلك تكون رحمته بالخلق أسبق من غضبه.

162 المائدة 83 .85.

163 القصص 73.

164 المؤمنون 14.

165 الزمر 53.

والرَّحِيم هو الخالق لكل الخلق لذلك هو فوقهم جميعاً، قال سبحانه وتعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} 166، بمعنى أنه القائم على أمور الخلق.

فعلى خليفة الله أن يملأ قلبه رحمة وحب للخلق بصفة عامة سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، فيكون حبه للمؤمنين متجسداً في حب الخير لهم كما يحبه لنفسه، ويكون حبه للكافرين بدعوتهم للصالح والنجاة من الهلاك الذي هم فيه.

ثانياً: الخالق هو الملك:

لأنه خالق فهم ملكٌ على ما قد خلق، فيكون له الأمر والنهي فيما خلق يتصرف كيف يشاء بأمره وفعله، قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبِّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} 167، ففي هاتين الآيتين تأكيد لملك الله، ففيهما توحيد للخالق بنفي أي معبود سواه مع توضيح عجز قدرة ما يعبد المشركون من آلهة عن الخلق ولأنهم غير خالقين فهم غير مالكين لأي شيء، قال تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِمَّا يَخْتِذُ أَلَدًا وَمَنْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} 168، فهو الخالق الملك الذي استحق الكمال.

166 طه 5، 6.

167 سبأ 22، 23.

168 الفرقان 2.

قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ
الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُنُّ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} {169،
وكذلك قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
الْكَرِيمِ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ
لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} {170.

وخليفة الله هو من يحيي في قلبه حب الخالق الملك، ومن يراقبه في
السر والعلن، ومن توكل عليه لأنه الأعلى والأقوى فأمور العباد بيده.

ثالثا: الخالق هو السميع البصير:

فكيف يكون خالقا من لا يسمع ولا يرى؟ فالخالق عز وجل له
القدرة على سماع السر والنجوى، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا
خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا
كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {171.

رابعا: الخالق هو الأول والآخر:

بما أنه الخالق فلا بد أن يكون قبل الخلق جميعا فليس قبله شيء،
والباقي بعدهم جميعا فليس بعده شيء، فالخالق لا بداية ولا نهاية له.

هو الأول بخلقه للخلق وإيجادهم من اللا شيء، وهذا هو أصل
الإيمان، فكل ما حولنا ينطق بهذه الحقيقة التي تقر بها القلوب المؤمنة
الصادقة، فهو الأول والآخر له المبدأ وله المرجع، كما جاء في قوله تعالى:

169 الحشر 23.

170 المؤمنون 116، 117.

171 المجادلة 7.

{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} 172.

ويقين الخليفة بأنّ له أوّل وآخر هي ركنا معرفة قدرة الخالق على المخلوق، فكل شيء له أوّل وآخر هو مخلوق.

خامسا: الخالق هو المهيمن:

أي أنّ الخالق هو المسيطر على ما خلق، فلا تخفي عليه أي شيء مهما ضلّ في ملكه، وهو محيط بخلقه وبما يقدمونه في الحياة الدنيا، وبما أنه الخالق العظيم إذن استوجبت عملية الخلق الرقابة عليهم لحسابهم على ما قدموه في الحياة الدنيا من صالح الأعمال أو سيئها، وبهذا فالخالق قائم على أمور الخلق كلها، قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 173.

ومن شأن اسم الخالق المتضمن للهيمنة أن يزيد من تقوى خليفة الله في كل قول أو فعل، وأن يؤمن بأنه المسيطر على الخلق قلوبهم وضعيفهم فيغذي هذا الإيمان شعوره بالثقة والقوة فلا يتردد في قول الحق والعمل به.

سادسا: الخالق هو العظيم:

في عملية الخلق لهذا الكون إظهار لعظمة الخالق عزّ وجلّ، فمن مظاهر هذه العظمة ما يلي:

¹⁷² الأنبياء 104.

¹⁷³ الحشر 22. 24.

عظمة خلق السماوات والأرض وما فيهما من دقة الخلق وقوته، فمن المعروف مثلاً أن أي ارتفاع لابد أن يكون مسنوداً بأعمدة تحميه من السقوط، في حين أن الله خلق السماء بدون أعمدة تثبتها، وبالرغم من ذلك هي ثابتة بإذن الخالق لها، وتلك النجوم والكواكب المتناثرة فيها بالرغم من كبر حجمها إلا أننا نراها ضئيلة بسبب المسافة البعيدة بيننا، وكذلك موعد شروق وغروب الشمس اللذان لا يختلفان أبداً، وتظهر أيضاً عظمة الخالق في خلق الأرض التي نحيا عليها، بما تحويه من جبال شاهقة ومن بحار ممدودة وأنهار جارية وبما تملكه هذه الأرض في جوفها من البذور والثمار المتنوعة، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِعِزِّ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَعَيْرٌ صِنْوَانٌ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} 174، فالخالق يثير العقل البشري بهذه الدلائل الماثلة أمامه ليصل إلى الإيمان بعظمة الخالق سبحانه وتعالى، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} 175.

174 الرعد 4. 1.

175 النبا 6. 16.

وكذلك تظهر عظمة الخالق في خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾¹⁷⁶، لأنّ الإنسان كمخلوق مجهز بكل هذه الأجهزة الداخلية التي تعمل وفق نظام عظيم في دقته فإنه دليل أكيد وقريب لكل العقول التي تبحث عن الخالق، بما في ذلك تلك العضلات الإرادية واللاإرادية التي تكوّن منظومة الجهاز الواحد، وكذلك تناسق وظائف الأجهزة الداخلية كل ذلك يوضح عظمة الخالق في خلق الإنسان نفسه، وهذا العقل البشري الذي يعمل بمنظومة خاصة به تجعل من الإنسان مبدع ومخترع وعالم فكيف بخالق هذا العقل؟

وتظهر عظمة الخالق في بث الروح في سائر الكائنات الحية، هذه الروح التي تبقى سرا تكمن في عظمة الخالق فلا يستطيع الإنسان أن يصل إلى حقيقتها أو التدخل فيها بأي شكل، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾¹⁷⁷.

فالخالق عظيم في خلقه لا يستطيع أي كان أن يصل إلى هذه العظمة الإلهية أو إلى سر من أسرارها، فيجب على خليفة الخالق أن يكون مطيعاً ومؤمناً بعظمته وقدرته، لا يصله شك في هذه العظمة التي من شأنها أن تصغر كل من يدّعي العظمة في هذه الدنيا.

سابعاً: الخالق هو القادر:

الخالق سبحانه وتعالى إن شاء فعل، ومشيئته فوق كل شيء وأمره لا راد له، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ

¹⁷⁶ الذاريات 21.

¹⁷⁷ الإسراء 85.

كُنْ فَيَكُونُ}178، فالخلق قدرة لا يتماثل فيها مع الله أحد، فله تعالى القدرة المطلقة على التفرد بالأشياء دون الحاجة إلى مساعدة الغير.

وتتمثل مظاهر قدرته في خلقه فيما يلي:

أ- بقدرته عز وجل خلق الهداية لمن استحقها من البشر، قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }179.

ب- علمه المطلق الذي لا حد له ولا يستطيع أن يحيط به أحد، فهذه القدرة الإلهية لا تضاهيها قدرة أخرى، قال تعالى: { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ }180.

ج- قدرته على خلقه لهذا الكون الشاسع، ولكل ما يحتويه من مخلوقات مختلفة، من أرضٍ أو سماء، من إنسان أو حيوان أو نبات، وغيرها مما يحويه هذا الكون.

فعلى خليفة الله على الأرض أن يملك القدرة على التحكم في شهواته أولاً فيكون بذلك مالكا لها لا أن تكون هي مالكة له، وأن يكون قادرا على قول الحق والعمل به والسعي بالمعروف بين الناس، وأن يكون قادرا على الصبر والثبات عند الحاجة إليها في الدنيا.

ثامنا: الخالق هو الودود:

178 النحل 40.

179 إبراهيم 4.

180 البقرة 255.

الخالق ودود فهو المحب وهو المحبوب، فقد شمل حبه ووده أنبياءه ورسله وملائكته وعباده المخلصين وهو بالتالي المحبوب لهم جميعاً، يظهر ود الخالق في كل ما حولنا، سواء في خلقه للهواء الذي ما أن نخرج للدنيا من أرحام أمهاتنا إلا ويكون الهواء المحمل بالأكسجين ينتظر رثينا لتسيير عملية التنفس بشكل طبيعي، وهذه الرياح التي تتحرك حولنا فتنتشر حبوب اللقاح لتثمر الأشجار لنا، وكذلك الأمطار المحيية للأرض والإنسان والطيور والحيوان، وجعل كل شيء مسخر لنا لتسهيل عملية الحياة للإنسان على هذه الأرض.

إذن فالخالق يظهر وده للإنسان بكل ما خلق من حوله من أنعام يستفيد منها وطيور وزرع وغيرها مما خلق الخالق لتيسير سبل الحياة له، قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ وَالْحَيْلَ وَالْبَعَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً ثَلَبُوهَا وَتَرَى الْقُلُوكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا

تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ {181، فإذا كان الخالق بعظمته وقدرته وجلاله ودودا للإنسان بكل ما سبق ذكره في الآية الكريمة فكيف يكون هذا المخلوق جاحدا منكرا لهذا الود الجليّ؟

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} {182.

وخليفة الله هو من تواصل مع الخالق مظهرا كل أنواع ومشاعر الودّ الصادق له سواء كان بالشكر والحمد أو بالدعوة للتوحيد أو بإطاعة أوامره والخضوع له، والخليفة يبادل الخالق الود فيظهر أثر ذلك في سلوكه مع نفسه ومن حوله فلا يمكن أن يكون كارها لذاته فهي نعمة من الخالق، ويكون ودودا مع من حوله لا يؤذي أحد ولا يتعدى على غيره، بل أننا نجد أن محبة الخالق الودود في قلب الخليفة سابقة لأي محبة أخرى، وتلك المحبة هي من خلق الرحمن المحب لعبده الباحث عن رضاه، الخليفة له في الأرض.

الخالق هو المصور:

التصوير هو إظهار عملية الخلق بأشكال متباينة، والتصوير لا يكون مجسدا في الوجوه وتقاطيع الجسد فقط بل يكون التصوير في الخلق فيما يلي:

أ- هو المصور بتقسيمه العقول البشرية:

فبالرغم من ملايين البشر الذين مروا في هذه الحياة والذين ما يزالون يسرون فيها، وكل هذه الملايين فإن كل إنسان منها يملك عقلا وتفكيراً

¹⁸¹ النحل 5 .14.

¹⁸² مريم 96.

يخصه وحده ولا يمكن أن يتطابق مائة بالمائة مع تفكير إنسان آخر حتى وإن كان توأمه، وفي هذا الخلق تصوير لتباين العقول والتفكير.

ب- تصوير الخلق بصور متباينة:

فقد شكّل الخالق البشر بأشكال مختلفة ليس ذلك من باب التفضيل والتمييز بل من باب خلق التعارف والتآلف بينهم: قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } {183، فقد صور البشر وهم في الأرحام وفي مراحل متتالية ليخرج بالصورة التي شكلها الخالق عليها، كما جاء في قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {184، وكذلك قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ } {185.

بذلك يكون على خليفة الخالق في الأرض أن يحمد الله على حسن الخلق، وأن يشكره ويرضى بالصورة التي هو عليها فتهداً نفسه وتتفرغ لحب الخالق وطاعته.

ولو تأملنا في حقيقة الخلق لوجدنا أن الخالق خلق الإنسان وجعله مستأمناً في ملكه بعد أن قبل الأمانة التي عرضها الخالق من قبله على السماوات والأرض فرفضتها، قال تعالى: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } {186، فاستوجبت هذه الأمانة التي تباين

183 الحجرات 13.

184 آل عمران 6.

185 الانفطار 6. 8.

186 الأحزاب 72.

البشر في حملها أن يكون الخالق رقيبا بعد أن كانت هذه الدنيا دار ابتلاء وامتحان له فيها، قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} 187، ويأتي بذلك الخالق الحسيب على كل ما قدم هذا المخلوق في الحياة الدنيا، إذ أنه ليس من المعقول أن يدخل في عدل الله مساواة الظالم والمظلوم والموحد والمشرك والمطيع والعاصي، فاستلزم ذلك الحساب العادل يوم يقوم الناس للحساب على ما قدموا من أعمال، قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسَ أَشْتَاتًا لِيُرَوُا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} 188

فحكمة وجود الخلق وتباينها وابتلائها لتمييز الموحدين للخالق عز وجل، قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 189.

وخلق الله تعالى لا ينحصر في الأشياء المادية الملموسة التي تتجسد، بل هو خالق للأشياء المعنوية التي تؤثر في سير حياتنا مثل:

أ- خلقه للأمم:

الأمومة شعور مخلوق مع الأم بمجرد حملها لجنينها يخلق الخالق هذا الشعور داخلها، ينمو مع نمو الجنين ولا يقف حتى عند بلوغ الابن لسن متقدمة، لأنه شعور مخلوق يعيش في النفس طالما هي تحيا وتنفس؛ فهو

187 المؤمنون 115.

188 الزلزلة 1. 8.

189 الأعراف 35، 36.

شعور ينمو رغم التعب والألم والانتظار، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا
حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي
تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} 190.

ب- خلقه للأبوة:

الأبوة شعور مختلط بين الحنان والمسؤولية والشدة، يخلقه الله تعالى في
داخل الرجل عند خروج الجنين للحياة، فتصبح حياته من أجل هؤلاء
الأبناء لتوفير ما يلزمهم من جميع النواحي المادية والمعنوية.

ج- خلقه للإنسانية:

الخالق جعل أصل العلاقة بين الأفراد والجماعات والدول قائمة على
أساس العدل والأمان والسلام، سواء كانت هذه العلاقة تجمع ما بين
المسلمين فقط أو بين المسلمين وغيرهم من الديانات الأخرى، فخلق
الخالق الإنسانية لتضم قلوب البشر لبعض فيشعرون ببعضهم البعض بذلك
يتحقق الغاية السامية والنييلة من خلقنا إذ أنه بتوحيد الله وإقامة الحق
يصلح الكون وتعمر الأرض باستقرار هذه المبادئ السامية. وهذه الرابطة
الإنسانية قابلة للنمو والبقاء وهي أقوى من رابطة الدم أو الوطن أو اللغة.

إن غطى هذا الشعور كل نواحي وجوانب الإنسان في معاملاته
ومشاعره لحقق بصدق رسالته في الأرض من دعوة للخير والإصلاح، فلا
يمكن توقع الخير من إنسان منزوع الإنسانية، وتتمثل الإنسانية في عدة
صفات منها على سبيل الذكر لا الحصر:

190 الأحقاف 15.

1- الرّحمة والحبّ: وهما أساس الفضائل في الأحاسيس، لأنّ نبع النقاء والصفاء في الروح هذان الشعوران ففيهما تكمن الإنسانية. ولقد اتصف الخالق بهما قبل المخلوق مع الفارق، فالخالق رحمته وحبّه لا يحدهما زمان ولا مكان مطلقان يوزعهما كيف يشاء بعلمه المطلق ومشيبته، وهو السابق بهما على الخلق، كما جاء في قوله تعالى: {قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ حَشِيَّةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا} {191}، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} {192}، قال تعالى أيضا: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ هَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {193}، فالخالق هو المالك للرحمة العامة يتصرف فيها كيفما يشاء، فهو يرحم من يشاء من عباده بعلمه وقدرته، والمخلوق حاجته لرحمة الخالق لا تنقطع لأنه خطاء كثير الزلّات، فعند تعثر الإنسان من متاعب الدنيا ومشاغلها يبحث عن واحة يستظل بها ويستريح عندها لن يجد هذا المخلوق إلا رحمة الخالق تعالى.

والحب مخلوق جميل ولطيف وهو أساس العلاقات الصحيحة والقوية سواء كانت بين العبد وربّه أو كانت بين العباد أنفسهم، وأروع وأعظم حب هو حب الخالق لأوليائه وعباده الصالحين، فهو حب نقي لا يدخله زيف أو مصلحة، قال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} {194}، فقد سبق حب الخالق حب

191 الإسرائ 100.

192 الأنبياء 107.

193 فاطر 2.

194 المائدة 54.

المخلوق كما جاء في الآية السابقة فهو الأول والأقوى في حبه ورحمته بمن خلق.

فمن كان خليفة الخالق لا بد أن يكون محبا لله ولنفسه ولمن حوله، هذا الحب الذي ينضح به قلب يعمر بحب الخالق عز وجل.

2- الاعتراف بحق الإنسان وحماية كرامته:

الخالق عز وجل هو الذي كرم الإنسان أولا بأنه إنسان وهذا كافٍ لتأكيد من أنه له حقوق وواجبات بغض النظر عن الجنس أو اللون أو الدين، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} 195، ومن دلائل تكريم الإنسان أن الله قد خلقه بيده، وجعل الملائكة تسجد له، قال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} 196، وسخر الخالق كل ما على الأرض لخدمة هذا المخلوق، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} 197، وهذا التكريم للإنسان من أجل خلافة هذه الأرض وإعمارها، ولأن هذا المخلوق المكرم عند الله كان من الضروري الحفاظ على حقه في الحياة الكريمة وحقه في الحرية التي تضمن الحفاظ على كرامته كأدمي وحقه في إبداء الرأي وغيرها من الحقوق التي شرعها الخالق له بل خلقها معه،

د- خلقه للقوة:

¹⁹⁵ الإسراء 70.

¹⁹⁶ الأعراف 10، 11.

¹⁹⁷ لقمان، 20.

هذه القوّة التي يستمد المؤمن منها القدرة على الدفاع عن الحقّ،
وتطبيق أوامر الخالق، والمحافظة على ما استخلفنا فيه الخالق يتطلب القوّة
المعنوية والجسدية، وهذا كان نهج رسولنا الكريم عليه الصّلاة والسّلام ومن
معه فوصلوا بهذه القوّة المعنوية والجسدية إلى أقاصي الأرض، قال تعالى:
{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} 198.

هـ- خلقه للممكن والمستحيل:

فالخالق عزّ وجلّ قد خلق الممكن والمستحيل معاً، فكل مستحيل
بقدره الخالق يتحول إلى ممكن إذا شاء دون أدنى تدخل منا، ولنا في
القرآن الكريم أصدق الأمثلة على خلق المستحيل من الممكن، كما في
قصة السيدة مريم بنت عمران إذ أنّها أنجبت دون أن يمسهها بشر كما
جاء في قوله تعالى: {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ
بِعَيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَلِنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ
أَمْرًا مَّفْضِيًّا} 199، أو حتى أن يتكلم من كان وليداً صغيراً كما نطق
المسيح بن مريم حين كان في المهدي، قال تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ
نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا
وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا
بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ
أُبْعَثُ حَيًّا} 200، فبالرغم من استحالة ما قد سلف ذكره إلا أنّ الخالق
أوجده كعبرة ودليل على قدرته وعظمته.

و- خلقه للمعجزات:

198 الفتح 29.

199 مريم 20 ، 21.

200 مريم 29 . 33.

المعجزة هي الحدث الذي لا يستوعبه العقل البشري بسهولة، إذ أنه يكون مخالف للعادة، وقد نسمع بمعجزات قد قام بها البشر وسجلها التاريخ، ولكن إذا تأملنا في حقيقة هذه المعجزات لوجدنا أنها لم تُخلق من الأساس من اللاشيء بل أنها استُمدت من أشياء قبلها قد خلقها الله تعالى من قبل، فمثلا الأهرامات العجيبة التي تُعد في مقدمة المعجزات البشرية فإنها مكونة من حجارة خلقها الخالق ومواد أخرى في الطبيعة لم يكن للإنسان أي دخل في تكوينها أو وجودها، فما كان عليه إلا أن أبداع في طريقة البناء، على خلاف ما قد خلق الخالق من معجزات من اللاشيء، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} 201، من البديهي للعقول تصور ما قد يحدث للبشر إذا ابتلع أحدهم الحوت فما بالك بالملكوث في بطنه وقت وهو على قيد الحياة دون أن يموت! وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 202. فمن الإعجاز أن تأتمر الريح القوية بأمر الإنسان الضعيف لولا إذ أمرها الخالق بذلك، فلو حاول الإنسان أن يجرب كافة الطرق والوسائل العلمية المتطورة لحصول ذلك لعجزوا أشد العجز عن تحقيق ذلك لأنهم غير قادرين على خلق المعجزات.

فالمعجزات الحقيقية هي من صنع الخالق، ولا قدرة لبشر لخلق معجزة واحدة من اللاشيء ودون الرجوع لخلق الله، فالخالق سبحانه وتعالى

²⁰¹ الصفات 139 . 147.

²⁰² الأنبياء 81.

يكون في حقّ الله وحده، أما الخلاق فإنه اسم من أسماء الله تعالى، وقد يصح أن يطلق على الخليفة إذ أنه لا يكون خالقا بل خلاقا، ممّا خلق الخلاق العظيم، فالإنسان يحتاج إلى مواد خام ليستطيع أن يخلق شيئا، فمثلا هو لم يخلق الحديد لكنه استطاع أن يصنع من هذا الحديد الكثير من الأشياء، وغيرها من الصناعات التي تُبتكر على يد الإنسان الذي وهب الخالق له العقل للتفكير والابتكار والتحديث.

زـ خلق الخالق للعلم:

العلم مخلوق من عند الرحمن عزّ وجلّ، ينمو ويكبر مع الإنسان وقد يصغر ويتلاشى أيضا إذا لم يُعتنَ به ويُراعى، والعلم صفة من صفات الخالق إلا أن العلم المخصوص بالله هو العلم المطلق غير المحدود، العلم الذي لا يصل إليه كائن من يكون من الجن أو الإنس، قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } 203، وقال تعالى: { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } 204.

203 البقرة 30 . 33.

204 البقرة 255.

ولقد أمرنا الخالق بالتزود بالعلم الذي من شأنه رفع قيمة البشرية إلى أعلى مستويات الرقي والإيمان، لأنّ العلم إذا كانت الاستفادة منه في الاتجاه الصحيح تَرَفِّع الإنسان به عن كل أنواع الضلال والردائل، فالعلم يصل بالإنسان إلى توضيح الحقائق من حوله وكشف الأمور وتجليها كي لا يكون على جهل بما يحيط به، الأمر الذي نقر منه الخالق إذ أنه دعا البشر للعلم والمعرفة للوصول إلى حقيقة عظمته وإبداع خلقه، ولذلك فقد كرم الخالق المخلوق برفع درجاته عنده إذا كان من أصحاب العقول النيرة بالعلم الذي من شأنه أن يقف بصاحبه على أبواب معرفة الخالق وبالتالي الخشوع له وخشيته، قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ } 205، وكذلك جعل العلم علامة تمييز بين الناس، إذ أنه لا تقارب ولا تشابه بين من يدرك ومن لا يدرك الحقائق والثوابت، قال تعالى: { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } 206.

فخلق الله للعلم هو رحمة بالإنسان، لأنّ العلم من شأنه أن يجعل الإنسان يعرف الخالق فيقدره حق قدره ويحمله ويعظمه، ويستشعر بضعفه وقلة حيلته أمام الله عزّ وجلّ، فتكون بذلك الصلة بين الخالق والمخلوق صلة تقدير ومحبة، بعكس الجهل الذي يهوي بصاحبه إلى أرذل المستويات بالبحود والضلال اللذان يميّتان أي صلة بينه وبين الخالق، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا

205 فاطر 27، 28.

206 الزمر 9.

ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ
الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ {207.

ولتأكيد الخالق على أهمية العلم في الحياة بشتى مجالاتها فإننا نجد أن
آخر الرسالات السماوية التي نزلت على نبينا محمد - صلى الله عليه
وسلم- قد بدأت بالدعوة والأمر إلى القراءة، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} {208.

إن الخالق هو العليم الذي لا حدود لعلمه فكيف يرتضي لخليفته
الجهل والضلال بعد أن استأمنه على خلافة الأرض، إذ أنه ليس من
خلفاء الخالق من جاهل أو ضال.

وليكن خليفة الخالق في أرضه حريصا على الحفاظ على العلوم
الموجودة في الحياة والاستفادة منها بالشكل الإيجابي الصحيح، وأن يدرك
أنه بهذا العلم سيتعرف على الخالق فلا يجادل فيما يخص هذا الخالق
العظيم الفائق القدرات وسترتفع مرتبته في الدنيا والآخرة، مع أنه مهما
تعرف عليه فلن يستطيع أن يوفيه حقه، قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ
قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} {209.

وصحيح أن جميع الخلق هم للخالق الواحد الأحد، لكنهم مختلفون
فيما بينهم، فقد تدرجوا في الأفضلية عند الله، فأفضل البشر هم الأنبياء
والرسل، وأفضل الرسل والأنبياء هو سيدنا محمد عليه صلوات الله وسلامه،

207 الحج 73، 74.

208 العلق 1 . 5.

209209 الزمر 67.

وأفضل الأمم هي أمة محمد - صلى الله عليه وسلم- في الخلق، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} {210، وكذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} {211، وفضل الله من أمة محمد عليه الصلاة والسلام خلفائه في الأرض المصلحين، كما جاء في قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} {212، فقد جعل الخالق شرف خلافة الأرض لهؤلاء العاملين بطاعة الله والخاشعين والمصلحين، فكان لهم ذلك التفضيل على باقي أمتهم الذين لم يتوحدوا في درجة طاعة وحبهم واستسلامهم للخالق، فخلق هذا التفاضل بين العباد، قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} {213، فالتفاضل إذن يكون مخلوق أساسا وموجود لوجود هذا

210 آل عمران 110.

211 الحشر 18 . 20.

212 النور 55.

213 النساء 95.

التباين في الأعمال حتى بين المسلمين مثل اختلافهم في حبهم للإنفاق قد خلق درجات الرضا عنهم، وكذلك حبهم للتضحية في سبيل الله.

ولكي تصل إلى درجة التفضيل هذه لا بد أن يكون الخالق حاضرا معك في ركن من أركان حياتك وفي كل زاوية من زوايا النفس، ففتجه إليه بالتقدير والإجلال أولا وأخيرا، ولا نكون كالذين نراهم يستشعرون الرهبة والتقدير والخوف أمام أفراد آدميين يعلوهم مكانة ومرتبة في الحياة، فنجدهم مرتجفين متأدبين في حضرة أحد الشخصيات المهمة، في حين أن هذا التقدير والأدب لا يحضره وهو أمام خالقه العظيم حين يتعدى حدود الله أو حين يقصر في واجب من واجباته تجاه الخالق الجليل، مع أنه الأحق بالخشوع والطاعة والتقدير، وكيف لا يستحق وهو من خلق الخلق جميعا فيسبح له ويخشع كل من السماوات والأرض، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} 214، فمن هو الذي لا يقدر الخالق حق قدره بعد ذلك إلا الجاهل بعظمته؟

وخليفة الخالق هو من تيقن أن الله لم يخلق الخلق لقلة أو لعزة فهو الغني الحميد ونحن الفقراء الضعفاء.

وعليه فقد أنعم الخالق على يوسف بأفضل خلقٍ وخلقٍ، ومع أن هذه نعم من الله تعالى أنعم بما على يوسف، إلا أن امرأة العزيز لم تقف عند حدّ التعجب الذي يُمكنها من معرفة جمال الله لتزداد طاعة وتقوى، بل فكّرت فيما فكرت فيه من كيد ليوسف الذي كلّمها حاولت معه فيما لا يرضي الله استعصم بالله تعالى.

214 الحج 18.

ولأنّ جميع الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم قد مرّوا بابتلاءات وهم سالمين منها وما يترتب عليها، فيوسف هو أحدهم الذي ابتلي بكيد أخوته وامرأة العزيز التي همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه، ولأنّ يوسف على الحقّ وهو على خلق عظيم، شهد شاهد من أهلها بالحقّ، مصداقا لقوله تعالى: { قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } 215.

ولأنّ يوسف صلّى الله عليه وسلّم على الحقّ طاعة وإتباعا، جاء الاعتراف من امرأة العزيز وهي تخاطب النسوة اللاتي اعتدت لهنّ متكا، { قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ } 216 وبكيد امرأة العزيز سُجن يوسف سنينا ظلما وكان من الصابرين، قال تعالى: { قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } 217.

وبالرغم من كلّ الشدائد الابتلاية التي تعرّض لها يوسف صلّى الله عليه وسلّم، كان في حفظ الله ورعايته وعنايته الكاملة، فقد استجاب له ربّه فصرف عنه كيدهنّ، وأُخرج من السّجن وهو مؤتى الملك الذي به تمكّن من الحكم والإصلاح في الأرض والعدل بين النّاس. ولقد جمع الله تعالى شمل أسرته الذين جاء بهم من البدو وهم مستغفرين، قال تعالى:

215- يوسف 25 . 28.

216 - يوسف 32.

217 - يوسف 33، 34.

{ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ
 آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ
 رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ
 وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي
 لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي
 مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ } 218.

يقول يوسف في دعائه وشكره لله اعترافاً بأنه وليه (أَنْتَ وَلِيِّي فِي
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) أي أنّ يوسف عليه السلام قد أول أمره للولي المطلق، فهو
 والي من له والي، ووالي من لا والي له، فالأب والي ابنه، والله تعالى والي
 الأب والابن ومن سبقهم ومن سيلحق بهم.

أمّا الوالي بالإضافة فهو والي من لا والي له من العباد غيره بالرعاية
 والعناية الصحية والتعليمية والتربوية والخدمية المتعددة والمتنوعة.

الوالي المطلق هو والي العباد وولاتهم وأرزاقهم وسلامتهم وأمنهم وكل
 أحوالهم، فهو الوالي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم أي أنه الوالي الشهيد
 الذي له الكمال والجلال فلا يغفل، وهو الباقي الذي لا يزول، ولهذا جميع
 الولاة يزولون إلا الوالي المطلق فهو باق سبحانه نعم الوالي ونعم الباقي.

الوالي يعلم الأمر والنهي ويرزق من يشاء بغير حساب ولا ينتظر
 طلباً لذلك فهو المجيب بعلمه للحاجة والمحتاج، ويعطي بدون مقابل، ومن
 يحمده على عطائه ويشكره على خلقه له في أحسن تقويم يكون من
 المستخلفين في الأرض.

218 يوسف 99 . 101.

الوالي هو الراعي الذي يعلم الأحوال والظروف ويعلم مستقبلها قبل أن يعلمها من هو في حاجة للولاية والرعاية والعناية فيتولاه تعالى كفيلاً بها، فنعم المولى ونعم النصير.

الوالي هو النافع بقوته وقدرته وملكه ورزقه وهيمنته وعلمه وحكمته وهو الضار لكل ضرر، والمآكر بكل مكر، والكائد لكل كيد سبحانه لا إله إلا هو.

الوالي هو الله سبحانه وتعالى، وهو أسم من أسماء الله الحسنى عز وجل، وهو مالك الأشياء جميعها والمتصرف فيها، وكأن الولاية تُشعر بالتدبير والقدرة والفعل.

والوالي هو الله تعالى وهو الذي ولي الأمور وملك الملك والخلق، والولاية تنفيذ القبول على الغير شاء الغير أو أبي وفيه دليل على أن خلاف مراد الله محال، فانه المتفرد بتدبير الأشياء المنفذ للتدبير ولا معقب لحكمه، وما لم يجتمع ذلك فيها لم ينطبق عليه اسم الوالي، وذلك أن الله هو الوالي لكل مخلوق على وجه العموم، ولكل مخلوق من الملائكة والجن والإنس على وجه الخصوص، وهو واضح من قوله تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَاِلٍ {219} إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحفظكم، فكل واحد من الناس له ملائكة تحفظه بأمر الله وتتناوب على حفظه من أمامه ومن خلفه، وأن الله سبحانه لا يغير حال قوم من شدة إلى رخاء، ومن قوة إلى ضعف، حتى يغيروا ما بأنفسهم بما يتناسب مع الحال التي يصيرون إليها، وإذا أراد الله أن ينزل بقوم ما يسوؤهم فليس لهم ناصر يحميهم من أمره،

ولا من يتولى أمورهم فيدفع عنهم ما ينزل بهم سوى واليهم الذي يتولاهم في كل شيء.

هذه المعقبات من الملائكة تبين مدى ولاية الوالي سبحانه وتعالى لعباده، فهم معقبات من بين يديه ومن خلفه، والمعقبات ملائكة الليل والنهار. ويقال للملائكة الحفظة معقبات لكثرة تعاقب بعضهم بعضا في النزول إلى الأرض بعضهم بالليل وبعضهم بالنهار إذا مضى فريق خلفه فريق، "أي يعقب ملائكة الليل ملائكة النهار، وملائكة النهار ملائكة الليل ويجتمعون في صلاة الفجر والعصر. والمعنى له ملائكة يتعاقب بعضهم بعضا كائون من أمام الإنسان ووراء ظهره أي يحيطون من جوانبه ويحفظونه من أمر الله، ومن بأسه ونقمته إذا أذنب، وبدعائهم له ومسألتهم ربهم أن يمهلهم رجاء أن يتوب من ذنبه وينيب أو يحفظونه من المضار التي أمر الله بالحفظ منها"220.

فإن الله هو الوالي يتولى خلقه في كل شيء من أمرهم، فإذا غيروا ما بهم إلى الطاعات غير الله ما بهم منه من الإحسان والنعمة، وإذا كانوا في نعمة فغيروا ما بهم من الشكر لله تغير عليهم ما بهم من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك، وإذا كانوا في شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أخذوا في التضرع، وأظهروا العجز غير ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل إلى الفرج بعد الشدة، فإن الله تعالى هو الوالي المطلق الذي يتولى كل شيء من خلقه.

أما الوالي بالإضافة فهو الذي يلي الأمور بنفسه لما يتصف من صفات الوالي المطلق، وبذلك يكون خليفة في الأرض، فإن وليها غيره بأمره فليس بوال ولا خليفة، وإنما الوالي والخليفة هو المنسوب للولاية، وإنما

220 - تفسير حقي، ج 6، ص 233

سمى واليا لأتته يوالي الأمر من غير إهمال لأمر ما، ممّا له عليه ولاية، وإن لم يفعل فليس بوال، وإنما هو حاكم هوى وقد قال الله تعالى: { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } 221 فالله تعالى يخاطب الوالي بالإضافة بأنه جعله خليفة عنه في الأرض، ليحكم بين الناس بما شرع لهم، فلا يمشي في الحكم وراء الهوى، فيحيد به عن سبيل الله، إن الذين يحيدون عن سبيل الله باتباع أهوائهم لهم عذاب شديد بغفلتهم عن يوم الجزاء.

فالوالي عزّ وجلّ عندما يخاطب الإنسان: إنا جعلناك خليفة في الأرض، أي استخلف الله أوليائه في الأرض، فالخليفة هو من استمد صفاته من صفات خالقه ، أي انه قائل الحقّ ومتبعه الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر، فإن قلت آدم عليه السلام قد نص الله على خلافته فليس داود مخصوصا بالتنصيب على خلافته قلنا ما نص على خلافة آدم مثل التنصيب على خلافة داود، وإنما قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة فيحتمل أن يكون الخليفة الذي أراه الله غير آدم بأن يكون بعض أولاده، ولو قال أيضا إني جاعل آدم لم يكن مثل قوله إنا جعلناك خليفة بضمير الخطاب في حقّ داود فإنّ هذا محقق ليس فيه احتمال غير المقصود، قال بعضهم تجبرت الملائكة على آدم فجعله الله خليفة، وتجبر طالوت على داود فجعله خليفة، فلذا جعل الله الخلفاء آدم وداود. وكان مدة ملك داود أربعين سنة ممّا وهبه الخليفة الأول من عمره، فإن آدم وهب لداود من عمره ستين سنة، فلذا كان خليفة في الأرض كما كان آدم خليفة فيها 222.

221 - ص 26

222 - تفسير حقي، ج 12، ص 143

فالخلافة والولاية الحقيقية ليست بمكتسبة للإنسان، وإنما هي عطاء وفضل من الله يؤتیه من يشاء كما قال تعالى (إنا جعلناك خليفة) أي أعطيناك الخلافة، وإنا جعلناك خليفة في الأرض أي استخلفناك على الملك فيها والحكم فيما بين أهلها أو جعلناك خليفة وواليا ممن قبلك من القائمين بالحق، فاستعداد الخلافة مخصوص بالإنسان كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} 223. وهذا يعني أنّ الإنسان وإن خلق مستعدا للولاية ولكن بالقوة فلا يبلغ درجاتها بالفعل إلا القليل النادر، فالولاية هنا، هي الخلافة بعينها، فهو الذي جعل من الخلق ولاة وخلفاء للأمم في عمارة الكون، ورفع بعضهم فوق بعض درجات في الكمال المادي والمعنوي لأخذهم في أسبابه، ليختبرهم فيما أعطاهم من النعم كيف يشكرونها، وفيما آتاهم من الشرائع كيف يعملون بها، فقد جعل الله كل واحد من بني آدم، آدم وقته وخليفة ربّه في الأرض، وواليا يتولى شؤون نفسه بما أمر به الوالي المطلق، ويتولى شؤون غير من اتصف بصفات الوالي عزّ وجلّ، وسر الخلافة والولاية، أن صوره على صورة صفات نفسه حيا قيوما سميحا بصيرا عالما قادرا متكلما مريدا، فمن قام بهذه الصفات بما يرضي الله تعالى فهو والٍ وخليفة، فأنفاس الوالي وحركاته وتصرفاته عليه معدودة، والوالي لا يكون أبدا إلا في الخير الذي لا بدّ منه، فإنّه موجد على الدوام فلا تراه أبدا إلا في فضل وأنعام وإقامة حد لتطهير، والتطهير خير، فإن الوالي على الحقيقة هو الله، وإن المنصوب للولاية بحكم الله، يحكم بما أراه الله وهو الحقّ الذي أمر به، وقد أخبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم في دعائه معلما إيانا فقال: "لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت

أستغفرك وأتوب إليك"224 فالوالي لا يوالى إلا الخير ولا يأمر إلا بالخير، ولا يكون عنه في العقوبة والمثوبة إلا الخير، ثم قال والشر ليس إليك، فالوالي لا يوالى الشر بل لا يفعله أصلاً، لأنه ليس إليه، فالوالي إذا كان من نصّب الحقّ فالشر ليس إليه إلا إذا ترك ولاية الحقّ وحكم بالهوى فضّل عن سبيل الله فله عذاب شديد بما نسي يوم الحساب، فيكون ديوان الحكم الإلهي يأخذه إذا حاسبه، فالشقي من تأخر تطهيره إلى ذلك المقام الأخرى، والسعيد من تقدم تطهيره في الدنيا إمّا بتوبة يتوبها وإمّا بإنصاف، وأخذ منه في الدنيا حتى ينقلب إلى الآخرة وليس عليه حقّ، وربّما يكون ممّن يمشي في الدار الدنيا وما عليه خطيئة لكثرة ما يبتليه الله به ممّا يقع له به من الكفارات، وعلى الوالي أن يأخذ بالنصيحة، فلا يغفل في الدين ولا يقل على الله إلا الحقّ ولا على الخلق إلا الحقّ فإنّه المطلوب بما هو وإل عليه وعنه.

والوالي الذي يتولى أمور الناس ويحكم بالعدل والإنصاف بما أمر به الوالي المطلق فقد كان جزاؤه أجراً عظيماً حيث قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجلٌ ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجلٌ دعته ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله"225 من أئمة العدل والحاكمين بالعدل الذين يمكن لكل واحد منهم أن يكون الوالي والخليفة، وهؤلاء السبعة على الحقيقة يمثلون الوالي، وإن اختلفت الصور هذه السبعة اختلفت أعمالهم في الصورة، وجمعها معنى واحد، وهو

224 - سنن النسائي، ج3، ص 447

225 - موطأ مالك، ج 6، ص 22

مجاهدتهم لأنفسهم، ومخالفتهم لأهوائها، وذلك يحتاج أولاً إلى رياضة شديدة، وصبر على الامتناع مما يدعو إليه داعي الشهوة أو الغضب أو الطمع، وفي تجشم ذلك مشقة شديدة على النفس، ويحصل لها به تألم عظيم، فإن القلب يكاد يحترق من حر نار الشهوة أو الغضب عند هيجانها إذا لم تطفئ ببلوغ الغرض من ذلك، فلهذا كان ثواب الصبر على ذلك أنه إذا اشتد الحر في الموقف يوم القيامة، ولم يكن للناس ظل، يظلمهم واليهم ومولاهم ويقيهم حر الشمس يومئذ، وكان هؤلاء السبعة في ظل الله عز وجل، فلم يجدوا لحر الموقف ألماً جزاء لصبرهم على حر نار الشهوة أو الغضب في الدنيا، وتتجسد صورة هؤلاء السبعة في شخص الوالي العادل، ومن جرى مجراه وسار على خطاه.

إنّ الوالي الذي يعطيه الله الولاية ممّا يجب أن يحمل من الصفات فيصونها ويؤدّي حثّها، فقد خصهم الوالي عز وجل بنوع خاص من الثواب يوم القيامة، فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إنّ المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا" 226 فالذين ما ولوا أي كانت لهم عليه ولاية، والمقسطون هم العادلون.

وأما المنابر فإمّا أن يكونوا على منابر حقيقيّة، وإمّا أن يكون كناية عن المنازل الرفيعة، والوالي العادل الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط هو صاحب هذه المنابر، بما كان يقي نفسه ويأمر غيره باتقاء أنفسهم من المهلكات والمعاصي.

والوالي المطلق هو متولي إدارة الكون والخلق وفق نظم لكل خصوصية ووفقاً للنظام العام الذي ارتضاه لخلقه ولما خلق، والوالي

بالإضافة هو من يتولى إدارة نفسه ويتولى أمر من له علاقة به وتستوجب رعايته عناية وحفظ، فالأب والي لأبنائه حتى يغرس روح الولاية والأبوة فيهم، والأم والي على أبنائها حتى تغرس روح الأمومة فيهم، والأخ الكبير والي على الأخوة الصغار حتى يغرس روح الأخوة فيهم، والعالم والي للجاهل حتى يجعل منه عالماً، والمصلح والي للمفسد حتى يجعله على الصلاح، والقوي والي للضعيف حتى يُمكنه من القوة، والعاقل والي للظالم حتى يردده للحق، والأستاذ القدوة والي على التلاميذ والطلبة حتى يجعلهم على القدوة الحسنة، وهكذا من يولى على أمرٍ يكون والياً على ما ولي به، وتكون طاعته في الأمر واجبة في غير معصية الله تعالى.

لذا فالوالي بالإضافة يرضى رعيته ويسوسهم ويحفظهم، فهو يعلم أن الطريق إلى خير الإنسان وما فيه من صلاح الدنيا والدين هي ولاية النشء الصغير من أهم الأمور وأكدها لأنهم أمانة عند والديهم اللذين هما ولاية على التربيّة والإصلاح للأبناء، فالابن وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة يميل إلى كل ما يمال به إليه، فإن تعود الخير وتعلمه ونشأ عليه سعد في الدنيا والآخرة وتآدب، وإن عود الشر وأهمل، شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ {227} ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعودده التنعم، ولا يجب عليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره. ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان

يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ، فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل، بل يستعان على تأديبه بجيائه أو تمييزه، وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه، وأن يأكل مما يليه وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره، ولا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل، ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهايم، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل، وأن يجب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الحشن أي طعام كان، وأن يجب إليه الإيمان حتى يستتير قلبه به، فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين، ويُحفظ من مخالطة الأشرار والمفسدين.

إنّ الأمر بالوقاية من قبل الوالي هي بمعنى الحفظ والحماية والصيانة للنفس، والمراد بالنفس هنا ذات الإنسان لا النفس الأمّارة، والمعنى حفظ النفس وإبعادها عن النار بترك المعاصي وفعل الطاعات وكذلك أهليكم بالنصح والتأديب والتعليم، وقد وجب على الوالي هنا، وكل والٍ وجب عليه الأمر بالمعروف للأقرب فالأقرب، ورحم الله رجلاً قال: يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعل الله يجمعكم معهم في الجنّة، وفي الحديث أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "كلكم راع ومسئول عن رعيته فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيته والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته قال

فسمعت هؤلاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال والرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" 228 فكلكم راع، فعلى من كان واليا إقامة الأحكام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للناس كافة، وعليه أن يراعي حقوقهم، وأن يقوم عادلا بمصالحهم، ويعم بذلك جميع الناس فيدخل فيه المرعي أيضا، فالجواب أنه مرعي باعتبار، راع باعتبار آخر، حتى ولو لم يكن له أحد كان راعيا لجوارحه وحواسه فهو والٍ عليها، لأنه يجب عليه أن يقوم بحق الله وحق عباده، والرعاية من الوالي بمعنى الحفظ، يعني كلكم ملتزم بحفظ ما يطالب به من العدل إن كان واليا، ومن عدم الخيانة أن كان موليا عليه، وكلكم مسؤول عما التزم حفظه يوم القيامة فالوالي على الناس راع والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، والعبد راع على مال سيده، والكل مسؤول والكل والٍ، وأشد الناس عذابا يوم القيامة من جهل أهله وخص غيرهم بالنصيحة، مع أن حكم الأجانب من الوالي كحكمهم في ذلك لأن الأقارب أولى بالنصيحة لقربتهم كما قال تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} 229 وانذر العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي للأهل والأقارب، وإنما أمر بإنذار الأقربين لأن الاهتمام بشأنهم أهم، وهكذا لو الكل أنذر أهله الأقربون للحق الأمر الأباعد أيضا، ولكن البداية بهم في الإنذار أولى، كما أن البداية بهم في البر والصلة وغيرها أولى، وهنا شروط الأمر والنهي واجبة من الوالي في حق الأجانب والأقارب وخاصة الأهل.

228 - صحيح البخاري، ج 8، ص 253

229 - الشعراء 214

والوالي ليس فقط من دخل النَّاس في ولايته من أهله أو من كان مسؤولاً عنهم، وإنما أيضاً، إضافة إلى ذلك فإن الإنسان نفسه هو والٍ على نفسه من الغرائز والجوارح والشهوات.

الخليفة هو الوالي، وهو ظل الله في الأرض، إذا حكم بين النَّاس عدل، والنَّاس يستريحون إلى ظل عدله من حر الظلم، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليهم التقويم، وإذا كفر خرجوا عن طاعته.

فيترتب على الوالي العدل والإنصاف حتى ينطبق عليه الوصف بأنه ظل الله في أرضه وخليفته فيها، فإذا جارت الولاية قحطت السماء، أي إذا ذهب العدل انقطع القطر فلم تنبت الأرض فحصل القحط لأن الوالي فاصل بين الحقِّ والباطل فإذا ذهب الفاصل انقطعت الرحمة، وإذا منعت الزكاة هلكت العلاقات بين النَّاس، الزكاة رحمة من منعها منع رحمة الله في أرضه، ومن آتاهها اتبع عدله المطلق في أرضه، وإذا منعت الزكاة بقي المال بدنسه ولا بقاء للبركة مع الدنس، وإذا ارتحلت البركة عن شيء هلك لأن نسله ينقطع، وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة لأن الغنى من فضل الله، والفضل لأهل الفرح بالله وبعطائه وبالمناكحة الشرعية يلتقي الزوجان على الفرح بما أعطاهم الله، فمن زنا فقد آثر الفرح الذي من قبل الفحش، على الفرح الذي بفضل الله فأورثه الضلال.

لذلك وجب على الكافة إطاعة الوالي لأن طاعته من طاعة الله حيث قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } 230 فإيا أيها الذين صدقوا

بما جاء به محمد أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، وأطيعوا الذين يلون أمركم من المسلمين القائمين بالحق والعدل والمنفذين الشرع، فإن تنازعتم في شيء فيما بينكم فاعرضوه على كتاب الله وعلى سنة رسوله لتعلموا حكمه، فإنه أنزل عليكم كتابه وبينه رسوله، وفيه الحكم فيما اختلفتم فيه، وهذا مقتضى إيمانكم بالله واليوم الآخر، وهو خير لكم، لأنكم تهتدون به إلى العدل فيما اختلفتم فيه، وهو أحسن عاقبة، لأنه يمنع الخلاف المؤدى إلى التنازع والضلال، وهنا وجوب طاعة الولاية، وهم أمراء الحق وولاية العدل، ومن يقتدى بهم من المهتدين، وأما أمراء الجور فبمعزل من استحقاق العطف على الله والرسول في وجوب الطاعة، حيث نهى الوالي عز وجل عن اتخاذ أهل الباطل أولياء لأنهم يعيدون عن الحق قريبون من الظلم والضلال فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } 231 فلا يحل لكم أن تتخذوا اليهود ولا النصارى نصراء توالوهم، فهم سواء في معاداتكم. ومن جعل لهم الولاية عليه فإنه من جملتهم، وإن الله لا يهدى الذين يظلمون أنفسهم بجعل ولايتهم للكافرين. فهو خطاب يعم حكمه كافة المؤمنين من المخلصين، أي لا تتخذوا أحدا منهم وليا، بمعنى لا تصافوهم ولا تعاشرهم مصافاة الأحاب ولا تجعلوهم أولياء لكم حقيقة فانه أمر ممتنع، لأن بعض كل فريق من ذلك الفريقين أولياء البعض الآخر من ذلك الفريق لا من الفريق الآخر، لأنه لا موالاة بين فريقى اليهود والنصارى رأسا، والكل متفقون على الكفر مجتمعون على أذاكم ومضاركم فيكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة، ومن يتخذهم أولياء فانه منهم ومعهم في النار وهذا إذا تولاهم لدينهم، وأما الصحبة لمعاملة شراء شيء منهم أو طلب عمل منهم مع المخالفة في الاعتقاد والأمر

الدينية فليس فيه هذا الوعيد، وفيه زجر شديد عن إظهار صورة الموالاتة لهم وإن لم تكن موالاتة في الحقيقة، لكون من يتولاها منهم لا يرشد الذين ظلموا أنفسهم بترك إخوانهم المؤمنين وبموالاتة أعداء الله، وإنما وجبت الموالاتة للوالي الحقّ العادل الذي خوله من يتعلق الأمر به فردا أو جماعة أو مجتمعا، ولهذا جاء قوله: (أولي الأمر منكم) أي الذين أوليتموهم أمر التصرف فيما أوليتموهم فيه، وهنا تستوجب الطاعة، إما إذا خان الوالي ما ولي عليه فلا طاعة له بعد خيانة الأمانة. ولذلك على المستوى البشري لا إطلاق في أمر الولاية، والوالي على الحقيقة المطلقة هو الله تعالى فمن ثبت له هذا الاسم بالوجه الأعم فالأعم فهو أولى بالناس من أنفسهم، لذلك على المستوى البشري وجبت طاعة الوالي ما أن يأمر بمعصية، فعن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"²³².

وأما الولاية وهي الخلافة فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص، "فخير البلاد الذي يصيها من الوالي العادل هو إعمارها بما أراد الله تعالى من خليفته في أرضه، وأما خير العباد فبما يأخذ بأيديهم إلى الهدى والصالح وسبيل الرشاد حتى ينجو ممّا هو حامل أمانته، وينجيهم بأن أوصلهم إلى طريق الأمان والسلامة بدعوة الحقّ وإقامة العدل، فقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن أحبّ الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا إمام عادل وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر"²³³ فالمقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا. والعادل لأنه الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه من الحقّ، فهذا الوالي

²³² - صحيح مسلم، ج 9، ص 370

²³³ - سنن الترمذي، ج 5، ص 164

العادل أقرّبهم من محلّ كرامته وأرفعهم منزلة لامتنال قول ربّه تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان)، وأبغض النَّاس إلى الله وأبعدهم منه إمام جائر في حكمه على رعيته فإن الله يبغض الظلم ويبغض الظالمين ويعاقبهم.

فالولاية والخلافة من أعظم العبادات، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهرّتون من تقلدها وذلك لما فيها من عظم الخطر، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا، فإذا صارت الولاية محبوباً كان الوالي ساعياً في حظ نفسه، ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدر في جاهه وولايته وإن كان حقاً، ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلاً. ولهذا الخطر العظيم كان الأتقياء يخشون تقلد الولاية. ولعل القليل البصيرة يرى ما ورد من فضل الإمارة والولاية مع ما ورد من النهي عنها متناقضاً وليس كذلك، بل الحقّ فيه أن الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات، وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا، ونعني بالقوي الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع ولا تأخذه في الله لومة لائم، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم، فهؤلاء لا يحركهم إلا الحقّ ولا يسكنهم إلا الحقّ ولو زهقت فيهم أرواحهم، فهم أهل نيل الفضل في الولاية والخلافة، ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فلا يخوض في الولايات، ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحقّ كافة عن الشهوات في غير الولايات، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية وأن تستحلي الجاه وتستلذ نفاذ الأمر فتكره العزل، فيداهن خيفة من العزل، فهذا قد يختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية أم لا؟ ونحن نقول أنّه يجب أن لا يكون خوف أمر في المستقبل، وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحقّ وترك لذات النفس،

والصحيح أن عليه الاحتراز لأنّ النفس خداعة مدعية للحقّ واعدة بالخير، فلو وعدت بالخير جزماً لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية، فكيف إذا أظهرت التردد، والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع، فالعزل مؤلم وهو كما قيل العزل طلاق الرجال، فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحقّ وتهوي به في قعر جهنم، ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أنّ يعزل قهراً، وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية. ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو أمانة الشر.

ومن واجب الوالي بالإضافة مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الناس والصبر على أخلاقهم واحتمال ما يصدر عنهم من تقصير والسعي في إصلاحهم وإرشادهم إلى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهم والعمل على تقويمهم إلى ما يجب الاتباع وتجنب ما يجب الاجتناب، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل، فإنها رعاية وولاية، والأهل والولد رعية، وفضل الرعاية عظيم، إنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقّها، وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط، فمعانة الولاية بمنزلة الجهاد في سبيل الله. والوالي من يتولى الله سبحانه أمره، فلا يكله إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحقّ سبحانه، رعايته، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته، فعبادته تجري على التوالي، من غير أن يتخللها عصيان، والوالي يجب عليه القيام بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء، ودوام حفظ الله تعالى إياه في السراء والضراء حتى يكون والياً بصدق.

{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } 234 الله سبحانه وتعالى هو الوالي الذي يتولى أموركم

جميعاً، قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 235 فهو أمر بتحديد الولاية وحصرتها في الله تعالى ورسوله عليه الصلوة والسلام وفي المؤمنين الذين يأتون بأوامر الله في الطاعة والعبادة من إقامة الصلوة وإيتاء الزكاة، وما دون ذلك فليسوا أولياءكم لأن بعضهم أولياء بعض، إنما أولياءكم الله ورسوله والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة ولا تخطئوهم إلى الآخرين.

لقد بين الله تعالى من له الولاية على الخلق والقيام بأمرهم، ويجب طاعته عليهم، بقوله: (إنما وليكم الله ورسوله) فالذي يتولى مصالحكم ويحقق تدبير أموركم هو الله تعالى، ورسوله يفعل ذلك بأمره، وكذلك المؤمنون بالحق والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، طاعة لله تعالى، فقد بينت الآية الوالي المطلق والولاية بالإضافة، فهؤلاء أولى بتدبير أموركم ويجب عليكم طاعتهم في غير معصية الوالي المطلق الذي بيده الأمر والنهي وبيده الرزق والحياة والممات والبعث سبحانه لا إله إلا هو نحمده ونشكره ونستغفره ونتوب إليه.

فموالاة الله تكون في معاداة من خالفه فيما أمر وشرع وانتهك حرماته بارتكاب المعاصي، فقد خص الله تعالى المؤمنين بالموالاة تحديداً وفرق بين الإيمان والإسلام، لأن الإيمان أعلى درجة من الإسلام حيث قال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 236 فالإيمان هو التصديق بالله ورسوله المقرون بالثقة وحقيقة الصدق وطمأنينة القلب قال تعالى: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا

²³⁵ هود، 6.

236 - الحجرات 14

يَلْتَكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {237} فالإسلام انقياد
ودخول في السلم وإظهار الشهادة.

وموالاته الرسول في معاداة النفس ومخالفة الهوى كما قال عليه الصلاة
والسّلام: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به" 238.

فالموالاته هي الإيمان الكامل، الذي وعد الله أهله بدخول الجنة،
والنّجاة من النار، ولا يكون ذلك إلا بالقصر عما تحبه وتميل نفسه إليه،
وتبعا لما جاءت به هذه الشريعة المطهرة الكاملة، بأن يميل قلبه وطبعه إلى
الوالي الذي والاه وهو الله ورسوله، ويكون ذلك أكبر ممّا يجب من الأشياء
الدينيّة التي جبل على الميل إليها من النفس والمال والولد والوالد، ومن
كان هواه تابعا لجميع ما جاء به النبي صلّى الله عليه وسلّم كان مؤمنا
كاملا يعرف حقّ الوالي.

إنّ الوالي عزّ وجلّ إذا أراد أن ينزل بقوم ما يسوءهم فليس لهم ناصر
يحميهم من أمره، ولا من يتولى أمورهم فيدفع عنهم ما ينزل بهم، وهو
سبحانه يحفظهم، فكل واحد من النّاس له ملائكة تحفظه بأمر الله
وتتناوب على حفظه من أمامه ومن خلفه، وأن الله سبحانه لا يغيّر حال
قوم من شدة إلى رخاء، ومن قوّة إلى ضعف، حتى يغيّروا ما بأنفسهم بما
يتناسب مع الحالة التي يصيرون إليها، وإذا أراد الله أن ينزل بقوم ما
يسوءهم فليس لهم ناصر يحميهم من أمره، ولا من يتولى أمورهم فيدفع
عنهم ما ينزل بهم.

فإذا غيّر ما بهم إلى الطاعات غيّر الله ما بهم منه من الإحسان
والنعمة، وإذا كانوا في نعمة فغيّروا ما بهم من الشكر لله تغيّر عليهم ما بهم

237 الحجرات 14.

238 - الإبانة الكبرى، ج 1، ص 298

من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من ذلك، وإذا كانوا في شدة لا يغيّر ما بهم من البلاء حتى يغيّروا ما بأنفسهم، وإذا أخذوا في التضرع وأظهروا العجز غيّر ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل.

وإذا غيّرُوا ما بألسنتهم من الذكر غيّر الله ما بقلوبهم من الحظوظ فأبدلهم به النسيان والغفلة، وإذا كان العبد في بسطة وتقريب، وكشف بالقلب وترقب فالله لا يغيّر ما بأنفسهم بترك أدب، أو إخلال بحق، أو إلمام بذنب.

والوالي سبحانه وتعالى لا يكفّ ما أتاحه للعبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتى يترك ويغيّر ما هو به من الشكر والحمد. فإذا قابل النعمة بالكفران، وأبدل حضور القلب بالنسيان وما يطيح به من العصيان، أبدل الله تعالى ما به من النعمة بالحرمان والخذلان، وسلبه ما كان يعطيه من الإحسان. وإذا توالى المحن وأراد العبد زوالها فلا يصل إليه النقيض منها إلا بأن يغيّر ما هو به، فيأخذ في السؤال بعد السكوت، وفي إظهار الجزع بعد السكون، فإذا أخذ في التضرع غيّر الوالي ما به من الصبر.

إنّ الله سبحانه وتعالى هو الوالي، وهو الذي يتولى عبادة المؤمنين الصالحين، ويتولى الصالحين لأن الله ورسوله أولى بالمؤمنين من أنفسهم فقد قال تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} 239 فالله سبحانه وتعالى هو الذي ينصر عباده وهو الله الذي يتولاهم بكل أمورهم في تسييرها وتديبرها، والوالي هو الناصر والحافظ الذي يتولى نصر عباده وحفظهم، فالله تعالى يتولى الصالحين من عباده وينصرهم لا يخذلهم، فلا تضرهم عداوة من عاداه.

فالوالمى ءلّ شأنه سبى فى مشيئته ووعده أن ينصر الصالحين من عباده ولا يخذلهم، وإنما خص اسم الذات بتنزيل الكتاب وجعلت الآية تعليلاً للذلالة على تفخيم أمر المنزل وأنه الفارق بين الحقّ والباطل وأنه المجلّى لظلمات الشرك والمفحم لألسن أرباب البيان والمعجز الباقي فى كل أوان وهو النور المبين والحبل المتين وبه أصلح الله تعالى شؤون رسوله صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى تولاه حيث كمل به خلقه وأقام به أوده وأفسد به الأباطيل المعطلة، لذلك فإن ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى نزل الكتاب الذى تعرفون حقيقة ومثله يتولى الصالحين ويخذل غيرهم، والصالحون يتولاهم الله بفضله ويمنحهم مغفرته ويورثهم أرضه، فمن أعظم ما يضيفى السعادة على العبد ركونه إلى ربه، وتوكله عليه، واكتفاؤه بولايته ورعايته وحراسته، فهؤلاء الذين صلحت نياتهم، وأقوالهم، فهم لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى، ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر تولاهم الله ولطف بهم، وأعانهم على ما فيه الخير، والمصلحة فى دينهم وديانهم ودفعت عنهم بإيمانهم كل مكروه، فهذا التولى لهم جزاء صلاحهم وتقواهم ومسبب عنه فلا يكون متقدماً عليه وإن كان إنما صاروا صالحين ومتقين بمشيئته وقدرته وفضله وإحسانه، وكوّنهم متقين وصالحين فدل على أن هذا التولى هو بعد ذلك مثل كونه مع المتقين والصالحين بنصره وتأييده ليس ذلك قبل كوّنهم متقين وصالحين، وهكذا الرحمة قال الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء.

فالله سبحانه وتعالى يتولى الصالحين، وهم الذين لا يعدلون بالله شيئاً فيتولاهم وينصرهم، ولا تضرهم عداوة من عاداهم كما قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} 240 فالوالمى ينصر من تولاه بالحجة والظفر والانتقام له من عدوه بالاستئصال

وغير ذلك من العقوبات العادلة، وأن الله تعالى ينتقم لوليه من الأعداء ولو بعد حين كما بعد الموت، "ألا ترى أن الله تعالى انتقم ليحيى عليه الصلاة والسلام بعد استشهاده من بني إسرائيل بتسليط بختنصر حتى قتل به سبعون ألفاً" 241 وكمال النصر في الظفر على أعدى عدوك وهي نفسك التي بين جنبيك وهو الجهاد الأكبر، ولا يمكن الظفر على النفس إلا بنصرة الحقّ تعالى للقلب، ولا يصل هذه الدرجة من التغلب على النفس وشهواتها إلا الوالي بالإضافة الذي وصل إلى درجة الخليفة الذي أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ مُسْتَخْلَفًا فِي الْأَرْضِ لِمَا يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْوَالِيِّ النَّسَبِيَّةِ الَّتِي تَوْهَلُهُ لِأَنَّ يَكُونَ خَلِيفَةً. وَأَوَّلُ مَنْ يَتَوَلَّى الْوَالِيَّ الْمَطْلُوقَ مِنْ خَلْقِهِ لِيَكُونَ وَالِيًا بِالْإِضَافَةِ هُمُ الصَّالِحُونَ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} 242 فهذا الجدار الذي أقامه العبد الصالح - دون أجر - كان لغلامين يتيمين من أهل المدينة، وكان تحته كنز تركه أبوهما لهما، وكان رجلاً صالحاً، فتولاه الوالي عز وجلّ وتولى ذريته من بعده بأن حفظ لهما الكنز حتى يبلغا رشدهما، ويستخرجاه رحمةً بهما، وتكرهما لأبيهما في ذريته. وما فعل ذلك العبد الصالح باجتهاد منه أو علم، وإنما فعله بتوجيه من الوالي الذي تولى ذرية ذلك الرجل بعد موته إكراماً لصلاحه، فمن أراد أن يحفظه الله في أبنائه فليخف من الله سبحانه وتعالى صلاحاً وتقوى، وليحفظ الله في نفسه في السر والعلن، وفي السراء والضراء، وفي الصحة والمرض، فإن أهل الكنز الذين في سورة الكهف حفظ الله عليهم كنزهم، فلما كان ذلك الرجل

241 - تفسير حقّي، ج 12، ص 411

242 - الكهف 82

صالحا حفظ الله عليه أبنائه وكنزه، فكل من يتولى الله يتولاه الله في أهله وزوجه وأولاده ورزقه وفي مدخله ومخرجه حتى يلقي الله ربه.

إنّ الذين يتولاهم الله هم الفائزون بالدنيا والآخرة، ذلك أنّهم اتصفوا بالصفات النسبية للوالي المطلق، فالتزموا أوامره وامتنعوا عن نواهيه، فأمنوا بالخوف والحزن والجزع كما قال الله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} 243 إنّ الموالين لله بالإيمان والطاعة يحبهم ويحبونه، فلا خوف عليهم من الخزي في الدنيا، ولا من العذاب في الآخرة، وهم لا يحنون على ما فاتهم من عرض الدنيا، لأنّ لهم عند الله ما هو أعظم من ذلك وأكثر وهم الذين صدّقوا بكل ما جاء من عند الله، وأذعنوا للحق، واجتنبوا المعاصي، وخافوا الله في كل أعمالهم. لهؤلاء الأولياء البشرى بالخير في الدنيا، وما وعدهم الله به من نصر وعزة، وفي الآخرة يتحقّق لهم وعد الله، ولا خلف لما وعد الله به، وهذا الذي بشروا به في الدنيا، وظفروا به في الآخرة هو الفوز العظيم.

من المعلوم أنّ أولياء الله هم أحبّاء الله وأعداء نفوسهم، لأنّ الولاية هي معرفة الله ومعرفة نفوسهم، فمعرفة الله برؤيته بنظر المحبة والخوف منه والتقوى والصلاح، ومعرفة النفس برؤيتها بنظر العداوة ومنعها الشهوات وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، فإذا عرف الإنسان نفسه حقّ المعرفة وعلم أنّها عدوة الله له وعالجها بالمعاندة والممانعة الحقّ وكسر الشهوات، أمن مكرها وكيدها، وهكذا يفعل أولياء الله حتى يتصفوا بالصفات الحسان النسبية للوالي.

وأولياء الله هم المؤمنون تمام الإيمان لقربهم الروحاني من الوالي سبحانه وتعالى، لأنّهم يتولونه بالطاعات ويتقربون إليه بالتقوى والاستغراق في

معرفته بحيث رأوا دلائل قدرته، وسمعوا آياته ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، فاجتهدوا في ذلك حقّ لذلك لا خوف عليهم في الدارين من أن يلحق بهم مكروه، والخوف أنما يكون من حدوث شيء من المكاره في المستقبل، فهم أمنوا بطاعتهم وتقواهم ذلك الخوف لأنهم أصبحوا أولياء الله، ولا هم يجزون أيضا من فوات مطلوب، لأن الحزن إنما يكون من تحقّق شيء ممّا كرهه في الماضي أو من فوات شيء أحبه يندم عليه، فهم لا يعتر بهم ما يوجب ذلك، فلا يخافون ولا يجزون، بل يستمرون على النشاط والسرور والخشية استعظاما لجلال الله وهيبته، والسعي والجد في إقامة حقوق العبودية للوالي تعالى ليكونوا من خواص المقربين.

الأولياء هم الأقلون عددا، والأعظمون قدرا، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من وراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، فالوالي بالإضافة الذي اتصف بصفات الوالي المطلق من خلال علمه بقدرة الوالي وحقّه واتباع أمره، وهو لم يكن من الذين ركنوا إلى هوى النفوس وملذاتها، إلا أنّ الوالي الذي يتولاه الله تعالى يأنس بما استوحش منه الغافلون، لأنّه يصحب الدنيا بجسد روحه معلقة بالحل الأعلى، أولئك أولياء الله عزّ وجلّ من خلقه وأمنائه وعماله في أرضه والدعاة إلى دينه الذين يرثون الأرض بما وعدهم الله من صالح أعمالهم، وضبط حركاتهم بموازين المعاني، وتصرفاتهم بالحسبان، فهذه سجية أولياء الله تعالى. وكلما كانت حركات الإنسان وخطراته إلى الضبط أقرب وعن الإهمال وتركه مدى أبعد، كانت مرتبته إلى رتبة الأنبياء والأولياء أكثر وكان قربّه من الله عزّ وجلّ أظهر، والتخلق بالأخلاق التي أمر بها أقرب إليه تعالى، وهو اقتداء بالنبي عليه الصلّاة والسلام وقرب منه، إذ القريب من النبي صلّى الله عليه وسلّم هو القريب

من الله عزّ وجلّ والقريب من الله لا بدّ أن يكون قريباً، فالقريب من القريب قريب بالإضافة إلى غيره.

إنّ الذين يتخلقون بأخلاق الوالي النسبية ويتمكن الإيمان في قلوبهم، فهؤلاء الذين يتولاهم الله تعالى، ويحفظهم بعنايته ويحفظهم برعايته لأنهم خلفاء في أرضه بما يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، فقد هدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور، فقد قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} 244 الله تعالى يتولى شؤون المؤمنين وهو ناصرهم، يخرجهم من ظلمات الشك والحيرة إلى نور الحق والاطمئنان، والكافرون بالله تستولي عليهم الشياطين ودعاة الشر والضلال، فهم يخرجونهم من نور الإيمان الذي فطروا عليه والذي وضح بالأدلة والآيات إلى ظلمات الكفر والفساد، هؤلاء الكافرون هم أهل النار مخلدون فيها.

وأما من والى الله تعالى فقد غمره بفضله ومحبته وإعانتة له، وهو الذي يتولى أمور أوليائه ولا يكلهم إلى غيره. فالوالي يكون باعتبار المحبة والنصرة فيقال للمحب والٍ لأنه يقرب من حبيبه بالنصرة والمعونة لا يفارقه وقد يكون باعتبار التدبير والأمر والنهي فيقال لأصحاب الولاية أولياء لأنهم يقرّبون القوم بأن يدبروا أمروهم ويراعوا مصالحهم ومهماتهم، فالله تعالى يتولى الذين عظم إيمانهم وثبت في علمه أنهم يؤمنون حقّ الإيمان، لذلك تولاهم الله وأخرجهم من الظلمات إلى النور، لأن إخراج المؤمن بالفعل من الظلمات تحصيل الحاصل، وهى أعم من ظلمات الكفر والمعاصي وظلمات الشبه والشكوك، بل ممّا في بعض مراتب العلوم الاستدلالية من نوع ضعف وخفاء بالقياس إلى مراتبها القوية الجليّة بل ممّا

في جميع مراتبها بالنظر إلى مرتبة العيان الذي يعم نور الإيمان ونور اليقين بمراتبه، ونور العيان يخرج بهدايته وتوفيقه كل واحد منهم من الظلمة التي وقع فيها إلى ما يقابلها من النور. وجمع الظلمات لان فنون الضلالة متعددة والكفر أنواع وملل متنوعة، وأما النور فقد أفرده فهو واحد، لأن الإسلام دين واحد، ويسمى الكفر ظلماً لالتباس طريقه ويسمى الإسلام نوراً لوضوح طريقه.

ومراتب المؤمنين في الإيمان متفاوتة وهم ثلاث طوائف، عوام المؤمنين وهم السواد الأعظم من المسلمين، وخواصهم وهم أعلى مرتبة، وخواص الخواص وهم أهل الذكر، فالعوام يخرجهم الله من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية، والخواص الذين هم أهل الذكر والعلم، وخواص الخواص الذين وصلوا إلى أعلى درجات الإيمان واتصفوا بالصفات النسبية للوالب فتولاهم الله تعالى وكانوا أولياءه فهم الخلفاء في الأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ {245} ومن يتخذ الله ورسوله والمؤمنين أولياءه ونصراءه فإنه يكون من حزب الله الذين تولاهم بعنايته ورعايته، وحزب الله هم المنتصرون الفائزون، ومن يتخذهم أولياء فإنهم الغالبون، ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون. وتشريفاً لهم بإضافتهم إليه تعالى وتعريضاً بمن يوالى غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان.

والغلبة على أعداء الله الظاهرة والباطنة، كالهوى والنفس والشيطان إنما تحصل بنصرة الله تعالى، وليست النصر والغلبة إلا بقوة الله تعالى وهو المعز وكل العزة منه تعالى، ولذا ترى الأنبياء والأولياء منصورين مظفرين على كل حال وهذه النصر والولاية من آثار عناية الله، وذلك لما منحهم

من مواهب الرضا بمواقع القضاء والصبر عند نزول البلاء والتوكل على الله عند الشدائد والرجوع إلى الله عند النوائب، لهذا فأولياء الله تجب موالاتهم، وتحرم معاداتهم، كما أنّ أعداءه تجب معاداتهم، وتحرم موالاتهم. وأولياء الله تعالى هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما ذكر الله ذلك في كتابه وهم قسمان المقتصدون أصحاب اليمين والمقربون السابقون فولي الله ضد عدو الله، فأولياء الله من والاهم بالموافقة له في محبوباته ومرضياته وتقربوا إليه بما أمر به من طاعاته، وهؤلاء هم المقتصدون أصحاب اليمين وهم المتقربون إلى الله تعالى بالواجبات والسابقون المقربون وهم المتقربون بالنوافل بعد الواجبات.

إنّ من صفات المؤمنين موالاة بعضهم بعضا فدخل في ذلك رسل الله الذين هم أكمل المؤمنين إيماناً، وعليه فإن موالاتهم ومحبتهم في قلوب المؤمنين هي أعظم من موالاة غيرهم من الخلق لعلو مكانتهم في الدين ورفعة درجاتهم في الإيمان. ولذا حذر الله من معادة رسله وعطفها في الذكر على معادة الله وملائكته وقرن بينهما في العقوبة والجزاء، فقال تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} 246 فمن كان عدوا لجبريل أو ميكائيل أو لأي ملك أو رسول من ملائكة الله ورسله الذين لا يفعلون ولا يبلغون إلا ما يأمرهم به الله، وكان مخالفا لأمر الله عنادا وخارجا عن طاعته مكابرة فإنه بذلك يكون عدوا وكافرا به، والله عدو الكافرين، وإن من كان عدوا لجبريل لأجل أنه نزل بالقرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم وجب أن يكون عدوا لله، لأن الله تعالى هو الذي نزله على محمد عليه الصلاة والسلام، فقد بين أن كل من كان عدوا لأحد من هؤلاء، فإنه عدو لجميعهم، وبين أن الله عدوه بقوله (فإن الله عدو للكافرين) فأما عدواتهم

لله فإنها لا تضره ولا تؤثر وعداوته لهم تؤدّيهم إلى العذاب الدائم، الذي لا ضرر أعظم منه، المراد من عداوتهم لله وعداوتهم لأوليائه وأهل طاعته فهو كقوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} 247 أي يحاربون أولياء الله أهل طاعته. ومعادة أحد من ملائكته ورسله، فهو عداة لهم جميعا، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بجميعهم، وجبريل وميكائيل إنما خصهما بالذكر وإن كانا داخلين في جملة الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما وعلو منزلتهما، وقدم جبريل على ميكائيل لفضله عليه لأن جبريل ينزل بالوحي على الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام وهم الأولياء والخلفاء.

والموالة أن تتخذ وليا، وأصلها من الولاية، والولاية هي المحبة، قال جلّ وعلا: {هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا} 248 يعني هنالك المحبة والمودة والنصرة لله الحقّ، فأصل الموالة المحبة والمودة، وأن أصل الموالة في القلب، فأصل الدين أنّ من دخل في (لا إله إلا الله) فإنّه يجب هذه الكلمة وما دلت عليه من التوحيد، ويجب أهلها، ويُبغض الشرك المناقض لهذه الكلمة، ويبغض أهله. فكلمة الولاء والبراء هي معنى الموالة والمعادة، وهي بمعنى الحب والبغض، فإذا قيل الولاء والبراء في الله هو بمعنى الحب والبغض في الله، وهو بمعنى الموالة والمعادة في الله، ثلاثة بمعنى واحد، فأصله في محبة القلب، إذا أحبّ القلبُ الشرك صار مواليا للشرك، وإذا أحبّ القلبُ أهل الشرك صار مواليا لأهل الشرك، كذلك إذا أحبّ القلبُ الإيمان صار مواليا للإيمان، وإذا أحبّ القلبُ الله صار مواليا لله، وإذا أحبّ القلبُ الرّسول صار وليا ومواليا للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وإذا أحبّ القلبُ المؤمنين صار مواليا ووليا للمؤمنين.

247 - المائدة 33

248 - الكهف 44

فلكل مؤمن ولاية بحسبه، لكن اسم الوالي هذا خاص بمن كتل الإيمان والتقوى، وسعى في تكميل إيمانه وتقواه والإيمان، إيمان بالأركان الستة التي جاءت في القرآن الكريم وفي حديث جبريل عليه السلام عن أبي هريرة قال كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال: "يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسوله وتؤمن بالبعث الآخر، قال يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان، قال يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك، قال يا رسول الله متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ثم تلا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 249. قال ثم أدبر الرجل. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ردوا عليّ الرجل، فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئاً. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم" 250 وغيرها، ومنها الإيمان بالرّسل، والإيمان بالكتب، ومن الإيمان بالرّسل والإيمان بالكتب بل هو أخصها الإيمان بأنّ محمداً بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنّ القرآن خاتم الكتب، وأنّ طاعة محمّد بن عبد الله فرض وليس لأحد أن يخرج عن طاعته، فمن أخذ بهذا وأيقن به واستمسك بما جاء من الله فهم من الأولياء الذين يخلفون الله تعالى في أرضه التي أورها لهم لأنهم من العباد الصالحين.

249 لقمان 34.

250 - صحيح مسلم، ج1، ص 30

{النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا
إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} 251 النبي عليه
الصَّلَاة والسَّلَام هو الوالي الذي اجتمعت به جميع الصفات النسبية للوالي
المطلق، ولذلك فهو أحق الخلق بولاية المؤمنين، فقد كان أرحم بهم من
نفوسهم، فعليهم أن يحبوه ويطيعوه ويقتدوا به، وأزواجه أمهاتهم في التوقير
وحرمة الزواج بهن بعده، وذوو القربات بعضهم أولياء بعض فيما أمر به
الله تعالى، فالله تعالى يُعلم المؤمنين بمكانة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
ومرتبته لذلك وجب عليهم الالتزام بما أمر به الوالي المطلق بمقتضى تلك
الحالة فقال: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فهو عليه الصَّلَاة والسَّلَام
أقرب ما للمؤمنين، وأولى منهم بأنفسهم، لأنه بذل لهم من النصح والشفقة
والرأفة، ما كان به أرحم الخلق بهم وأرفهم، فرسول الله أعظم الخلق مِنَّةً
عليهم من كل أحد، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير ولا اندفع
عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على يديه وبسببه، فلذلك وجب عليهم إذا
تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس، مع مراد الرسول، أن يقدم
مراد الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول بقول أحد كائنًا من كان، وأن
يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على الخلق كلهم، وألا
يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه.

إنّ الوالي الذي جعله الله خليفة في الأرض وجب اتباعه لأنه أحرى
وأجدر بالمؤمنين من أنفسهم في كل أمر من أمور الدين والدنيا، لأنه لو
دعاهم إلى شيء ودعتهم نفوسهم إلى شيء آخر كان الوالي أولى بالإجابة
إلى ما يدعوهم إليه من إجابة ما تدعوهم إليه نفوسهم، لأن الوالي
بالإضافة لا يدعوهم إلا إلى ما فيه نجاتهم وفوزهم، وأما نفوسهم فرمّا

تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم وبوارهم كما قال تعالى: {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ
بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 252 ومن هنا وجب أن
يكون الرسول عليه الصلّاة والسّلام وهو والي المؤمنين وملاهم أحب إليهم
من أنفسهم، وأمره أنفذ عليهم من أمرها وآثر لديهم من حقوقها وشفقتهم
عليه أقدم من شفقتهم عليها وإن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه في
الخطوب، ويتبعوه في كل ما دعاهم إليه.

إنّ الوالي جلّ جعل الولاية بالإضافة خلفاء في الأرض من أجلّ
أعمارها وإصلاحها خدمة للإنسان، لذلك أمر سبحانه وتعالى إتباع الوالي
بالإضافة لما خصه الله تعالى من تفضيل على بقية الخلق لأنه اتصف نسبيا
بصفات الله وتخلّق بالأخلاق التي أمر بها الله سبحانه، ولذا وجب إتباعه
وموالاته فقد قال تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَليُّ الْمُؤْمِنِينَ} 253 إن أحقّ الناس بالانتساب إلى
إبراهيم ودينه وموالاته هم الذين أجابوا دعوته واهتدوا بهديه وتخلّقوا
بأخلاقه، وكذلك محمّد عليه الصلّاة والسّلام ومن آمن معه، فإنهم أهل
التوحيد الخالص وهو دين إبراهيم، والله يحب المؤمنين وينصرهم لأنهم
أولياؤه، ويجازيهم بالحسنى وزيادة، فأولى الناس بموالاته الوالي هم الذين آمنوا
به واتبعوا ملته وتخلّقوا بأخلاقه، والتزموا ما أمر به من الأوامر، وانتهوا عما
نهى عنه من النواهي، ومحمّد صلّى الله على وسلّم ومن آمن معه، فهم
الذين اتبعوه وهم أولى به من غيرهم، فالله تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم،
لموافقتهم في ما شرعه لهم وما أمرهم به، وقد قال عليه الصلّاة والسّلام:
"إن لكل نبي ولاية من النبيين وإن وليي أبي وخليل ربّي إبراهيم، ثم قرأ (إن

252 - يوسف 53

253 - آل عمران 68

أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين" (254).

ومما استدلل به على استواء الولاية من الله عزّ وجلّ من خلقه، ومن يتولى الله عزّ وجلّ من خلقه أن الله عزّ وجلّ قال: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) وقال: (إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) وقال: (أنت وليي في الدنيا والآخرة توفي مسلما والحقني بالصالحين) وقال: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) في آيات كثيرة قد ذكرنا بعضها، وكانت الولاية فيها من الله عزّ وجلّ لمن يتولاه من عباده كالولاية التي يتولى الله عزّ وجلّ من يتولاه. إن الله سبحانه وتعالى يتولى من يشاء ويستخلف من يشاء من عباده لتدبير شؤون خلقه حيث قال تعالى: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} 255 عسى الله أن يهلك عدوكم ويجعلكم خلفاء في الأرض، فيعلم سبحانه ما أنتم عاملون بعد هذا التمكين، أتشكرون النعمة أم تكفرون؟ وتصلحون في الأرض أم تفسدون؟ ليجزيكم في الدنيا والآخرة بما تعملون.

فهو جاعلكم خلفاء في الدنيا في أموالكم ومتاعكم وأنعامكم التي هي في الحقيقة ليست لكم، وإنما هي لله تعالى جعلكم في التصرف فيها بمنزلة الوكلاء فناظر كيف تتصرفون، وجاعلكم خلفاء لمن كان قبلكم ومعطي ما في أيديهم لكم، فناظر هل تعتبرون بحالهم وتتدبرون في مآلهم، فالله تعالى هو الخالق لكل شيء، المالك له، ولم يغب عن خلقه ومملكه حتى يتخذ خليفة عنه في أرضه، وإنما يجعل الله بعض الناس خلفاء لبعض في الأرض، فكلما هلك فرد أو جماعة أو أمة جعل غيرها خليفة منها

254 - مسند أحمد، ج 8، ص 401

255 - الأعراف 129

يخلفها في عمارة الأرض، فمن توكل على الله فهو حسبه ومولاه فنعم المولى ونعم النصير، والذي يعتصم بالله هو مولاه لأنه توكل عليه، فالتوكل على الله والالتجاء إليه يكون من الاقتداء بسنة الله تعالى في أوليائه، لأنه هو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف ويجير المستجير وهو نعم المولى ونعم النصير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانته، ومن خافه واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج من المنافع، لذلك وجب على الإنسان أن يكون واليا على نفسه، فلا يخرج عما أمر به الوالي المطلق عز وجلّ، ولا يبتعد عما يرضي ربّه بحال من الأحوال أو وجه من الوجوه حتى يصلح أن يكون واليا.

فالوالي من يتولاه الله تعالى ويجعله خليفته وخليفةً يقتدي به الآخرون، { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ } 256 وهو الذي جعلكم خلفاء للأمم السابقة في عمارة الكون، ورفع بعضكم فوق بعض درجات في الكمال المادي والمعنوي لأخذكم في أسبابه، ليختبركم فيما أعطاكم من النعم كيف تشكرونها؟ وفيما آتاكم من الشرائع كيف تعملون بها، فكان من سنته تعالى أن يخلف بعضكم بعضا، فاستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاككم لينظر كيف تعملون. فالله تعالى رفع بعضكم درجات في القوّة والعافية والرزق والخلق والخلق فتفاوتت أعمالكم، وقد جعل كل واحد من بني آدم، آدم وقته وعصره وزمانه، وخليفة ربّه في الأرض. وسر الخلافة أنه صورته على صورة صفاته حيا قيوما سميعا بصيرا عالما قادرا متكلم مريدا ليعاملكم معاملة من يتليكم ويمتحنكم لينظر ماذا تعملون من الشكر أو غير ذلك.

من صفات النبي يوسف

1 . راءٍ:

الرائي الذي يرى ما يرى صحوة فتكون رؤية، أمّا في النوم فهي رؤيا، ولأنّ أمر الرؤية هنا متعلق بيوسف صلّى الله عليه وسلّم، فهي رؤيا منام، ولهذا؛ فهي تُفسّر تأويلا كما فُسرت من قبل يعقوب صلّى الله عليه وسلّم، ولأنّها رؤيا فهي المحتوية للحقيقة التي تتضمنها، وليس التي نصت عليها، فهي رؤيا تنص على أحد عشر كوكبا، والشمس والقمر، والسجود ليوسف، أمّا ما تحتويه فهو المدلول عليهم، وهم: الأخوة والأبوان وطاعتهم لأمر الله بالسجود ليوسف، قال تعالى: { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ } 257.

فقوله: (إِنِّي رَأَيْتُ) جاءت مؤكدة لتدل على أنّها رؤية يقينية لا شك فيها، ولأنّها كذلك كانت المتحققة على أرض الواقع والمتجسدة فيما فُسرت به (أخوة يوسف ووالداه والطاعة التامة لأمر الله تعالى).

إذا الرائي هو من تثبت رؤيته لما يراه فعلا وسلوكا من المشاهد إلى الملاحظ الذي يُدرك إدراكا.

2 . مؤول الأحاديث والرؤى:

التأويل: هو إخفاء المدلل عليه بالمدلل به، ففي قصة يوسف صلّى الله عليه وسلّم، المدلل عليه هو: أخوة يوسف وأبواه وطاعة الله تعالى فيما يأمر أن يُتبع، والمدلل به هو: الكواكب والشمس والقمر وسجودهم، وهذه التي أسميناها المدلل به على المدلل عليه.

وتأويل الأحاديث: هو أن تقال أو تعرض الأحاديث بنصوص لا مباشرة فيها، بل تعرض بما يحمل المعنى بدلائل مستقلة (وكأنها على غير علاقة بالنص المروي)، أي كمن يسأل:

. ما علاقة الكواكب بأخوة يوسف؟

. ما علاقة الشمس والقمر بوالدي يوسف؟

. ما علاقة الكواكب والشمس والقمر بالسجود ليوسف؟

والمؤول: هو المتعرف على الدال بالمدلول، ويكشفه للآخرين وفقا لقاعدة التطابق في العدد والحركة والسكون والزمان والمكان، حتى يكون التصديق والتسليم بما أول تأويلا، فكما كان عدد الكواكب أحد عشر كوكبا كان عدد أخوة يوسف، وكما كان القمر والشمس كان الأبوان ليوسف، وكما كان ركوع الكواكب والشمس والقمر كان ذلك من الأخوة والأبوين طاعة لله تعالى.

وتأويل الأحاديث ليس تفسيرا، فالتأويل هو إظهار المخفي من المعلوم الظاهر على الحالة والصورة والحركة والمكان والزمان، فكما في قصة يوسف كانت الرؤية في الظاهر هي متعلقة بأمر السماء (كواكب وشمس وقمر) وكانت في المخفي الذي تم إظهاره حقيقة على الأرض (رؤية على أرض واقع)، ولذلك، كان التأويل لحقيقة كامنة في الظاهر من مؤول موضوعي حيث لا شخصانية تربطه بما يؤوله تأويلا للحقيقة.

أمّا التفسير فهو اجتهاد مجتهد يُمكن أن يصيب صاحبه فيما يُفسره ويُمكن أن يخطئ، وفي مُعظم الأحيان لا يتجرّد النص عن رؤية المُفسّر الخاصة، وهذا ما يفقده المصدقية في بعض الأحيان، والتفسير إنّ تعلق بالمعلومة خطأ وإن تعلّق بالنتيجة يكون على الصواب أو على مقرّبة

منه، ولهذا فالفرق كبير بين أن تُفسَّر المعلومة أو النتيجة تفسيراً اجتهادياً وبين أن تُؤوَّل الحقيقة بالحقيقة هي كما هي.

وعليه: فالتأويل ليس التفسير بالتمام بل هو معرفة تُمكن المؤوِّل من كشف العلاقة بين المنصوص عليه وبين ما يدل عليه النص، فكما جاء في رؤيا يوسف النص جاء مصرِّحاً بأحد عشر كوكبا والشمس والقمر والسجود، أمَّا ما دلت الرؤيا عليه هو: أخوة يوسف ووالداه وطاعتهم لله تعالى، وهذا تأويل يعقوب لرؤيا يوسف صَلَّى اللهُ عليهما وسلِّم.

أمَّا تأويل يوسف فجاء في قوله تعالى: {وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} 258.

فكانت نتيجة التأويل هي قوله تعالى: {يَا صَاحِبِ السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فُضِي الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} 259.

تأويل يوسف لا يحتاج لمؤول، ولهذا استشهدنا بالنص القرآني على النص القرآني لتأويل يوسف لرؤيتي السجينين كما هو أوَّلهما.

ولهذا كان يوسف منبأ بتأويل الرؤية قبل أن تتحقَّق، مصداقاً لقوله تعالى: {قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا

258- يوسف 36، 37.

259- يوسف 41.

ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
كَافِرُونَ {260}.

وعليه: فتأويل الأحاديث صفة كريمة من صفات يوسف صَلَّى اللهُ
عليه وسلّم، وهذا التأويل عطاء من الله قد كَرَّمَ اللهُ به يوسف، قال تعالى:
{ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ
بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ
بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ رَبِّ قَدْ
آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ } {261}.

فقوله: (يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ) يدل على تأويل يعقوب لرؤيا
يوسف، وكذلك يدل على أنّ يوسف كان هو الآخر متفقاً على مصداق
هذا التأويل من البداية، وتدل (رُؤْيَايَ) على أنّ الرؤيا منسوبة إلى يوسف،
ولهذا جاءت (رُؤْيَايَ) وهي تدل على الخصوص، خصوص الرؤيا ليوسف
وعموم التفسير المشترك مع والده يعقوب صَلَّى اللهُ عليهما وسلّم.

إذا يوسف صَلَّى اللهُ عليه وسلّم مؤوّل للأحاديث من خلال كشفه
للمتطابقات بين الظاهر والكامن فيها، فتمكن من إظهار مكامن ورموز
الرؤيا إلى حيز المعرفة الواعية التامة.

ولأنّ علم التأويل علم تبيان الحقائق الكامنة بإظهارها من مكامنها،
وفكها من الرمزية التي تكسوها، إذا فهو علم معرفة المرامي والدلائل التي
بها تروى الأحاديث، ولهذا كان يوسف صَلَّى اللهُ عليه وسلّم ملماً بعلم
تأويل الأحاديث، ولهذا استدعاه الملك ليؤوّل له الرّؤية التي رآها، قال

260- يوسف 37.

261- يوسف 100، 101.

تعالى: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ حُضِرٍ وَأَحْرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} 262.

3 . آية:

الآية علامة ظاهرة لا تُخفي، ولهذا، جاءت قصّة يوسف آيات في الكتاب الحكيم تدل على أنّ يوسف آية، آية في خلقه وآية في خلقه وإيمانه وعلمه ومملكه وتأويله للأحاديث. قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ} 263، قوله تعالى: (آيَاتٌ لِلْمُتَذَكِّرِينَ) آيات ذات عبر للذين يأتون من بعدهم لعلهم يعتبرون ويتعظون ويقتدون بمن هو أحسنهم قدوة.

إذا الآية علامة متميزة، تُميّز معرفة بما مُيّزت به فتكون شاهدا ماثلا في ذاكرة التاريخ وهوية الأمة أو الإنسانية بأكملها، ولهذا كان يوسف كغيره من الأنبياء والرسل آية خالدة في التاريخ وكان موسى وعيسى آيتين في ذاكرة أقوامهم وفي ذاكرة الذين لا يميزون بين أحدٍ من رُسُلِهِ، وهكذا بُعث محمد آية خاتمة وخالدة للناس كافة.

الآية هي عظمة إظهار الشيء بالكيفية التي أرادها الله، فيكون ذلك الشيء معجزة لمن لم يكن آية، ولذا فالآيات تتعدد وتتنوع ومع أنّها تُنسخ وتُبدل وتمحى أحيانا إلا أنّها لا تتناسخ تعددا متكررا، فكلّ آية هي كما هي ولا تختلف من حيث كونها آيات إعجازية لا يقيدتها ممكن.

262- يوسف 46 . 49.

263 - يوسف 7.

الآية يؤتى بها إتيانا، أو يُجعل جعلاً أو تُنزل تنزيلاً وتُترك بين الناس تركاً لتكون شاهداً لهم وشاهداً عليهم ليتعظ من يتعظ وليضل من يضل وما ربك بظلام خلقه.

وعليه: فالآية معجزة تتوحد في الكلم والقول وتتجسد في الفعل والعمل والسلوك وتظهر حقيقة ماثلة أمام المشاهدين والملاحظين، وعندما تكون الآية نبيا أو رسولا أو نبيا رسولا تتعدد المعجزات فيها اصطفاً وعلماً وحكمة وملكا ورسالة وحلقة وحلقة، ولذا فإن القرآن الكريم آية عظمى تحتوي على آلاف الآيات العظيمة التي تتوحد في الكلم وتتجسد بالعمل وتتحقق بالفعل وتمتد في السلوك والحركة وتكمن في السكون وتظهر للعيان في دائرة النسبية والمطلق فتجعل المؤمنين متدبرين ومتدكرين ومتفكرين ومتأملين طاعة لله.

4 . مبتلى :

الابتلاء تحميل الإنسان أعباء ومسؤوليات جسام في سبيل الإعداد لحمل ما هو أعظم طاعة لأمر الخالق، ولأن يوسف صلى الله عليه وسلم كان متميزاً في خلقه وحلقة وتأويله للأحاديث ومحبة أبيه له وحسن جـ ماله وطيب نفسه التي بعزة ربه تعالى كان آية عليها، هذه المميزات العظيمة جعلت أخوته يكيّدون له المكائد حسداً له أو غيظاً منه، مما جعله معرضاً للكثير من الأفعال التي كانت قد تودي بحياته لولا فضل الله عليه ورعايته وحفظه له لكان من الهالكين بغير حق.

لقد تحمّل يوسف كلّ ما فعله إخوته به، دون أن تُسجلّ عليه ردة فعل سالبة تجاههم؛ فكيف له أن يتصرّف في غير مرضاة الله تعالى؟ وكيف له أن يتصرف مع أخوته الذين هم أكبر منه سناً؟ وكيف يتصرف معهم بما لا يُرضي أباه يعقوب صلى الله عليه وسلم؟ وكيف يرد عليهم وهو يملك الملك في ديار مصر؟ وكيف له أن يتصرف تجاههم وهو المتصرف في شؤون

الحكم؟ كل ذلك بالنسبة ليوسف أمره ليس هينا ولهذا لم يقدم على شيء منه، بل كان متسامحا معهم ومستغفرا لهم.

لقد ابتلي يوسف برميته في الحب، وبيعه وكأنه عبدا لا رأي له حتى في الثمن الذي يباع ويشترى به، ولقد ابتلي برميته بما ليس فيه من امرأة العزيز، ولقد ابتلي بالسجن ظلما وافتراء، ولأنه ابتلاء عظيم كان التوفيق ليوسف والسلامة من كل كرب عظيم.

وهكذا ابتلي كل الآن ببياء ابتلاءات عظيمة ولأن يوسف أحدهم فليس له بد إلا أن يكون من المبتلين الأخيار الذين أراد الله لهم الفوز في كل امتحان يتعرضون إليه، ولأن الابتلاءات لا تلاحق إلا الآن ببياء والصالحين والصدّيقين، فهي بطبيعة الحال لن تكون ملاحقة للأبالسة من شياطين الإنس والجن الذين يعثون في الأرض فسادا، ولذا؛ فمن ارتضى محبة الله وطاعته فليتوكّل عليه فلن يضره كيد الكائدين ومكر الماكرين شيئا، قال تعالى: {وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} 264.

5. مُعَلِّم:

المعلّم هو الذي تم إعداده علما ومعرفة حتى استوعب الأمر والنهي وكان من الطائعين لرسالة العلم الذي به أعلم أو علّم، والتعلّم يمكن أن يكون مباشرة من العليم المطلق كما علّم الله عزّ وجلّ أنبياءه ورُسُلَه الكرام صلّى الله عليهم وسلّم، وقد يكون من المعلّم متعلما على يدي المعلّم الذي سبقه بتلقي العلم والمعرفة المصنفة كما هو الحال في المدارس والمعاهد والجامعات.

264- آل عمران 120.

ولأنّ موضوع البحث هو في قصّة النبي يوسف صلّى الله عليه وسلّم، إذا أمر تعلّمه لم يكن من بشر بل من خالق البشر وغير البشر سبحانه لا إله إلا هو ، قال تعالى: {وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} 265، هذا القول هو قول يعقوب صلّى الله عليه وسلّم، والضمير يعود على أنّ الله تعالى هو الذي يُعلّم يوسف من تأويل الأحاديث أي يُمكنه من تأويلها علما تاما، وهكذا مُكّن يوسف علما بتأويل الأحاديث مصداقا لقوله تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ} 266.

والعلم الذي أوتي ليوسف على علوم ثلاثة:

الأول: علم تأويل الأحاديث (العلم الخاص).

الثاني: العلم العام، وهو الذي أوتي ليوسف لما بلغ أشده، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا} 267، جاء العلم غير محدد، أي؛ أنّه (علم) إمّا علم الأحاديث فهو علم خصوص ولذا فهو الجزء من العلم العام الذي جاء غير محدد في الآية الكريمة السابقة. وفي جميع الأحوال فإن يوسف صلّى الله عليه وسلّم قد علّم من العليم المطلق، ولهذا، يوصف بالمعلّم كما وُصف سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم.

الثالث: علم صناعة المستقبل، تخطيطا وإدارة وتنفيذا استراتيجيا، ولأجلّ توضيح ذلك وفك اللبس والغموض الذي قد يعلق ببعض العقول

265 - يوسف 6.

266 يوسف 101.

267 يوسف 22.

أعرض جزءا من الحوار الذي دار بين الأب وابنه في روايتنا (البُستان الخُلم)
حيث كان الحوار:

"أعرف يا أبي جيدا أنه لا فرق بين علم الغيب وعلم المستقبل.

لا يا ولدي، الفرق كبير، علم الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، أما علم
المستقبل فكلنا نعلمه وفقا لافتراضاتنا وخططنا.

استغفر الله يا أبي ما علم المستقبل إلا من علم الغيب وهذا لا يعلمه
إلا الخالق سبحانه وتعالى.

يا بني لو سألتك: من أجلّ ماذا تأكلّ وتشربّ وتتنفّس؟ ألا تُجيبني
من أجلّ المستقبل.

نعم لو لم أتنفّس وأشربّ وأكلّ الطعام لا مستقبل لي على الإطلاق.
وإذا سألك غيري يا ولدي بقوله: لو تحكّم أحد في مشربّك
ومأكلك وحاول أن يمنعك من استنشاق الأكسجين فماذا تفعل؟

أقتله يا جدي قبل أن يقتلني.

لماذا؟

لكي أعيش المستقبل.

ولماذا أنت راغب في حياة المستقبل؟

أولا: أنا نفس بريئة وقتل النفس البريئة مُحَرَّم.

ثانيا: أريد أن أفعل خيرا في هذه الحياة الدنيا لعله يفيدني في تلك
الحياة الآخرة.

وثالثا: أريد أن أتعلم وأعمل وأبني مسكنا وأتزوج ليكون لي أبناء
أعلمهم وأزوجهم من بعدي.

من أجلّ ماذا يا بني تريد أن تعمل كلّ هذا؟

من أجلّ المستقبل.

إذن، لديك خطة تستهدف بها كلّ ما ذكرت وأكثر.

نعم وهذا ما آمل أن أحققه في المستقبل.

ولكن هل يمكنك أن تضع خطة علمية وأنت لا علم لك بمبرراتها أو
أنك لا تعلم الأهداف التي من ورائها؟

بالطبع لا.

إذن، لا أهداف إلا في المستقبل، وإلا فمن أجلّ ماذا تصلي وتصوم
وتزكي وتؤمن على ممتلكاتك؟

كلّ ذلك من أجلّ المستقبل.

إذن، لو لم تعلم بأن الصلّة تنهى عن الفحشاء والمنكر وفي الزكاة
طهارة للنفس وما تملك وفي الصوم سلامة للروح والبدن ما نويت القيام بها
قبل أن تفعلها، وعندما تؤدّيها لا جزاء لك عليها إلا في المستقبل.

يبدو أنّ كلّ حياتنا هي من أجلّ المستقبل، ولهذا يمكننا التعرف على
علم المستقبل من أوسع ميادينه إذا سعينا، وهو مثل الفرض الذي يستنبط
من الموضوع ليرتبط العلاقة بين متغيراته، ويمكن إثباته أو بطلانه بالنتائج
المتوقّعة له، فالبحوث العلمية تنطلق من فرضيات في الزّمن الآن وتسعى
إلى تحقيقتها في الزّمن المستقبل.

هذا صحيح، ولذا، نؤمن بأنَّ اليوم الآخر يقع في المستقبل بما فيه من عقاب وثواب وجنة ونار ونؤمن أن علم الغيب وقع ويقع وسيقع إن شاء الله.

والله هذا صحيح، وبما أنَّ الأمر هكذا إذن ما هو علم الغيب؟

علم الغيب لا يعلمه إلا الله، فنحن نعلم بأنَّ الساعة آتية في المستقبل لا محالة، ولكن متى وكيف هذا علم غيب، وعندما يكون اليوم الجمعة نعلم أنَّ غدا سيأتي السبت بالقوَّة مادامت الحركة الفلكية مستمرة، ومع ذلك قد لا يأتي غدا السبت بالإرادة، فأنت يا بني عندما تفكر في المستقبل تعلمه وعندما تفكر في الغيب لا تعلمه مع أنَّك تعلم بوجوده، وعندما ترسم خطة لمستقبلك القريب أو البعيد فإنك ستوفر لها الإمكانيات التي تمكنك من تحقيقها وفقا لعلم المستقبل ولكنك قد لا تحقِّقها وفقا لعلم الغيب.

جزاك الله خيرا يا أبي الآن فهمت الفرق بين العلمين، فأنا على سبيل المثال سأكتب كتابا في المستقبل بعنوان (الآن بباء من قصص القرآن)، ولكن قد لا أتمكن من تأليفه وفقا لعلم الغيب، وهكذا حال الطبيب الذي قرر إجراء عملية إشعاعية بعد غد لمريض لإنقاذ حياته من الموت فقد لا يتمكن هو كذلك بسبب موت المريض قبل الموعد المحدد لإجراء العملية أو بموت الطبيب المخطط لذلك.

ها نحن على اتفاق مع علماء الأرصاد بأن غدا سيكون الطقس معتدلا وعلى اتفاق بأن غدا قد لا تشرق فيه الشمس علينا من جديد.

جدي، بما أن للشمس خالقا عظيما فلا بدَّ أن تشرق من جديد.

معك الحقّ، بما أنَّها موجودة قد تشرق على غيرنا ولا تشرق علينا، وبالضرورة لن تشرق عندما لا يُراد لها أن تشرق.

إذا انتهت الشمس من الوجود فلا بدّ وأن ينتهي القمر الجميل هو الآخر من الوجود والذي لا أظنّ أنّ هناك من هو على جمال منه سوى يوسف صلّى الله عليه وسلّم.

نعم يوسف جميل ولكن خالقه أجمل".

وعليه: لقد كان يوسف صلّى الله عليه وسلّم عالماً بعلم المستقبل ومُنْبِئاً به وعاملاً من أجلّ تحقيقه، فكان خير منفذٍ لرؤاه التي كانت من أجلّ صناعة المستقبل الأفضل والأجود والآن فع، ولذا لم يكن يوسف صلّى الله عليه وسلّم عالماً بعلم الغيب الذي هو بأمر الله إن شاءه كان متى ما شاء وكيفما يشاء وعلى يد من يشاء من الرّسل مصداقاً لقوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رَحْمَتِهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} 268.

وفي هذا الأمر يجوز أن يكون يوسف هو أحد الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم الذين شاء لهم الله بالاطلاع على ما شاءه من علمه الذي هو علم غيب بالنسبة لمن لم يعلمه قبل تحقّقه على أرض الواقع، ولهذا، كان يوسف خير مؤوّل للرّواء، وخير مفسر لما يُرى وخير منفذٍ لما رأى.

6 . مجتبي:

الاجتباء اختيار للخصوصية من عند الله تعالى، وفقاً لمعطيات هو يعلمها، ورسالة هو محددتها، ورسولاً هو مُعلّمه ومُرسله، ونبياً هو مكلفه وشعباً أو قوماً أو أمةً أو كافةً هو مستهدفها بالحقّ ليحقّق فيها أو بينها وبها.

ولأنّ الاجتباء من الله فقد اجتبي الله يوسف صلّى الله عليه وسلّم اجتباءً مصداقاً لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ} 269. أي؛ يخصّك بالاختيار لما يراه خير فيك، وخير بك، وخير إليك، وهذا القول الذي جاء على لسان يعقوب جاء قبل مواعده أي قبل أن يكون يوسف مجتبي لمهمة الملك والحكم والعلم، وهذا يدل على أنّ يعقوب صلّى الله عليه وسلّم كان منبأ مسبقاً بالأمر الذي سيكون عليه أمر يوسف، ولهذا، جاء قوله متحققاً في الزّمن المستقبل للزّمن الذي قال فيه يعقوب، ما جاء في الكتاب الحكيم: {يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 270.

وبعد أن تحققت رؤية يعقوب في ابنه يوسف صلّى الله عليهما وسلّم، جاء الاعتراف من يوسف في قوله تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ} 271.

7 . تام النعمة:

تمام النعمة حُسنها في ترسيخ الفضائل والقيم، وصدق القول، وسلامة العمل والفعل والسلوك، والحمد والشكر للمنع.

وتمام النعمة تحقيق أمل وبلوغ غايات وطموحات كانت مرجوة، وهي تصديق رؤية سبق القول عنها، وهذا الأمر لا يكون إلا مع نبي ورسول كريم كما كان مع يعقوب ويوسف صلّى الله عليهما وسلّم مصداقاً

269 - يوسف 6.

270 - يوسف 5، 6.

271 - يوسف 101.

لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {272}، هذا القول الكريم هو قول يعقوب لأبنة يوسف وهو يبنئه بالمستقبل العظيم الذي ينتظره، وهو:

. اجتباء الله له .

. تعليمه تأويل الأحاديث .

. إتمام النعمة عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق .

يُفهم من الآية الكريمة السابقة أن إتمام النعمة على آل يعقوب كانت غير تامة عليهم، أي أنها لم تتم إلا بعد أن أتمها الله تعالى على يوسف صلى الله عليه وسلم .

ووفقا لهذه الآية الكريمة نرى أن بعض النعم قد جاءت واضحة النص وهي نعمتي: الاجتباء، وعلم تأويل الأحاديث (يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ).

ثم قال: (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) أي أن ليوسف نعم أخرى كثيرة أنعم بها الله عليه بعد النعمتين سابقتي الذكر .

وبعد أن يتم الاجتباء وتعليمه علم تأويل الأحاديث بعد ذلك سيتم الله نعمته على يوسف بنعم أخرى منها:

. العلم .

. تمكينه في الأرض .

. الوحي: قال تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ} 273.

وعليه: لقد تحققت ليوسف نعم كثيرة منها:

. الحُسن الرفيع الذي حُلق عليه آية.

. الرؤيا.

. حفظه من الهلاك في الجبّ.

. إنقاذه من الهلاك في الجب.

. حفظه من كيد النسوة.

. الاستعصام.

. شهادة الشاهد له بالحقّ.

. فوزه بمحبة أبيه.

. تأويل الأحاديث.

. إخراجُه من السّجن.

. العلم.

. النبوة.

. إيتاؤه من الملك.

. اصطفاؤه نبيا.

. تمكينه في الأرض.

. سجود أخوته ووالديه طاعة لأمر الله تعالى.

. لم تشمل الأسرة على المحبة والاستغفار طاعة لله الواحد القهار.

وأخيرا قال: (وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ)، أي بإتمام النعمة على يوسف تتم النعمة على آل يعقوب، وهذا يعني أنّ إتمام النعمة على يوسف نعمة في ذاتها على آل يعقوب من الله تعالى.

وعليه: فالمنعم هو من بيده أمر النعمة وهو المتفضل على ما خلق بالخيرات والنعمة التي لا تُحصى في الدارين، وهو مالك النعم والمتصرف فيها بالمطلق الكلّي والجزئي والمتجزئ، وهو الذي بيده الخير الذي كلّما أوتي نعمة منه تضاعفت نعمه.

ولذا فالمنعم هو المتمكن من إيتاء النعمة لمن هو في حاجة إليها سواء أكان مقدّرا لها ولمنعمها أم كان غير مقدر لذلك فهو المنعم، قال تعالى { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } 274.

والنعم هي كلّ ما فيه خير للمخلوقات هو نعمة سواء أكانت روحية (معنوية) أم مادية (تشغل حيزا ماديا)، ولذلك؛ فالمنعم هو الله الذي أنعم على كلّ ما خلق بما هم في حاجة إليه كي لا يكون فيهم ألما.

والمنعم من أسماء الله الحسنى وصفة تُظهر أفعاله الآن عامية على ما خلق مصداقا لقوله تعالى: { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا {275}.

يفهم من الآية الكريمة السابقة أن من أعظم النعم طاعة الله والرّسول؛ فهي تجعل المطيع لهما على مراتب العليين من الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين.

ولذلك؛ فالمنعم هو الذي أنعم على يوسف بما أنعم عليه به من تمام النعم، وهو الذي أنعم على جميع الأنبياء والرّسل الذين سبقوه والذين بُعثوا من بعده، وكذلك الصديقين والصالحين، وهو الذي أنعم على كلّ خلقه المقدّرين لنعمه وغير المقدّرين لها، الشاكرين والحامدين وكذلك الجاحدين والضالين عن الهداية والطاعة، ولكلّ حسابه ثوابا (جنة عرضها السماوات والأرض) أم عقابا (نار وقودها النَّاس والحجارة أعدت للكافرين).

ومن نعم المنعم نعمة بعث الآن ببياء مبشرين ومنذرين وفاعلين للخيرات ومحرضين على الحقّ وإتباعه قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَأَنَا كُمْ مِمَّا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ {276}. لقد جاء قول موسى صلّى الله عليه وسلّم لقومه مُظهِرا للاعتراف بنعم المنعم عليهم وذلك ببعث الأنبياء فيهم وجعلهم ملوكا وإيتائهم من النعم التي لم تؤت لأحدٍ من قبلهم من العالمين.

ومن نعم المنعم على خلقه أنّه المؤلّف للقلوب والمنقذ من المكائد والكروب، كما أنقذ يوسف من كيد إخوته وامرأة العزيز واللاتي قطعن أيديهنّ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ

275 - النساء 69.

276 - المائدة 20، 21.

وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَ مِنَ الصَّاغِرِينَ {277}.

ولأنَّه المنعم فنعمه على خلقه لا تحصى ولا تعد، قال تعالى،
{وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} {278}، ولهذا، لم لا تُذكر نعم المنعم بالشكر والحمد له تعالى على ما أنعمه علينا من نعم وما تفضل به علينا من فضائل، قال تعالى:
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {279}.

ولذا، ينبغي على الأقسام والأمم والشعوب التي أنعم المنعم عليها بالأنبياء والرسل أن يكونوا خير شاكر لأنعمه تعالى.

ولأنَّ نعم المنعم لا تُحصى ولا تعد فهي على الكثرة المعروفة وغير المعروفة فنعمه في السماوات والأرض منها الظاهر كالشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر والرياح والأهَّار والبحار والمحيطات وغيرها كثير، ومنها الباطن الذي لا نعرفه وهو على الكثرة المطلقة، مصداقا لقوله تعالى:
{أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} {280}.

277- يوسف 30 . 32.

278- إبراهيم 34.

279- المائدة 11.

280- لقمان 20.

ولأنّ المنعم بالمطلق فنعمة لا تحصى في الظاهر ولا في الباطن فله جنود السماوات والأرض (جنود تُرى وجنود لا تُرى) قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا } 281.

وعليه نقول: إنّ أكبر النعم التي يجب أن يُسلّم بها المخلوق هي:

أن يؤمن بالمنعم تعالى واحدا أحدا وهو الرزاق الكريم في السماوات والأرض، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ } 282.

ولأنّ المنعم خلق لنا الأرض مهذا، وجعل لنا فيها سُبُلًا لنهتدي بها حركة وسكونا، ولأنّ المنعم أنزل لنا من السماء ماء، ولأنّ المنعم خلقنا أزواجا، ولأنّ المنعم جعل لنا الفلك والأنعام لتركبها وفيها منافع كثيرة.

ولأنّ المنعم فهو الذي أرسل على الكافرين من قوم لوط صلّى الله عليه وسلّم حاصبا شديدا، ولأنّ المنعم فهو الذي أنجى آل لوط الذين آمنوا به وشكروه كثيرا على ما أنعم عليهم من نعم فالحمد له عزّ وجلّ، قال تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ } 283.

ولأنّ المنعم العظيم فقد أنعم على نبيه يونس صلّى الله عليه وسلّم وهو مكظوم في بطن الحوت مصداقا لقوله تعالى: { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا

281- الأحزاب 9.

282 - فاطر 3.

283 - القمر 34، 35.

تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ
لُنَبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ {284}.

وهكذا، نجي يوسف من الكيد والمكر الذي لحق به من إخوته ومن
امرأة العزيز، وأتم الله نعمته عليه وبإتمامها عليه لقد أتم الله النعمة على آل
يعقوب أيضا كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق (وَوَيْتُمْ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ).

وعلى الخليفة أن يستمد صفاته من صفات المنعم؛ فيكون من
الذين من نعمه يتصدقون ويتزكون ويصلحون ولا يفسدون في الأرض وأن
يعملوا على استثمار النعم التي أنعم بها المنعم عليهم لتزداد حلالا وتوجه في
سبل الحق، وعلى الإنسان ألا يستغل ولا يستعبد أحدا بما أنعم الله عليه
من نعم لا تُحصى.

8 . مستعصم:

المستعصم هو المستمسك بما هو أقوى وأهم وأعظم مما يرغبه أو
يُشغف به الآخر، كما هو حال يوسف مع امرأة العزيز التي شغفها جمال
يوسف وحسنه الرفيع.

وبالاستعصام كان يوسف صلى الله عليه وسلم متأبيا على امرأة
العزيز وهو مستعصما بالله تعالى، فلم يتأثر بمغرياتها ومحاولاتها الشهوانية
معه، ولذا، لم يقبل أن يتبع الهوى والغى والمغريات الرخيصة التي تُحط من
رفعة مقامه الكريم.

إذا المستعصم هو المستمسك بما هو موثوق فيه، فهو المستمسك
بالثواب والمبادئ والقيم والفضائل الرفيعة التي لا تكون إلا في مرضاة الله

عز وجلّ، ولذا؛ فإن يوسف مستعصم بالله، إي أنّه متوكّل على الذي لا يخذله في استعصامه به.

الاستعصام فعل لاحق لفعل سابق، حيث كان فعل المرادة من امرأة العزيز ليوسف بداية ممّا جعله رافضا وممتنعا عن ارتكاب الفعل الذي به تمت مرادوته، قال تعالى: {قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ} 285، أي راودته أولا فاستعصم ثانيا.

وعليه: الاستعصام تمسك بأفعال الحق وإعماله، وامتناع عن أعمال الباطل ومغرياته الشيطانية، أي برغم كبر حجم المغريات فإنّ الاستعصام بالله تعالى وبأمره ونهيه هو أقوى وأمتن وأكبر وأعظم؛ فالاستعصام قوة سيطرة وحسن تحكم في الأمر والفعل وهو لا يتم إلا عن بيّنة وثقة.

إذا الاستعصام هو امتناع عن وعي عن مغريات لمعصية، والمستعصم هو الذي على يقين بالبيّنة وهو القادر على الثبات عليها والتمسك بها دون أن يكون بخاطره رغبة لمخالفة ذلك.

9 . بشرى:

البشرى هي الخبر المفرح أو الفعل المفرح أو الإنسان المفرح أو الشيء المفرح، الذي به تدخل أفعال السرور في النفس فتري ما كانت تأمل حقيقة أو أنّها ستراها بعد ما جاءها من خبر مفرح حقيقة.

إذا بالبشرى يستبشر الناس بما يسرهم ويفرحهم ويطمئن قلوبهم وأنفسهم، ولهذا فالبشرى تُخرج الناس من الضائقة والقنوط واليأس وتجعل الأمل بين أيديهم حقيقة.

285- يوسف 32.

ومع أنّ البشري خير، إلا أنّ أثرها قد لا يكون كذلك على الجميع، إلا إذا كان الجميع على الهداية، فالذي استبشر باستخراج يوسف من الحب غير أخوته الذين كادوا له رميا في الحب، {وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} 286، فقول الدالي (يا بُشْرَى) يدل على المخاطبة المباشرة ليوسف بأنه بشري، أي، وكأنه يقول أول ما رأى وجه يوسف: أنّ هذا الوجه هو بشري في ذاته، فأطلق عليه اسم الصفة التي رآه عليها، أي؛ أنّ المدلي دلوه لم ير اسما ليوسف أفضل ممّا رآه عليه بشري؛ وهكذا كان حال الذي اشتراه وهو المستبشر به قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا} 287.

وعليه: لقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بشري للملك الذي بعد أن علّم بأن يوسف له من علم تأويل الأحاديث والرؤى، قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ} 288.

وهكذا كان خبره بشري على أبيه بأن فُتّحت عيناه فأبصرت بعد أن فقدتا البصر بفقدانه، قال تعالى: {أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 289.

286- يوسف 19.

287 - يوسف 21.

288 - يوسف 54.

289- يوسف 93 .96.

إذا البشرى هي ما يُفرح المبشّرين بها من قبل المبشّر، فتطمئن بها القلوب والأنفس ويتحقّق المأمول بها في الزّمن غير المتوقّع ممّا يجعل البشرى مثيرة لأفعال المفاجئة.

البشرى بعد أن تأتي وتتحقّق تكون آية يستبشر النَّاس بها كما استبشر المؤمنون بالأنبياء والرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم، ولهذا، كان عيسى بشرى بمحمّد البشرى الذي بشر النَّاس بما يجب وحثهم على إتباعه وما لا يجب ونهاهم عنه وبشرهم بالجنة إن أقدموا على ما يجب وبشرهم بالنّار إن لم ينتهوا عما نهاهم عنه.

وللبشرى مستويات منها:

أ . مستوى الوحي: الذي لا يكون إلا من الله تعالى لني من أنبيائه ورسول من رُسله الكرام صلّى الله عليهم وسلّم.

ب . مستوى العالم بالأمر: عندما يُبشّر به من هم على غير علم به يُعد قوله لهم بشرى، ولهذا يُسمى المبشّر من قبل الذين يعينهم الأمر.

ج . مستوى الفعل: وهو أن يتم التمكن من بلوغ الفعل أو الوقوف على الحقيقة قبل أن يأتي الخبر، أي عندما يسبق الفعل الإخبار به أو أن تكون الحقيقة ماثلة بين يدي النَّاس؛ فالذي أدلى بدلوه لم يكن مدلٍ لأجل أن يُخرج يوسف، ولكن في الدلو المستخرج للماء كان يوسف حقيقة ماثلة بين يدي المدلي، ولهذا قال المدلي كما جاء في الكتاب الحكيم: (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ).

10 . نبي:

النبوة لا تكون إلا على نبأ عظيم، ولا نبأ عظيم إلا من عند الله تعالى، ولهذا، كانت نبوة يوسف صلى الله عليه وسلم اجتناباً من عند الله، والنبأ يكون لأجل عدم الاختلاف على الحق وإتباعه مصداقاً لقوله تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} 290.

إذا النبأ حق لا يكون إلا على يد مُحَقِّقٍ له، ولهذا، كان يوسف صلى الله عليه وسلم نبي حقٍّ ومُحَقِّقٍ له مصداقاً لقوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} 291.

النبأ العظيم لا يكون إلا من أنباء الغيب الذي يجله الأميون بأمره، ولذا، كان يوسف مُنْبِئاً لقومه بأنباء هم لا يعلمونها من قبل، قال تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} 292.

11 . رسول:

الرَّسُولُ عَلَى مَسْتَوَى الْأَصْطِفَاءِ وَالاجْتِنَابِ هُوَ مَنْ تَكُونُ لَهُ رِسَالَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ الْمَصْطَفِيُّ أَوْ الْمُجْتَبَى اجْتِنَاباً كَمَا اجْتَبَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُوسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا رَسُولًا، مَصْداقاً لقوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} 293.

290 - النبأ 1 . 5.

291 - يوسف 15.

292 - يوسف 102.

293 - غافر 34.

فقلوه (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ) أي لقد جاءكم يوسف من قبل نبيا مُرسلا برسالة تحمل البيّنات لتهدوا، ولكنكم بقيتم على الشك لا على اليقين الذي فيه صلاحكم وإصلاح أحوالكم التي بشأنها اجتبي يوسف رسولا إليكم ليريكّم كيف تصلحونها، وها أنتم اليوم باقون على الفساد والإفساد لا على الإصلاح والإعمار (فَمَا زَلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ) أي لا زلتم على عدم التصديق مكذّبين بالحقّ.

وقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلُوبُكُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا) بمعنى: عند موت الرسول يوسف صلّى الله عليه وسلّم كان الشاكون يظنون بأنه بعد موته انتهى الأمر وخلصوا من الرسول الكريم ولن يبعث الله من بعد يوسف صلّى الله عليه وسلّم رسولا، ولكن الله فعّال لما يُريد فهي هو يبعث من بعده، (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ).

وعليه: فقلوه تعالى: (حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلُوبُكُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا) هذه الآية الكريمة هي دليل إثبات أن يوسف كان مرسلا نبيا رسولا، إنّه رسول الإصلاح وطاعة الله واحدا أحدا مصداقا لقلوه تعالى: { يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 294.

وعليه: تعتبر رسالة يوسف صلّى الله عليه وسلّم رسالة إصلاح وإعمار وتنظيم الحياة الاقتصادية للمجتمع الملكي في بلاد مصر، أي؛ أنّها رسالة عملية تنفيذية كان يوسف على رأس تأدية مهامها في الأرض مصداقا لقلوه تعالى: { وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ

294- يوسف 39، 40.

قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {295}.

وكذلك كان يوسف رسول من الله تعالى لتأويل الأحاديث ومفاتيح الرؤيا مصداقا لقوله تعالى: { وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ {296}.

ومع أنّ رسالة يوسف صلى الله عليه وسلم رسالة للعامة (عامّة سكان الأرض التي عليها ملك مصر في ذلك الزمان) إلا أنّ رسالته الكريمة كانت خاصة بالإصلاح الاقتصادي وكيفية صناعة المستقبل الذي به يتقي الناس ربهم ويقوا حياتهم من الشرور الحادثات في السنين العجاف، فكانت نظرتهم لصناعة المستقبل في ذلك الزمان أن يذروا الحب في سنبله كي لا يتلف ويفسد، قال تعالى: { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ {297}.

ولأنّ كلّ شيء هو من أجلّ المستقبل جاء يوسف مُرسلا ليُقرّر قاعدة (صناعة المستقبل) الذي يحتوي على الآمال، إنّه المستقبل غير

295- يوسف 54 . 56.

296- يوسف 43 . 46.

297- يوسف 47 ، 48.

القابل للتذكُّر مع أنَّه قابل للتفكُّر، والتفكُّر لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة، بل هو المتطلِّع إلى ما هو متوقع، نتيجة استنتاجه واستقراءه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعارف والتجارب وتتراكم فيه الخبرة، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في (الآن) ولذلك، تتداخل المعلومات كما يتداخل الزمان مع الحركة، ممَّا يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزمان والحركة، فلا زمان بلا حركة، ولا حركة بلا زمان ولا حياة بدونهما.

ولذا؛ فالمستقبل لا يُحصى، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ، مع أنَّه المسجل كوقت في الزمان والحركة، ولهذا سيأتي بالقوَّة الفاعلة من خلال قوَّة الزمان والحركة الفلكية، فيما أن اليوم قد دخل والحركة مستمرة إلى النهاية مع الزمان، فبالضرورة سيأتي غدٌ لا محالة، وغدٌ قد يكون نهاية لما سبق وقد يكون استمراراً له، وهذه بالنسبة إلينا غير معلومة مع أنَّها متوقعة.

وإذا تساءل أحد:

ما هو المستقبل؟

نقول:

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هذه الكلمة في حالة مواصلي الكتابة، وهو الذي يحمل الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه، وهو الزمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع، والذي من أجله نتنفس، ونشرب، ونأكل، ونفكر، ونتعلم، ونعمل، ونتصدَّق، ونُصلي، ونُحب، ونتزوج، ونُدَّخر وفق حاجتنا، ونُخاف، وهو نهاية البداية وثبات الحركة، وعليه كلُّ حركة من أجل المستقبل.

إذا يتكوّن كلّ من المستقبل والحركة من زمان وفعل (محتوى ومضمون). ولذا، لا يمكن أن يتحقّق المستقبل بدون زمان وفعل، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل، وعندما تصل الحركة إلى لحظة النهاية، يكون العدم، وينتهي الأمل بالنسبة إليها مادامت في حالة عدم، وعليه يستمر المستقبل كلّما كانت هناك حركة، وتستمر الحركة كلّما كان هناك مستقبل، ولو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل، ولا أماني، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا.

إذا المستقبل يكمن في الزمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة، ممّا يجعل الشجرة تكمن في الزمان المستقبل في البذرة (الآن) مع أنّ هذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة، وعندما تكون البذرة شجرة مثمرة تصبح البذرة في الماضي، وتكون الشجرة في الآن، وتكون الثمار في المستقبل. وهكذا في التقاء الزوجين في الزمن الآن يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة الشيخوخة المتأخرة.

ولهذا، فما وقع في (الآن الماضية) سيكون بالضرورة حاضرا في (الآن المستقبلية) ولهذا، لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلّا في الآن، فالمؤمن الذي يعمل صالحا في دنياه يعمل في حقيقة الأمر من أجلّ المستقبل، ومستقبله سواء أكان سالبا أم موجبا، هو ما كان له حاضرا في الماضي. إذا الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضرا في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتى يعاقب أو يجازي به، فيقول الله تعالى: {يَوْمَ يُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ قُلْ إِنَّ

كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {298}.

تؤكد هذه الآية على أنّ كلّ عمل ماض هو من أجلّ المستقبل، وهكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي إلى أن يصبح في الزمن المستقبل، وذلك لأنه العمل الذي لم يكن من أجلّ الماضي، بل أنه العمل الذي قد تم من أجلّ المستقبل ممّا يجعل حقيبة الماضي حافظة له، ولذلك يكون الماضي كالحزانة المملوءة التي لم تُفتح بعد، فهي في الحياة الدنيا لا تُفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ مؤقت وقريب، ولهذا ينبغي أن نعمل في حاضرنا خيرا لكي يكون لنا مستقبلا خيرا؛ وكلّ الأعمال التي تقع في الزمن الآن تسمى في الماضي وتصبح على خير المستقبل، وحتى إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلى سجلّ الزمان والحركة فهي في مشيئة الله عزّ وجلّ وحفظه مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} {299}.

تؤكد هذه الآية الكريمة على أنّ كلّ شيء وُجد يُمكن إحصاؤه، ولكن لقصور القدرات البشرية عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنّه محصى من قبل الرزاق عزّ وجلّ، ولهذا كلّ عمل قد حدث سيكون حاضرا في المستقبل لتتم المسائلة ويتحقّق له الجزاء ثوابا أو عقابا.

ولأنّ الوقت منتظم في الزمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها بالتالي يمكن التعرف على الأوقات وحصرها وعدّها، ولكنّه من غير الممكن عدّ الزمان، فعندما تُعد واحدة من حبات المسبحة المتكوّنة من المائة حبة تصبح هذه الأولى في الماضي، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين

298- آل عمران 30.

299- المجادلة 6.

أصابعك في الزّمن (الآن) وتكون (98) مفردة واقعة في المستقبل، ولكن إذا قررت أن تكرر التسبيح أكثر من مرة واحدة، تكون الحبة التي وقعت في الزمان الماضي هي الأخرى واقعة في المستقبل وذلك لأنها هي الأخرى سيتم التسبيح بها مرة ثانية، وفي هذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح كما سبق وأن ذكرنا هي (98) مفردة، بل يكون عدد الحبات المتبقية 99 حبة، وعلى هذا النحو يكون عدد الحبات المسيحية في جميع الدورات هو (99) مفردة عندما تكون الاستمرارية في التسبيح على أنّ تكون في كلّ دورة تسبيحية حبة واحدة في الآن بين الأصابع، ولا يكون العد التناقصي إلى الصفر إلاّ في الدورة التسبيحية الأخيرة، وعليه كلّ الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضرا، مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَ نَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} 300.

ولذا، كان إرسال يوسف صلّى الله عليه وسلّم رسولا للعامّة لحكمة مفادها أنّ الدولة للجميع مؤمنا وكافرا ومشركا، وكاذبا وصادقا ومنافقا، وذكرنا وأنثى، ولهذا، كان الإصلاح ورسم السياسة لصناعة المستقبل هي من أجلّ الجميع دون استثناء، وذلك لأن الرزاق خلق الرزق للعامّة (لمن خلق) وليس مقتصرًا على من آمن، فمن آمن ليس له بدٌّ إلا أن يتصدّق ويتزكّى ممّا رُزق به من رزقٍ من الرزاق الأعظم ، ولذا فالرزق هو ما يعم الجميع من الرزق المحسوس الذي تشترك جميع الكائنات فيه وجميع التّاس من طائع وعاص وسعيد وشقيّ حيث قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلِّ فِي كِتَابٍ

مُبينٍ {301 فمن هنا نتبيّن أنّ قدرة الله ونعمه وعلمه ورزقه شامل لكلّ شيء، فلا توجد دابة تتحرك في الأرض إلا وقد تكفّل الله سبحانه برزقها المناسب لها في مختلف البيئات تفضلا منه لأنّ الذي خلق الخلق ضمن لهم الرزق الذي فيه معيشتهم، وهو يعلم مكان استقرارها في حال حياتها، والمكان الذي تودع فيه بعد موتها، وكلّ شيء من ذلك مُسجّل عنده سبحانه في كتاب موضح لأحوال ما فيه، وهذا النوع من الرزق الذي وهبه الرزّاق لخلقه هو رزق العموم المطلق الذي ليس فيه استثناء، وهو الغذاء الضروري لحياة جميع الأحياء من إنسان وحيوان ونبات وسمك وطيّر، وبما يتناسب مع طبيعة خلقه، ولهذا صناعة المستقبل يجب أن تكون من أجلّ الجميع إنسانا وحيوانا وطيّرا أي أنّها المحافظة مع الاستثمار لما في البر والبحر والجو من أجلّ الجميع وهذه عبرة تُؤخذ من رسالة يوسف صلّى الله عليه وسلّم.

وعليه: كانت الحكمة من إرسال الرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم هي تحقّيق مصلحة خلقه في أرضه في مرضاته تعالى فهو بهم رءوف رحيم ورزاق كريم عظيم.

ومن الحكمة في إرسال الرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم للخصوص والعموم والكافة هو للهداية والرشاد للحقّ أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإصلاح وإعمار في الأرض، ولذلك كان إرساله لرسله تترى بحيث كلّما ابتعد النّاس أو بعضا منهم عن الجادة بعث فيهم ولهم رسولا مبشرا وداعيا وهاديا لإتباع الحقّ ومنذرا من أجلّ مستقبل أفضل، وساعيا في الخيرات قولاً وعملاً وفعلاً، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ

رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرِّسَالِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ {302}.

ومع أنّ يوسف صَلَّى اللهُ عليه وسلّم رسولا بُعث للعامة مصلحا وصانعا لهم مستقبلا أفضل وداعيا لمستقبل أكثر تفضيلا (الجنة)، إلا أنّ من الرّسل الكرام من بُعث للكافة وهو النبي الخاتم محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلّم، ممّا جعل رسالته متجاوزة لكلّ الحدود لترتبط علاقات بين السماوات والأرضين وترتبط الحياة المؤقتة بالحياة الدائمة، وترتبط العمل الصالح بالفوز بالجنة والعمل الطالح بدخول جهنّم حفظنا الله منها وأدخلنا الجنة على الطاعة والهداية والعمل الصالح؛ وهكذا من قبل محمد صَلَّى اللهُ عليه وسلّم كان آدم نبيا ورسولا للكافة وكذلك كان نوحا رسولا للكافة.

فسيدينا آدم كان للكافة (المحدودة) التي في عصره؛ فقد كان آدم أول رسول ينبيئ الملائكة ولا تنبؤه الملائكة، لأنّ الذي علمه الله، وأرسله إلى الجميع من دون واسطة ملك من الملائكة، فهو لم يوح إليه عن طريق ملك، لأنّ علمه من الله بالفطرة مصداقا لقوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} تعليم من الله ليعلم غيره من المخلوقات الملائكة والجن، قال تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} {303}، وهكذا كان آدم صَلَّى اللهُ عليه وسلّم في الأرض من بعد الهبوط رسولا للكافة المحدودة والمتمثلة في أبنائه من بعده.

أمّا أنبياء الخاصة فهم الذين بعثوا إلى شعوبهم وأقوامهم المستهدفين بالرسالة الخاصة بهم دون غيرهم ومع أنّ أنبياء الخاصة يتفوقون مع أنبياء العامة والكافة من حيث الرسالة التي تدعو إلى توحيد الله وطاعته فيما أمر

302 - المائدة 19.

303 البقرة 33

ونهى وإعمار الأرض وإقامة العدل وعدم الفساد، إلا أن أنبياء الخصوص يعالجون قضايا خاصة تكون في مكان ولا تكون في مكان آخر فيلزم لها نبي لهذا الخصوص مع إمكانية وجود نبي أو أنبياء آخرين في أماكن أخرى لإصلاح ما فسد من أخلاق ومعاملات؛ ولهذا فالرسالات الخاصة هي ذات الخصوصية المكانية في مكان بعينه لا يتخطاه كسيدنا يونس، والخاصة زمانا: كهارون إذ خلف موسى في قومه، والخاصة أخلاقيا: كسيدنا لوط، والخاصة اقتصاديا: كسيدنا شعيب، والخاصة تشريعا: كسيدنا عيسى الذي جاء على شريعة موسى.

وعليه: فالخاصة الفردية أن يكون نبي واحد في عصره لجماعة خاصة كما هو حال إسماعيل صلى الله عليه وسلم الذي بُعث رسولا لقومه فقط، ومع ذلك لا يمتنع أن يكون هناك نبي للعامة في ذات الزمان لا لنفس المكان الذي فيه نبي الخاصة فإبراهيم وإسحاق كانا موجودين في عصر إسماعيل ولكن إسحاق للخاصة (لبنيه) وإبراهيم كان نبيا ورسولا للعامة، وبالنسبة لرسول الكافة لا يمكن أن يتزامن معه رسول ولا يكون من بعده رسول.

12 . متقى:

التقوى تجنب لِمَا يجب تجنبه، والمتقى هو المتجنب للباطل بالحق، ولذا، فالمتقى هو الذي يتجنب كلَّ ما أمر بتجنبه وهو المنتهي عمَّا نُهي عنه، وهو المبتعد عما أمر الابتعاد عنه تحريما وتجرىما، وهو الذي يؤمن بالحق فيتبعه من أجلّ اتقاء الشرور والضلال والمفاسد وكلَّ ما يؤدّي إلى ذلك، ولهذا، ففي الاتقاء مخافة الله وطاعته في كلِّ أمر ونهي، والتقوى هو الذي لا

مخافة منه لاتقائه الله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: {قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا} 304.

ولأنّ يوسف صلّى الله عليه وسلّم تقيا كان متقيا لما دعته إليه امرأة العزيز حيث ما دعته إليه في غير طاعة لله، ولهذا فباتقائه كان قويا متينا على مقدرة من تفادي الشرور وما يترتب عليها، قال تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} 305؛ فقول يوسف للمرادة له، (مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) هو قول متقٍ يريد بكلّ وعي وتقوى أن يتجنب كلّ ما دُعي إليه من قبلها، وبهذا الاتقاء أفلح يوسف ولم تُفْلح الظالمة المرادة له (امرأة العزيز).

وقوله تعالى: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا) في هذه الآية الكريمة همّين:

الهمّ الأول، من قبل امرأة العزيز حيث ترغب شغفا التعلق بيوسف على ارتكاب الفعل المحرّم وهو اغتصابه على غير طاعة لله.

الهمّ الثاني، ضيق يوسف من همها له على ارتكاب المعصية؛ فكان متضايقا هما وغما منها ومما ترغب فيه بغير حقّ، فهمّ بها رافضا ومتجنبها حتى جاءه البرهان وهو حضور زوجها ومن معه من الشاهدين من قومها، ولذا؛ فقوله (وَهَمَّ بِهَا) أي لحقه منها ما لحقه من أفعال تؤدّي إلى ضيق النفس فكان رافضا لها بالقوّة التي تبعدها وتجنبه أيها دون أي ضرر.

304- مريم 18.

305- يوسف 23، 24.

ولأنّ يوسف متقي لله تعالى قال ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا
يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ
فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾³⁰⁶، أي
في حالة التخيير سيكون مختاراً للسجن بكلّ ما فيه من همٍّ وغمٍّ ولا يختار
ارتكاب الفاحشة التي راودته عليها امرأة العزيز.

13 . مُخْلِصٌ :

الإخلاص طاعة مع فائق الاجتهاد، ومثابرة مع فائق الحرص، وهو
الذي فيه يتطابق العمل أو الفعل والسلوك مع النية، فالإخلاص لا يكون
إلا حيث يكون الجد والاجتهاد.

والمخلص هو الذي يصدق القول والعمل والفعل والسلوك، وهو
الطائع لأمر الله إتباعاً وانتهاءً وتجنباً، ولهذا كان يوسف صلى الله عليه
وسلم من عباد الله المخلصين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُخْلِصِينَ﴾³⁰⁷، فقوله (مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ) على احتمالات منها:

. من العباد المخلصين الطاعة.

. من العباد المخلصين العمل.

. من العباد الذين تم اجتنابهم إخلاصاً.

إذا يوسف صلى الله عليه وسلم من عباد الله المخلصين الذين تم
اختيارهم واجتنابهم تميزاً بما امتازوا به من صدق القول والعمل والطاعة
والهداية إتباعاً لأمر الله.

³⁰⁶- يوسف 33، 34.

³⁰⁷- يوسف 24.

ولذا فالمخلص هو الصافي المطهَّر والمنقَّى من الشوائب، ولأن يوسف كان كذلك فهو بُشِّرَ لمن استبشر به وهو نبي كريم لا معصية تلاحقه ولا ذنب.

ولو كان يوسف من الغاوين لكان مع همة امرأة العزيز هاما، ولأنه من المخلصين استعصم فكان من المستثنين الذين قال فيهم تعالى: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} 308.

المخلص في الاصطفاء والاجتباء والاختيار والقول والعمل هو الذي له في جنة النعيم الجزاء الأوفى مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا نُجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ} 309.

14 . صادق:

الصدق صفة حميدة للمؤمنين، ولهذا فأصحاب الصدق هم دائما مبشرين بما هو خير في حياتهم ومن بعد بعثهم، قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ} 310.

ولأن يوسف صلى الله عليه وسلم من الصادقين شهد شاهد حق من أهل المرادة له بالحق فجاءت شهادته مثبتة لصدق يوسف صلى الله

308- الحجر 39 . 42.

309- الصفات 39 . 49.

310- يونس 2.

عليه وسلّم، مصداقا لقوله تعالى: { قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } 311.

ولأنّ الصدق صفة من صفات يوسف، ولأنّ الله تعالى مطهره من اتهامات امرأة العزيز التي راودته فاستعصم، جاء اعتراف المتهمه له نتيجة صدقه فيما قال وهي من الكاذبين، قال تعالى: { قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } 312.

وعليه: فمن يكون صادقا لا بدّ وان يبرئ ولو بعد حين، ومن يكون كاذبا سيدان ولو بعد حين، قال تعالى: { قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } 313.

ولأنّ الله يُحبّ الصادقين اجتبى يوسف نبيا من الصادقين، ولهذا؛ فمن يتقي الله ربّه يجد له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } 314، وقال تعالى: { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ

³¹¹ - يوسف 26 . 28.

³¹² - يوسف 51.

³¹³ - المائدة 119.

³¹⁴ - التوبة 119.

عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا {315}.

15 . مستغفر :

الاستغفار طلب المغفرة من الله الغفار المطلق على ما يتهيأ للمؤمن من أفكار أو لِمَا جرى معه من فعل أو قول أو عمل قام به وهو لا يليق بمن آمن بالله تعالى، أو لِمَا ارتكبه من ذنب ثم استدرك نفسه بالالتجاء والعودة إلى الله بدلا من الاستمرار أو البقاء على ما يُجَيِّده عن إيمانه به تعالى.

قال تعالى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} 316 في هذه الآية الكريمة جاء الاستغفار سابقا على التوبة وهكذا دائما التوبة تلاحق الاستغفار وهو يرتبط بها. وقال: {وَأِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} 317. ترشد هذه الآية الكريمة إلى أن صالحا صلى الله عليه وسلم قد أرسل إلى ثمود ليستغفروا الله على ذنوبهم وأن يعبدوا الله ولا يشركوا به أحدا.

والاستغفار هو ذكر الله دائما بالوحدانية والقدرة المطلقة وتذكُّر عن غفلة أو انقياد للشهوة على حساب التمسك بالحق.

315- الطلاق 2، 3.

316- هود 3.

317- هود 61.

والتوبة المترتبة على الاستغفار هي: عودة إلى الله بالتصديق دون شك فيما يقول. ولهذا جاء الاستغفار مقدما للتوبة، أي أن الاستغفار إذا ما بإعلان التوبة.

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾³¹⁸ كما سبق أن بينا في الآيات السابقة، جاء الاستغفار أولا ثم التوبة ثانية والاستغفار والتوبة يُقَدِّمان طاعة لرحيم غفور ودود لتكون الإجابة المغفرة.

وإذا تساءل البعض:

لماذا المغفرة؟

نقول:

لمبررات منها:

. اتساع دائرة المؤمنين بالله تعالى.

. حتى لا يتمادى العصاة في عصيانهم.

. لعلمه تعالى بقصور خلقه عن الكمال الذي يقيهم ارتكاب الخطايا

والمعاصي والذنوب.

. لعلمه بأنهم خلقه الذين يراد لهم أن يكونوا في أحسن تقويم.

. لأنه يعلم أن البعض من عباده يرتكب الخطايا تحت طائلة

الضرورة، وفي هذا الأمر يرى البعض أنه لا إثم في ذلك، ونحن نتفق معهم

بأسباب المغفرة السابقة على ارتكاب الفعل.

³¹⁸ - هود 90.

. لأنّه يعلم البعض من عباده يرتكبون الخطيئة تحت طائلة الإجمار،
وهذه أيضا لها المغفرة السابقة.

. لأنّ الاستغفار عبادة تُرسيخ الطاعة التامة لله تعالى.

. لأنّ الاستغفار تيقن بعدم بلوغ الكمال وعرفانا بأنه لا كمال إلا لله
تعالى.

. لأنّ قانون المشيئة الإلهية مؤسس على قاعدة الغفران، والاستثناء
منها هو العذاب، قال تعالى: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ
مِنْ مَزِيدٍ} 319، وقوله تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ
بِمُؤْمِنِينَ} 320.

ولذا، فالمغفرة صفة من صفات الله الحسنى فمن اتخذها سلوكا
وعملا في حياته استمد صفة من صفاته تعالى، وفاز بالمغفرة في حياته
ومئاته ويوم بعثه.

وعليه، جاء استغفار يوسف ربّه ضمينا على ما حدث معه من قبل
امرأة العزيز، قال تعالى: {قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي} 321، فقوله:
{هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي} يعني ممّا يعني: وكأنّه يقول: استغفر الله أن أفعل
مثل هذه الأفعال، ولكن هي التي راودتني ظلما وبهتاناً وأنا لم أكن كما هي
تبتلي، وفي هذه الحالة لم يكن استغفار يوسف على ذنب ارتكبه بل جاء
ترسيخا تاما لإيمانه بالله تعالى، ولهذا كان يوسف مستغفرا ربّه عمّا ألمّ به
من امرأة العزيز، أي وكأنه يوّد أن يقول: (استغفر الله أن ارتكب هذا
الفاعل).

319- ق 30.

320- يوسف 103.

321- يوسف 26.

ولذا، فالاستغفار ليس بالضرورة أن يكون مقتصرًا على ارتكاب ذنب، بل قد يكون تجنبًا له وتيقنًا بعدم ارتكابه، أي أن استغفار يوسف ربه جاء تأكيدًا لقوة إيمانه بأن لا يرتكب الخطيئة مع امرأة العزيز ولا غيرها. فاستغفار يوسف هو تعوُّد بالله من أن يرتكب هذا الفعل مع امرأة العزيز أو مع ما يماثله مع غيرها.

وغفر في اللغة هي: "غطى وستر" 322.

والغفَّار "هو من يغفر الذنوب مرّة بعد مرة وهو كثير الغفران لعباده الذين تابوا إليه واستغفروه فغفر لهم وسترهم لئلا يُفضحوا يوم الحساب" 323.

ومع أنّ معظم التعريفات تؤيد بأن الغفَّار هو الستَّار، إلا أننا لا نتفق معها بالتمام حيث الفارق في الدلالة والمعنى للاسم الغفَّار والستَّار من حيث الآتي:

. الغفَّار صفة من صفات الله الحسنى: فهو الذي يحدد الذنب ويكشفه، ويحدد له العقاب، ويحدد له الثواب، ويتحكّم في أمر كلّ منها، ومع ذلك يعفو عن من يشاء متى يشاء وكيفما يشاء. فالغفار يُحرِّم الذنب ولا يقبله ولا يقبل بإخفائه إلا بمعاينة مرتكبه أو بالغفران له إن استغفر مرتكبه عن بيّنة.

. الستار: لم يكن من أسماء الله الحسنى المتفق عليها ولم يرد في نص من الكتاب، وهذه الصفة تعني: إخفاء الذنب وإنكاره حتى لا يحدث الضرر أو يقع العقاب لمن كان سببًا في ارتكابه. ولذا فإن سترة الذنب لا تلغي وجوده بل تُخفيه وتُبقي عليه حتى لا ينكشف أمره، وهذه السترة

322 - الشعراوي، أسماء الله الحسنى. ص 205.

323 - احمد عبد الجواد، والله الأسماء الحسنى فادعوه بما. القاهرة، دار الريان للتراث، ص 54.

والإخفاء يمكن أن يتم عن أعين الناس، ولكنه لا يمكن أن يُخفي عن عين الله التي لا تنام ممّا يجعل له العقاب آجلاً أم عاجلاً، ولذا فإنّ إخفاء الذنب يميل إلى إنكاره أكثر من ميله إلى تصحيحه أو إصلاحه والعدول عنه.

وعليه: فالغفّار هو الذي يمحو الذنب ويزيله حقيقة إلى الأبد، أما الستار فهو الذي يخفي الحقيقة ويحجب أمرها كي لا تنكشف حتى لا يكون العقاب وفقاً للنصوص القانونية أو العرفية أو الشرعية. إنّها سترة بين البشر، فحالتها كحال الملابس التي بها تُستر العورات، فالملابس بسترتها للعورات لا تلغي وجودها بل تسترها فقط دون أن يكون لها أثر فاعل على طمسها أو تغيير أحوالها فتظل هي كما هي.

أمّا الغفّار فبمغفرته لا يترك الذنب هو كما هو، بل يغيّر حال مرتكبه من الحالة السالبة إلى الحالة الموجبة، أي من حالة الجزاء بالعقاب إلى حالة الجزاء بالثواب.

وعليه: فالستار هو من يُبقي ويحافظ على الحالة حتى لا يزداد التوتر بشأنها، والغفّار هو الذي يُنهيها بإصلاح أمرها أو يعاقب مرتكبيها بما ينبغي أن يعاقب به.

من يُستّر على ارتكاب الذنب، يلحقه ذنبا بشأنه، ومن يغفر ذنب يجازى عليه بالثواب. وفي مقابل ذلك من يكشف ذنبا أو جريمة ويعمل على تقويمها أو تقويم مرتكبيها يجازى من الله تعالى ثوابا.

قال تعالى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا} 324. الحجاب المستور هو الذي يحول بين الطرفين فيجعل أحدهما مكشوفاً للعيان والآخر محجوباً عنها، ولذا؛

فالحجاب لا يلغي أحد الأطراف ولكنه يستره، مما يجعل الحجاب المستور هو الذي يحول بين الطرفين فيجعل إحداها مكشوفاً للعيان والآخر محجوباً عنها، ولهذا فإن الحجاب لا يلغي أحد الأطراف ولكنه يستره إلى حين.

وعليه: فالحجاب في دائرة الممكن المتوقع يمكن أن يكون على حالتين:

الحالة الأولى: أن يكون ساترا ومستورا. أي؛ مع أنه يحول بين الهدف وبين من يريد بلوغه إلا أنه غير قابل للمشاهدة مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا} 325.

الحالة الثانية: أن يكون ساترا مكشوفاً، وهو كالملابس التي يرتديها الإنسان لتستر بدنه وعوراته التي هي جزء من ج سده مما يجعل الملابس تُرى بالعينين وتحول بين الرؤية والمستهدف، وكذلك كجدران المنازل التي تستر أفراد الأسرة وحركاتهم عن لا يكون محرماً.

بناء على ما تقدم فإن الغفار أعظم شأنًا من الستار، فالله لا يخاف من أحد ليستره أو يتستر عليه كما هو الحال بين البشر، ولا يجامل أحدا ولا يطمع في أحد ولا يخاف من أحدٍ ولا تربطه علاقة خاصة بأحد سوى الذين يرتبطون به إيماناً تاماً ووحداً تامة، ولذا فهو يغفر الذنوب والعيوب ولا يقصر أمره على سترتها.

السترة بين الناس هي عدم إظهار العيوب والنقائص، فهم الذين يقدمون عليها وهم الذين يسعون لإخفائها حتى لا تترتب الفتنة عليها.

والمغفرة لا تتم إلا بعد كشف الفعل أو السلوك المحرّم أو المجرّم
إنسانيا واجتماعيا ثم إعلان التنازل إرضاء إراديا عمّا يترتب عليه من
عقاب أو قبول ثمن يعوّض ما تركه الجرم أو الذنب من أثر سالب على
نفسية أو سمعة أو كرامة الفرد أو الجماعة أو المجتمع.

الغفّار بالإضافة هو الذي يتجاوز عن الذنب بعد كشفه وإظهاره
وتحديده وتحديد المترتب عليه، وتقديم الطاعة والاعتراف به وبالحقّ الذي
من أجلّه ولذا جعل العقاب قيمة مرضية لمن ظلّم وجزاءا مناسبا لمن ظلّم.

ولذلك توجه يوسف صلّى الله عليه وسلّم إلى الغفّار لإيمانه بأنّه
وحده من يمتلك الإجابة، أي وحده من يمتلك الأمر، (أمر العقاب وأمر
المغفرة والثواب)، فهو الذي لا ينوب عنه أحد ليحل محله أو يشاركه في
أمره. ولذا، لا يغفر الذنب إلا الذي بيده الأمر بعد تبين ومُحاقّه وتنفيذ
العدالة.

ولذا؛ فالمغفرة صفة مترتبة على الفعل للإعفائي كما يترتب الفعل
الإعفائي على التوبة مصداقا لقوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ
عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } 326 أي أنّ
الله يقبل توبة من يعود إليه بعد ارتكاب الذنوب، فأبواب رحمته الواسعة
مفتوحة ولا تُثقل أبدا في وجه من يرتضي توبة عن معصية أو ذنب
أرتكب، فالتوبة عودة إلى الله تعالى تتحقّق بالاستغفار، ويترتب عليها
إعفاء من الغفّار المطلق عزّ وجلّ لمن اعترف بذنبه وحاد عنه بالالتجاء
والعودة إليه تعالى.

وعليه: بعد ما اعترف أخوة يوسف بخطئهم أمامه جاء استغفار يوسف لأخوته ضمنيا في قوله تعالى: { قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ قَالُوا أَتُنْكَلُ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفُورُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } 327. ولهذا، كان استغفار يوسف الضمني صريحا في استغفار يعقوب لهم يوم أن أتوه بقميص يوسف فكان بصيرا مصداقا لقوله تعالى: { اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْفُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ آفَاقَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ } 328.

16 . مُنْبِئ:

الإنباء إبلاغ بخبر لم تسبق معرفته من قبل، والمنبئ به هو الذي يعلم بأمره قبل غيره فينبئهم به، كما أنبأ يوسف صلى الله عليه وسلم فتيان السجن معه، قال تعالى: { وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } 329.

327- يوسف 89 . 92.

328- يوسف 93، 98.

329- يوسف 36، 37.

يفهم من الآيتين الكريمتين السابقتين أنّ الإنباء إعلام بتأويل المضمر عليه أو المرئي رؤية واضحة سواء أكانت رؤية يقظة أم رؤية منام مصداقا لقوله تعالى: (لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا)، فالطعام لا يأتي مناما ولكن في المنام يمكن أن يُرى الطعام رؤية، أي لا يأتِيكُمَا طعام من طاعم إلا ونبأتكم به قبل أن يؤتى إليكما.

وعليه: فالنبأ لا يكون إلا على وجوه ثلاث:

الوجه المطلق: وهو الذي لا يكون إلا من الله تعالى مصدر النبأ.

الوجه النسبي المرسل (النبي أو الرسول): وهو المكلف بالإبلاغ إنه مصدر الآن باء.

الوجه النسبي (المستقبل المستهدف بالنبأ) وهم الناس على المستوى الثنائي كما حال السجينين مع يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والجماعي كما هو حال أهل القرى والعشيرة والقوم، والمجتمعي كما هو حال الأمة والكافة.

وعليه: لقد اتصف يوسف بالنبى لأنبائه من يتعلق الأمر بهم بما أنبأه به الله المنبى المطلق ، ولذلك كان إنباء يوسف في دائرة النسبية لمن يتعلق الأمر بهم من خلالها، وهكذا عُرف في عصره ممّا جعل الملك يقول كما جاء في الكتاب الحكيم: { وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ حُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ

سَبَّعَ عَجَافٌ وَسَبَّعَ سُنْبُلَاتٍ حُضِرٍ وَأُخْرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ {330}.

17. حنيف:

الحنيف هو المؤمن بالله فطرة قد فطر عليها إتباعا، ولذا؛ فالحنيف هو المستقيم ومتبع الهداية، والمخلص في إتباع الحقّ والتمسك به، والداعي إليه والمدافع عنه، وهو المدرك بأنه المخلوق الذي من ورائه خالق أعظم يستوجب العبادة والطاعة.

ولذا؛ فالحنيف هو من تطمئن نفسه بالله تعالى، ولهذا؛ فالطمأنينة غاية من غايات المؤمنين الذين يتبعون ملة إبراهيم حنيفا لتطمئن قلوبهم بذكر الله {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} {331}.

وعليه: فالنفس المطمئنة حنفية تعلم الحقّ وتعرفه فتدركه وتتبعه، وهي التي لا تقول الباطل ولا تتبع أفعاله، تتقي الله ولا تشرك به شيئا، ولهذا؛ فهي المطمئنة، ومصيرها الجنة مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي} {332}.

ولذا؛ فالحنيف هو الموحد لله تعالى وهو المتيقن بالحقّ حيث لا ظن يلاحقه فيه، ولهذا؛ فقد أرى الخالق يوسف آيات من آياته العظام كما أراها من قبل إلى أبيه إبراهيم عليهما الصلّاة والسّلام الذي أراه ملكوت السماوات والأرض فكان من الموقنين للحقّ، مصداقا لقوله تعالى:

330 - يوسف 43 . 46.

331 - الرعد 28.

332 - الفجر 27 . 30.

{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} 333.

ولأنّ يوسف صلّى الله عليه وسلّم حنيفاً ونبياً من المرسلين فهو العابد لربّه، والمسبّح باسمه في كلّ حين، ولإكثاره التّعبّد لله ربّ العالمين أظهره الله على اليقين حنيفاً حتى أصبح اليقين صفة من صفاته العظام.

ولهذا، على المؤمن أن يعبد ربّه العزيز ليكون على اليقين مصداقاً لقوله تعالى: {وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} 334

واليقين يكون على ثلاثة أوجه:

أ. حقّ اليقين: وهو الشيء الذي يجب أن يتبع، وهو أيضاً الشيء الذي يجب الحياد عنه {فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَدِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ} 335

وعليه: فإنّ حقّ اليقين بيّن لا يُخفي، ولا لبس ولا غموض ولا معذرة من بعده فليؤمن من يؤمن، وليكفر من يكفر.

ب. علم اليقين: هو العلم الذي لا يزحزحه باطل، ولا تشوبه شائبة ولا يغيّره متغيّر، ثابت ثبات الجنّة، وثبات جهنّم، وثبات الحياة الدنيا في عالمها الزائل، وثبات الحياة الآخرة في عالمها الباقي، والذين ألهاهم التكاثر في الحياة الدنيا سيرون بأمهات أعينهم، وكامل وعيهم الجحيم عندما

333- الأنعام 65.

334 - الحجر 99.

335 - الواقعة 95.

يُصَلُّونَ فِيهِ، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيَعْلَمُونَهَا عِلْمَ الْيَقِينِ قَالَ تَعَالَى: {أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} {336}.

ج . عين اليقين: هي الحقيقة هي كما هي عليه، فعندما يقف الإنسان عندها يراها بعينه ماثلة أمامه، سواء أكانت ذات مؤثر موجب أم ذات مؤثر سالب جنّة كانت أم كانت النار، وسواء أكان الثواب أم العقاب، فالحقيقة لم تعد معرفة عن خير أو علم غيب، بل المثل فيها هو عين اليقين وذلك لانعدام التكذيب بالمثل فيها هي كما هي، قال تعالى: {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} {337}.

ولأنّ يوسف صلّى الله عليه وسلّم حنيفاً فقد ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله عزّ وجلّ مصداقاً لقوله تعالى: {قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} {338}.

إذا يوسف حنيف بإتباعه ملة آباءه الحنفاء إبراهيم وإسحاق ويعقوب صلّى الله عليهم وسلّم.

18 . داعٍ:

الداعي هو الذي يوجّه الدعوة إلى المدعو بالمدعو به، والدعوة قد تكون خيرة كما هي دعوة يوسف ابن يعقوب وجميع الأنبياء والرسل الكرام

336 - التكاثر 1 . 5 .

337 - التكاثر 6، 7 .

338 - يوسف 37، 38 .

صلى الله عليهم وسلم، وقد تكون دعوة كفر كدعوة فرعون وهامان وغيرهما من الكافرين والمشركين والمنافقين الضالين عن سبيل الرشاد.

ولأن يوسف نبي كريم فلا بد وأن يكون داعيا للخير أينما كان داخل الجدران سجيناً أم خارجها طليقاً، ولهذا، عندما سُجن قام بدعوة السجناء حنيفاً لله رب العالمين، قال تعالى: { يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 339.

يفهم من الآيتين الكريمتين السابقتين أنّ صاحبي السجن هم غير حنفاء أي غير موحدين لله تعالى، بمعنى أنهم من الذين يعبدون أرباباً من دون الله (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتُموها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان)، ولهذا توجه يوسف إليهم بالدعوة لله واحداً واحداً (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم).

19 .عليم:

العليم هو الذي علمه لا ينقطع وهو المتعمق في أغواره، وهو الذي يدري بما لا يدريه غيره، ولذا؛ فهو من لا يقارن بمتعلم، وهذا المفهوم لا ينطبق إلا على الله العليم المطلق.

أمّا عليم: فهي صفة لمن عُلِّم من العليم وألمّ بما عُلِّم به، ودعا إليه الآخرين هداية للحقّ بالحقّ.

وفي لسان العرب: "العليم هو الله العالم بما كان وما يكون قبل كونه"340.

وقال الخطابي: "العليم هو العالم بالسر والخفايا التي لا يدركها علم الخلق"341.

ولذا، فالعليم: صفة يمكن استمدادها من قبل المستخلفين في الأرض ويمكن أن تُهب لهم هبة من العليم المطلق مما يجعلهم علماء أو على علم في دائرة النسبية.

والعليم هو المدرك لما يخلق قبل خلقه، والمدرك لأمره أثناء خلقه، وهو الذي لا تخفي عليه خافية فيما جرى قبل الخلق وأثنائه، وهو المدرك لمن أراد أن يتذكر أو يهتدي للحق الذي به هو أعلم. إنه مصدر العلم الناقل من الظلمة إلى النور؛ العلم الذي لا يقتصر على الأبصار فقط بل العلم الذي يمتد إلى البصيرة فيدرك إدراكا؛ إنه العلم الذي تستنبطه العقول وتستدل عليه بالحجّة والبرهان والآية الدالة على الإثبات بالمطلق.

وعليه: فالعليم المطلق: هو السابق على العلم حيث لا علم إلا منه، وهو السابق على كلّ سابق ولا سابق عليه. فهو الذي يعلم بما يحدث قبل أن يحدث، وهو الدائم الذي ينهي ولا يُنهي.

أمّا العليم بالإضافة فهو المؤقت الذي لا يبقى مهما أمّ من علم من علمه الواسع، ولذا فالعلم الدائم للحي الدائم والعلم المؤقت للعليم المؤقت (الخليفة).

340- لسان العرب، المحيط، ج 2، ص 870.

341- محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنى، ص 41.

وعلم العليم المطلق بالنسبة لمن خلق هو علم غيب، إلى أن يُعلمه به أو يظهره على شيء منه. لذا فعلم الغيب في الزمن الآن هو العلم الإعجازي الذي لا تدركه عقولنا ومعارفنا ولا تستوعبه ذاكراتنا ولا نحيط به شيئاً. وهو العلم الذي إن سؤلنا عنه لا تكون عندنا إجابة له بشيء برغم حدوثه في الماضي أو ظهوره الذي سيحدث في المستقبل.

والأصل في العلم هو الغيب، والاستثناء منه هو الظهور، وإلا ما معنى أن الله خلق الشيء من لا شيء؟

إنه يعني: قد خلق الله ممّا لا نعلم شيئاً نعلمه، أي أننا عُلِّمنا ممّا لا نعلم علماً. ووسيلة الاطلاع على علم الغيب هي الرسالات التي نزلت على الرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم، الذين بُعثوا لأُممهم وقراهم وشعوبهم وللناس كافة وهؤلاء جميع هم مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاعلين للخيرات، فقد بدأ علمنا من العلم الذي أظهر الله عليه أبونا آدم صَلَّى اللهُ عليه وسلّم الذي اصطفاه الله بالعلم ممّا خلق وخصّه بالمعجزة التي جعلت الملائكة تسجد له طاعة لأمر الله في الاصطفاء؛ وهكذا جاءت المعجزات ونزلت بعلومها على بقية الرُّسل الذين منهم يوسف الذي خصه الله بالعلم، ولذا فقد وصف يوسف نفسه به مصداقاً لقوله تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْم} 342

ولهذا، يُعد يوسف صَلَّى اللهُ عليه وسلّم عليماً بالإضافة فكان مُلماً إماماً بالعلوم التي أظهره العليم المطلق عليها، ممّا جعله يعلم ما لم يعلمه غيره وفي هذه خصوصية لمن يصطفاه الله لسرٍّ من أسرارهِ وحكمة من حكيمهِ قال تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

وَيُؤْتِيهِمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {343}.

ولأنَّ أمر الأسرار والحكم التي من وراء العلم ليس هينا فيتولى الله اختيار وتفضيل من هم متهيئون لهذه المهمة الصعبة فيصطفاهم لها، ويُعلِّمهم ما لم يعلموا من قبل، فتصبح رؤاهم سابقة على حدوث الفعل، أي أنَّ المعلومة التي تتعلق بأمرٍ سيحدث يتم اطلاع البعض عليها حتى يصبحوها أهل قدرة على الآن بآء بما قبل حدوثها وإن حدثت فهم لها خير مفسرٍ. ووفقا لهذه القاعدة كان يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير مُفسر للأحاديث، التي علَّمه العليم تأويلها.

وقوله: (وَيُؤْتِيهِمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ) يقصد بالنعمة: النبوة التي أخصَّ بها الله آل إبراهيم والذين جاءوا من أصلاهم إسحاق ويعقوب ويوسف وآخرين من بعدهم ومن بينهم موسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا الصلوة والسلام.

وفي قوله: (إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) فهي تدل على: علمه وحكمته من وراء العلم الذي أظهره الله ليوسف والنبوة التي أتمَّها عليه كما أتمَّها من قبل على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق.

وفي آية أخرى يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {344}. فإذا نظرنا لخاتمة هذه الآية (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) نلاحظ أنَّ العلم الذي علَّمه الله ليوسف هو علم الخصوص للعموم أي خصَّ الله به يوسف ليظهره للمستهدفين به من قومه، وليبقى

343- يوسف 6.

344- يوسف 21.

من بعده آية تروى مع قصص الآن بيباء كما نحن في هذه الموسوعة نحلل ونفسّر ونروي.

ولنعود لقوله: (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) أي؛ بعد ما ألقوه أخوته في الحب لا لذنب إلا لأن محبته في حالة تميّز عند أبيه صلوات الله وسلامه عليهما أصبح في محبة الملك ممكن في الأرض حكما وعلما يخطط ويرسم السياسات ويُنفذ الأمر وفقا لخططه واستراتيجياته التي بها أنقذت البلاد والعباد من الهلاك، فكان قدوة حسنة في زمانه ولمن يأتي من بعده، ولهذا اليوم فإن يوسف آية من آيات الله العظيمة.

وقوله (وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) أي؛ أنّ تعليم يوسف صلّى الله عليه وسلّم كان تعليما من العليم المطلق، الذي مكّنه من العلم ومعرفته وسبر أغواره وكشف أسراره وتفسيرها لمن يتعلق الأمر بهم أو ذوي العلاقة، وهذه حكمة خصّ بها الله تعالى يوسف صلّى الله عليه وسلّم.

وعلم تأويل الأحاديث: هو العلم الذي فيه للفراسة والفتنة والدراية التامة مكانة عالية، أي أنّ يوسف صلّى الله عليه وسلّم له من العلم ما مكّنه من معرفة القول الظاهر والمضمون الذي يحفظه النصّ أو الخطاب أو الحديث، ولهذا، كان يوسف محللا ومفسرا للأحاديث سواء أكانت أحاديث رؤية صحوة أم رؤيا منامية.

وهكذا، كان علم يوسف في ازدياد حتى بلغ أشده، فأتاه الله حُكما وعلمًا، قال تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجَزِّي الْمُحْسِنِينَ} 345. والعلم المؤتى هو علم الوفرة الذي آتاه الله تعالى ليوسف ليكون عليما فكان عليما (إِنِّي خَفِيفٌ عَلَيْهِمُ)، ولهذا فإن بلوغ الأشد، هو بلوغ النضج والاكتمال العقلي والبدني والاستعداد لحمل المهمة

345- يوسف 22.

التي أنيطت بيوسف من رب العالمين. إذا بعد أن بلغ يوسف أشده آتاه العليم المطلق سرا ففضى له بالحكم في سلطان الملك وآتاه النبوة، ثم آتاه علما نافعا به تمكّن من تأويل الأحاديث؛ وهكذا ربنا يُكرم الذين يتولاهم بإحسان، والمحسنون هم الذين يكثر من أفعال الخيرات الحسان ويتمسكون بصفات الله تعالى في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم وسلوكياتهم، وهكذا كان يوسف صلى الله عليه وسلّم نبيا رسولا وخليفة الله في الأرض ليُصلح فيها ويُعمر.

وقال تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ} 346. يوسف صلى الله عليه وسلّم قد عرف أنه لم يؤت الملك وتأويل الأحاديث بالمطلق، بل أوتي شيء من الملك ومن تأويل الأحاديث مصداقا لقوله تعالى {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} 347 أي؛ أن الكمال لله وحده والعلم المطلق لا يعلمه إلا هو، ولهذا لا يمكن أن يكون أحد ممثلا له عز وجلّ في شيء، ومع ذلك فالذي يُراد له أن يكون خليفة في الأرض يُراد له أن يسعى ويبحث ليزداد علما من علم العليم الذي بيده مفاتيح العلم، قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} 348، أي؛ لا ينبغي على المرء أن يُسلّم بما يؤتى إليه من علم أو ما يتعلمه من علم بأنه العلم الكامل، وعليه فكلّ ما تؤتى أو تتعلم فهو قليلا من كثير، فالعلم الأكثر بالمطلق هو علم الله تعالى، أمّا العلم في دائرة الممكن فهو علم نسبي فلا داعي لأن تقول أنا أعلم، بل قل ربّ زدني علما من علمك الواسع فأنت أعلم.

346- يوسف 101.

347- الإسراء 85.

348- طه 114.

وقوله (فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) قول العليم الذي وحده يعلم كيف فطر السماوات والأرض، وهذا العلم في اعتقادنا لم يُطلع عليه من عباده أحداً، ولهذا فمهما تعلمنا فإننا لم نؤت من العلم إلا قليلاً، ولهذا فإن للفطرة علم لا يعلمه إلا العليم المطلق، إنها الفطرة التي خلق الله عليها طبيعة الأشياء كما هي عليه في الوجود، والفطرة ترتبط بخالقها ولا ترتبط بمن سواه، ولذلك خلق السماوات والأرض على الفطرة رحمة للعباد.

وقوله (أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ) تحتوي هذه الآية الكريمة على أمر التسليم المطلق لله تعالى في الدارين، والمراد من وراء ذلك طلب المناصرة والعون على مغالبة النفس وأهوائها ومغالبة الصعاب، وطلب الرحمة والمغفرة حيث الكمال لله وحده الذي يعلم ما لا نعلم. وتُظهر هذه الآية رغبة يوسف في الالتحاق بمن سبقه من الصالحين رضوان الله وسلامه عليهم.

وعليه: فالعليم هو مصدر العلم من الأدق إلى الأدق منه والأشمل، وهو الذي لا تخفي عليه خافية فأينما تكون لا تخفي عليه فهو خالقها وخافيتها حتى يظهرها على من يشاء من عباده متى ما شاء، قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} 349، وهكذا علم آدم الأسرار التي لم تعلمها الملائكة ولا الجن، قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ

بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ {350}. عَلمَ آدمَ الأسماءَ كُلِّها: أظهره على الأسرار وعرفه بمسمياتها دون لبسٍ أو غموضٍ حتى أنه ألمَّ بها إماماً وإدراكاً تاماً غير منقوص، ولاظهار عدم معرفتها خضع حضور الملائكة للاختبار بطلبه أن ينبئوه بالأسماء إن كان لهم علم بها، فقالوا: سبحانك، وفي هذا القول تنزيه لله تعالى الذي يعلم الغيب وحده، ولهذا فوق كل ذي علم عليم أعظم منه، مصداقاً لقوله تعالى: { كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَالِمٌ } {351}. فقوله تعالى: (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) إيضاح بأن العلم مجموعة من المستويات التي يمكن أن يتم بلوغها ومجموعة من المستويات التي لا يمكن أن يتم بلوغها، ولهذا، مهما تعلم الإنسان فعليه أن يعرف أن هناك من هم أعلم منه إلى أن يعرف أن العليم المطلق هو الله وحده جلاله.

20 . مُتَبَوِّئِ الْأَرْضِ:

التبوء إحلال مكاني بحق، ولذا كان تبوء يوسف الأرض تمكين من عند الله تعالى، ولأته كذلك فلا مزاحم له فيها ولا منافس، يفعل ما يشاء كيفما يشاء من أعمال وأفعال الخيرات الحسان التي هي في مرضاة الله عز وجل، قال تعالى: { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } {352}.

350- البقرة، 31 . 33.

351- يوسف 76.

352- يوسف 56، 57.

فقوله تعالى: (يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) فيه حرية تامة ليوسف أن يختار المكان المناسب له من الأرض التي هو فيها إقامة وحركة وعملا نافعا؛ وعلى هذا الأساس مُكِّن يوسف في الأرض مصداقا لوله تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ} 353، إذا يوسف مُمَكِّن في الأرض تمكينا أي بالقوَّة والقدرة المطلقة مُكِّن يوسف فيما مُكِّن فيه حكما وعِلما.

ولأن يوسف يعلم أنه مُمَكِّن في الأرض بقوَّة وقدرة مطلقة من الله تعالى، وهو محيِّرا في الأرض التي اجتباها الله فيها نبيا رسولا لأن يختار المكان الذي يراه مناسبا له فيها حينها قال للملك أجعلني على خزائن الأرض فجعله، قال تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا جُرْ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} 354.

وعليه: فمن الذي ينبغي أن يُمَكِّن في الأرض خليفة؟

كل من يستمد صفاته من صفات الله تعالى، ولذلك كان الآن بقاء على رأس المستخلفين فيها إصلاحا وإعمارا.

ورد لفظ (خليفة) في النص القرآني في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 355 وكان ذلك ضمن سياق الآيات العظيمة التي كانت تمثل

353- يوسف 21.

354 - يوسف 55. 57.

355 - البقرة 30.

البداية الأولى للبشرية، فسماع هذه الآية يحيل إلى تشكّلات مختلفة كانت تؤسس بداية البشرية ومن بين هذه التشكّلات هي الخلافة، فقد وردت ضمن سياق قصّة رسمت البداية الأولى في كلّ تفاصيلها، ومن بين هذه التفاصيل كانت الخلافة، وسياق الخطاب القرآني في هذه القصّة اتسم بالتحريف لآدم عليه السّلام، فهذا المخلوق شرفه الله تعالى وعرضه للملائكة بطريقة ارتسمت فيها عظمة الله تعالى وقدرته .

ويلاحظ أنّ لفظة الخليفة في النصّ القرآني وردت بصيغة التنكير التي تحمل دلالة الإطلاق المفتوح غير متحقّق على اسم شخص بعينه، ولهذا كانت البداية لورود اسم الخليفة بداية لتشكّل نمط معرفي للصورة التي يكون عليها النسق المراد تحقيقه في الأرض، ولهذا كان يوسف من المستخلفين الممكنين في الأرض حكما وعلماء.

وفي سياق الآيات القرآنية جاءت قصّة استخلاف آدم في الأرض، ومنحه مقاليدها على عهد من الله وشرط، وإعطائه المعرفة التي يعالج بها هذه الخلافة، كما أنّها تمهد للحديث عن استخلاف بني إسرائيل في الأرض بعهد من الله؛ ثم أعطى مقاليدها للأمة المسلمة الوافية بعهد الله فتتسق القصّة مع الجو الذي تساق فيه كلّ الاتساق 356، إذ يقول تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } 357. يلاحظ في الآية الكريمة أن صيغة الخطاب وان قصد بها بني إسرائيل إلا أنّها تشمل عموم المؤمنين بالله وملائكته ورسوله.

وإيجاءات لفظة (خليفة) ترسم أبعادا مهمة لما سيتحقّق في الأرض بعد خلق آدم صلّى الله عليه وسلّم، فمهمته لم تكن يسيرة وفق ما تملّيه

356 - في ظلال القرآن، ج 1، ص 27.

357 - البقرة 40.

عليه لفظة (خليفة). كما أن الخلافة التي أَرادها الله تبارك وتعالى لم تتوقف عنده بل استمرت وذلك من خلال الرُّسل الكرام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ الذين بعثهم الله تعالى إلى أمم في أماكن وأزمان مختلفة، إذ يقول تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} {358، واستمر هذا النسق إلى مبعث نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبمبعثه انقطعت الرسالات والنبوات فكان خاتما لها.

أما من حيث الخلافة فهي تسير كما نعتقد وفق صيغة مطابقة لاستمرار الرُّسل الذين من بينهم يوسف الذي مُكِّنَ في الأرض خليفة، وذلك في قوله تعالى (تَتْرَى) فهذه اللفظة ترسم صورة التابع المتحقق للرُّسل، لكن هذا التحقق ينتهي بخاتم الرُّسل والآن بياض نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما الخلافة فلا تنتهي إلا بنهاية الحياة.

وعليه: فلم يكن أمر الخلافة مرتبط ب(آدم) صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد وردت في سياقات أخرى في النص القرآني، من ذلك قوله تعالى: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ مِّمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} {359 وقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

358 - المؤمنون 44.

359 - ص 26.

الْفَاسِئُونَ {360، وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
الْأَرْضِ} 361.

21. مُحْسِن:

الإحسان هو من أعمال الخير التي تُرضي الله وعباده، ولذا؛ ففي
الإحسان إخلاص وتجويد للعمل مع فائق الاستقامة والإتقان، أي فمن
أحسن عمله أتقنه وأخلصه علما وجهدا.

والمُحسِن هو الذي يتبوأ المكانة العالية رفعة في قول الحقّ وفعل
الحقّ، ممّا يجعل الإحسان رفعة ذوق وإخلاص عمل وفعل بين النفس
وغيرها من الآخرين أي بين (الأنا والآخر).

ولأنّ يوسف من المحسنين فقد جاءت صفة الإحسان مجازاة له من
عند الله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ
يَتَّبِعُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ
وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} 362.

يفهم من هاتين الآيتين الكريمتين أن ليوسف أجران عظيمان:

الأجر الأوّل: في الحياة الدنيا التمكين في الأرض رحمة (حكما
وعلما) في مرضاة الله تعالى مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
الْأَرْضِ يَتَّبِعُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ}.

الأجر الثاني: في الحياة الآخرة رحمة (الفوز بالجنة) مصداقا لقوله
تعالى: {وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}.

360 - النور 55.

361 - يوسف 21.

362 - يوسف 56، 57.

ولأنّ الإحسان نعمة ظاهرة من نعم الله تعالى على عباده الصالحين،
 إذا الاعتراف بنعمة الله حسنة في ذاتها تضيف إلى الحُسن حسنا آخر،
 وهكذا كان يوسف مُحسنا في قوله وعمله وأفعاله وسلوكه، قال تعالى:
 { قَالُوا أَتِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ
 مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } 363.

إذا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولم يلبسوا إيمانهم بظلم فأولئك هم
 المحسنون حقًا الذين من بينهم يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى:
 { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُونَ وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَتِلْكَ
 حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
 عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ
 ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ } 364.

22 . متسامح:

التسامح قيمة حميدة بين النَّاسِ بها يُغْفَرُ الذنب إن كان في غير
 معصية الله أو شرك به، إنه اللين الذي به تطمئن الأنفس والقلوب بعد أن
 يتم الإعفاء عنها بسبب ذنب ارتكبه في حق الآخرين.

وفي التسامح تساهل بعد شدة ألمت بمن ألمت به من النَّاسِ، وفيه
 غض نظر عن بعض ما يؤثر على العلاقات بين النَّاسِ سلبيا، ليكون
 التجاوز به لِمَا يعيق السُّبُلَ في اتجاه تحقُّق الأهداف والأغراض والغايات.

363 - يوسف 90.

364 - الأنعام 82 . 84.

وعليه فالتسامح قيمة مُفضَّلة اجتماعيا وإنسانيا يميل البعض إليها محبة في استيعاب الآخرين وقيادتهم إلى ما يجب أن يُتبع والحياد بهم عما يجب الحياد عنه.

ولذا، في قيمة التسامح مفاهيم تدل على التنازل الإرادي بمقابل أو بدون مقابل، ولذلك فقيمة التسامح تؤدّي إلى إصلاح ذات البين بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولذلك فمن عفي وأصلح فأجره على الله، قال تعالى: { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } 365.

ولأنّ التسامح قيمة حميدة بين العباد الصالحين كان يوسف من عباده خير المتسامحين مع إخوته مصداقا لقوله تعالى: { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } 366. فقوله: (لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) بمعنى لا غضب ولا كره ولا حزن ولا ألم عليكم اليوم بعد أن اعترفتم بأنكم كنتم مخطئين، ولذلك فأنتم مسامحون (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ) ولأن التسامح كان في مرضاة الله تعالى وبارادة تامة من يوسف صلى الله عليه وسلّم دع يوسف ربّه لإخوته الذين أخطئوا في حقّه بالمغفرة والرحمة (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).

23 . صبور:

الصبر على مستوى الإطلاق لا مقياس لدرجاته، وعلى المستوى النسبي في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع هو على درجات من التحمّل يمكن أن تقاس والناس متفاوتين في تحمّلها، لذا فإن الصبر قوّة حيث لا قوّة بلا صبر، ولا صبر إلا عند قوي متين، ولهذا فالصبر الحقيقي يكون متحدا وملازما للقوّة.

³⁶⁵ - الشورى 40.

³⁶⁶ - يوسف 91، 92.

والصَّبُورُ هو الله الذي صبره لا ينفد وهو دائم البقاء صابرا حيث لا غالب له وهو القوي القهار.

الصبور: مصدر لكلّ صبر، يستمد الصبر منه وهو لا يستمد من شيء سبحانه، ولذا فالصبر في دائرة النسبية والممكن هو دليل قوّة العزيمة وسلامة الرأي والقرار والفعل والعمل وذلك لأنه المستمد من الصبور المطلق، ومن اتصف به كان من المستخلفين فيها.

وفي أسماء الله الحسنى الصَّبُور هو الله تعالى الذي استمد يوسف صبره من صبره عزّ وجلّ، فهو الله الصبور الذي لا يسارع ولا يعاجل بل جعل كلّ شيء بمقدار ومليقات وهو العادل الذي لا يظلم أحدا.

وصبور: صفة بشرية تلتصق بمن هو على درجات من الصبر عندما لا يستعجل على ظلم أو ارتكاب سوء حيث لا يقلق على من يجب الصبر عليه أو الصبر من أجله وفي مقابل ذلك لا يكون الصبر إلا تأنيا وليس بتأخير أو تأخر، ولهذا فإن صبر العبد لا يخلو عن مقاساة التي قد يكون فيها داعي الدين أو العقل في مقابلة داعي الشهوة أو الغضب فإذا تجاذب الإنسان داعيان متضادان فدفع الداعي إلى الإقدام والمبادرة ومال إلى باعث التأني سمي صبورا ممّا يجعل باعث العجلة مغلوبا ومقهورا.

وصبور صفة من صفات الله الحسنى يتحلى بها الخليفة في الأرض حيث لا يعتدي ظلما ولا يتأخر عن أداء فريضة من الفرائض طاعة لأمر الله تعالى. في الصبر التأني الذي ينفي صفة العجلة والتسرع المؤدي للألم، ولهذا فالصبور عزّ وجلّ لا يؤاخذ الناس بظلمهم ولكلّ أجلّ وحساب وهو الغفور لمن استغفر وتاب إليه عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ

أَجْلَهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} 367، فتأخير العقاب على مستحقّيه لا يعني إسقاطه عنهم بل وجوب وقوعه عليهم في وقت معلوم ومحدد من الخالق لا دخل للإنسان بهذا التوقيت ولا علم له به، ولولا صبر الله المطلق على المجرمين والعصاة لكان العقاب فورياً، لكنه لا يعجل إنزال العقاب عليهم ليمهلهم.

ولنا في يوسف صلّى الله عليه وسلّم أسوة حسنة في صبره على ما ألمّ به من مكائد ومكر وحسد حيث تعرّض لأن يقتل لولا فضل الله عليه، وتعرض للإلقاء في الحب لولا فضل الله عليه، وتعرض سنين بين الجدران سجينا لولا فضل الله عليه، وهكذا صبر ونال جزاء عظيماً في الدارين، في الحياة الدنيا مُكِّن في الأرض، وفي الآخرة الفوز بالجنة، وبفضل الله عليه كان صبورا متقيا للشرور والمحاسد والمفاسد فنال أجره مُحَسِّناً مصداقاً لقوله تعالى: {قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} 368

والصبر في حقّ الله تعالى يكون درسا في التوازن والنظام، أي أنّه سبحانه وتعالى لا تحمله العجلة على تقديم ما لا يجب تقديمه، أو تأخير ما لا يجب تأخيره بل حكمته هنا تتدخل لتعمل على تسيير أمور خلقه وفق نظام وسنن ثابتة، لا يمكن أن تتبدل هذه السنن أو تتغير لتعجل أو تسرع في أمر من أمور عبادته.

والصبور سبحانه وتعالى بقدرته فهو القادر وبقوته فهو القوي يستطيع أن يفعل ما يشاء، في الوقت الذي يشاء، قال تعالى: {فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ} 369، فصبره دائما على حكمة مطلقة وبالغة فهو يأمر بالكاف

367 - النحل 61.

368 - يوسف 90.

369 - البروج 16.

والنون ولكنه يُمهّل ويصبر بشكّلٍ متوازن وعادل دون أي خلل في ذلك، فهو المنزّه عن كلّ نقص وعيب سبحانه لا إله إلا هو.

فالصبور تبارك وتعالى يعلمنا ماهية الحكمة في العطاء وفي منع هذا العطاء، ويُشعرنا بهيمته الكاملة على كلّ شيء في الحياة والكون بصفة عامة، وأن بيده كلّ الأمور يقبّلها ويدبّرُها حسب علمه المطلق وحكمته البالغة، قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} {370}، إذا الذي بيده كلّ شيء لو شاء لشيء فعله ومع ذلك شاء لأن لا يفعل شيء استعجالاً إنه الصبور الذي يدبّر الأمر وكلّ أمر؛ فبالرغم من استطاعته وقدرته وقوته على كلّ شيء مطلقاً فهو الصبور الكامل في صفاته وأفعاله الجليلة العظيمة الحكيمة، فصبره نابع من ذلك الكمال كلّ، ومع أنه يصبر على العباد إلا أنه في أحيانٍ أخرى قد يُنزّل عقابه سرعة لا تأجيل فيها ليكون فعله عبرة وموعظة لمن يتقي، قال تعالى: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنَّ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِتَمُودَ} {371}، وهنا صفة الصبر لا تنتفي مع تنزّل العقاب والعذاب لكي يحدث التوازن في إحقاق الحقّ والآن تقام من الظالمين الذين لن يرددعوا بأية وسيلة، ولا نجد أي نوع من التناقض في ذلك أو الظلم، قال تعالى: {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ} {372}، فعلمه المطلق عزّ وجلّ والمسبق أدرك مسبقاً أنّ الخير والنفع للعباد سيكون على هذا الشكل، فالصبور بصير بعباده وعليم بهم وبما يكتمون ويُظهرون وهو القوي القهار.

370 - يس 82، 83.

371 - هود 67، 68.

372 - القمر 42.

وعليه: فَإِنَّ صَبْرَ اللَّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ يُوَدُّ لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا الْمُسْتَخْلَفِينَ فِي الْأَرْضِ لِيَعْمُرُوهَا وَيُصَلِّحُوا فِيهَا مَا اسْتَطَاعُوا إِصْلَاحًا فَهُوَ صَبْرٌ عَنْ عِلْمٍ كَامِلٍ بِأَحْوَالِهِمْ وَمَا تَكَنَّنَهُ صُدُورُهُمْ، وَهَذَا فَصْبْرُهُ عَلَيْهِمْ عَنْ قُوَّةٍ وَقُدْرَةٍ مُطْلَقَتَيْنِ، وَعَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ غَفْلَةٍ: قَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} {373}، فَصْبْرُهُ تَعَالَى لَا يَعْنِي أَنَّهُ غَافِلٌ عَمَّا يَفْعَلُ الْعِبَادَ وَكَذَلِكَ طَوْلُ الْفِتْرَةِ لَا يَعْنِي نَسْيَانَ أَمْرِهِمْ، بَلْ صَبْرُهُ فِيهِ رَحْمَةٌ لِهَؤُلَاءِ الْبَشَرِ وَذَلِكَ لِحِكْمَتِهِ الْمَطْلُوقَةِ، وَهَذَا فَصْبْرُهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ عِبَادِهِ لَا يَعْنِي إِسْقَاطَ الْعِقَابِ.

إِذَا عَلَيْنَا أَنْ نَفَرِّقَ بَيْنَ صَبْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَصَبْرِ الْعِبَادِ، فَصَبْرُ الصُّبُورِ يَكُونُ عَنْ قُدْرَةٍ مُطْلُوقَةٍ كَامِلَةٍ، وَأَيْضًا لَا يَكُونُ صَبْرُهُ لِقَضَاءِ حَاجَةٍ لَهُ عِنْدَ عِبِيدِهِ فِي الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ لَا يَكُونُ صَبْرُهُ حَامِلًا الْأَلْمَ وَالْحُزْنَ لِعَدَمِ تَمَامِ مَا يَرِيدُ أَوْ تَأْخِيرِهِ، قَالَ تَعَالَى: {وَرَبُّكَ الْعَنِّي ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَحْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ} {374}، أَمَّا الْإِنْسَانُ فَقَدْ يَكُونُ صَبْرُهُ عَنْ ضَعْفٍ وَعَدَمِ اسْتَطَاعَةٍ، أَوْ لِقَضَاءِ غَايَةٍ وَالْوَصُولِ إِلَيْهَا عِنْدَ غَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ، وَيَكُونُ فِي صَبْرِهِ شَعُورًا يَجْرِكُ الْأَلْمَ وَالْحُزْنَ فِي دَاخِلِهِ، وَقَدْ يُؤَدِّي بِهِ إِلَى الْيَأْسِ وَالْإِحْبَاطِ.

وعليه: جَاءَ صَبْرُ يَوْسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَمِدًّا مِنَ الصُّبُورِ الْمَطْلُوقِ الَّذِي شَاءَ لَهُ أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةً لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَقَدْ صَبَرَ عَلَىٰ كَيْدِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ لَهُ كَمَا صَبَرَ عَلَىٰ مَكْرِ وَكَيْدِ أَخُوْتِهِ، وَقَبْلَ أَنْ يَكُونَ سَجِينًا وَبِكَلِّ صَبْرٍ وَلَمْ يَقْبَلِ أَنْ يُلْحَقَ بِهِ الْأَلْمُ فِي غَيْرِ مَرْضَاةِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: {قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ

373 - إبراهيم 42.

374 - الأنعام 33.

السَّمِيعِ الْعَلِيمِ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى
حِينَ {375}.

24. مستجاب الدعاء:

الدَّعَاءُ تَضَرُّعٌ لِلَّهِ تَعَالَى بِالطَّلَبِ، طَاعَةٌ وَعِبَادَةٌ وَصَبْرٌ عَلَى كُلِّ مَا مِنْ
شَأْنِهِ أَنْ يَحْقُقَ الرَّجَاءَ وَالْأَمَلَ، وَلِذَا فَالدَّعَاءُ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَّا السَّمِيعُ،
ولكن أي سميع؟

إنَّه السَّمِيعُ الْمُجِيبُ، الَّذِي لَا يَتَأَخَّرُ سَمْعًا وَلَا إِجَابَةً، وَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَلَأَنَّ يُوسُفَ نَبِيًّا وَرَسُولًا مُؤْمِنًا بِأَنَّهُ لَا سَمِيعَ وَلَا مُجِيبَ غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ
تَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِالدَّعَاءِ طَاعَةً وَعِبَادَةً فَكَانَتْ لَهُ الْإِجَابَةُ بِأَنَّ صَرْفَ اللَّهِ عَنْهُ
كَيْدُهُنَّ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: { فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } {376}.

وعليه: فدائمًا دعاء المؤمن مستجاب دون شك، ولكن زمن
الاستجابة لا يحدده إلا المجيب تعالى، فالمؤمن يحدد الطلب في دعاء ربه
طاعة لا معصية، والمجيب المطلق وحده الذي يحدد زمن ومكان الاستجابة
وكيفيتها وهو على كل شيء قدير، ولذا، عندما يأتي الزمن المناسب
للاستجابة فالأمر بيده يقول له كن فيكون مصداقًا لقوله تعالى: { إِنَّمَا
قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } {377}. إذا لا استجابة
للمعصية بل الاستجابة للطاعة، فمن أراد أن يستجاب لدعائه فعليه
بالطاعة التامة للمجيب كما كانت طاعة يوسف تامة وخالصة له تعالى،

375 - يوسف 33 . 35.

376 - يوسف 34.

377 - النحل 40.

وهكذا كانت الاستجابات العظيمة للأنبياء الكرام صلى الله عليهم وسلم،
كما أنزل في آيات الذكر الكريم التي منها قوله تعالى:

{وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ
الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَا هُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَعْرِفْنَاهُمْ
أَجْمَعِينَ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ
وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا
مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ
لِيُخَصِّنْكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي
بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ
مَنْ يَعُوضُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ وَأَيُّوبَ إِذْ
نَادَى رَبَّهُ أُنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ
مِنْ ضُرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٍّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ
مِنَ الصَّالِحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي
الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ لَا تَدْرِي
فَرَدًّا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ
كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا
خَاشِعِينَ} 378.

25. خازن:

الخازن هو من يُنسب إلى الفعل الذي به يقوم بالخزن والحفظ، وهو
الذي يؤتمن على ما يُخزَّن وذلك بحسن تصرفه وحرصه الشديد واثمته
عليه ثقة فيه لا مخافة منه.

والخزن في تفسير اللغويين هو: "خَزَنَ الشَّيْءَ يُخْزِنُهُ خَزْنًا وَخُزْنَةً وَأَخْزَنَهُ أَخْزَرَهُ وَجَعَلَهُ فِي خِزَانَةٍ، وَالخِزَانَةُ اسْمُ الْمَوْضِعِ الَّذِي يُخْزَنُ فِيهِ الشَّيْءُ، وَالخِزَانَةُ عَمَلُ الْخَازِنِ، وَخَزَنَ الْمَالُ إِذَا غَيَّبَهُ وَقَالَ سَفِيَانُ بْنُ عَيِّنَةَ إِنَّمَا آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنٌ فَإِذَا دَخَلَتْ خِزَانَةٌ فَاجْتَهَدَ أَنْ لَا تَخْرُجَ مِنْهَا حَتَّى تَعْرِفَ مَا فِيهَا قَالَ شَبَّهَ الْآيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ بِالْوَعَاءِ الَّذِي يَجْمَعُ فِيهِ الْمَالُ الْمَخْزُونُ وَسُمِّيَ الْوَعَاءُ خِزَانَةً لِأَنَّهُ مِنْ سَبَبِ الْمَخْزُونِ فِيهِ وَخِزَانَةُ الْإِنْسَانِ قَلْبُهُ وَخَازِنُهُ وَخَزَانَهُ لِسَانُهُ كِلَاهُمَا عَلَى الْمَثَلِ "379.

وعليه: فَإِنَّ يَوْسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ خَازِنًا عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ الَّتِي مُكِّنَ فِيهَا مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} 380، في مقابلة الملك المنفردة بيوسف طمئنه الملك كثيرا وأكد له في وقتها بأن يعتبر نفسه مُمَكِّنًا فيما يشاء من الأرض مع فائق التقدير والاعتبار والاحترام (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)، فطلب يوسف من الملك أن يُمَكِّنَهُ مِنَ الْقِيَامِ بِمِهَامِ الْخَازِنِ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) فمكَّنه الملك بعد أن عرف بقدرة يوسف وعلمه ونظرته الثاقبة لصناعة المستقبل الأفضل فجعله الملك على خزائن الأرض التي تحت يديه مع إعطائه حرية التصرف كيفما يشاء في الأرض الممكن منها خازنا (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) ونحن نقول أن تمكين يوسف كان بأسباب نبوته وعلمه

379- لسان العرب، ج 13، ص 139.

380 - يوسف 54-56.

وحكمته وحفظه وإفتائه في الأمر، ولهذا كان الملك في حاجة ليوسف
صلّى الله عليه وسلّم وليس يوسف في حاجة للملك.

26 . مفت:

الإفتاء في القاموس الفقهي: "استفتى فلأنا: سأله رأيه في مسألة.

. عند الحنفية: بيان حكم المسألة.

والفتوى: الجواب عما يشكّل من المسائل الشرعية، أو القانونية.

. عند المالكية: الإخبار بالحكم الشرعي على غير وجه الإلزام.

. عند الأصوليين، هو المجتهد"381.

وعليه نقول:

المفتي هو من أمّ بالعلم والحكمة اللذين يمكنان من المعرفة وإظهار
الفتوى من مكانها التي تجبها، وهو المتمكّن من معرفة البيّنة وقادر على
تبيانها مفصّلة لمن هم في حاجة لمعرفة.

والمفتي هو محل ثقة لمن يستفتيه في الأمر، وهو المرجعية التي يعود
إليها إذا ما حدث الاختلاف بين الناس الذين يتعلق بهم الأمر المستفتى
عليه.

والإفتاء: إظهار الرأي وتشريعه بما لا يتعارض مع الحقّ، بل بما يؤكده
وييسره للقول والفعل والعمل والسلوك لأجل أن يؤخذ به ولا يؤخذ بما
يخالفه، ولذلك فالإفتاء هو إظهار الحقيقة (هي كما هي) لا إظهار صورة
من صورها أو مثال يشابهها.

381 - القاموس الفقهي، ج 1، ص 281.

وعليه: فمن يعلم بأمرٍ ولا يعرفه أو لم يعرف أبعاده ومراميه فعليه أن يتوجّه إلى مصادر المعرفة والعلم والحكمة ليتبيّن كما فعل الملك بعد ما علم بأمر يوسف صلى الله عليه وسلّم فأمر بطلبه لأن يفتيه في رؤياه التي عجز المملأ من قومه عن الإفتاء فيها بأسباب عدم علمهم بتأويل الرؤيا، مصداقاً لقوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ حُضِرٍ وَأُخْرٍ يَا بَسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ حُضِرٍ وَأُخْرٍ يَا بَسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ} 382.

بعد أن استمع يوسف للملك وهو يروي رؤياه أفناه فيها بقوله كما جاء في الكتاب الحكيم: {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} 383.

27. صَدِّيق:

الصَدِّيق هو المؤمن بربه واحداً واحداً لا شريك له، وهو الذي يعلم بالحقّ ويتبعه قولاً وعملاً، إنه المهتدي إلى سبيل الرشاد، والداعي إليه، وهو من لا يخالجه شك في إيمانه حنيفاً.

والصَدِّيق هو المعرفّ تحديداً دون سواه كما حدّد يوسف في قوله تعالى: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ

382- يوسف 43. 46.

383- يوسف 47. 49..

عَجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبَلَاتٍ حُضْرٍ وَأُخْرٍ يَا بَسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ {384}.

فوصف يوسف بـ(الصِّدِّيقِ) هو وصف اعترافي من قبل الملك والذين عرفوا يوسف صديقا، ولذلك بداء الملك حديثه مع يوسف معترفا به وبما يؤوله من أحاديث وما يفتي فيه من أمر، ولهذا كان الملك مسلما أمر الإفتاء للصِّدِّيقِ الكَرِيمِ يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعليه: فأمر التصديق في الحياة الدنيا لا ينتهي إلا بانتهائها، ولذا فمن أراد أن يلتحق بيوسف وأن يكون صديقا فعليه بطاعة الله ورسوله الكَرِيمِ مُحَمَّدِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاعة تامة لا عودة من بعدها، قال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا {385}.

28 . مالك:

الملك هو الذي يكون التصرف فيه وفقا لحدوده ولما يجب، والمالك هو المتصرف في ما يملك.

والمالك الصالح هو الذي يؤتى إيتاء لمن يشاءه الله عز وجل، مصداقا لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ} {386}.

ولهذا أتى يوسف الملك إيتاء من مالك الملك مصداقا لقوله تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ

384- يوسف 46.

385- النساء 69، 70.

386 - آل عمران 26.

وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّي
بِالصَّالِحِينَ {387}.

وبإيتائه ملكا من مُلك الله الواسع جعل يوسف على خزائن الأرض
التي هي تحت سيطرة ملك مصر مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى
خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا
حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {388}

وكذلك الملك الصالح يوهب وهبا كما وهب لسليمان صلى الله عليه
وسلم، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ ج
سَدًا ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي
إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ
وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ
أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ {389}.

وعليه: فالشعوب التي من بينها سادة وعبيد (مالك ومملوك) هم
مُلك الملك الحق، ولذا فالملك الحق، هو الذي يملك المالك والمملوك، وأمر
التصرف فيهم، كجزئية من مُلكٍ عام لكل ما في السماوات والأرض،
ولهذا فإن الملك يملك الخليفة وما يمتلكه الخليفة من مال وثروة وقوة ومنافع
ومغانم وعلوم ومعارف، ويملك ما لم يتمكن الخليفة من معرفته، {وَسِعَ
كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ {390}.

إنه الملك الواسع الذي وسع كل شيء خلقه سواء أكان الخليفة
متمكنا من معرفته أم لم يكن متمكنا من معرفته، إنه عالم الغيب والشهادة

387- يوسف 101.

388- يوسف 55، 56.

389 - ص 34 .39.

390 - البقرة 255.

إنه الرحمن الرحيم، الذي له من الملك ما يرحم مخلوقاته دون استثناء، وله من الملك ما يعاقب به جميع مخلوقاته بدون استثناء، وله الحمد يعاقب من يشاء ويعفو ويتوب على من يشاء من عباده إنه الملك مالك الملك، ولذلك وسع كرسيه السماوات والأرض.

إذا الملك الحقيقي لله وحده لا يشركه فيه أحد وكل من ملك شيئا فإنما بتمليك مالك الملك تعالى الذي أتى ملكا من ملكه ليوسف صلى الله عليه وسلم وفقا لمشيئته عز وجل، ولذا، لا ملك إلا لله.

وعليه: فحقيقة الملك، إنما تتم بالعتاء والمنع والإهانة والإثابة والعقوبة والغضب والرضا والعزل مصداقا لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 391.

ولأن الأمر بيد الملك الحق فهو يؤتي الحكم لمن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، فهو يذل عزيزا ويشفي مريضا ويستر عورة وهكذا يداول الأيام بين الناس سبحانه.

ولأن الملك لله وحده فهو الذي يؤتي منه من يشاء ملكا كما أتى يوسف صلى الله عليه وسلم من ملكه ملكا، به تمكن في الأرض؛ {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ} 392، ولأنه هو مالك الملك الحق، إذن، يملك الحق في أن يؤتي منه ما شاء لمن يشاء من عباده الصالحين دون أي اعتراض على مشيئته.

الملك خير، والملك مالك الخير، وجاء على رأس الملك الخير: الحياة والممات والجنة والنار ويوم البعث العظيم؛ وجاء داخل الحياة والممات

391 - آل عمران 26.

392 - يوسف 56.

خيرات حسان، وجاء داخل الجنة والنار خيرات كثيرة، وجاء يوم البعث خير سرمدي. وبما أنّ الملك هو مالك الخير، إذا هو الذي بيده الملك، ومع أنّ الملك بيده، ولا تصرف فيه إلا بأمره، إلا أنه جعلنا الوارثين {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} 393. العاقبة هي الأفعال المترتبة على ما تم فعله على الأرض، فإن كان عمل خير تكون العاقبة ثوابا، وإن كان عمل شر تكون العاقبة عقابا، ولأن، كلّ فعل يترتب على فعل، جاء التورث مترتبا على وجود الخليفة.

والسؤال الذي يُطرح مترتبا على ما سبق: كيف يكون الإنسان ملكا في الوقت الذي هو فيه عبدا لملك؟

في اعتقادنا إنّ عبد الملك الحقّ ملك، وعبد العبد عبد. وذلك لأنّ عبد الملك هو الذي لا يقبل أن يكون عبدا لعبد، ولأنه لم يكن ولن يكون عبدا لعبد، إذا فهو الملك، قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} 394.

من هذه الآية نلاحظ أنّ للملك رزقا حسنا (الملك) وله حقّ التصرف فيه، وهذا يدل على أنّ الرزق غير الحسن لن يكون رزقا لملك، بل ربّما يكون لمفسد في الأرض، وعندما يكون كذلك فبطبيعة الحال لن يكون ملكا، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ

393 - الأعراف 128.

394. النحل 75.

اللَّهُ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي
نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ {395}.

إذا من يريد أن يكون خليفة للملك الحق، فعليه أن يكون حرا،
ومصلحا، أمّا من يقبل بأن يكون عبدا ولا يُسهم في الإصلاح فلن يكون
ملكا حتى وإن استولى على مقاليد البلاد والعباد فيها بالقوّة؛ ولذلك
فالمملك لم يكن عنوانا ومراسيم وتشريفات لإرهاب المواطنين، والتصرف في
شؤونهم دون رضاهم وفي غير مرضاة الله تعالى، ولم يكن الملك يبيع كلام
كما يقول البعض، وإظهار ما لم يكن بالحق باطنا، بل الملك قول حق
وفعل حق.

وختاما: أطرّح السؤال الذي طُرح مع إجابته في القرآن الكريم في
سورة غافر ولم يُطرح بعد في مكانه وزمانه اللذين نعلم أنهما سيأتيان في
المستقبل دون أن نعلم متى، حيث أنّ أمر متى علم الساعة، وأمر الساعة
علم غيب. والسؤال القرآني هو:

{لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} 396.

والإجابة القرآنية هي:

{لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} 397.

سؤال وإجابة، بالنسبة للمؤمن هذا السؤال سؤاله وهذه الإجابة
إجابته، وبالنسبة لغير المؤمن سيكون أمام هذا السؤال في وقتٍ لن يجد فيه
إجابة غير هذه الإجابة الكريمة.

395 - البقرة 204-207.

396 - غافر 16.

397 - غافر 16.

هذا السؤال لن يُطرح وكائن من كان غائبا (أي مخلوق) {إِنْ كَلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكَلَّمَهُمْ أَتَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} 398.

وعليه: فأين الطغاة والجبابرة وأين الملوك من الورق؟

وأين الكفرة وما يملكون؟

وأين الجيوش والأسلحة النووية؟

وأين كلٌّ من أعطيت له الفرصة الكاملة ولم يستجب طاعة؟

فهل هناك من يستطيع أن يفعل شيء، فإن يظن أنه يستطيع فليرنا، ولأنه لا أحد بإمكانه أن يفعل شيء، إذا (لِمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ)؟

بطبيعة الحال لن يكون الملك إلا (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) فالحمد لله رب العالمين مالك الملك.

29 . مكين:

المكين هو المتمكّن من الحقّ بالحقّ، وهو المتمكّن مكانا ومكانة، والمكين هو من يوضع في أماكن الحفظ والأمانة والرعاية التامة، حرصا عليه، وحبا فيه، واعترافا بأهميته، واحتراما له، واعتبارا لمهمته الخالدة، وتقديرا لمكانته الرفيعة بأسباب منها:

. النبوة.

. الرسالة.

. العلم النافع.

. الحكمة المرشدة للحقّ.

. القيادة الراجحة عدلا.

فالملك هو من يُحفظ به أو يُحفظ في الأماكن غير المحفوفة بالخطر كما يحفظ الجنين في الرحم في بطن أمه، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} 399، فقوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} القرار المكين هو رحم المرأة، المقر المناسب لنمو الجنين والحفاظ عليه مع وافر العناية والرعاية التي لا تجعله في حاجة لسواه مادام في نموه الجنيني في القرار المكين.

وهكذا كان يوسف صلّى الله عليه وسلّم لدى الملك مكين أمين مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} 400، أي أنه الممكّن من كلّ شيء في الأرض التي عليها الملك ملكا، مع تقديم كلّ العناية والرعاية التي تحفظ يوسف وتحرسه من شرور البشر ومحاسدهم وما يكيّدون ويمكرون.

وكما مُكّن يوسف من قبل كذلك مُكّن سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم بقوة من ذي العرش العظيم مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} 401، إي أن لمحمد مكانة عالية رفيعة عند ربّه الذي مكّنه بالقوة نبيا رسولا فكانت له الرسالة الخاتمة وكان الرسول الخاتم للناس كافة.

399 - المؤمنون 12، 13.

400 - يوسف 54.

401 - التكوير 19، 20.

وعليه: فتمكين الآن بيباء والرّسل الكرام هو تمكين لأداء رسالة خالدة ومهمة أمرها عظيم وليس بالهين.

30 . أمين:

الأمين هو من يؤتمن جانبه، وهو الذي يتقي الله ويخشاه في كلّ أمر يقدم عليه، إنّه المؤمن بالحقّ قولاً وعملاً خالصاً لله وحده، وهو الموثوق فيه من قبل الآخرين الذين تربّطه بهم علاقات موضوعية.

والأمين هو محل الأمانة والأمن، مصداقاً لقوله تعالى في حقّ سيدنا يوسف صلّى الله عليه وسلّم: { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } 402.

وأمين تعني ممّا تعني:

. الحريص.

. المتقي لله تعالى.

. المتمكن من حُسن الأداء.

. الآمن.

ولذا؛ فكلّ هذه المعاني جاءت في الآية الكريمة السابقة ملتصقة تطابقاً بسيدنا يوسف صلّى الله عليه وسلّم، فهو الحريص، والمتقي لله تعالى، والمتمكّن من حُسن الأداء، وآمن.

31. فائز بالجنة:

الفوز بالجنة رحمة من الرحمن الرحيم الذي اصطفى الرسل واجتباهم
أنبياء ومرسلين للناس خاصة وعمامة وكافة.

. خاصة: للقوم الواحد.

. عامة: لأهل القرية أو المدينة بغض النظر عن انتماءاتهم القومية.

. كافة: للناس كافة دون استثناء كما هو حال محمد صلى الله عليه

وسلم ورسالته الخالدة والخاتمة.

وعليه: لقد كان يوسف نبيا ورسولا للعامة في مصر الذي مكَّنه
الملك منها خازنا أميناً ومؤولاً للأحاديث ومفتٍ حكيم، قال تعالى:
{وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا
مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا نُجْزِ الْأَجْرَ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ} 403. ومع أنّ يوسف قد مكَّن في الأرض (يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ
يَشَاءُ) فهو كذلك كان له النصيب الأوفى في الحياة الآخرة وهو الفوز
بالجنة كما جاء في قوله تعالى: (وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا نُجْزِ الْأَجْرَ
لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

32. حفيظ:

الحفيظ هو من يمتلك القوة والقدرة التي بهما يتمكن من الاستمرار
في الحفظ دون انقطاع أو انفصال أو غفلة أو عجز وهذه لا تكون
بالمطلق إلا لله الحفيظ.

أمّا في دائرة النسبية فأمر الحفظ يتفاوت هو الآخر وفقاً للقوة
والقدرة من فرد لفرد آخر حيث لا كمال في ذلك، فالرسل والآن بياء

⁴⁰³ - يوسف 56، 57.

الكرام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ هم محبتون ومصطفون من الله الذي هيئهم على القوّة والقدرة التي بها يتميرون عن غيرهم في دائرة الممكن والنسبية، ولهذا، كان يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حفيظا في دائرة الأنبياء والمرسلين الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، قال تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْم} 404.

فقوله: (إِنِّي حَفِيظٌ) قول الوثوق من النفس التي لا تخون الأمانة فإن كلفت بها تكون خير صائن وراع لها.

واسم الحفيظ يتضمن في مدلوله الاستمرارية، (استمرارية الحفظ)، ولذلك فالحفيظ أسم الله تعالى يتجاوز معناه القيمي والفضائلي ما يدل عليه أسم (الحافظ) الذي لم يكن أسما من أسماء الجلالة؛ فالحافظ يمكن أن يكون مادة توضع فيه الأشياء مؤقنا والحفيظ لا يمكن أن يكون إلا حفيظا في ذاته وحافظا لغيره.

ولذا، ترتبط صفة الحفيظ بصفات عديدة أخرى وقد ترتب عليها كالقوّة والقدرة والهيمنة والسيطرة والأمانة والمنع والمراقبة وغيرها كثير.

وعليه: فالحفيظ في دائرة النسبية كما هو حال يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو من يستمد صفاته من صفات الحفيظ المطلق. وفي التنزيل: في أهل الكتاب {بما استُحْفِظُوا من كتاب الله} 405 أي استودعوه أتمنوا عليه. واحتفظ الشيء لنفسه: حَصَّهَا به. والتحفُّظ: قلة العفلة في الأمور والكلام والتيقُّظ من السقطة كأنه على حذر من السقوط، والمحافظة: المواظبة على الأمر. ويقال: حافظ على الأمر والعمل وثابر عليه وحارص وبارك إذا داوم عليه. وحفظت الشيء حفظا أي حرسته وحفظته أيضا

404- يوسف 55.

405 المائدة 44.

بمعنى استظهرته. والمحافظة: المراقبة. ويقال: إنّه لذو حِفَاظٍ وذو مُحَافِظَةٍ إذا كانت له أنفةٌ. والحفيظ: المحافظ. ويقال: احتفظ بهذا الشيء أي احفظه. والتحفُّظ: التيقُّظ. واستحفظته: سألته أن يحفظه. والمحافظة والحِفاظ: الذُّبُّ عن المحارِمِ والمنعُ لها عند الخُروبِ والاسم الحفيظة. والحِفاظ: المحافظة على العَهْدِ والمِحَاماةِ على الحُرْمِ ومنعها من العدو. يقال: ذُو حَفِيظَةٍ. وقيل: المحافظة الوفاء بالعقد والتمسك بالوَدِّ406.

والحفظ مستمد من الحفيظ، والحفظ على وجهين:

الوجه الأول: إدامة وجود الموجودات وإبقاؤها وبيضاده الإعدام والله تعالى هو الحافظ للسموات والأرض والملائكة والموجودات التي يطول أمد بقائها والتي لا يطول أمد بقائها مثل الحيوانات والنبات وغيرها

الوجه الثاني: أن الحفظ صيانة المتعدييات والمتضادات بعضها عن بعض وأعني بهذا التعادي ما بين الماء والنار فإنهما يتعاديان بطباعهما فإما أن يطفئ الماء النار وإما أن تحيل النار الماء إن غلبت الماء بخارا ثم هواء والتضاد والتعادي ظاهر بين الحرارة والبرودة إذ تقهر إحداها الأخرى وكذلك بين الرطوبة واليبوسة وسائر الأجسام الأرضية مركبة من هذه الأصول المتعادية إذ لا بد للحيوان من حرارة غريزية لو بطلت لبطلت حياته ولا بد له من رطوبة تكون غذاء لبدنه كالدم وما يجري مجراه ولا بد من يبوسة بها تتماسك أعضاؤه خصوصا ما صلب منها كالعظام ولا بد من برودة تكسر سورة الحرارة حتى تعادل ولا تحرق ولا تحلل الرطوبات الباطنة بسرعة وهذه متعادييات متنازعات.

وقد جمع الله عز وجل بين هذه المتضادات المتنازعة في إهاب الإنسان وبدن الحيوانات والنبات وسائر المركبات ولولا حفظه تعالى إياها

406 مختار الصحاح، ج 1، ص 61.

لتنافرت وتباعدت وبطل امتزاجها واضمحل تركيبها وبطل المعنى الذي صارت مستعدة لقبوله بالتركيب والمزاج وحفظ الله تعالى إياها بتعديل قواها مرة وبإمداد المغلوب منها مرة أخرى.

أمّا التعديل فهو أن يكون مبلغ قوّة البارد مثل مبلغ قوّة الحار فإذا اجتمعا لم يغلب أحدهما الآخر بل يتدافعان إذ ليس أحدهما بأن يغلب أولى من أن يغلب فيتقاومان ويبقى قوام المركب بتقاومهما وتعادلهما.

ومن جهة أخرى إمداد المغلوب منهما بما يعيد قوته حتى يقاوم الغالب ومثاله أن الحرارة تفني الرطوبة وتخففها لا محالة فإذا غلبت ضعفت البرودة والرطوبة وغلبت الحرارة واليبوسة ويكون إمداد الضعيف بالجسم البارد الرطب وهو الماء ومعنى العطش هو الحاجة إلى البارد الرطب فخلق الله تعالى البارد الرطب مددا للبرودة والرطوبة إذا غلبتا وخلق الأطعمة والأدوية وسائر الجواهر المتضادة حتى إذا غلب شيء عورض بضده فأنقهر وهذا هو الإمداد وإنما تم ذلك بخلق الأطعمة والأدوية وخلق الآلات المصلحة لها وخلق المعرفة الهادية إلى استعمالها وكل ذلك لحفظ الله عز وجلّ أبدان الحيوانات والمركبات من المتضادات، وهذه هي الأسباب التي تحفظ الإنسان من الهلاك⁴⁰⁷.

وعليه: الحفيظ هو الله الذي بيده مقاليد القوّة المطلقة، وهو الذي بيده الأمر والنهي، وهو على كل شيء قدير، أي لو لم يكن مالك القدرة ما كان حفيظا، وهكذا لو لم يكن رحمن رحيم ما كان حفيظا، ولو لم تكن له الصفات الحسان ما كان حفيظا، ولأن له كل ذلك فهو الله.

وأسم الحفيظ يتضمن في مدلوله الاستمرارية، (استمرارية الحفظ) ولذلك فالحفيظ أسم الله تعالى يتجاوز معناه القيمي والتفضيلي ما يدل

⁴⁰⁷ المقصد الأسنى، ج 1، ص 110 . 112.

عليه أسم (الحافظ) الذي لم يكن أسم من أسماء الجلالة. فالحافظ يمكن أن يكون مادة توضع فيه الأشياء مؤقتا والحفيظ لا يمكن أن يكون كذلك فهو الباقي والله الحمد.

وترتبط صفات الحفيظ بجميع الصفات الربانية الأخرى فهو الحفيظ الرحمن الرحيم، وهو الحفيظ الودود الغفور، وهو الحفيظ القادر، هو المانع والوكيل والرقيب والمقيت.

الحفيظ المانع:

فمن فهم معنى الحفيظ فهم معنى المانع والمانع إضافة إلى السبب المهلك، والحفظ إضافة إلى المحروس عن الهلاك وهو مقصود المانع وغايته إذ المانع يراد للحفظ والحفظ لا يراد للمنع فكل حافظ مانع وليس كل مانع حافظا إلا إذا كان مانعا مطلقا لجميع أسباب الهلاك والنقص حتى يحصل الحفظ من ضرورته⁴⁰⁸.

والعبد المؤمن الذي يُراد له أن يكون خليفة لله في الأرض هو الذي يستمد صفاته من صفات خالقه عزّ وجلّ، فيمنع الظلم عن المظلوم، ويحفظ الدين والشرف والكرامة ولا يخشى أحدا في ذلك إلا الله تعالى. فالحفيظ المطلق هو الذي يمنع الجوع عن الجائعين والظمأ عن الظامئين ويفرّج كربّ المهمومين كيفما يشاء متى ما يشاء سبحانه بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

الحفيظ الوكيل:

الوكيل في اللغة بمعنى الكافي لأنّه يكفي موكله أمر ما وكله فيه، وهذا معنى قولهم حسبنا الله ونعم الوكيل، وقد يكون الوكيل أيضا بمعنى

⁴⁰⁸ المقصد الأسنى ج، 1 ص، 145.

الحفيظ⁴⁰⁹، ومنه قوله تعالى: {قل لست عليكم بوكيل} 410 أي حفيظ. وقوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} 411 (ولو شاء الله) توحيدهم وعدم إشراكهم (ما أشركوا) وهو دليل على انه تعالى لا يريد إيمان الكافر لكن لا بمعنى انه تعالى يمنعه عنه مع توجهه إليه بل بمعنى انه تعالى لا يريد منه لعدم صرف اختياره الجزئي نحو الإيمان وإصراره على الكفر (وما جعلناك عليهم حفيظا) رقيبا مهيمنا من قبلنا تحفظ عليهم أعمالهم (وما أنت عليهم بوكيل) من جهتهم تقوم بأمورهم وتدبر مصالحهم قيل: وإنما جمع بين حفيظ ووكيل لاختلاف معنهما. فان الحفيظ هو الذي يصون ما يحفظه عما يضره ليبقى سليما نقيًا. والوكيل بالشيء هو الذي يجلب الخير إليه وبذلك فالخليفة موكل إليه أمر السعي بالخير لأجل جلب الخير للعباد فيكون رحيمًا كريمًا وحافظًا لكل ما لهم وما عليهم فبذلك يكون قد صان وحفظ مستخلفيه من كل ما يؤثر على سير عبادتهم وعقيدتهم، ولذلك فالخليفة هو حافظ للسر الإلهي في صدره إيمانًا تامًا وعملاً مخلصًا وطاعة وافية له وحده لا شريك له.

الحفيظ الرقيب:

الرقيب هو الله صاحب الفطنة المطلقة التي بها يتم الحفظ من كل شرّ وسوء، وهو العليم الذي لا يسهو ولا ينسى ما يحفظ فهو الذي لا تأتية السنة ولا النوم سبحانه لا إله إلا هو. وقيل: من لا يشغله شيء عن شيء فمرجعه صفة سلبية وقيل يبقى صور الأشياء فصفة فعلية من الحفظ الذي يضاد التضييع. والرقيب كالحفيظ وقيل: هو أخص من الحفيظ؛ لأن الرقيب هو الذي يراعي الشيء بحيث لا يغفل عنه أصلاً ويلاحظه

⁴⁰⁹ الفرق بين الفرق، ج 1 ص، 146

⁴¹⁰ الأنعام، 66.

⁴¹¹ الأنعام، 107.

ملاحظة دائمة لازمة لزوما لو عرفه الممنوع عن ذلك الشيء لما أقدم عليه فكأنه يرجع إلى العلم والحفظ ولكن باعتبار الزوم وبالإضافة إلى ممنوع عنه محروس عن التناول.

وعليه فالعبد المستخلف في الأرض هو الرقيب عليها من المفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق، نعم أن رعاية الأرض وحفظ وجودها بيد الله الحفيظ العظيم، ولكن حفظها من الفساد والهلاك الذي يفسد الحرث والزرع، فأمره بيد الناس الذين يراد لهم العيش عليها ومنها، فإفساد الأرض نتائجه تلاحق الإنسان الذي خلقه الله ليعيش عليها ويرثها مستخلفا فيها، فالتلوث البيئي الذي يؤثر على الأرض ومن فيها ويؤثر على الغلاف الجوي هو بيد الإنسان، واستغلال الأرض في زرع ما لا يرضي الله فساد فيها، وإقامة المصانع التي تنتج ما حرم الله من شرب هو فساد بيد الناس في غير طاعة الله؛ اللهم أحفظنا وأبنائنا من كل معصية ومن كل سوء وشر واجعلنا من المصلحين.

الحفيظ المقيت:

قال تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِتًا} 412. وفيه المقيت مشتق من القوت، يقال: قت الرجل إذا حفظت عليه نفسه بما يقوته، واسم ذلك الشيء هو القوت، وهو الذي لا فضل له على قدر الحفظ، فالمقيت هو الحفيظ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة، ثم قال القفال رحمه الله: وأي المعنيين كان فالتأويل صحيح، وهو أنه تعالى قادر على إيصال النصيب والكفل من الجزاء إلى الشافع مثل ما يوصله إلى المشفوع فيه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ولا ينتقص بسبب ما يصل إلى الشافع شيء من جزاء المشفوع، وعلى الوجه الثاني أنه تعالى حافظ الأشياء شاهد

412 النساء 85.

عليها لا يخفي عليه شيء من أحوالنا، فهو عالم بأن الشافع يشفع في حقّ أو في باطل حفيظ عليه فيجازى كلا بما علم منه(6).

والإيقاةة لا تأتي إلا بعد شدة، فالذي يعطش أو يجوع جدا، هو في حاجة لما يفرج عليه كربّه، ولهذا فهو في حاجة للإيقاةة التي تجعله يعود ثانية إلى قيد الحياة الذي يمكنه من الإشباع لما هو ضروري بعد أن تعرض إلى ما يؤدّي به إلى الهلاك. وعليه عند الشدة القسوى لا مُفرج للكربّ العظيم إلا العظيم المطلق ولا حفيظ من شرّ عظيم إلا حفيظ عظيم بالمطلق. ومع ذلك فالإنسان في الدار الدنيا في حاجة لأخيه الإنسان، ولهذا أوجب الله تعالى التعاون على البر والتقوى في طاعة الله بما يؤدّي إلى الإصلاح ويزيل الفساد من على وجه الأرض.

ولهذا تشكلت لجان للإغاثة على مستوى الدول وعلى المستوى العالمي لتمد يد العون لمن يتعرضون للكوارث الطبيعية من زلازل وفيضانات وغيرها، ومما يتعرضون له من حروب على أيدي المفسدين وسافكي الدماء في الأرض بغير حقّ. ولذا يفرز الله الحقّ من الباطل، حتى يُفرز المصلح من المفسد والله مقيت حفيظ سبحانه ربّ العالمين له الملك وله الحمد والطاعة.

الحفيظ المهيمن:

المهيمن معناه أنه القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم وقيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه وكل مشرف على كنه الأمر مستول عليه حافظ له فهو مهيمن عليه والإشراف يرجع إلى العلم، والاستيلاء إلى كمال القدرة، والحفظ إلى الفعل فالجامع بين هذه المعاني اسمه المهيمن ولن يجتمع ذلك على الإطلاق والكمال إلا لله عزّ وجلّ⁴¹³. ولذلك

⁶ تفسير الرازي، ج 5، ص 311.

⁴¹³ المقصد الأسنى، ج، 1، ص، 72.

فالحفيظ هو الفَعَّال لما يُريد، وهو المهيمن على كل ما يُريد، وهو مالك الملك ويده الأمر، وهو كما يعلم الغيب يُجيب الدعاء، والمؤمنون به يؤمنون بأنه لن يصيبهم شيئا لم يُكتب لهم، ولهذا هم المحفوظون من كل سوء، وهم المستخلفون على الطاعة والحفظ.

الحفيظ الأواب:

قال تعالى: { هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ } 414. الأواب هو الراجع إلى الله تعالى، الفرق بين الأوب والرجوع أن الأوب ضرب من الرجوع وذلك أنه لا يقال إلا لمن له إرادة والرجوع يقال فيه وفي غيره آب أوبا وإيابا ومآبا والمآب مصدر منه واسم الزمان والمكان و(حفيظ) حافظ لتوبته من النقص ولعهده من الرفض وفي التأويلات النجمية مقعد صدق هو في الحقيقة موعود للمتقين الموصوفين بقوله (لكل أواب حفيظ) وهو الراجع إلى الله في جميع أحواله لا إلى ما سواه حافظا لأنفاسه مع الله لا يصرفها إلا في طلب الله. وقيل: هو الراجع إلى الله تعالى بقلبه من الوسوسة إلى السكون إلى الله، والحفيظ هو المحافظ على الطاعات والأوامر كما هو حال المستخلفين في الأرض فهم لا يقومون إلا بما يرضي الله تعالى تجاه مستخلفيهم فهم ظلّه في أرضه، فهم يقومون بواجباتهم المكلفين بها والحفاظة عليها ليشملهم اسمه الحفيظ الذي يسيرون بنهجه على الأرض وينفذون أوامره تجاه خلقه بتوجيههم إلى ما يرضي الله سبحانه وهذا أمر ليس سهلا وإلا أستطاع أن يقوم به أي كان ولا داعي للاختيار الرباني لهم وذلك لما يتبع هذا الاختيار وهذا التكليف من أعباء لا يستطيع حملها إلا من كان أهلا لذلك، ونسأل الله العون والحفظ آمين. وقيل: الأواب الراجع بقلبه إلى ربّه، والحفيظ المحافظ قلبه في رجوعه إليه ألا يرجع منه إلى

414 ق، 32.

أحد سواه، وقيل هو المحافظ لأوقاته وخطراته أي الخطرات القلبية والإلهامات⁴¹⁵.

من وجوه حفظه:

أولاً: إدامة وجود الموجودات وإبقاؤها: ويضاده الإعدام والله تعالى هو المحافظ للسموات والأرض والملائكة والموجودات التي يطول أمد بقائها والتي لا يطول أمد بقائها مثل الحيوانات والنبات وغيرها. ومع أنّ الحفظ دوام مطلق بيد الحفيظ المطلق، والحفظ المؤقت بيد الحفيظ المؤقت، إلا أن الخليفة المؤمن له بقاء مؤقت مع حفظ دائم، أي ببقائه على قيد الحياة المؤقتة، يظل حفظه دائماً، فهو لا يخون أمانة ولا عهد يتخذه أمام الحفيظ المطلق مادام على قيد الحياة، ولهذا سيظل الحفظ دائماً من بعد موته أو استشهاده في سبيل الله تعالى في سجلّ بيد الحفيظ الدائم.

ثانياً: حفظ المتعاديات والمتضادات: وأعني بهذا التعادي ما بين الماء والنّار فإنهما يتعاديان بطباعهما فيما أن يطفئ الماء النّار وإما أن تحيل النّار الماء إن غلبت الماء بخاراً ثم هواء والتضاد والتعادي ظاهر بين الحرارة والبرودة إذ تقهر إحداهما الأخرى وكذلك بين الرطوبة واليبوسة وسائر الأجسام الأرضية مركبة من هذه الأصول المتعادية إذ لا بدّ للحيوان من حرارة غريزية لو بطلت لبطلت حياته ولا بدّ له من رطوبة تكون غذاء لبدنه ولا بدّ من ييوسة بها تتماسك أعضاؤه خصوصاً ما صلب منها كالعظام ولا بدّ من برودة تكسر سورة الحرارة حتى تعادل ولا تحرق ولا تحلل الرطوبات الباطنة بسرعة وهذه متعاديات متنازعات وقد جمع الله عزّ وجلّ بين هذه المتضادات المتنازعة في إهاب الإنسان وبدن الحيوانات والنبات وسائر المركبات ولولا حفظه تعالى إياها لتنافرت وتباعدت وبطل امتزاجها وضمحل تركيبها وبطل المعنى الذي صارت مستعدة لقبوله بالتركيب

⁴¹⁵ تفسير حقّي، ج 14، ص 145.

والمزاج وحفظ الله تعالى إياها بتعديل قواها مرة وبإمداد المغلوب منها مرة أخرى. أما التعديل فهو أن يكون مبلغ قوّة البارد مثل مبلغ قوّة الحار فإذا اجتمعا لم يغلب أحدهما الآخر بل يتدافعان إذ ليس أحدهما بأن يغلب أولى من أن يغلب فيتقاومان ويبقى قوام المركب بتقاومهما وتعادلهما وهو الذي يعبر عنه باعتدال المزاج. والثاني إمداد المغلوب منهما بما يعيد قوته حتى يقاوم الغالب ومثاله أن الحرارة تفني الرطوبة وتخففها لا محالة فإذا غلبت ضعفت البرودة والرطوبة وغلبت الحرارة واليبوسة ويكون إمداد الضعيف بالجسم البارد الرطب وهو الماء ومعنى العطش هو الحاجة إلى البارد الرطب فخلق الله تعالى البارد الرطب مددا للبرودة والرطوبة إذا غلبتا وخلق الأطعمة والأدوية وسائر الجواهر المتضادة حتى إذا غلب شيء عورض بضده فانقهر وهذا هو الإمداد وإنما تم ذلك بخلق الأطعمة والأدوية وخلق الآلات المصلحة لها وخلق المعرفة الهادية إلى استعمالها وكل ذلك لحفظ الله عزّ وجلّ أبدان الحيوانات والمركبات من المتضادات، وهذه هي الأسباب التي تحفظ الإنسان من الهلاك الداخل⁴¹⁶.

ثالثا: الحفظ من الهلاك بأسباب خارجية: كسباع ضارية وأعداء متنازعة فحفظه من ذلك بما خلق له من الجواسيس المنذرة بقربّ العدو وهي طلائعه كالعين والأذن وغيرها، ثم خلق له اليد الباطشة والأسلحة الدافعة: كالدرع والترس والقاضية كالسيف والسكين، ثم ربّما يعجز مع ذلك عن الدفع فأمدّه بآلة الهربّ وهي الرجلّ للحيوان الماشي والجنح للطائر. وكذلك شمل حفظه جلّت قدرته كل ذرة في ملكوت السماوات والأرض حتى الحشيش الذي ينبت في الأرض يحفظ لبابه بالقشر الصلب وطراوته بالرطوبة وما لا يحفظ بمجرد القشر يحفظه بالشوك النابت منه ليندفع به بعض الحيوانات المتلفة له فالشوك سلاح النبات كالقرون

⁴¹⁶ المقصد الأسنى ج، 1 ص، 110 - 113

والمخالب والأنياب للحيوانات بل كل قطرة من ماء معها ملك حافظ يحفظها عن الهواء المضاد لها فإن الماء إذا جعل في إناء وترك مدة استحال هواء وسلب الهواء المضاد له صفة المائية عنه ولو غمست الإصبع في ماء ورفعتها ونكستها تدلت منها قطرة ماء تبقى منكسة لا تنفصل مع أنّ من شأها الهوى إلى أسفل ولكنها لو انفصلت وهي صغيرة استولى الهواء عليها وأحالها ولا تزال تمكث متدلية حتى يجتمع إليها بقية البلبل فتكبر القطرة فتستجري على خرق الهواء بسرعة ولا يستولي الهواء على إحالتها وليس ذلك حفظا منها لنفسها عن معرفة بضعفها وقوة ضدها وحاجة استمداها من بقية البلبل وإنما ذلك حفظ من ملك موكل بها بواسطة معنى متمكن من ذاتها، وقد ورد في الخبر أنّه لا تنزل قطرة من المطر إلا ومعها ملك يحفظها إلى أن تصل إلى مستقرّها من الأرض وذلك حقّ والمشاهدة الباطنة لأرباب البصائر قد دلت عليه وأرشدت إليه فآمنوا بالخبر لا عن تقليد بل عن بصيرة، والكلام أيضا في شرح حفظ الله تعالى السماوات والأرض وما بينهما طويل كما في سائر الأفعال وبه يعرف هذا الاسم لا بمعرفة الاشتقاق في اللغة وتوهم معنى الحفظ على الإجمال. والحفيظ من العباد من يحفظ جوارحه وقلبه ويحفظ دينه عن سطوة الغضب وخلاصة الشهوة وخداع النفس وغرور الشيطان فإنه على شفا جرف هار وقد اكتنفته هذه المهلكات المفضية إلى البوار وعلى الخليفة أن يحذر مستخلفيه من كل ما يوقعهم في ذلك فيوقّر لهم موجبات الحفظ بما حباه الله من نعم لا تكون عند غيره من الناس وبما أوهبه الله من موجبات الحفظ فيرشد العباد إلى كل ما هو نافع كما أمره تعالى 417.

والحفيظ هو الحافظ لكل ما خلق ويستوجب الحفظ، وهو المهلك لمن يستوجب الهلاك وفي كلتا الحالتين آية، حتى يؤمن من يؤمن ويكفر من

⁴¹⁷ المقصد الأسنى ج، 1 ص، 110 - 113

يكفر، ولا يُغيّر سنة الله في خلقه أحدا. ولهذا فالخلفاء هم المؤمنون حقاً، الذين حباهم الله بالهداية وأرشد عقولهم إلى نور الإسلام، أما أولئك الكفرة الفجرة والمشركون فهم بشقاوتهم ضالون والمؤمنون على إيمانهم باقون.

فعلامه الشقاوة على سبيل المثال: جمود العين، وقساوة القلب، وحب الدنيا، وطول الأمل. وعلامة السعادة حب الصالحين والدنو منهم وتلاوة القرآن وسهر الليل ومجالسة العلماء ورقة القلب. وعن إبراهيم المهلب السائح رحمه الله قال بينما أنا أطوف إذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول بحبك لي ألا رددت علىّ قلبي فقلت يا جارية من أين تعلمين انه يحبك قالت بالعناية القديمة جيش في طلبي الجيوش وأنفق الأموال حتى أخرجني من بلاد الشرك وأدخلني في بلاد التوحيد وعرفني نفسي بعد جهلي إياها فهل هذا يا إبراهيم إلا لعناية أو محبة. والواجب على الخليفة أن يسارع بالعباد إلى الأعمال الصالحة فإنها من علامات السعادة والحفظ، والتأخير وطول الأمل من علامات الشقاوة والترك، حكى أن بعض العباد كان يسأل الله تعالى أن يريه إبليس فقيل له اسأل الله العافية فأبى إلا ذلك فأظهره الله تعالى له فلما رآه العباد قصده بالضرب فقال له إبليس: لو انك تعيش مائة سنة لأهلكتك ولعاقبتك فاغتر بقوله فقال في نفسه أن عمري بعيد فافعل ما أريد ثم أتوب فوقع في الفسق وترك العبادة وهلك وهذه الحكاية تحذرك طول الأمل بترك الحفظ للجوارح من الغرور فانه آفة عظيمة وتأمّر بإتباع نصائح وتوجيهات الخليفة وأصحاب الحقّ في الأمة. الخليفة هو الولي الوارث لكن الوصول إلى هذه المقامات إنما يكون بهداية الله ومشيئته فليس في وسع الخليفة إن يوصل كل من أراد إلى ما أراده فيبقي من يبقي في الاثنينية ويصل من يصل إلى عالم الوحدة والسبب الموصل هو التوحيد فكما أن الكافر لا يكون مؤمناً إلا

بكلمة التوحيد فكذا المؤمن لا يكون مخلصا إلا بتكرارها لان الشرك مطلقا
جليا كان أو خفيا لا يزول إلا بالتوحيد مطلقا 418.

من مظاهر حفظه:

حفظ السماء:

قال تعالى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْهًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا
مُعْرِضُونَ} 419. سمى السماء سقفا لأنها للأرض كالسقف للبيت. وفي
المحفوظ قولان:

الأول: أن محفوظ من الوقوع والسقوط الذين يجري مثلهما على
سائر السقوف كقوله تعالى: {يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا
بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} 420، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ
كَانَ حَلِيمًا عَفُورًا} 421، وقال تعالى: {وَلَا يَتُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ
الْعَظِيمُ} 422.

الثاني: محفوظا من الشياطين مصداقا لقوله تعالى: {وَحَفِظْنَاهَا مِنْ
كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} 423. ثم ههنا قولان:

أحدهما: أنه محفوظ بالملائكة من الشياطين.

⁴¹⁸ تفسير حقي، ج 4، ص 13

⁴¹⁹ الأنبياء 32.

⁴²⁰ الروم 25.

⁴²¹ فاطر 41.

⁴²² البقرة 255.

⁴²³ الحجر 17.

والثاني: أنه محفوظ بالنجوم من الشياطين، والقول الأول أقوى لأنَّ حمل الآيات عليه ممَّا يزيد هذه النعمة عظما لأنَّه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثاني لأنَّه لا يخاف على السماء من استراق سمع الجن 424.

قال تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 425. أو هل رأيت -أيها الرسول- مثل الذي مرَّ على قرية قد تهدمت دورها، وحوّت على عروشها، فقال: كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام، ثم ردَّ إليه روحه، وقال له: كم قدر الزمان الذي لبثت ميتًا؟ قال: بقيت يومًا أو بعض يوم، فأخبره بأنه بقي ميتًا مائة عام، وأمره أن ينظر إلى طعامه وشرابه، وكيف حفظهما الله من التغيُّر هذه المدة الطويلة، وأمره أن ينظر إلى حماره كيف أحياه الله بعد أن كان عظامًا متفرقة؟ وقال له: ولنجعلك آية للناس، أي: دلالة ظاهرة على قدرة الله على البعث بعد الموت، وأمره أن ينظر إلى العظام كيف يرفع الله بعضها على بعض، ويصل بعضها ببعض، ثم يكسوها بعد الالتئام لحمًا، ثم يعيد فيها الحياة؟ فلما اتضح له ذلك عيانًا اعترف بعظمة الله، وأنه على كل شيء قدير، وصار آية للناس 426. سبحانه الذي حفظ كل شيء آية وحجة راسخة واستشهادا بينا وقدرة لا تفوقها قدرة.

424 تفسير الرازي، ج 11، ص 15.

425 البقرة 259.

426 التفسير الميسر، ج 1، ص 272

قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا } 427. (وهو الذي مرج البحرين) المرج: الخلط، والفرات كل ماء عذب، والبحر امتداد الماء المالح في رقعة جغرافية، والأجاج: أشد الملوحة، والبرزخ الحاجز بين الشيعين، قيل: أرسلهما، وقيل: حفظهما (هذا عذب فرات) وهو البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة (وهذا ملح أجاج) الأجاج نقيض العذوبة الحلوة، ومرجهما أي جعلهما متحدّين متلاصقين وهو بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما من التمازج وهذا من عظيم اقتداره وحفظه (وجعل بينهما برزخا) وبحفظه لهما جعل بينهما حائلا من قدرته كقوله: (بغير عمد ترونها) يريد بغير عمد مرئية وهو قدرته (وحجرا محجورا) أي منعا وسترا لا يفسد المالح العذب (وهو الذي خلق من الماء) أي النطفة ومنها خلق بني آدم (بشرا فجعله نسبا وصهرا) النسب تكوين علائقي بين الناس، والصهر ما يجل نكاحه بقصره محفوظا على محدد لا يشترك معه احد فيه، عن علي رضي الله عنه وعن ابن سيرين: نزلت نسبا وصهرا في النبي وعلي بن أبي طالب هو ابن عمه وزوج ابنته منه، وقيل: النسب سبعة والصهر خمسة، والله أعلم 428.

قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } 429. الحفيظ هو الذي خلق الحركة التي بها تمتد الأجسام وتنكمش، وهو الذي خلق كل شيء بحفظه ودبر أمره تدبرا دون أن يحدث الخلل، فالليل بحفظه يتعاقب مع النهار والشمس والقمر بحفظه كل في فلك يسبحون.

427 الفرقان 53.

428 تفسير الأعمق، ج 1، ص 471.

429 الأنبياء 33.

ومن حفظه قال تعالى: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ
النَّجْمُ الثَّاقِبُ إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} 430. لما تقدم في آخر
البروج أن القرآن في لوح محفوظ لأن منزله محيط بالجنود من المعاندين
وبكل شيء، أخبر أن من إحاطته حفظ كل فرد من جميع الخلائق
المخالفين والموافقين، ليجازى على أعماله يوم إحقاق الحقائق وقطع
العلائق، فقال مقسما على ذلك لإنكارهم له: (والسما) أي ذات الأنجم
الموضوعة لحفظها من المردة لأجل حفظ القرآن المجيد الحافظ لطريق الحق،
قال الملوي: المراد بها هنا ذات الأفلاك الدائرة والسموات العلى بما جعل
فيها من ليل ونهار ودورتها ثلاثمائة وستين درجة لا تتغير أبدا في هذه
الدار بنقص ولا زيادة بنصف درجة ولا دقيقة ولا ثانية ولا ما دون ذلك،
بل كلما زاد أحدهما شيئا نقص من الآخر بحسابه عرف ذلك من العقل
والنقل والتجربة فعرف أنه يحفظه حفيظ حي لا يموت، قيوم لا يغفل ولا
ينام. ولما أقسم بالسماء لما لها من الشرف والمجد تنبيهها على ما فيها من
بدائع الصنع الدالة على القدرة الباهرة. أقسم بأعجب ما فيها وهو جنس
النجوم فقال: (والطارق) أي جنس الكواكب الذي يبدو ليلا ويخفي نهارا،
ويطرق مسترقي السمع فيبدد شملهم ويهلك من أراد الله منهم لأجل هداية
الناس بالقرآن في الطرق المعنوية وظهوره وإشراقه في السماء هدايتهم في
الطرق الحسية وهو في الأصل لسالك الطريق، واختص عرفا بالآتي ليلا
لأنه يجد الأبواب مغلقة فيحتاج إلى طرقها، ثم استعمل للبادي فيه
كالنجم. ولما كان الطارق يطلق على غير النجم أجمه أولا ثم عظم المقسم
به بقوله: (وما أدراك) أي عرفك يا أشرف خلقنا عليه الصلاة والسلام
وإن حاولت معرفة ذلك وبالغت في الفحص عنه (ما الطارق) ثم زاده
تهويلا بتفسيره بعد إجمامه مرة أخرى بقوله تعالى: (النجم الثاقب) أي

430 الطارق، 1. 4.

المتوهج العالي المضيء كأنه يثقب الظلام بنوره فينفذ فيه، أو يثقب بضوئه الأفلاك فتشف عنه، أو يثقب الشيطان بناره إذا استرق السمع. ولما ذكر الذي دل به على حفظ القرآن عن التلبس وعلى حفظ الإنسان، ذكر جوابه في حفظ النفوس التي جعل فيها قابلية لحفظ القرآن في الصدور، ودل على حفظ ما خلق لأجلها من هذه الأشياء المقسم بها على حفظ الإنسان لأنها إذا كانت محفوظة عن أدنى زيغ وهي مخلوقة لتدبير مصالحه فما الظن به؟ فقال مؤكدا غاية التأكيد لما للكفرة من إنكار ذلك والطعن فيه (إنّ) بالتخفيف من الثقيلة في قراءة الجمهور أي أنّ الشأن (كلّ نفس) أي من الأنفس مطلقا لا سيما نفوس الناس (لما عليها) أي بخصوصها لا مشاركا لها في ذاتها (حافظ) أي رقيب عتيد لا يفارقها، والمراد به الجنس من الملائكة، فبعضهم لحفظها من الآفات، وبعضهم لحفظها من الوسوس، وبعضهم لحفظ أعمالها وإحصائها بالكتابة، وبعضهم لحفظ ما كتب لها من رزق وأجلّ وشقاوة أو سعادة ومشى؟ ونكاح وسفر وإقامة، فلا يتعدى شيئا من ذلك نحن قسمنا نحن قدرنا، فإن قلت: إن الحافظ الملائكة، صدقت، وإن قلت: إنه الله، صدقت، لأنه الأمر لهم والمقدر على الحفظ، والحافظ لهم من الوهن والزيغ، فهو الحافظ الحقيقي، والتقدير: ما كل نفس موجودة إلا نفس كائنا أو كائن عليها حافظ⁴³¹.

وقد جاء ذكر الله للحفظة الموكلين ببني آدم الذين يحفظونهم ويكتبون أعمالهم في مواضع من كتابه قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

⁴³¹نظم الدرر للبقاعي، ج 9، ص 390.

حَفْظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ} 432. وقال تعالى: {كَأَلَّا بِلَ تَكْذِبُونَ بِالَّذِينَ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} 433. وقال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى الملتقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد} 434. ويخبرنا القرآن أن الملائكة موكلون بحفظ البشر وحمائيتهم، وهم مكلفون بإحصاء أعمالهم وتسجيلها: قال تعالى {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبَ بِالنَّهَارِ} 435، الكل هم محفوظون بما حفظ فيهم من سر وجهر، قال تعالى: {لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} 436. وقال تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} 437. فالملائكة حفظة للبشر، يحصون عليهم أعمالهم، ويقدمون كتب أعمالهم إلى رب العالمين، ومنهم موكل بقبض أرواح البشر، وهم كذلك يستغفرون للذين آمنوا، ويحضرون مجالس الرحمة والذكر والتلاوة، وهنالك ملكان حافظان يلازمان الإنسان حيث حل وأينما سار، لا يفارقانه أبدا إلا في بعض المواطن كالخلاء مثلا 438.

قال تعالى: {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فَمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَأَنْتَبِهَنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

432 الأنعام 61.

433 الانفطار، 9 . 12.

434 ق 16.

435 الرعد 10.

436 الرعد 10، 11.

437 ق 18.

438

وَمِنْ حَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ {439. وعن ابن عباس في قوله: (ثُمَّ لَا تَبْتَئُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) ولم يقل: من فوقهم؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم. وعن ابن عباس: (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) قال: موحدين. وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِرُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} 440. ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللهم استر عورتي، وآمن روعي، وأحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك، اللهم أن أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي" 441. وعلى المكلف الاستعاذة من شياطين الإنس والجن بما أمر رب العالمين ليحفظ نفسه وأهله من أشرارهم ومكائدهم فإنه تعالى ما استجار به أحد وخاب ظنه، وعلى الخليفة أن يكون متيقظا ومنتبها لهذه الفائدة العظيمة ليحامي بها نفسه ومن استخلف عليهم من عباد الله من كيد الشياطين والمردة فينجو بهم إلى ربهم دون وقوعهم في كيد أعدائهم من الإنس والجن، ونسأل الله السلامة والعافية آمين.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} 442. يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم:

439 الأعراف 13، 17.

440 سبأ 20، 21.

441 تفسير ابن كثير، ج 3، ص 395.

442 الشورى 6.

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا) يا محمد من مشركي قومك (مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) آلهة يتولونها ويعبدونها (اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ) يحصي عليهم أفعالهم، ويحفظ أعمالهم، ليجازيهم بها يوم القيامة جزاءهم. (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)، يقول: ولست أنت يا محمد بالوكيل عليهم بحفظ أعمالهم، إنما أنت منذر، فبلغهم ما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. ولما كان التقدير: فالذين تولوه وماتوا في ولايته فهو يغفر ذنوبهم بمعنى أنه يزيلها عينا وأثرا، عطف عليه قوله: (والذين اتخذوا) أي عاجلوا فطرمهم الأولى وعقولهم حتى أخذوا (من دونه) أي من أدنى رتبة من رتبته (أولياء) يعبدونهم كالأصنام وكل من اتبع هواه في شيء من الأشياء، فقد اتخذ الشيطان الأمر له بذلك وليا من دون الله بمخالفة أمره. ولما كان ما فعلوه عظيم البشاعة، اشتد التشوف إلى جزائهم عليه فأخبر عنه سبحانه بقوله معبرا بالاسم الأعظم إشارة إلى وضوح ضلالهم وعظم تهديدهم لئلا يتوهم أن الحفظ مسبب عن الاتخاذ المذكور عادلا إلى التعبير بالجلالة تعظيما لما في الشرك من الظلم وتغليظا لما يستحق فاعله من الزجر: (اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ) أي المحيط بصفات الكمال حفيظ عليهم أي رقيب وراع وشهيد على أعمالهم، لا يغيب عنه شيء من أحوالهم، فهو إن شاء أبقاهم على كفرهم وجزاهاهم عليه بما أعده للكافرين، وإن شاء تاب عليهم ومحا ذلك كلية، فلم يعاقبهم ولم يعاتبهم، وإن شاء محاه عينا وأبقى الأثر حتى يعاتبهم (وما أنت عليهم بوكيل) وقالوا (قلوبنا في أكنة) أو غير ذلك. ولما كان الإيحاء السابق أول السورة للبشرى لأنها المقصود بالذات وكانت البشرى مقتضية تلويحا ورمزا بالأحرف المقطعة لاجتماع الخلفاء وغلبتهم على سائر الأديان وأن دينهم يعم سائر الأمم ويحيط بجميع الخلق، ولا يريد أحد بأهله سوءا إلا كان له فيه رفعة، وكانت رمزا لأن المقام للإنذار، وكان المراد بها التكرار حتى لا تزال لذاتها في أذن المبشر وحلاوتها في قلبه، ذكرها بلفظ المضارع الدال على التجدد والتكرار والحدوث والاستمرار، وكان المتعنت ربما حمله له على

الوعد بالإحياء في المستقبل، وكان العاقل يكفيه في النذرى مرّة واحدة فقال معبرا بالماضي الدال على الإمضاء والقطع والقضاء الحتم في كل من الإحياء وفائدته التي هي الإنذار 443.

وقال تعالى: (الله حفيظ عليهم) رقيب على أحوالهم وأعمالهم مطلع ليس بغافل فيجازيهم لا رقيب عليهم إلا هو وحده، وقيل: معناه محفوظ لا يضيع كقوله (علمها عند ربّي في كتاب لا يضل ربّي ولا ينسى) (وما أنت عليهم بوكيل) بموكول إليه أمرهم حتى تسأل عنهم وتؤخذ بهم وإنما وظيفتك الإنذار وتبليغ الأحكام وفيه إشارة إلى أن كل خليفة عمل بمتابعة هواه وترك لله حدا أو نقض له عهدا فهو متخذ الشياطين أولياء لأنه يعمل بأوامرهم وأفعاله موافقة لطباعهم والله حفيظ عليهم بأعمال سرهم وعلائيتهم إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم وما أنت عليهم بوكيل لتمنعهم عن معاملاتهم، فعلى الخليفة أن لا يتخذ من دون الله أولياء بل يتفرد بمحبة الله وولايته كما قال تعالى (قل الله ثم ذرهم) حتى يتولاه في جميع أموره وما أحوجه إلى احد سواه. (21).

قال تعالى: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} 444. (والله على كل شيء وكيل) تدل على حفظه ورعايته وصونه لما خلق، ولا ولي على ما خلق إلا هو، والخليفة من بعده هو مسؤول على رعاية الحق وحفظه في ضوء ما يقول ويفعل، وأما قوله: (وضائق به صدرك) أن الضائق يكون بضيق عارض غير لازم، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدرا، والمعنى: ضائق صدرك

⁴⁴³ نظم الدرر للبقاعي، ج 7، ص 386

²¹ تفسير حقّي، ج 13، ص 50.

⁴⁴⁴ هود 12.

لأجل أن يقولوا: (لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيَّهِ). فإن قيل: الكنز كيف ينزل؟ قلنا: المراد ما يكتنز وجرت العادة على أنه يسمى المال الكثير بهذا الاسم، فكأن القوم قالوا: إن كنت صادقاً في أنك رسول الإله الذي تصفه بالقدرة على كل شيء وإنك عزيز عنده فهلاً أنزل عليك ما تستغني به وتغني أحبابك من الكد والعناء وتستعين به على مهماتك وتعين أنصارك وإن كنت صادقاً فهلاً أنزل الله معك ملكاً يشهد لك على صدق قولك ويعينك على تحصيل مقصودك فتزول الشبهة في أمرك، فلما لم يفعل إلهك ذلك فأنت غير صادق، فبين تعالى أنه رسول منذر بالعقاب ومبشر بالثواب ولا قدرة له على إيجاد هذه الأشياء. والذي أرسله هو القادر على ذلك فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ولا اعتراض لأحد عليه في فعله وفي حكمه. ولذا فإن الوكيل هو الذي يتولى الأمر وهو الحفيظ أي يحفظ عليهم أعمالهم، ليجازيهم بها ونظير هذه الآية، قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ بَّحْرِيٍّ مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا} 445. وللخليفة أن يكون واسع الصدر رحبه لأنه يلتقي مع كل معاند ومطيع لرّبه فينصح مستخلفيه ما أستطاع إلى ذلك سبيلاً ودون أن يعبأ إلى أقوال المخالفين له والله المستعان وهو ولي التوفيق 446.

قال تعالى: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} 447. (قالت أحدهما) وهي الكبرى التي استدعته إلى أبيها وهي التي زوجها موسى (يا أبت استأجره) أي اتخذ موسى أجيراً لرعي الغنم والقيام بأمرها (إن خير من استأجرت القوى الأمين) اللام للجنس لا للعهد فيكون موسى مندرجاً تحته. روى أن شعيباً قال لها وما أعلمك بقوته وأمانته فذكرت له ما شاهدت منه من إقلاع الحجر عن

445 الفرقان 10.

446 تفسير الرازي، ج 8، ص 376

447 القصص 26.

رأس البئر ونزع الدلو الكبير وانه خفض رأسه عند الدعوة ولم ينظر إلى وجهها تورعا حتى بلغت رسالته وأنه أمرها بالمشي خلفه فخصت هاتين الخصلتين بالذكر لأنها كانت تحتاج إليهما من ذلك الوقت أما القوّة فلسقي الماء وأما الأمانة فلحفظ البصر وصيانة النفس عنها كما قال يوسف عليه السّلام (إني حفيظ عليم) لأن الحفظ والعلم كان محتاجا إليهما أما الحفظ فلاجلّ ما في خزانة الملك وأما العلم فلمعرفة ضبط الدخل والخرج⁴⁴⁸. وعليه فإن القوي الأمين هو: الذي يستطيع الحفظ، أي بدون قوّة وأمانة لا يمكن أن يكون للحفظ دلالة ومعنى، ولهذا الخليفة القوي بإيمانه هو المستخلف في الأرض ليحفظها من المفسدين والمخربين وسافكي الدماء فيها بغير حقّ. ولذلك لا يتم الحفظ إلا بإيمان وقوّة، الإيمان بالله وهو صاحب الحقّ الذي به الخليفة يحكم بين النّاس، والقوّة هي إحقاق الحقّ ولو كره الكافرون والمجرمون والمفسدون. ولذا فإن القصاص حقّ لا يُحقّق إلا بقوّة. قال تعالى: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}⁴⁴⁹. القصاص لا يتم إلا بقوّة قول وقوّة فعل، وكلاهما لا يتما إلا بقوّة الخليفة المؤمن بما أنزل الله، فالإيمان هو الذي يجعل الخليفة قوّة في حالتين:

الحالة الأولى: حالة القصاص دون رأفة.

الحالة الثانية: حالة العفو دون ندم.

وبناء على حالي القوّة السابقتين فإن الخليفة لا يكون ظلما، وذلك لحكمه بما أنزل الله تعالى.

⁴⁴⁸ تفسير حقّي، ج 10، ص 139

⁴⁴⁹ المائدة 45.

قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ} 450. تعليل لما قبله وإيدان بأن كفار قومه عليه الصلّاة والسّلام سيصيبيهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الرّبوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلّاة والسّلام والمرصاد المكان الذي يتربق فيه الراصدون، أي إنه لفي المكان الذي تتربق فيه السابلة، وهذا تمثيل لإرصاده تعالى بالعصاة وإنهم لا يفوته شبه حاله تعالى في كونه حفيظاً لأعمال العباد مجازياً عليها على النقيض والقطمير ولا محيد للعباد عن أن لا يكون مصيرهم إلا الله بحال من قعد على طريق السابلة يترصدهم ليظفر بالجاني ولا مخلص لهم من العبور إلى ذلك الطريق. فمن كان خليفة لله فقد فاز ومن لم يكن كذلك فليس له بدّ من النّار إن لم يرحمه الله بفعل جليل، قال الكاشفي: أنّ ملائكة ربّك على الصراط في سبعة مواضع "فيسأل في أولها عن الإيمان فإن سلم من النفاق والرياء وإلا تردى في النّار وفي الثاني عن الصلّاة فإن أتم ركوعها وسجودها وأقامها في موافقتها نجا وإلا تردى في النّار وفي الثالث عن الزكاة وفي الرابع عن صوم شهر رمضان وفي الخامس عن الحج والعمرة وفي السادس عن الوضوء والغسل من الجنابة وفي السابع عن بر الوالدين وصلة الرحم فإن خرج منها قيل له انطلق إلى الجنّة وإلا وقع في النّار" 451. كذا على الخليفة أن يكون بالمرصاد لمن يخالف أوامره تعالى فيأمر بالخير ويسعى به في النّاس وكذلك عليه أن يردع أهل الشر باللين تارة والقوّة تارة أخرى حتى يستطيع أن يبلغ ما أمر به من ربّه إلى عباده ليكون قد أدى رسالته على أكمل وجه يسلم من عقابه تعالى فيسلمه الأمانة التي أنيطت به.

450 الفجر 14.

451 تفسير حقّي، ج 17، ص 238

حَفِيفٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ:

قوله تعالى: { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ } 452.

قوله سبحانه: (وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا)، لا تضرونه بهلاككم شيئا أي لا ينتقص ملكه ولا يختل أمره، ولا تضرونه بتوليكم شيئا من الضرر لاستحالة ذلك عليه سبحانه ولما استوفى تشييده أمره وهدم قولهم ، أخذ يحذرهم فقال مبينا أن العدول عما جاء به لا يكون إلا بمعالجة الطبع السليم: (فإن تولوا) ولو أدنى تولية - بما يشير إليه حذف التاء، فعليكم اللوم دوني، لأني فعلت ما عليّ (فقد أبلغتكم ما أرسلت) أي أبلغتكم كل شيء أرسلت به ولم أخفي عنكم شيئا كاملا لم أدع منه شيئا رجاء لإقبالكم ولا خوفا من إعراضكم، فأبيتم إلا التكذيب لي والاستكبار عما جئت به، فالذي أرسلني ينتقم منكم فيهلككم (ويستخلف ربّي) أي يوجد المحسن إليّ بإقامتي فيما يرضيه وهنا يكون الاستخلاف حقّ، (قوما غيركم) يخلفونكم في دياركم وأموالكم، فتكونون أعداءه، ويكون المستخلفون متعرضين لأن يكونوا أولياء مع كونهم ذوي بأس وقوة فيختص الضرر بكم وهم (الخلفاء) من كل سوء محفوظون (ولا تضرونه شيئا) أي أنّ المحفوظ لا يضره أحد وذلك بأسباب الحفظ ثم علل وعيده لهم بقوله مؤكدا لأن العاصي فاعل بعصيانه فعل من يظنّ أنّ الله غافل عنه: (إن ربّي) أي المحسن إليّ المدبر لمصالحني. ولما كان الأهم في هذا السياق بيان استعلائه وقدرته، قدم قوله: (على كل شيء) صغيرا أو كبيرا. جليل أو حقير: (إن ربّي على كل شيء حَفِيفٌ) أي رقيب محيط بالأشياء علما فلا يخفي عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم، وحفظ ربّي صيانة من كل أدى أو شر أو ألم أو مرض أو فقر والحمد لله. فالحفظ كناية عن المجازاة، ويجوز أن يكون الحفيظ بمعنى

الحافظ الحاكم المستولي أي: حافظ مستول على كل شيء ومهيمن عليه،
ومن شأنه ذلك كيف يضره شيء⁴⁵³.

وقوله تعالى: { إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } وفيه ثلاثة أوجه:

الأول: حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها.

الثاني: حفيظ من الشر والمكر.

الثالث: حفيظ على كل شيء يحفظه من الهلاك إذا شاء ويهلكه إذا
شاء⁴⁵⁴. وقوله تعالى: (حفيظ) الحفظ بقاء الشيء هو كما هو، ولهذا
فإن الحفيظ المطلق هو الذي يحفظ أعمالنا ويجازينا عليها ثواب أو عقاب،
فهو العالم بكل شيء والقادر على كل شيء وبالغ الحفظ له، فيعلم ما
يعمل محفوظه فيجازيه بما يستحق من نعمه ونقمه، فهو تعليل لاستخلاف
غيرهم وتنزهه عن لحوق ضرر، لأنّ الحفظ: الحراسة، ويلزمها العلم والقدرة،
فمن القدرة حافظ العين، أي لا يغلبه نوم، والحفيظة - للحمية والغضب،
ومنهما معا المحافظة - للمواظبة على الشيء والتوالي عن الشيء: الذهاب
إلى غير جهته إعراضا عنه؛ والإبلاغ: إلحاق الشيء نهايته⁴⁵⁵.
والاستخلاف على المستوى الإنساني: جعل الثاني بدلا من الأول يقوم
مقامه؛ إما الاستخلاف المطلق فلا خليفة له في شيء، والله الحفيظ من
كل شيء في الأرض وفي السماء وفيما نعلم وما لا نعلم سبحانه وحده
علام الغيوب له الأمر وهو الحفيظ بالقوة:

أولا: بان ربّوبيته عامة لكل واحد ومن يربّ يدبر أمر المرتّب
ويحفظه فلا يحتاج حفظ الغير.

⁴⁵³ تفسير الألويسي، ج 8، ص 282

⁴⁵⁴ تفسير الرازي، ج 8، ص 428

⁴⁵⁵ نظم الدرر للبقاعي، ج 4، ص 169

وثانيا: بان كل ذي نفس تحت قهره أسير عن الفعل والتأثير في غيره
فلا حاجة إلى الاحتراز منه.

وثالثا: بأنه على طريق العدل في عالم الكثرة الذي هو ظل وحدته
فلا يسلط أحدا على أحد إلا عن استحقاق لذلك بسبب ذنب وجرم لا
يعاقب أحدا من غير زلة ولو صغيرة نعم قد يكون لتزكية ورفع درجة
فالمستفاد في ضمن ذلك كله نفي القدرة عنهم وعن آهنتهم فلا حول ولا
قوة إلا بالله والله تعالى لا يظلم الناس مثقال ذرة وما يرى في صورة الظلم
فمن خفا سرّه وحكمته والعارف ينظر إلى الأسرار الإلهية ويحمل الوقائع
على الحكم في الدنيا وأمثال ذلك من عدل الله تعالى فليكن العباد على
العدالة وخصوصا الحكام والسلاطين والمستخلفين في الأرض، فإن العدل
ينفع في الدنيا والآخرة وربّ سائل يقول: أي شيء أفضل للملوك
الشجاعة أم العدل؟ فالجواب يقال: إذا عدل السلطان لم يحتج إلى
الشجاعة فإذا الخليفة آمن بالملك الديان وخشي من عذابه كل آن فقد
عدل واحترز عن الظلم والطغيان وفاز بالدرجات في أعلى الجنان وإلا فقد
عرض نفسه لعذاب النيران ولعذاب الدنيا أيضا على أشد ما كان⁴⁵⁶.

طلب الخلافة للحفظ:

قال تعالى: { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ
قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي
حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ }⁴⁵⁷. يقول تعالى إخبارًا عن الملك حين تحققت براءة
يوسف، عليه الصّلاة والسّلام، ونزاهة عرّضه ممّا نسب إليه، قال: (ائْتُونِي
بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) أي: أجعله من خاصّتي وأهل مشورتي⁴⁵⁸ قوله

⁴⁵⁶ تفسير حقّي، ج 5، ص 448

⁴⁵⁷ يوسف، 55.

⁴⁵⁸ تفسير ابن كثير، ج 4، ص 395

تعالى: (فلما كلمه) وشاهد الملك فيه ما شاهد من جلال النبوة وجميل الوزارة وخلالال سيادة وعلامات الخلافة ومخايل السعادة (قال) مؤكدا تمكينا لقوله دفعا لمن يظن أنه بعد السجن وما قاربه لا يرفعه هذه الرفعة: (إنك اليوم) وعبر بما هو لشدة الغرابة تمكينا للكلام أيضا فقال: (لدينا مكين) أي شديد المكنة، من المكانة العالية والحفظ السليم، وهي حالة يتمكن بها صاحبها من مراده (أمين) من الأمانة، وهي حال يؤمن معها نقض العهد، (اجعلني) قيما (على خزائن الأرض) أي أرض مصر التي هي لكثرة خيرها كأنها الأرض؛ ثم علله بما هو مقصود الملوك الذي لا يكادون يقفون عليه فقال: (إني حفيظ) أي قادر على ضبط ما أُليّ أمين فيه، وحفظ الأمانة لا خيانة لها ولا فيها، و(عليم) بالغ العلم بوجوه صلاحه واستنمائه فأخبر بما جمع الله له من أداتي الحفظ والفهم، مع ما يلزم الحفظ من القوة والأمانة، لنجاة العباد مما يستقبلهم من السوء، فيكون ذلك سببا لردهم عن الدين الباطل إلى الدين الحق. قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 459. ولما سأل ما تقدم ، قال معلما بأنه أوجب بتسخير الله له: (وكذلك مكنا) أي ومثل ما مكنا ليوسف في قلب الملك من المودة والاعتقاد الصالح وفي قلوب جميع الناس، ومثل ما سأل من التمكين بما لنا من العظمة (ليوسف في الأرض) أي مطلقا لا سيما أرض مصر بتولية ملكها إياه عليها (يتبوا) أي يتخذ منزلا يرجع إليه ليتابع ويراقب الخطة التي وضعت للأقاليم، (منها حيث يشاء) بإنجاح جميع مقاصده، لدخولها كلها تحت سلطانه وفيه إشارة إلى نصره الله لخلفائه في

459 يوسف، 21.

أرضه وإنه يمكن لهم في الأرض من السلطان والقوّة والمنعة حتى وإن كان في قوم ظلّمة كافرين⁴⁶⁰.

لقائل أن يقول: لم طلب يوسف الإمارة والنبي عليه الصلّاة والسّلام قال لعبد الرّحمن بن سمرة: (لا تسأل الإمارة)؟

وأيضاً فكيف طلب الإمارة من سلطان كافر؟

وأيضاً لم لم يصبر مدة؟

ولم أظهر الرغبة في طلب الإمارة في الحالة؟

وأيضاً لم طلب أمر الخزائن في أوّل الأمر، مع أنّ هذا يورث نوع

تهمة؟

وأيضاً كيف جوز من نفسه مدح نفسه بقوله: (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) مع أنّه تعالى يقول: {فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ} 461.

وأيضاً فما الفائدة في قوله: (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)؟

وأيضاً لم ترك الاستثناء في هذا فإنّ الأحسن أن يقول: إني حفيظ عليم إن شاء الله بدليل قوله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ} 462.

فهذه أسئلة سبعة لا بدّ من جوابها فنقول: الأصل في جواب هذه المسائل أن التصرف في أمور الخلق كان واجبا عليه لأنه خليفتهم، فجاز له أن يتوصل إليه بأيّ طريق كان لأنه مستخلف فيهم، إنّما قلنا: إنّ ذلك التصرف كان واجبا عليه لوجه:

⁴⁶⁰ نظم الدرر للبقاعي، ج 4، ص 267، وتفسير الألوسي، ج 9، ص 53.

⁴⁶¹ النجم 32.

⁴⁶² الكهف 23، 24.

الأول: أنه كان رسولا حقًا من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان لاستخلافه فيهم.

والثاني: وهو أنه عليه الصلاة والسلام علم بالوحي في الرؤيا التي رآها الملك أن الناس يصيبهم القحط فخاف عليهم القحط والتلف فأحب أن تكون يده على الخزانة ليعينهم وقت الحاجة شفقة على عباد الله وهي من أخلاق الخلفاء وكانت خدمته معجزة لفراعة مصر.

والثالث: أن السعي في إيصال النفع إلى المستخلفين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن في العقول. وإذا ثبت هذا فنقول: إنه عليه الصلاة والسلام كان مكلفا برعاية مصالح الخلق في المكان الذي بُعث فيه من هذه الوجوه، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق، وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فكان هذا الطريق واجبا عليه. وأقول هذا من العجائب لأنه لما تأبى عن الخروج من السجن سهل الله عليه ذلك على أحسن الوجوه ولما تسارع في ذكر الالتماس أقر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف والتفويض بالكلية إلى الله تعالى أولى. وأقول: لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك أنه إنما ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي فلأجل هذا المعنى ترك الاستثناء، وأما قوله لم مدح نفسه فجوابه لا نسلم أنه مدح نفسه لكنه بين كونه كان عالما بأنه يفى بهذا الأمر، ثم نقول هب أنه موصوفا بهاتين الصفتين النافعتين في حصول هذا المطلوب، وبين البابين فرق وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف لأن الملك وإن علم كماله في علوم الدين لكنه ما مدح نفسه، إلا أن مدح النفس إنما يكون مذموما إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم، فقله تعالى: {فَلَا تُزَكُّوا

أَنْفُسِكُمْ} 463. المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية: {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} أما إذا كان الإنسان عالماً بأنه على الصدق والحقّ المبين فهذا الأمر لا يدخل دائرة الممنوع. قوله ما الفائدة في وصفه نفسه بأنه حفيظ عليهم؟ قلنا: إنّه جار مجرى أن يقول حفيظ بجميع الوجوه التي منها يمكن تحصيل الدخل والمال، عليم بالجهات التي تصلح لأن يصرف المال إليها، ويقال: حفيظ بجميع مصالح الناس، عليم بجهات حاجاتهم أو يقال: حفيظ لوجوه أياديك وكرمك، عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع وهذا باب واسع يمكن تكثيره لمن أرادته 464. قال العلماء سؤال تولية الأوقاف مكروه كسؤال تولية الإمارة والقضاء؛ وذلك لأنّ الله تعالى يعين المجبور ويسدده ويكل الطالب إلى نفسه والولاية أمور ثقيلة فلا يقدر على رعاية حقوقها وإذا تعين أحد للقضاء أو الإمارة أو نحوهما لزمه القبول لأنها من فروض الكفاية فلا يجوز إهمالها ويوسف عليه السّلام كان أصلح من يقوم بما ذكر من التدبير في ذلك الوقت فاقتضت الحال تقلده وتطلبه إصلاحاً للعالم 465. وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ في كل شيء وعضو من أعضاء ظاهر الجسد وباطنه خزانة من القهر والحفظ فيها نعمة أخرى كالعين فيها نعمة البصر فان استعملها في رؤية العين ورؤية الآيات والصنائع فيجد الحفظ وينتفع به وإن استعملها في مستلذاتها وشهوات النفس ولم يحفظ نفسه منها فيجد القهر ويضره ذلك فقس الباقي على هذا المثال ولهذا قال يوسف (إني حفيظ عليهم) أي حافظ نفسي فيها عما يضرها عليم بنفعها أو ضررها واستعمالها فيما ينفع ولا يضر 466.

⁴⁶³ النجم 32.

⁴⁶⁴ تفسير الرازي، ج 9، ص 63-64.

⁴⁶⁵ تفسير حقّي، ج 6، ص 125.

⁴⁶⁶ تفسير حقّي، ج 6، ص 29.

وعليه: كل ما وصف به يوسف نفسه هو من واقع رؤية، ولأنّ رؤية يوسف عليه الصّلاة والسّلام هي ربّانية، لذا فإنّه لم يقل إلا حقّاً لا زيفاً ولا غموضاً ولا لبس فيه، إنه رسول مكلف من الله تعالى ليصلح في الأرض ويُسهم في إصلاح حال النّاس وليحكم بالعدل فيما أراه الله من رؤية. ولهذا كانت مطالبه من أجلّ الآخرين وليس من أجلّ نفسه، فلم يبق لنفسه إلا العمل الصالح الذي سيجازيه عليه الحفيظ العليم، الذي حفظه من كل سوء وحسد وإيذاء وهو في غيابات الحب.

قال تعالى: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} 467. (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ) أي ما تأكل من لحوم موتاهم وعظامهم وأشعارهم، وهو ردّ لاستبعادهم بإزاحة ما هو الأصل فيه وهو أنّ أجزاءهم تفرقت فلا تعلم حتى تعاد بزعمهم الفاسد، وقيل: ما تنقص الأرض منهم من يموت فيدفن في الأرض منهم، وهذا جواب لما كانوا يقولون {وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ} 468. يعني أنّ ذلك إشارة إلى أنّه تعالى كما يعلم أجزاءهم يعلم أعمالهم من ظلمهم، وتعديهم بما كانوا يقولون وبما كانوا يعملون، وقوله تعالى: (وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) تعميم لعلمه تعالى أي وعندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ويدخل فيها أعمالهم، أو محفوظ عن التغير؛ والمراد إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها بعلم من عنده كتاب حفيظ يتلقى منه كل شيء أو تأكيد لعلمه تعالى بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده سبحانه. ويحتمل أن يقال معنى قوله تعالى: (وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) هو أنّه عالم بتفاصيل الأشياء، وذلك لأنّ العلم إجمالي وتفصيلي، فالإجمالي كما يكون عند الإنسان الذي يحفظ كتاباً

467 ق، 4.

468 السجدة 10.

ويفهمه، ويعلم أنه إذا سئل عن أية مسألة تكون في الكتاب يحضر عنده الجواب، ولكن ذلك لا يكون نصب عينيه حرفا بحرف، ولا يخطر بباله في حاله بابا بابا، أو فصلا فصلا، ولكن عند العرض على الذهن لا يحتاج إلى تحديد فكر وتحديد نظر، والتفصيلي مثل الذي يعبر عن الأشياء، والكتاب الذي كتب فيه تلك المسائل، وهذا لا يوجد عند الإنسان إلا في مسألة أو مسألتين. أما بالنسبة إلى كتاب فلا يقال: {وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} يعني العلم عندي كما يكون في الكتاب أعلم جزءا جزءا وشيئا شيئا. والحفيظ بمعنى الحافظ، أي حافظ أجزاءهم وأعمالهم بحيث لا ينسى شيئا منها، والثاني هو الأصح وذلك أن الحفيظ بمعنى الحافظ وأرد في القرآن، قال تعالى: {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} 469. وقال تعالى: {وَاللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ} 470؛ ولأن الكتاب على ما ذكرنا للتمثيل فهو يحفظ الأشياء، وهو مستغن عن أن يحفظ. وقوله تعالى: (حفيظ) أي بالغ في الحفظ لا يشذ عنه شيء من الأشياء دق أو جل، فكيف يستبعدون على عظمتنا ألا نقدر على تمييز تراجم من تراب الأرض، ولم يختلط في علمنا شيء من جزء منه بشيء من جزء آخر فضلا عن أن يختلط شيء منه بشيء آخر من تراب الأرض أو غيرها 471.

قال تعالى: {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَّنْ حَشِي الرِّحْمَنِ بِالْعِيبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ} 472. (هذا ما تُوعَدُونَ) إشارة إلى الجنة وهي الوعد الحق، والتذكير لما أن المشار إليه هو المسمى من غير قصد لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فإثما من أحكام اللفظ العربي، وقيل: هو

469 الأنعام 104.

470 الشورى 6.

471 تفسير الألوسي، ج 19، ص 307، وتفسير الرازي، ج 14، ص 211، ونظم الدرر

للبقاعي، ج 8، ص 171

472 ق، 33، 34.

إشارة إلى الثواب. وقيل: إلى مصدر {أَزْلَفْتُ} 473، والمراد هذا القول هو الذي وقع الوعد به وهو كما ترى 474، وقوله تعالى: (لِكُلِّ أَوْابٍ) أي إرجاع إلى الله، (حَفِيزٌ) بليغ في الحفظ، حفظ ذنوبه حتى رجع عنها كما قال مجاهد: ألا أنبئك بالأواب الحفيظ؟ هو الرجل يذكر ذنبه إذا خلا فيستغفر الله تعالى. وعن قتادة قال: "أي حفيظ لما استودعه الله تعالى من حقه ونعمته. وعن عبيد بن عمير كنا نعد الأواب الحفيظ الذي يكون في المجلس فإذا أراد أن يقوم قال: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا. وقيل: هو الحافظ لتوبته من النقص" 475. ولا ينافيه صيغة (أَوْابٌ). أي لكل شخص أواب قال تعالى: (هَذَا) وهذا إشارة إلى مقعد صدق ولو كانت الإشارة إلى الجنة لقال: هذا (لكل أواب) بدل من المتقين بإعادة الجار أي رجّاع إلى الله فأولا يرجع من الشرك إلى التوحيد، وثانيا من المعصية إلى الطاعة، وثالثا من الخلق إلى الحقّ.

وعليه، فالأواب كالتواب وهو الراجع إلى الله بترك المعاصي وفعل الخيرات ومنه قيل للتوبة أوبة. ويحتمل أن يقال الأواب هو الرجّاع إلى الله بفكره، والحفيظ الذي يحفظ الله في ذكره أي رجع إليه بالفكر فيرى كل شيء واقعا به وموجدا منه ثم إذا انتهى إليه حفظه بحيث لا ينساه عند الرخاء والنعماء، والأواب الحفيظ كلاهما من باب المبالغة أي يكون كثير الأواب شديد الحفظ، وفيه وجه آخر أدق، وهو أن الأواب هو الذي رجع عن متابعة هواه في الإقبال على ما سواه، والحفيظ هو الذي إذا أدركه بأشرف قواه لا يتركه فيكمل بها تقواه ويكون هذا تفسيرا للمتقي، لأنّ المتقي هو الذي أتقى الشرك والتعطيل ولم ينكره ولم يعترف بغيره، ولذا فهو الحفيظ لما حُفظ به من الحفيظ المطلق، والأواب هو الذي لا يعترف بغيره

473 ق 31.

474 تفسير الألوسي، ج 19، ص 340 - 341.

475 المص در السابق، ص 340 - 341.

ويرجع عن كل شيء غير الله تعالى، والحفيظ هو الذي لم يرجع عنه إلى شيء مما عداه⁴⁷⁶. قال تعالى تَمِيمًا لِبَيَانِ الْمُتَّقِينَ: (من خشى) ولم يعد الجارّ لأنّه لا اعتراض قبله كأول، ونبه على كثرة خشيته بقوله: (الرّحمن) لأنّه إذا خاف مع استحضار الرحمة العامّة للمطيع والعاصي كان خوفه مع استحضار غيرها أولى، وقال القشيري: "التعبير بذلك للإشارة إلى أنّها خشية تكون مقرونة بالأنس يعني الرجاء كما هو المشروع، قال: ولذلك لم يقل (الجار) أو (القهار) قال: ويقال: الخشية ألطف من الخوف، فكأنّها قريبة من الهيبة (بالغيب) أي مصاحباً له من غير أن يطلب آية أو أمراً يصير به إلى حد المكاشفة، بل استغنى بالبراهين القاطعة التي منها أنه مرتّب، فلا بدّ له من ربّ، وهو أيضاً بيان لبلوغ خشيته. ولما كان النافع من الطاعة الدائم إلى الموت، قال: (وجاء) أي بعد الموت (بقلب منيب) أي راجع إلى الله تعالى بوزاع العلم، ولم يقل: بنفس، لطفاً بالعصاة لأنهم وإن قصرت نفوسهم لم يكن لها صدق القدم فلهم الأسف بقلوبهم، وصدق الندم"⁴⁷⁷.

خصائص اسم الحفيظ:

قال تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبِّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} ⁴⁷⁸. (وربّك على كلّ شيءٍ حفيظٌ) جاءت مطلقة الحفظ، ولا استثناء فيها، ولهذا فخاصية الاسم الحفيظ: الحفظ من كل سوء، والحيطه والعناية من كل شر، والنجاة في كل بر من التار والعار والأسحار. والحفظ من العطش والجوع والفاقة، والمرض والمظالم، والفوز بالمغانم والمنافع التي تبقى الكائن الحي تحت الرعاية والعناية الإلهية.

⁴⁷⁶ تفسير الرازي، ج، 14، ص 244.

⁴⁷⁷ تفسير حقّي، ج، 14، ص 145، ونظم الدرر للبقاعي، ج، 8، ص 186.

⁴⁷⁸ سبأ 21.

اللهم أحفظنا من كل شر في كل بر، وأحفظنا برعايتك مؤمنين صالحين يُصلِحونَ في الأرض ولا يفسدون ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق، وأرضى عنا وارحمنا وأرحم آباءنا وأجدادنا الكرام وأحفظ أبناءنا وزوجاتنا وأخوتنا الأعزاء، وأرضى عن صحابتنا ومشايخنا وصحابة رسول الله وأمّهاتنا زوجات الرسول صلى الله عليه وسلّم.

ومن خاصية اسم الحفيظ تعالى: لا يثقله شيء في السماوات والأرض، قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} 479. وقوله: (وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا) أي: لا يثقله حفظ السماوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، وإنما لم يتعرض لذكر ما فيهما لما أن حفظهما مستتبع لحفظه، وخصهما بالذكر دون الكرسي لأن حفظهما هو المشاهد المحسوس، والقول بالاستخدام ليدخل هو والعرش وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله تعالى بعيد، بل ذلك سهل عليه يسير لديه وهو القائم على كل نفس بما كسبت، والرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وهو القاهر لكل شيء الحسيب على كل شيء الرقيب العلي العظيم لا إله غيره ولا رب سواه. وإن من كان بهذه العظمة في هذا التدبير المحكم والصنع المتقن كان بهذا العلم وهذه القدرة التي لا يثقلها شيء ولذا قال: (ولا يؤوده) أي يثقله. قال الحرالي: من الأود أي بلوغ المجهود ذودا، والحفظ تماسك بالرعاية عن

479 البقرة 255.

كل ما يوهن أو يبطل⁴⁸⁰. (حفظهما) في قيوميته كما يثقل غيره أو يعجزه حفظ ما ينشئه بل هو عليه يسير لأنه لو أثقله لاختل أمرهما ولو سيرا ولقدر غيره ولو يوما ما على غير ما يريد. فقوله: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) كقوله: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) وكقوله: (الْكَبِيرُ الْمُتَعَال). وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه⁴⁸¹. وكل شيء بالإضافة إليه حقير ولما جليت على منصة هذه الآية الكريمة عرائس المسائل الإلهية وأشرقت على صفحاتها أنوار الصفات العلية حيث جمعت أصول الصفات من الألوهية والوحدانية والحياة والعلم والملك والقدرة والإرادة، وما اشتمل اسمه تعالى عليه من صفات وأفعال الكمال ظاهرة في بعضها ومستترة في البعض ونطقت بأنه سبحانه موجود منفرد في ألوهيته حي واجب الوجود لذاته موجد لغيره منزه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لا مناسبة بينه وبين الأشباح ولا يحل بساحة جلاله ما يعرض النفوس والأرواح مالك الملك والملكوت ومبدع الأصول والفروع ذو البطش الشديد العالم وحده بجلي الأشياء وخفيها وكليها وجزئها واسع الملك والقدرة لكل ما من شأنه أن يملك ويقدر عليه لا يشق عليه شاق ولا يثقل شيء لديه متعال عن كل ما لا يليق بجنابه عظيم لا يستطيع طير الفكر أن يحوم في بيدااء صفات قامت به تفردت بقلائد فضل خلت عنها أجياد أخواتها الجياد وجواهر خواص تنهادى بها بين أترابها⁴⁸². ولما لم يكن علوه وعظمته بالقهر والسلطان والإحاطة بالكمال منحصرًا فيما تقدم عطف عليه قوله: (وهو) أي مع ذلك كله المتفرد بأنه (العلي) أي الذي لا رتبة إلا وهي منحنة عن رتبته؛ ولما في العلو من الظهور وفي

⁴⁸⁰ تفسير ابن كثير، ج 1، ص 681 - ص 682

⁴⁸¹ تفسير الألوسي، ج 2، ص 319

⁴⁸² المرجع السابق 319.

العظمة من الخفاء لموضع الإحاطة لأن العظيم هو ما يستغرق كما يستغرق الجسم العظيم جميع الأقطار. لا يستطيع أن يحفظ إلا من كان قديرا عظيما ظاهرا في علوه كبريائه⁴⁸³.

خصائص آية الكرسي (الآية الحافظة):

اشتملت آية الكرسي على ما لم تشتمل عليه آية في أسماء الله تعالى، فلها من الخصائص الحافظة المانعة ولو نظرنا في خلفائنا على وجه الأرض فإنه لا يحفظ الخلافة إلا من كان قادرا عليها وذلك بما استودع الله له من الهيبة والعلو والكبرياء في قلوب البشر من مسلم وكافر وجاهل وعارف ليلا ونهارا؛ فالإنسان أضعف من أن يكون قادرا على حملها وبذلك أختص أناسا لحملها وربّاهم تحت رعايته وشملهم بأسمائه؛ وليحملوا رموزها وألفاظها ومعانيها فلولا هذا الحفظ وهذه الرعاية الربانية ما استطاع أن يسير الخليفة في خلافته ساعة من نهار والحمد لله ربّ العالمين. عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي" وعن أنس: "من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة حفظ إلى الصلّاة الأخرى ولا يحافظ عليها إلا نبي أو صديق أو شهيد"⁴⁸⁴. وهذا الحفظ الظاهر في هذه الآية لمن يقرأها ليلا أو نهارا وذلك لما اشتملت عليه من أسمائه الحسنی فهي تلتقي مع اسمه الحفيظ لأنه هو الحافظ والقادر على حفظها جميعا بما له من موجبات الحفظ.

قال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أُنزِلَ مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾⁴⁸⁵. وقوله:

⁴⁸³ نظم الدرر للبقاعي، ج 1، ص 412

⁴⁸⁴ المرجع السابق، 413.

⁴⁸⁵ ق، 1. 4.

(وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) أي: الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ} 486 أي: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس.

ثم قال مخبراً عنهم في عجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) أي: يقولون: إذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا ترابا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ (ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) بمعنى بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه. قال الله تعالى راداً عليهم: (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ) ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفي علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ (وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ) حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة.

عن ابن عباس في قوله: (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ) أي: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم 487. فيقول الحق - سبحانه: (قَدْ عَلِمْنَا) ولعلّه يخبر الملائكة قائلاً: عبدي الذي أخرجته من دنياه - ماذا بقي بينه من يهواه هذه أجزاءه قد تفرقت، وهذه عظامه بليت، وهذه أعضاؤه قد تفتتت! (وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ): وهو اللوح المحفوظ؛ أثبتنا فيه تفصيل

486 يونس، 2.

487 تفسير ابن كثير، ج 7، ص 395

أحوال الخلق من غير نسيان، وبيّن فيه كلّ ما يحتاج العبد إلى تذكّره 488. ففي الكتاب كل شيء بين ثابت لا يهلك، باقٍ دليل إثبات على الحق وإحقيقه، فكل ما حدث وكل ما سيحدث في الدارين هو مُنزّل في القرآن الكريم الرسالة الخاتمة. قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ يُجَاخِئِهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومُوا بِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 489. وقال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 490. وقال تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} 491. وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} 492 وقال: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ} 493. تبيان لكل شيء جاءت مطلقة جامعة لا مانعة، (جامعة لما يُعرف ومفتوحة على ما لا يعرف بعد) ولذلك فالحفيظ هو علاّم الغيوب. حافظ لكل ما نعلمه، وحافظ لكل ما لم نعلمه، ولهذا يزداد علمنا كلما تعلمنا شيء من علمه الواسع، سبحانه لكل شيء حفيظ وبكل شيء محيط.

488 تفسير القشيري، ج 7، ص 296

489 الأنعام، 38، 39.

490 الأنعام 59.

491 الأنعام 92.

492 الأنعام 114.

493 النحل، 89.

قال تعالى: (كما بدأكم تعودون) وقد علمنا إن النشأة الأولى أوجدها الله تعالى على غير مثال سبق وركبها في إي صورة شاء وهكذا النشأة الآخرة يوجدها الحقّ على غير مثال سبق مع كونها محسوسة بلا شك فينشئ الله النشأة الآخرة على عجم الذنب الذي يبقى من هذه النشأة الدنيا وهو اصلها فعليه تتركب النشأة الآخرة فقوله تعالى (كما بدأكم تعودون) راجع إلى عدم مثال سابق كما في النشأة الأولى مع كونها محسوسة بلا شك إذ ذكر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صفة نشأة أهل الجنة والنار ما يخالف هذه النشأة الدنيا وقوله وهو أهون عليه لا يقدر فيما قلنا لان البدء إن كان عن اختراع فكر وتدبير كانت إعادته إلى أن يخلق خلقا آخر ممّا يقارب ذلك ويزيد عليه أقرب إلى الاختراع في حقّ من يستفيد الأمور بفكرة والله متعال عن ذلك علوا كبيرا فهو الذي يفيد العالم ولا يستفيد ولا يتجدد له علم بشيء بل هو عالم بتفاصيل مالا يتناهى بعلم كلي فعلم التفصيل في عين الإجمال وهكذا ينبغي لجلاله أن يكون. (وعندنا كتاب حفيظ) بالغ في الحفظ لتفاصيل الأشياء كلها أو محفوظا من التغير والمراد تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها يعلم من عنده كتاب محيط يتلقى منه كل شيء أو تأكيد لعلمه بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده 494.

قال تعالى: { وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبِّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } 495. (وما كان له) إي لإبليس (عليهم من سلطان) السلطان القهر والغلبة ومنه السلطان لمن له ذلك أي تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء وإلا فهو ما سلّ سيفا ولا ضربّ بعصا (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في

⁴⁹⁴ تفسير حقّي ج 14، ص 104.

⁴⁹⁵ سبأ 21.

شك) والعلم إدراك الشيء بحقيقته والعالم في وصف الله تعالى هو الذي لا يخفي عليه شيء والشك اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما. والمعنى وما كان تسلطه عليهم إلا ليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزا ممن هو في شك منها تعلق حاليا يترتب عليه الجزاء فعلم الله قديم وتعلقه حادث إذ هو موقوف على وجود المكلف في عالم الشهادة فلا يظن ظان بالله ظن السوء إن الله علام الغيوب وعالم الظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ} 496. فالله تعالى كان عالما بحال الفريقين قبل خلقهم وهو الذي خلقهم على ما هم به وإنما سلط الله الشيطان على بني آدم لاستخراج جواهرهم من معادن الإنسانية كما تسلط النار على المعادن لتخليص جواهرها. وقال بعضهم العلم هنا مجاز عن التمييز والمعنى إلا لتمييز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها فعلى التسلط بالعلم والمراد ما يلزمه (وربك على كل شيء حفيظ) محافظة عليه دون أدنى شك، ولهذا لن يمسه شيء إلا بإذنه. وقال بعضهم هو الذي يحفظ كل شيء على ما هو به 497. وعلم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو في كونه عالما لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه، فإن العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما في نفس الأمر، فعلم الله في الأزل أن العالم سيوجد، فإذا وجد علمه موجودا بذلك العلم، وإذا عدم يعلمه معدوما بذلك، مثاله: أن المرأة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها، ثم إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته، والمرأة لم تتغير في ذاتها ولا تبدلت في صفاتها، إنما التغير في الخارجات فكذلك ههنا قوله: (إِلَّا لِنَعْلَمَ) أي ليقع في العلم صدور الكفر من الكافر والإيمان من المؤمن وكان قبله فيه أنه سيكفر زيد ويؤمن عمرو. وقوله: (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ) إشارة إلى أنه ليس بملجئ وإنما هو

496 الأعراف 179.

497 تفسير حقي، ج، 11، ص 196.

آية، وعلامة خلقها الله لتبين ما هو في علمه السابق، وقوله: ﴿وَرَبِّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يحقق ذلك أي الله تعالى قادر على منع إبليس عنهم عالم بما سيقع، فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه حفظه ولا العاجز⁴⁹⁸. والحفيظ من الخلفاء من يحفظ ما أمر بحفظه من الجوارح والشرائع والأمانات والودائع ويحفظ دينه عن سطوة الغضب وخلافة الشهوة وخداع النفس وغرور الحكماء وذلك بالأسباب الإلهية التي منحه الله إياها من الحفظ الجد والمواظبة وترك المعاصي وتقليل النوم وصلاة الليل وقراءة القرآن والله المستعان.

قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةَ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾⁴⁹⁹. ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العبث في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق. وقوله: (بَقِيَّةَ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ) قال ابن عباس: رزق الله خير لكم. وقال الحسن: رزق الله خير من بخسكم الناس. وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم. وقال مجاهد: طاعة الله (خير لكم). وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "الهلاك" في العذاب، و"البقية" في الرحمة. وقال أبو جعفر بن جرير: (بَقِيَّةَ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ) أي: ما يفضل لكم من الرِّيح بعد وفاء الكيل والميزان وهذا خير لكم من أخذ أموال الناس⁵⁰⁰. (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) برفيب ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله عزّ وجلّ. لا تفعلوه ليراكم الناس، بل لله عزّ وجلّ وللخليفة أن يأخذ بأيدي الناس بالنصيحة وتوجيه المستخلفين إلى الطريق المستقيم

⁴⁹⁸ تفسير الرازي، ج 12، ص 413

⁴⁹⁹ هود، 85، 86.

⁵⁰⁰ تفسير ابن كثير، ج 4، ص 343.

بإيفاء الكيل والميزان وإيصال الحقوق إلى أصحابها ومنعهم من العبث والإفساد والسعي بالشر بين العباد بالكلمة الصادقة تارة والسيف تارة أخرى حتى يكون قد أرضى ربه بما كلفه به.

قال تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيِّنٌ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ لَئِن لَّمْ يَظْهَرِ لَهُمْ لَذَائِقَةُ الْعَذَابِ الْهُلْوَاعِ يُذُوقُوا وَهُمْ لَا يُدْرِكُونَ} وفي الصحيحين: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته" 502، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} 503. يقول تعالى: (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) أي: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفي عليه خافية، {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} 504. وقال {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} 505. وجوده معكم رقيب حسيب حفيظ وعليم خبير سبحانه له الصفات الحسنى.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} 506. يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين والنصارى والمجوس، والذين

501 الرعد 33.

502 صحيح البخاري، ج 14، 268.

503 هود 102.

504 يونس، 61.

505 الحديد 4.

506 الحج 17.

أشركوا فعبدوا غير الله معه؛ فإنه تعالى (يُفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تُكِنُّ ضمائرهم 507.

قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} 508. من خير وشر وإيمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة المتصف بهما لأسبابهما فالآية رادة على المعتزلة ردا ظاهرا (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) يتولى التصرف فيه كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة، وكأن ذكر ذلك للدلالة على أنه سبحانه الغني المطلق وإن المنافع والمضار راجعة إلى العباد، ولك أن تقول: المعنى أنه تعالى حفيظ على كل شيء كما قيل نحو ذلك في قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} 509. وحاصله أنه تعالى يتولى حفظ كل شيء بعد خلقه فيكون إشارة إلى احتياج الأشياء إليه تعالى في بقائها كما أنها محتاجة إليه عز وجل في وجودها 510.

قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ). ولما كان الحبيب أسر شيء بما يريده حبيبه، قال مسليا له صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به وردهم لقوله، عاطفا على ما تقديره: فلو شاء الله ما خالفوك ولا تكلموا فيك بينت شفة: (ولو شاء الله ما أشركوا) أي ما وقع منهم إشراك أصلا، فقد أراد لك من الوقوع فيك ما أراد له لنفسه، فليكن لك في ذلك مسلاة. ولما كان التقدير: فإنه سبحانه حفيظ عليهم، عطف عليه قوله: (وما جعلناك) أي بعظمتنا،

⁵⁰⁷ تفسير ابن كثير، ج، 5، ص

⁵⁰⁸ الزمر 62.

⁵⁰⁹ الزمر 41.

⁵¹⁰ تفسير الألوسي، ج 18، ص 9

وأشار إلى أن العلو ليس بغير الله سبحانه فقال: (عليهم حفيظا) تحفظ أعمالهم لئلا يكون منها ما لا يرضينا فتردهم عنه قسرا (وما أنت) وقدم ما هو أعم من نفي التحقق بالعلو المحيط القاهر الذي هو خاص بالإله فقال: (عليهم بوكيل) فتأخذ الحقّ منهم قهرا، وتعاملهم بما يستحقّونه خيرا أو شرا، إنما أنت مبلغ عنا، ثم الأمر في هدايتهم وإصلاحهم إلينا هذا هو شأن الخلفاء مع مستخلفيهم بين الرفض والقبول مثلما حدث مع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم مكلفون بتوصيل ما أمروا به لمستخلفيهم دون كلل أو ملل؛ ليفوزا بالدرجات العلى في الدارين⁵¹¹.

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} 512. ولما كان ذلك ربّما أوهم أن لإبليس أمرا بنفسه، نفاه بقوله: (وما) أي والحال أنّه ما (كان) أصلا (له عليهم) أي الذين اتبعوه ولا غيرهم، وأعرق فيما هو الحقّ من النفي بقوله: (من سلطان) أي تسلط قاهر لشيء من الأشياء بوجه لأنه مثلهم في كونه عبدا عاجزا مقهورا، ذليلا خائفا مدحورا، قال القشيري: هو مسلط، ولو أمكنه أن يضل غيره أمكنه أن يمسك على الهداية نفسه (إلا) أي لكن نحن سلطناه عليهم بسلطاننا وملكناه قيادهم بقهرنا؛ وعبر عن التمييز الذي هو سبب العلم بالعلم فقال: (لنعلم) أي بما لنا من العظمة (من يؤمن بالآخرة) أي يوجد الإيمان لله ليتعلق علمنا بذلك في عالم الشهادة في حال تميزه تعلقا تقوم به الحجّة في مجاري عادات البشر كما كان متعلقا به في عالم الغيب (ممن هو منها في شك) من الآخرة، فهو لا يتجدد له بها إيمان أصلا، لأن الشك ظرف له محيط به، وإمّا استعار (إلا) موضع (لكن) إشارة إلى أنه مكنه تمكينا

⁵¹¹ نظم الدرر للبقاعي، ج 3، ص 109

⁵¹² سبأ 21.

تاما صار به كمن له سلطان حقيقي. ولما كان هذا ربّما أوقع في وهم نقصا في العلم أو في القدرة، قال مشيرا إلى أنه سبحانه يسره صلى الله عليه وسلم بتكثير هذا الفريق المخلص وجعل أكثره من أمته فقال: (وربّك على كل شيء حفيظ) أي المحسن إليك بإخزاء الشيطان بنبوّتك وإخسائه عن أمّتك ومن المكلفين وغيرهم حافظ أتم حفظ محيط به مدبر له على وجه العلو بعلمه الكامل وقدرته الشاملة، فلا يفعل الشيطان ولا غيره شيئا إلا بعلمه وإذنه وللخليفة أن يحذر أمته من كيد الشيطان ليفوز بهم إلى دار النجاة وذلك بأمرهم بالسلوك الحسن وتحذيرهم من مهاوي الردى بعدم أتباع خطوات الشيطان وإن عملوا بعدها فهو في حلّ ممّا يصنعون؛ لأنه عمل ما هو مناط به وواجب عليه 513.

قوله تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} 514. ولما كان ضبط ذلك أمرا عظيما، استأنف قوله بيانا لهوانه عليه: (أحصاه الله) أحاط به عددا كما وكيفما وزمانا ومكانا بما له من صفات الجلال والجمال. ولم يذكر إحصاءه له، فكان ربّما ظن أنه ممّا يمكن في العادة إحصاؤه، فنفي ذلك بقوله: (ونسوه) فكلهم مجتمعين لخروجه عن الحد في الكثرة فكيف بكل واحد على انفراده ونسوا ما فيه المعاصي تماونا بها. فالله بكل شيء من ذلك وغيره عليم، عطف عليه قوله: (والله على كل شيء) أي بما له من القدرة الشاملة المطلقة والعلم المحيط على الإطلاق (شاهد) حفيظ حاضر لا يغيب وهو الحفيظ المجيد، ورقيب بيده الأمر والفعل فهو الفعّال لما يُريد 515.

⁵¹³ نظم الدرر للبقاعي، ج 6، ص 492.

⁵¹⁴ المجادلة 6.

⁵¹⁵ نظم الدرر للبقاعي، ج 8، ص 405.

قال تعالى: { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا
الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ مِّمَّا قَدَّمْت
أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ } 516. (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا) تنويع للكلام وصرف له عن خطاب النَّاس بعد أمرهم بالاستجابة
وتوجيه له الى الرَّسول عليه السَّلام بمعنى إن لم يستجيبوا واعرضوا عما
تدعوهم إليه فما أرسلناك رقيباً ومحاسباً عليهم وحافظاً لأعمالهم، وفيه
تسلية لرسول الله صَلَّى اللهُ تَعَالَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إن عليك إلا البلاغ) ما
يجب عليك إلا تبليغ الرسالة وقد فعلت فلا يهتَمُّكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنَّ أَعْرَضُوا
عَنْ اللَّهِ بِالْإِقْبَالِ عَلَى الدَّارِ الدُّنْيَا وَلَمْ يَجِيبُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا
تَحْفَظُهُمْ لِأَنَّ الحَفِظَ مِنْ شَأْنِي لَا مِنْ شَأْنِكَ فَإِنِّي حَفِيظٌ فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا
تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ ثُمَّ نَحْنُ نَعْلَمُ بِمَا نَعَامِلُهُمْ بِالتَّوْفِيقِ أَوْ بِالْخِذْلَانِ.

وخليفة الله في الأرض هو الحفيظ من العباد وهو من يحفظ جوارحه
وقلبه ويحفظ دينه من سطوة الغضب وخطابة الشهوة وخداع النفس وغرور
الشیطان فإنه على شفا جرف هار وقد اكتنفته هذه المهلكات المفضية الى
النَّار. ولذا فليسارع العبد إلى دفع الموبقات وجلب المنجيات بإصلاح
النفس والتخلق بالأخلاق الإلهية حتى تكون نفسه مطمئنة، ليكون من
جنبه الطمأنينة والأمان، وتكون أعماله خيرة تُسهم في إصلاح الأرض
وإعمارها، ومن تكون نفسه غير مطمئنة يملأه الخوف بكفره أو شركه أو
فسقه أو انحرافه عن الحق. في الحديث قال: "أتدرون من المفلس، قالوا
المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال عليه السَّلام: المفلس من أمتي من
يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا واكل
مال هذا أو سفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته فان فنيت
حسناته قبل أن يقضى أخذ من خطاياهم وطرحت عليه ثم يطرح في

516 الشورى 48.

النار"517. وعليه فلا ينبغي للعاقل أن تكون نفسه ضالة بل عليه بالنفس المهتدية إلى سواء السبيل ليكون حالها مع المقبلين القابلين للبلاغ والإرشاد فالله تعالى يحفظهم ممّا يخافونه يوم المعاد. (وإننا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة) بمعنى نعمة من الصحة والغنى والأمن (فرح بها) بطر لأجلها.

أعلم أنّ نعمة الله وإن كانت في الدنيا عظيمة إلا أنّها بالنسبة إلى سعادات الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سمى الأنعام بها إذاقة. فغير المؤمن إذا حصل له هذا القدر الحقيّر في الدنيا فرح به ووقع في العجب والكبر وظن انه فاز بكلّ المنى ودخل في قصر السعادات ولذا ضعف اعتقاده في سعادات الآخرة وإلا لاختار الباقي على الفاني كما هو حال الخلفاء في الأرض المؤمنين بما أمر الله في الحياة الفانية بأنّها متاع الغرور، فالفاني عياره كالخزف مع أنّه قليل والباقي عياره كالذهب النقاء والصفاء وهو كثير518.

وعليه فحفظ الخليفة من أسمه الحفيظ: أن يتصف بهذه الصفة الحسنة في حفظ الحقّ وإتباعه، وأن يؤمن بالحفيظ المطلق الذي لا حافظ غيره من جهنم، ولا مدخل غيره للجنة، وأن يحفظ نفسه من الضلال والشرك والكفر والفسق، وأن يكون مصلحاً في الأرض وغير سافك دماء فيها بغير حقّ، وأن يتقي الله ربّه في نفسه وزوجه، ووالديه وأبنائه، وجيرانه، وفي ذوي الحقّ عليه.

لذا عليه أن يحفظ نفسه من أكل أموال الناس بالباطل، وأن يحفظها من شهادة الزور، وارتكاب الفتن ما ظهر منها وما بطن، وإذا حكم بين الناس أن يحكم بينهم بالعدل حتى يكون له مسلك صدق، وأن يجعل الدنيا تراباً بين يديه ولا يجعلها فتنة في قلبه، أو غاية نهائية في حياته،

⁵¹⁷ صحيح مسلم، ج، 1، ص 449.

⁵¹⁸ تفسير حقّي، ج، 13، ص 125.

وليعلم أنه وما يملك منتهون ولن يبقى إلا وجهه فليعبده حقّ عبادته ويتقيه في كل كبيرة وصغيرة وليعمل على آخرته حتى يفوز بالجنة ولا يكون في النار.

الحفيظ بالإضافة: هو الخليفة الذي يعلم الحقّ في والديه وزوجه ويتقيه، فيُقدّم لهم الرعاية والطاعة في غير معصيته، ويأدهم المودة والمحبة الخالصة التي بها يُصان العرض ويسلم الشرف من النقيصة المعيبة. ويكون حفيظا على أبنائه بالتربية الصالحة على الطاعة والشهادة بالله ربّا وبمحمد رسولا خاتما، وأن يعمل كل ما في وسعه من أجلّ أن ينقل أبنائه من الجهل إلى الهداية والعلم الذي يُمكنهم من المعرفة التامة حتى لا يجهلوا أمور دينهم ودنياهم. وهكذا يكون الخليفة حفيظا مع والديه وبذي القربى وجيرانه وأصحابه واليتامى والمساكين وأبناء السبيل مصداقا لقوله تعالى: {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذابا مهينا والذين يُنفقون أموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا} 519.

⁵¹⁹ النساء، 36 .38.

الكيد مفهومه وأنواعه:

سلكت البشرية مسلكا مغايرا لما اختطه الرّسل الكرام عليهم الصّلاة والسّلام في دعواتهم المنزلة من الله تعالى، فلم يكونوا على النسق الذي أراده الله تعالى لهم، بل ذهبوا إلى الخروج عن كلّ ما أراده خالقهم، فكانت البداية بالقتل، إذ يقول تعالى: {وَآتَاهُمْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَمَمْ يُتَقَبَّلُ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ} 520، بعد هذه البداية أصبح الإثم والعدوان بين بني البشر سمة من سماتهم، لكن ليس بمعنى الانتشار الواسع بينهم؛ إنّما قد دخل حقل المعيارية الخلقية التي يكتسب من خلالها الإنسان درجة الخير أو الشر، هذا التغيير المتحقّق واكمه دعوات مستمرة دأبت أن تصحح مسار هذه الخليقة وتعيدهم إلى هدى الله تعالى، فتوالت الدعوات، يقول تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُوهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} 521.

ومن بين الذنوب التي ارتكبتها بني البشر كان (الكيد)، يقول تعالى: {ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} 522، وقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} 523، أمّا كيد الكافرين "هو قصدهم الإضرار بالمسلمين في صورة ليست ظاهرها بمضرة، وذلك أن جيش

520 - المائة 27 - 30.

521 - المؤمنون 44.

522 - الأنفال 18.

523 - غافر 25.

المشركين الذين جاءوا لإنقاذ العير لما علموا بنجاة عيرهم، وظنوا خيبة المسلمين الذين خرجوا في طلبها، أبوا أن يرجعوا إلى مكة، وأقاموا على بدر لينحروا ويشربوا الخمر ويضربوا الدفوف فرحا وافتخارا بنجاة عيرهم، وليس ذلك لمجرد اللهو، ولكن ليتسامع العرب فيتساءلوا عن سبب ذلك فيخبروا بأنهم غلبوا المسلمين فيصرفهم ذلك عن إتباع الإسلام، فأراد الله توهينهم بهزمهم تلك الهزيمة الشنعاء فهو موهن كيدهم في الحال "524 هذه الواقعة أعطى للكيد صورة من صورة، فقد رسم الكافرون لما سيقع في المستقبل نتيجة فعلهم الذي فعلوه. لهذا نجد أن الكيد: هو أقوى من المكر، والشاهد أنه يتعدى

بنفسه والمكر بحرف والذي يتعدى بنفسه أقوى.

وقوله تعالى: { قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } 525، (فالتضمنه معنى فعل يتعدى به تأكيدا وهو (يحتال) أي فيحتال لإهلاكك حيلة ومكر الله: إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا، ولذلك، قال علي رضي الله عنه: "من وسع دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله" 526، كما أن الكيد هو "إرادة مضرّة الغير خفية، وهو الخلق: الحيلة السيئة، ومن الله: التدبير بالحقّ لمجازاة أعمال الخلق" 527

وللكيد أنواع بحسب ما ورد في القرآن الكريم منها:

524 - التحرير والتنوير، ج 6 ص 106.

525 - يوسف 5.

526 - كتاب الكلبيات، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، ج 1، ص 771.

527 - التعريفات للجرجاني، ج 1، ص 61.

1 . الكيد الإلهي: يقول تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤُودًا} 528، وقال تعالى: {وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ} 529.

2 . كيد الشيطان: يقول تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} 530

3 كيد الكفار: يقول تعالى: {إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} 531.

4 . كيد السحرة: يقول تعالى: {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} 532.

5 . كيد النساء: يقول تعالى: {قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 533.

الكيد بيوسف:

نشأ يوسف صلى الله عليه وسلم بين إخوته، فكانت حياته غير طبيعية، إذ اكتنفها الحسد، ذلك أن إخوته يتناهم دائما إحساس تجاه العلاقة ما بين يوسف وأبيه يعقوب عليهما الصلاة والسلام، هذه العلاقة

528 - الطارق 15 - 17.

529 - الأعراف 183.

530 - النساء 76.

531 - آل عمرا 120.

532 - طه 69.

533 - يوسف 33 - 34.

تدعوهم إلى تبني مواقف كيدية تحاول منحهم الفوز بالأب ضمن حالة دائمية لا انقطاع لها، إذ يقول تعالى: {إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} 534.

تعد قصة يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القصص القرآنية التي امتدحها الله تعالى بقوله: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ} 535، فهي قصة متكاملة الأحداث في سورة واحدة تعرض أحداثا مهمة تعرض لها نبي الله يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صغره إلى بلوغه أشد العمر وما بعده، بعض من هذه الأحداث ومن بينها كيد أخوان يوسف عند مقابلتها مع أي تشكيل أسري آخر وليس بني نجد أنها تتحقق، والتساؤلات التي تطرح هنا منها:

. كيف يصدر عن أبناء نبي مثل هذا الفعل؟

. أين هم من النبوة؟

. أين هم من أبيهم؟

. ألا يعرفون منزلة نسقهم النبوي؟

. ألا يعون نتاج فعلهم من الله تعالى وحتى من أبيهم؟

. ألا يكون هناك وازع يمنعهم من فعلتهم مع يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

وسلم؟

إنّ البداية لم تكن مبهمة، إنما كانت واضحة في ذهن يعقوب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان خطابه دائما يشير إلى المتوقع الحاصل في دائرة

534 - يوسف 8.

535 - يوسف 3.

الممكن وغير الممكن، إذ يقول تعالى: {قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ} 536، هذا الخطاب يدل على قراءته للواقع الأسري الذي يرى فيه انقساماً ما بين الأخوة ضمن نظرهم المتمثلة بأن كلهم ليس في منزلة واحدة أمام الأب، فالتفاوت الحاصل بحسب ما يعتقدون قائم، ولهذا كان هذا التصور حاضراً في إجابة يعقوب صلى الله عليه وسلم على رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم.

أما الرؤيا فكان فيها بداية قصة يوسف صلى الله عليه وسلم، وفيها نهايتها، فهي قصة دائرية، ففي بدايتها يقول تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} 537 وفي نهايتها {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} 538، فضلاً عن ذلك أن البناء العام للسورة بني على الرؤيا، وهذا كما نعتقد من حكمة الله تعالى وبيانه للناس جميعاً ففيه:

. أن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى.

. أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يوحى إليهم بما كان وبما سيكون ولا يكون ذلك إلا لهم ولمن يشاء الله تعالى أن يعلمه.

536 - يوسف 5.

537 - يوسف 4.

538 - يوسف 99، 100.

. أن الرؤيا جزء من الوحي.

. أن دعوة يوسف صلى الله عليه وسلم بُنيت على الرؤيا، فكانت هي البوابة التي ظهرت من خلالها النبوة وآمن بها الناس.

رأى يوسف صلى الله عليه وسلم في منامه رؤيا قصها على أبيه، إذ يقول تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ} 539، ذكر يوسف صلى الله عليه وسلم هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له فقال لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيدا.

تكمُن هنا عدة أمور كما نعتقد منها:

. أن أبناء يعقوب صلى الله عليه وسلم جميعا يفسرون أو يؤولون الرؤى، وهذا يوحي أنهم أهل علم وفكر.

. هنا بدأ الكيد بيوسف تظهر علاماته، مما حمل خطاب يعقوب صلى الله عليه وسلم سمة الخطاب المستقبلي المتوقع بالكيد، من ذلك يقول تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَدْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الدِّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ} 540.

وحين يُورد القرآن خطاب أب لابن لا نجد قوله (يا بُنَيَّ) وهو خطابُ تحنينٍ، ويدل على القرب من القلب، و"بني تصغير ابن".

539 - يوسف 4، 5.

540 - يوسف 11 - 13.

أما حين يأتي القرآن بحديث أب عن ابنه فهو يقول: "ابني" مثل قول الحق سبحانه عن نوح يتحدث عن ابنه الذي اختار الكفر على الإيمان: {إِنَّ ابْنَ مِنْ أَهْلِي} 541.

وقول يعقوب ليوسف: "يا بني" يُفهم منه أنّ يوسف صَلَّى اللهُ عليه وسلّم ما زال صغيراً، فيعقوب هو الأصل، ويوسف هو الفرع، والأصل دائماً يمتلئ بالحنان على الفرع، وفي نفس الوقت نجد أيّ أب يقول: مَنْ يَأْكُلْ لِقْمَتِي عَلَيْهِ أَنْ يَسْمَعَ كَلِمَتِي.

وقول الأب: يا بني، يفهم منه أنّ الابن ما زال صغيراً، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب، وما هو غير المناسب.

وحين يفزع يوسف ممّا يُزعجه أو يُسيء إليه؛ أو أي أمر مُعْضَل؛ فهو يلجأ إلى مَنْ يحبه؛ وهو الأب؛ لأنّ الأب هو - الأقدّر في نظر الابن - على مواجهة الأمور الصعبة.

وحين روى يوسف صَلَّى اللهُ عليه وسلّم الرؤيا لأبيه؛ قال يعقوب عليه السلام: {قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْضُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ} 542.

ونفهم من كلمة (رؤيا) أنّها (رؤيا) منامية؛ لأنّ الشمس والقمر والنجوم لا يسجدون لأحد.

ولا يقدح في كلمة (رؤيا) أنّها منامية، إلا آية واحدة في القرآن حيث تحدث الحق سبحانه عن لحظة أن عرّج به صَلَّى اللهُ عليه وسلّم؛ فقال: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ} 543.

541 - هود 45.

542 - يوسف 5.

543 - الإسراء 60.

ولكن من يقولون: (إنَّها رؤيا منامية) لم يفقهوا المعنى وراء هذا القول؛ فالمعنى هو: إنَّ ما حدث شيء عجيب لا يحدث إلا في الأحلام، ولكنه حدث في الواقع؛ بدليل أنه قال عنها: أنَّها "فتنة للناس".

فالرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم لو كان قد قال إنَّها رؤيا منامية لما كذَّبه أحد فيما قال: لكنه أعلن أنَّها رؤيا حقيقيَّة؛ لذلك عبَّر عنها القرآن بأنَّها فتنة للناس.

وهنا يقول يعقوب عليه السَّلام: { قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ } 544.

لأنَّ يعقوب صلَّى الله عليه وسلَّم كأب مأمونٍ على ابنه يوسف؛ أما إخوة يوسف فهم غير مأمونين عليه، وحين يقصُّ يوسف رؤياه على أبيه، فهو سينظر إلى الصالح ليوسف ويدلُّه عليه.

أما إن قصَّ الرؤيا على إخوته؛ فقد تجعلهم الأغيار البشرية يحسدون أخاهم، وقد كان.

وإن تساءل أحد: ولماذا يحسدونه على رؤيا منامية، رأى فيها الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا يسجدون له؟

نقول: لا بُدَّ أن يعقوب صلَّى الله عليه وسلَّم قد علِم تأويل الرؤيا: وأنَّها نبوءة لأحداث سوف تقع؛ ولا بُدَّ أن يعقوب صلَّى الله عليه وسلَّم قد علم أيضا قدرة إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا، ولو قالها يوسف لهم لفهموا المقصود منها، ولا بدَّ حينئذ أن يكيِّدوا له كيِّدا يُصيِّبه بمكروه.

فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً، فما باله بضيقهم إن عَلموا مثل هذه الرؤيا التي سيجد له فيها الأب والأم مع الإخوة.

ولا يعني ذلك أن نعتبر إخوة يوسف من الأشرار؛ فهم الأسباط؛ وما يصيبهم من ضيق بسبب غُلُو عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار التي تصيب البشر، فهم ليسوا أشرارا بالسَّليقة؛ لأن الشرير بالسَّليقة تتصاعد لديه حوادثُ السوء، أما الخَيْرُ فتتزلَّ عنده حوادثُ السوء.

والكيد: احتيال مستور لمن لا تقوى على مُجابهته، ولا يكيد إلا الضعيف؛ لأنَّ القوي يقدر على المواجهة.

ولذلك يُقال: إنَّ كيد النساء عظيم؛ لأنَّ ضعفهن أعظم.

ونلاحظ أنَّ الحقَّ سبحانه جاءَ بقول يعقوب صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم مخاطباً يوسف صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآية: (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا)، ولم يقل: فيكيدوك، وهذا من نَضْح نبوة يعقوب صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم على لسانه؛ لأنَّ هناك فارقا بين العبارتين، فقول: "يكيدوك" يعني أنَّ الشرَّ المستور الذي يدبرونه ضدك سوف يصيبك بأذى. أمَّا (فَيَكِيدُوا لَكَ) فتعني أنَّ كيدهم الذي أرادوا به إلحاق الشر بك سيكون لحسابك، ويأتي بالخير لك.

ولذلك نجد قوله الحقَّ في موقع آخر بنفس السورة (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) أي: كدنا لصالحه⁵⁴⁵.

إنَّ خطاب يعقوب ليوسف عليهما الصَّلَاة والسَّلَام لم يحمل التغيير في التعامل مع إخوانه ولم يطرح من خلاله إخفاء العداوة أو إظهارها رغم

⁵⁴⁵ - تفسير الشعراوي، ج 1 ص، 4363.

أن تبعات تأويل الرؤيا لا تشير إلى أي خير بل تشير إلى الكيد المتوقع من إخوته، فالدلالة السياقية تحيل إلى أن المتوقع لا يكون فيه خير ورغم ذلك لم يكن الكره أو الرد على ما هو متوقع حاضرا في خطاب يعقوب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كانت تباشير الخير تتراءى ليعقوب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضمن الرؤية المستقبلية التي منحها الله تعالى له، ذلك أن الأحداث القادمة ستمنح يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدرجات الرفيعة التي تجعل رؤياه تتحقق، فيسجد له إخوته بعد الكيد به.

اتفق الإخوة على التخلص من يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصورة يتغيب فيها نهائيا عن عين الأب المتعلق به، وليتحقق المطلوب ضمن سياقات تطرح بينهم.

كان الطرح بالقتل، هو الأوّل الذي طرح عند التفكير بالتخلص، إذ يقول تعالى: { أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ } 546، هذا الطرح لم يجد صدها عند الجميع فلم تحصل الموافقة رغم أن القتل ينهي الأمر، ولا يكن فيه استدراقات يكون من ورائها استعادة إلى المنزلة التي هو عليها، لكن مشيئة الله تعالى اقتضت أن يبقى يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيا ويكون هو الظاهر عليهم في الدنيا والآخرة.

إنّ كلامهم فيه فنّ من صناعة الخطابة أن يفتتح الخطيب كلامه بتهيئة نفوس السامعين لتتأثر بالعرض المطلوب. فإنّ حالة تأثر النفوس تغني عن الخطيب عناء جمل كثيرة من بيان العلل والفوائد، كما قال الحريري في المقامة الحادية عشرة «فلما دَفَنُوا المَيِّت، وفات قول ليت،

أشرف شيخٌ من ربّاوة، متأبّطاً لهماوة، فقال لمثل هذا فليعمل العاملون». واهلّ في الخطب.

والأمر مستعمل في الإرشاد. وأرادوا ارتكاب شيء يفرّق بين يوسف وأبيه عليهما السلام تفرقة لا يحاول من جزائها اقتراباً بأن يعدموه أو ينقلوه إلى أرض أخرى فيهلك أو يفترس.

وهذه آية من عبر الأخلاق السيئة وهي التخلّص من مزاحمة الفاضل بفضله لمن هو دونه فيه أو مساوية بإعدام صاحب الفضل وهي أكبر جريمة لاشتمالها على الحسد، والإضرار بالغير، وانتهاك ما أمر الله بحفظه، وهم قد كانوا أهل دين ومن بيت نبوءة وقد أصلح الله حالهم من بعد وأثنى عليهم وسمّاهم الأسباط 547.

الطرح الثاني: التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه، لكن هذا أيضاً لم يحقّق الاتفاق بينهم. إلا أن هناك رأي آخر وهو أن يلقوه في غيابة الجب وهذا الذي تحقّق، فكان الإلقاء في الجب، ويا سبحان الله أن كلمة (الإلقاء) كلّما وجدت في القرآن الكريم يكون بعدها لقاء حتمي، ففي قصّة يوسف صلّى الله عليه وسلّم ذكر الإلقاء في قوله تعالى: { قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } 548، ثم تحقّق بعد ذلك اللقاء بين يوسف وأبويه وإخوته، إذ يقول تعالى: { وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ

547 - التحرير والتنوير، ج 7، ص 237.

548 - يوسف 10.

الحكيم} 549، وكذلك مع موسى صلى الله عليه وسلم وأمه، يقول تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} 550.

سار الإخوة بيوسف صلى الله عليه وسلم ورؤوسهم يتملكها الكيد به، هذا الكيد الذي أصبح مثارا للتساؤلات المتعددة التي منها:

. كيف يفكرون بالتخلص من أخيهم؟

. ألم يكونوا أبناء نبي؟

. ألم يكن للوازع الديني دور في حياتهم؟

. ألم يكن للسلالة التي ينتمون إليها دور في كبح جماحهم؟

إنّ الكيد استشرى في نفوسهم وأصبح هدفهم المنشود، وكأن تحقّقه انفتاح لأسرار الحياة لهم، فهذا الجمع الذي يسرون فيه سيكون حسرة عليهم، جمع ألم يكن عند الكيد يمثل تلك الذرية التي قال عنها الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 551.

وصل الأخوة إلى المكان المتفق عليه، وبدأت نظراتهم ترنو يمينا وشمالا، وبينهم يوسف الصغير الذي ينظر إليهم نظرة المحب المخلص، فقد كان من المفترض أن يكونوا له سفينة نجاة يحملونه في كل الأوقات بسرّائها وضرائها.

549 - يوسف 100.

550 - القصص 7.

551 - آل عمران 33 - 34.

كانت بداية النهاية قد حسمت، وكشفوا عن سواعدهم، وحملوا يوسف ثم جعلوه في الجب، يقول تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} 552 سقط يوسف صلى الله عليه وسلم في هذه الظلمات، ظلمات لم يألفها من قبل وهو في هذا السن، فاليد التي ألقته كانت يد الإخوة التي لا خيار لها إلا التقاط الأخ من المحن والمصائب، وان قتل قابيل هايل، يقول تعالى: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 553.

لم ينادي يوسف صلى الله عليه وسلم لأحد إلا الله تعالى فهو نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي ابن رسول، وكلام أبيه يدور في خلدته فرؤياه حاضرة معه تعرض أمامه ويقابلها تأويل أبيه صلى الله عليه وسلم، ويا سبحان الله وكأن البيت يعقوبي كانت معجزته في التأويل فهي:

. معجزتهم.

. مدار علمهم.

. نجاحهم.

. قاعدة دعوتهم.

لم يسمع أصوات إخوته فقد تلاشوا في غياهب الماضي، فكان الانقطاع الذي أراده الله تبارك وتعالى.

مرت سيارة من القاصدين أرض مصر، فألقى أحدهم دلوه فتعلق يوسف صلى الله عليه وسلم به، فما أن وصل إلى وجه الأرض حتى

552 - يوسف 15

553 - المائدة 30.

تسمرت أقدام المنتظرين للدلو ن فلم يكن في الدلو ماء؛ إنما كان غلام ذو وجه جميل لم يألفوه من قبل، فتهللت البشرية على وجه الذي رفع الدلو فقال: (يا بشرى) وفي قراءة أخرى نجد فيها عمقا للمعنى (يا بشراي) دلالة على أنّ الغلام صيد ثمين يكمن من ورائه الرّيح المادي، وهذا ليس بالأمر العجيب فقد كانت تجارة الرقيق رائجة في ذلك الزّمن، إذ تدر أرباحا كبيرة.

عاد الأخوة إلى أبيهم يرفعون لواء الانتصار، ويضربون للكيد مثلا يذكر على مدار الزّمن، دخلوا وفي يدهم قميص عليه دم كذب، يقول تعالى: {وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} 554 إنّ المفارقة في هذا الأمر أنّ الأب أبلغهم ممّا يخاف على يوسف صلّى الله عليه وسلّم وهو أن يأكله الذئب، وهو أحد الأسباب الموجبة للخوف عند السير في الصحراء، وهم جاءوا بالسبب نفسه، فهذا إنما يكون:

. اعتقادهم أنّ الأبّ سيستقبل هذا السّبب في موت يوسف صلّى الله عليه وسلّم لأنّه كان يتخوف منه.

. إنّ إدراكهم العقلي لم يوصلهم إلى سبب مقنع يكون من ورائه موت يوسف عليه السّلام.

إنّ بكاء أخوة يوسف صلّى الله عليه وسلّم هو ثمرة الكيد الذي اقتطفوه جراء فعلهم، وان كان مصطنعا إلا انه يخفي وراءه كل:

. الاتفاقات الكيدية ضده عليه السّلام.

. النظرة المستقبلية التي يتوقعونها بعد خروجه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كنف يعقوب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي. وإنما اصطنعوا البكاء تمويهاً على أبيهم لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف عليه السلام، ولعلهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجه، وفي الناس عجائب من التمويه والكيد. ومن الناس من تتأثر أعصابهم بتخيل الشيء ومحاكاته فيعتريهم ما يعتري الناس بالحقيقة" 555.

إنّ السياق القرآني نقل إلينا كذب الإخوة على أبيهم فيما حدث مع يوسف فقال (أكله الذئب) ولم يقل أنّ الذئب افترسه، ذلك أنّ الافتراس يبقى شيئاً قليلاً أو حتى قطعة من جسد الذي وقع عليه الافتراس أو حتى الجسد كله، أما قوله: (أكله الذئب) فهذا يدلّ على أنّ الذئب قد أكل كلّ جسد يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يبق منه شيئاً، ولذلك جاءوا بالقميص وعليه دم كاذب كي يثبتوا أن يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكله الذئب.

إنّ يعقوب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلّ ما عرض عليه من أدلة مادية ووصف لما تعرض له يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحسب قول إخوته إلاّ أنّه قال: { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ } 556؛ فقد ملأه الحزن قلبه رغم أنّه يعلم من الله تعالى ما لا يعلمه غيره، وهذا يدخل أيضاً في النسق الأبوي الذي بدأ بأبي البشر آدم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وينتهي إلى حيث يريد الله تعالى أن ينتهي.

555 - التحرير والتنوير، ج 7، ص 245.

556 يوسف 18.

إنّ الكيد بيوسف صلّى الله عليه وسلّم من قبل إخوته كان فيه البداية لرسوخ قدمه في أرض مصر، التي سيكون فيها اللقاء والعودة والنهاية.

إن هذا الكيد شغل النَّاس واستدراكاتهم العقلية وحتى المعرفية، حتى القول بأنّه أصبح المثل الأعلى في الكيد لم يعد صحيحا، فكلّ العلوم الموجودة الآن ومن بينها السيكولوجيا والسيسيولوجيا تطرح مثل هذا الكيد على كلّ النسق البشري من بعد يوسف صلّى الله عليه وسلّم ومن قبله تجده متحقّقا عند كلّ الأمم رغم اختلاف:

. ثقافاتهما.

. دياناتهما.

. أيديولوجيتها.

إلا أنّ ما يمنح كيد أخوة يوسف صلّى الله عليه وسلّم هذا الإشهار والتكرار بين ألسن الخلق أنّهم أبناء نبي، ومن سلاله الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، فالتذرع بفعل ما فعله أخوة يوسف صلّى الله عليه وسلّم ليس له مكان في أصول ديننا الحنيف، فكيد إخوان يوسف صلّى الله عليه وسلّم هو مثل ضربته الله تعالى للناس:

. كي يعوا ما تعرض إليه يوسف صلّى الله عليه وسلّم من إخوته وهم أقرب النَّاس إليه.

. كيف كان مقابلة هذا الكيد من قبله عليه السّلام؟

إذ قال لهم، {قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ} 557. هذا هو الأدب العالي الذي تحلى به أنبياء الله تعالى،

فهم القدوة، بل هم الأسوة الحسنة التي أرادها الله تعالى للناس كافة،
فالتفكر بما فعلوه يجعل المرء يفكر جلياً في دعوتهم التي يكون من خلالها
الإصلاح الفعلي لبني البشر، فقصة يوسف صلى الله عليه وسلم طرحت
أمورا عدة منها:

. الكيد الذي تحقّق داخل أسرة واحدة، كيف كانت أسبابه ونتائجه.

. كيف تكون علاقة الرجل مع المرأة المحرمة؟

كيد امرأة العزيز بيوسف صلى الله عليه وسلم

انتقل يوسف صلى الله عليه وسلم إلى حياة جديدة، من حياة
البداءة إلى حياة الحاضرة، فقد تفتحت عيناه على قصر كبير جدرانته
وأرضه لم يألّفها من قبل، كان البناء يدلل على مكانة صاحبه، فصاحبه
هو عزيز مصر، وكانت امرأته تتبع يوسف صلى الله عليه وسلم بنظرات
حادة تفيض تعلقاً ورغبة فيه، إذ تربّى أمام عينيها، فأصبح شاباً يافعا فيه
كلّ مقومات الرجولة التي تريدها، هذه الإرادة لم يكن للمكانة الاجتماعية
والسياسية والاقتصادية دور في كبحها أو وقفها عند حد يكفل بقاء امرأة
العزيز بالمكان الذي يتحقّق فيه وجود يوسف صلى الله عليه وسلم معها
كما كان أوّل دخوله للبيت.

هيأت امرأة العزيز نفسها للقاء لم يكن كباقي اللقاءات، إذ سيكون
مرحلة جديدة من مراحل يوسف عليه السلام، وقاعدة تنطلق منها امرأة
العزيز للكيد بيوسف عليه السلام.

غَلَقَتِ الأبوابَ على يوسف عليه السَّلام، فأصبح يوسف صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مكان مغلق ليس فيه منفذ للخروج إلا رحمة الله تعالى، هذه الحركة هي حركة استباقية قبل أن تهم بالفعل الذي رسمت له زمنا طويلا، أين المفر؟ لم يكن لنبي الله إلا أن يفرّ بدينه ويبحث عن منفذ يخرج منه، كانت الأبواب مؤصدة، فما أن وصلت إليه مزقت امرأة العزيز قميصه من دبر، إلا أن هذه الحركة لم تفلح إذ فتح الباب فإذا الواقف بالباب ليس أي واحد من النَّاس إنما هو زوجها وبرهان ربّها، هذا الموقف لم يكن يدور في خلد امرأة العزيز أن يحدث، فبنت كيدها في هذا اللقاء، إذ أرادت أن تصحح صورتها أمام زوجها، فقالت في هذا الموقف، يقول تعالى: {وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} 558

أمّا نسوة المدينة فكان لهن حضور في هذا الموضوع، فقد انتشر الخبر بينهن، هذا الانتشار أصبح له هالة في ذلك المجتمع، كيف لامرأة العزيز أن تفعل هذا الفعل؟ عند سماعها هذا الخبر بادرت إلى إحضارهن، إذ يقول تعالى: {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} 559.

إنّ هذا اللقاء الذي عمدت حدوثه امرأة العزيز سيكون فيه كما نعتقد تبريرا لكلّ ما قامت به تجاه يوسف عليه السَّلام، فقد أرادت أن تذوب الملامة التي جرت على لسان هؤلاء النسوة كي تمنح نفسها العذر،

558 - يوسف 25.

559 - يوسف 30، 31.

وهذا كان موافقا لما كانت تبغيه، إذ يقول تعالى: {قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ} 560.

فكان من نتيجة كيد امرأة العزيز بيوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أُلقي في السَّجَن، فدخل مرحلة جديدة لم تكن ضمن توقعه لكنها كانت محبة إليه، إذ يقول تعالى: {قَالَ رَبِّ السَّجَنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 561. هذا الكلام مناجاة لربه الذي هو شاهدهم، فالظاهر أنه قال هذا القول في نفسه. ويحتمل أنه جهر به في ملئهن تأيسا لهن من أن يفعل ما تأمره به.

وفضَّل السَّجَن مع ما فيه من الألم والشدة وضيق النفس على ما يدعونه إليه من الاستمتاع بالمرأة الحسنة النفيسة على ما فيه من اللذة ولكن كرهه لفعل الحرام فضل عنده مقاساة السَّجَن. فلما علم أنه لا محيص من أحد الأمرين صار السَّجَن محبوبا إليه باعتبار أنه يخلصه من الوقوع في الحرام؛ فهي محبة ناشئة عن ملاءمة الفكر، كمحبة الشجاع الحرب.

فالإخبار بأنَّ السَّجَنَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الاستمتاع بالمرأة مستعمل في إنشاء الرضى بالسَّجَن في مرضاة الله تعالى والتباعد عن محارمه، إذ لا فائدة في إخبار من يعلم ما في نفسه فاسم التفضيل على حقيقته ولا داعي إلى تأويله بمسلوب المفاضلة.

560 - يوسف 32.

561 - يوسف 33، 34.

وعبر عما عرضته المرأة بالموصولية لما في الصلة من الإيماء إلى كون المطلوب حالة هي مظنة الطواعية، لأنّ تمالئ الناس على طلب الشيء من شأنه أن يوطن نفس المطلوب للفعل، فأظهر أن تمالئهن على طلبهن منه امتثال أمر المرأة لم يُقلّ من صارم عزمه على الممانعة، وجعل ذلك تمهيدا لسؤال العصمة من الوقوع في شرك كيدهن، فانتقل من ذكر الرضى بوعيدها إلى سؤال العصمة من كيدها.

وأسند فعل (يدعونني) إلى نون النسوة، فالواو الذي فيه هو حرف أصلي وليست واو الجماعة، والنون ليست نون رفع لأنّه مبني لاتصاله بنون النسوة، ووزنه يَفْعُلْنَ. وأسند الفعل إلى ضمير جمع النساء مع أنّ التي دعت امرأة واحدة، إمّا لأنّ تلك الدعوة من رغبات صنف النساء فيكون على وزن جمع الضمير في (كيدهن)، وإمّا لأنّ النسوة اللاتي جمعتن امرأة العزيز لما سمعن كلامها تمالآن على لوم يوسف صلى الله عليه وسلّم وتحريضه على إجابة الداعية، وتحذيره من وعيدها بالسجن. وعلى وزن هذا يكون القول في جمع الضمير في (كيدهن) أي كيد صنف النساء، مثل قول العزيز: (إنّ كيدكّنّ عظيم)، أي كيد هؤلاء النسوة.

وجملة (وإلاّ تصرف عني كيدهن) خبر مستعمل في التخوّف والتوقع التجاء إلى الله وملازمة للأدب نحو ربّه بالتبرؤ من الحول والقوّة والخشية من تقلب القلب ومن الفتنة بالميل إلى اللذة الحرام. فالخبر مستعمل في الدعاء، ولذلك فرع عنه ج ملة (فاستجاب له ربّه) فخلصه الله تعالى من كيدهن.

562.

يوسف وعزيز مصر:

قال تعالى: { وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 563.

فقوله تعالى: (وقال الذي اشتراه من مصر) دليل على أن يوسف صَلَّى الله عليه وسلّم قد وصل إلى مصر البلد المعروف، بدليل منع (مصر) من الصرف للعلمية، وأينما وردت (مصر) ممنوعة من الصرف فتدل على البلد المعروف، وأما إذا كانت مصروفة منونة فإنها تدل على مصر من الأمصار كقوله تعالى: { اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ } 564.

إنّ بداية الآية لم توضح هوية المصري الذي اشترى يوسف أو مكانته الاجتماعية، ولكن الواضح أن هناك آخرين من غير مصر حاول شراءه، أو أن هناك أناس آخرين من غير مصر كانوا من الموجودين لحظة البيع، وخاصة أن المكان هو سوق لبيع العبيد، وهي تجارة معروفة رائجة عصرئذٍ، يتعاطاها المصريون وغيرهم من الأمم، ولما كان سوق العبيد فيه تجار من أمم وجنسيات مختلفة، كان تحديد المشتري ليوسف صَلَّى الله عليه وسلّم بهوية الانتماء للبلد، فكانت أول علاقة ليوسف مع المصريين هي علاقة استرقاق، غير أن الذي اشتراه لم يكن ليتخذه عبدا له، لأنه أوصى به امرأته حيث قال لها (أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا).

فقوله: أكرمى مثواه دليل على أنه وقع من قلبه موقعا عظيما، لأنّ إكرام المثوى أعظم من إكرام الذات، فإكرام الذات خاص لا يشمل إكرام المثوى، بينما إكرام المثوى عام يشمل إكرام المثوى ومن فيه دليلا على

563 - يوسف 21.

564 - البقرة 61.

التعظيم، لأننا عندما نقول السّلام على المجلس، فإن المجلس استحقّ السّلام كرامة لمن جلس فيه، ولذا فقد نال المثوى الإكرام لما وقع من هيئة يوسف صلّى الله عليه وسلّم في قلب من اشتراه فقال لامرأته أكرمي مثواه، ولم يقل أكرميّه تهيّبا له، حيث توسّم فيه الخير واليُمن والبركات، فكان التعبير من العمق بحيث لم يجعل الإكرام لشخصه فحسب، ولكن لمكانة يوسف ومكان إقامته فقد أكرمه في نفسه قبل المكان، وكأن الإكرام انبثق من يوسف ليضيفه على مكان الإقامة، وهي مبالغة في الإكرام، ولما توسّم فيه هذه السجايا والخصال، فقد أوصى به امرأته خيرا.

إنّ الذي اشتراه من مصر يكشف لامرأته عمّا يتوسّمه في هذا الغلام من خير، وما يتطلع إليه فيه من أمل: (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا).

وربّما لم يكن لهما أولاد، الأمر الذي زاد من محبة يوسف في قلبه، ومن ثم يأمل أن يتخذه ولدا لهما إذا صدقت فراسته فيه، وتحققت مخايل النجاة التي توسّمها عندما اشترى هذا الغلام. وهذا أول تمكين له في الأرض منذ طفولته صلّى الله عليه وسلّم.

لذا، وجب العودة قليلا إلى أمر إخوته عندما أجمعوا أمرهم وألقوه في غيابة الجب، بأن هذا الإلقاء كان أول أسباب التمكين ليوسف صلّى الله عليه وسلّم، وعليه فإنّ ابتلاءات الآن بياء عليهم الصّلاة والسّلام مرتبطة أسبابها بنتائج في علم الله تعالى لما سيكون، ولهذا، السبب لم تستطد الآية في ذكر ما حدث ليوسف قبل أن تردّ الأسباب إلى مسببها بما قضى فيها من مشيئته، حيث وقف سياق الآية مضرّبًا عن التواصل في سرد الحدث، ليستدرك التنبيه على التدبير الذي تكمن فيه غاية الابتلاء.

بهذا الأمر قدّر الله تعالى ليوسف التمكين في الأرض، حيث بدأت بشائره بالتمكين من قلب الرجل الذي اشتراه ومن بيته وأهله، وهي بداية

الإشارات التي أوردتها الآية الكريمة في التأكيد على تحقيق أمر الرؤيا عندما ذكر الله تعالى أنه يعلمه من تأويل الأحاديث: { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 565.

ثمَّ أنّ الله تعالى أخبر بقوله (وكذلك) أي بهذه الأسباب من الابتلاءات:

. في إلقائه بالجلب .

. عبوديته بعد أن كان حرّاً .

. انتزاعه من طفولته .

. غربته بعد أن كان آمنا بين أبويه .

هذه الأسباب كانت الطريق الآمن للتمكين في الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث من تعبير الرؤيا، ومعرفة حقائق الأمور، فالله تعالى غالب على كلّ أمر يريد، غير أن أكثر الناس لا يعلمون خفايا حكمته ولطائف تدبيره. ذلك أن ما حدث ليوسف من إخوته، وما فعله الذين أخذوه حرا وباعوه عبدا، ثم ما وقع له من امرأة العزيز فيما بعد ودخوله السجن، كلّ ذلك كان من الأسباب التي أراد الله تعالى بها التمكين ليوسف في الأرض.

وإكرام المثوى أيضا، هو إعداد المكان الذي سيقوم فيه يوسف صلّى الله عليه وسلّم من مسكن ومخدع وملبس ومأكل ومشرب وما إلى ذلك من متطلبات السكن والإقامة، كي يكون لائقا به على الأمل المرجو منه: (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا). فقد يكون ذا نفع لهم في المستقبل، أو أن يكون لهم الابن الذي لم يرزقا به على ما نعتقد.

565 يوسف 21.

وهذا النفع المرجو منه، موصول بعاطفة كون الرجل الذي اشتراه، خيرّ امرأته في نفعه أو اتخاذه ولداً، ومن هنا يخرج نفع يوسف للذي اشتراه عن النفع المجرد الذي ينصبّ على الخدمة وقضاء حاجات البيت وأهله، إلى نفع يشيع حاجة العاطفة من الأبوة والأمومة، لأنّه عندما ينشأ يوسف صلّى الله عليه وسلّم في هذا البيت كابن للرجلّ وامرأته، وطفل تربيّ في بيتهما، فإن المسألة ستتعدى قضية النفع بالخدمة المترتبة على الأجير أو العبد.

هنا ستختلف المسألة؛ ويكون هذا النفع يحمل بين طياته عاطفة الأبوة والأمومة التي قال عنها من اشتراه بقوله: (أو نتخذه ولداً).

وبالعقل بديهية نعلم أن يوسف صلّى الله عليه وسلّم سيقوم في بيت هذا الرجلّ مع امرأته التي وقع عليها إكرام المثوى، وبالتالي سيكون بمثابة الابن لها.

لقد هياً الله تعالى ليوسف صلّى الله عليه وسلّم هذه العناية وهذا الاهتمام في البيت الذي سيأويه، ووجد فيه الحنان والعطف الذي حرم منه زمننا منذ أن فقد حنان الأمومة وعطف الأبوة بسبب كيد إخوته، فلا بدّ أنه تعلق بهما وجعلهما مثل أمه التي فقد حنانها وأبيه الذي فقد عطفه.

فأصبح يوسف صلّى الله عليه وسلّم متمكناً في بلاط عزيز مصر بما تمكّن حبّ يوسف من قلب الرجلّ بما مكنه به الله تعالى، وكذلك أصبح يوسف بالنسبة لامرأة العزيز.

هذه أسس بداية التمكين ليوسف صلّى الله عليه وسلّم في أرض مصر.

لأنّ الله تعالى قال: (وكذلك مكنا ليوسف) فإنّه أمر واقع لا محالة، وإن كان ستحدث في المستقبل أمور يبدو ظاهرها على نقيض ما تحمل

خفاياها، غير أن الأمور بعواقبها ونتائجها، وأن هذه الأمور الظاهرة هي إرهاصات تخفي وراءها التمكين الأكبر من وصول يوسف إلى أعلى مراتب الحكم على الرغم مما عرض له من المواقف فيما بعد.

فبعد أن مكّن الله تعالى ليوسف من قلب العزيز وبيته وأهله، جعل هذه المتهيات استعدادا لقبول تأويل الأحاديث وتعبير الرؤيا. وتعبير الرؤيا نعمة اختص بها الله تعالى آل يعقوب.

إنّ الآية الكريمة في قوله تعالى: { قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } 566. تدل على أنّ الله تعالى اختص نبيه يعقوب صلّى الله عليه وسلّم بتعبير الرؤيا، وأنّ أبناءه شاركوه فيها ثم ورثوا ذلك عنه.

فقول يعقوب صلّى الله عليه وسلّم ليوسف (يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا). دليل على:

. أنّ يعقوب صلّى الله عليه وسلّم يعرف تعبیر الرؤيا.

. أنّ أبناءه غير يوسف يعرفون تعبیر الرؤيا.

. أنّ يوسف طلب تأكيد تعبیر الرؤيا، وذلك لأسباب منها:

أولاً: صغر سنّه.

ثانياً: تجنب كيد إخوته.

ثالثاً: طلب مشورة إمامه يعقوب.

وهذا يدلّ على أنّ أبناء يعقوب كانوا يعرفون تعبير الرؤيا أيضا، غير أنّ يوسف صلّى الله عليه وسلّم يختلف عن إخوته في أن الله أورثه النبوة عن أبيه.

وهكذا، يستدل من يقول: أن يوسف صلّى الله عليه وسلّم كان يعرف تعبير الرؤيا قبل نزوله مصر بأدلتهم التي استشهدوا بها ومنها:

. أنّ اختلاف اللغة لسان يوسف عن لسانهم لا يمكنه من تعلّم تعبير الرؤيا.

. أنّه لو تعلم ذلك في مصر، لما احتاج الملك ليوسف كي يعبر له رؤياه.

وإضافة إلى ذلك:

. المعلم هو الله تعالى.

. تعليم الله تعالى لعبده يتجاوز اللغة وغير اللغة.

وأما مسألة اختلاف اللغة وإن كنا لا نعتبره سببا مانعا، فإنّ بين دخول يوسف مصر، وبين رؤيا الملك سنوات طوال، لأنّه عندما دخل السّجن بسبب (الهمّ) لولا أن رأى برهان ربّه، فلا بدّ أنّه قد بلغ مبلغ الرجال، حيث أنه دخل السّجن ومعه الفتيان، وبعد خروجهما لبث هو في السّجن بضع سنين، والبضع ما بين الثلاث إلى التسع، إلى أن أرسل الملك في طلبه من أجلّ تعبير رؤياه، وعلى هذا فإنه لا بدّ أنه تجاوز العشرين سنة من العمر على الأقل، وهو ما يكفي لامتلاك لغات كثيرة إذا كانت اللغة مانعة من التعلّم.

والذي يقول بذلك: فإننا نتساءل: بأي لغة رأى برهان ربّه؟

وعليه: فإنّ القول الفصل في هذا أن تعليم الله تعالى لأيّ عبد من عباده، في أي علم يريد أن يعلمه منه، لا يتوقف على لغة أو لسان.

ولكن الذي نقوله: أنّ يوسف صلّى الله عليه وسلّم لم يتعلم تعبير الرؤيا بلغة معينة، وإنما تعلمه بالمنطق الذي أعلمه الله إياه، وأمّا فهم معاني رؤيا الملك من اللغة الفرعونية والتعبير عنها، وهو مغاير للغة يوسف، فإنّ تلك السنوات كانت كفيلة بأن يمتلك فيها لسان أهل مصر كما قال لصاحبي السجن: { قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } 567.

إذن، هذا النوع من العلم الذي امتلكه يوسف صلّى الله عليه وسلّم من تعبير الرؤيا:

. لم يكن من علم أهل مصر.

. تعبير الرؤيا من خصائص النبوة.

. الله تعالى هو الذي يعلم الآن بيباء.

. ذلك ممّا علّمه ربّه.

. الأنبياء يعلمون هذا العلم للناس.

. تعليم الله تعالى لأنبيائه لا يحتاج إلى لغة.

. من يتعلم ذلك على الآن بيباء من البشر يحتاج إلى اللغة.

إن يوسف صلّى الله عليه وسلّم كان أهلاً للمعروف الذي لقيه من عزيز مصر، فحفظ ذلك له وصانه، عندما راودته التي هو في بيتها عن

نفسه وغلقت الأبواب، ثم طالبت برفق ولين في خداع يستر ما تريده منه، في أسلوب أقرب إلى الخديعة كي يتحرر مما هو مسعصم به.

ولذا، لجأ إلى تذكيرها بالعلاقة التي تربطه بسيدها وبما له من الفضل عليه وعليها، فقال صلى الله عليه وسلم (إنه ربي أحسن مثواي).

والرب لها معان في هذا المجال، حيث جاء في لسان العرب: "ورب كل شيء مالكة ومستحقه وقيل صاحبه ويقال فلان رب هذا الشيء أي ملكه له وكل من ملك شيئاً فهو ربه يقال هو رب الدابة ورب الدار وفلان رب البيت وهن ربّات المجال" 568

ولذا، قال يوسف صلى الله عليه وسلم للذي عبر له رؤياه في السجن: { وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } 569.

والرب هنا، هو الذي اشتراه من مصر ودليل ذلك، قول يوسف صلى الله عليه وسلم: إنه ربي أحسن مثواي، تذكيراً للمرادة عندما قال لها زوجها (أكرمي مثواه) ولا بد أنها فعلت، إلا أن يوسف صلى الله عليه وسلم نسب الفعل للأمر به، وليس لمن صدر عنه الفعل، كما يقولون إن الملك قتل فلاناً، وحقبة الأمر أن الملك لا يقتل، ولكن يأمر بالقتل، أو الإكرام أو الجائزة فينسب الفعل إليه كونه صدر عنه أمر القتل أو الإكرام أو العفو.

ثم إن قوله: إن ربي أكرم مثواي، هو دليل على الاعتراف بالفضل، والعلاقة الطيبة التي لاقاها يوسف من العزيز، ولذا كان موقف يوسف من المرأة، إنما هو تجسيد لفراصة العزيز، وكأنه أراد أن يقول لها لا تأملين مني أن أجد فضله أو أكفر نعمته أو أخون عهده وهو الذي رباني، وعهد

568 - لسان العرب، ج 1، ص 399.

569 - يوسف 42.

بي إليك، وأكرمني وأحسن وفادتي وتربيتي، وهو الذي قال لك: (أكرمي مشواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) فكيف تطلين مني أن أخونه.

إِنَّ يَوْسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخْلِصٌ لِلَّهِ تَعَالَى: {إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ} 570.

ويحتمل أيضا أن يكون الرب هنا بمعنى (الله).

إِنَّ يَوْسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى النَّاسِ بِحِفْظِ الْعَهْدِ وَصُونَ الْأَمَانَةِ، وَعَزِيزٌ مِصْرَ يَعْرِفُ مِنْهُ أَخْلَاقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَحَيَاءَهُ، بَحْثٌ لَمْ يَرَاوِدْهُ شَكٌّ فِي أَنَّ الْقَضِيَّةَ بِرِمْتِهَا مِنْ فِعْلِ امْرَأَتِهِ فِي اتِّهَامِهِ بِالتَّعْدِي عَلَيْهَا وَرَمِيهِ بِالْفَحْشَاءِ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الدَّلِيلِ الْأَوَّلِ الَّذِي سَاقَهُ لَهَا مِنْ خِلَالِ مَشَاهِدَتِهِ لَوَاقِعِ أَدْلَةِ الْحَدِثِ عِنْدَمَا شَهِدَ شَاهِدًا مِنْ أَهْلِهَا فَقَالَ: {إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقْتُ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتُ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ} 571.

لقد حاولت المرأة أمام سيدها أن تتهم يوسف، ولذا قال هي راودتني عن نفسي وحاولت أن تخدعني، وفي هذا الخصام والجدل، يبدو أنه تنبه أحد عقلاء القوم إلى أدلة الإثبات والنفي وهو من أهلها فقال: إن كان قميصه شق من الأمام، فقد صدقت فيما تقول وتدعي، وهو من الكاذبين فيما أخبر به، وإن كان قميصه شق من خلف، فقد كذبت في قولها وما هو إلا ادعاء وافتراء، وهو من الصادقين فيما أخبرنا به.

فكان هذا الرأي دليل إقناع للعزيز بما كان توسم في يوسف من الخير والأمانة بحيث تحققت فراسته فيه، فعلم براءة يوسف ومكر زوجته

570 - يوسف 24.

571 - يوسف 26، 27.

وكيدها، قال تعالى: {فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} 572.

فلما رأى العزيز أن قميص يوسف قُدَّ من الخلف، أدرك هذه الفرية والمكيذة الماكرة فقال لزوجته: إن اتهامك له بما وقعت أنت فيه مع براءته، هو من كيدكن، فلم يقل إنه من كيدك أنت، وإنما ج مل معشر النساء لخبرته ومعرفته بهنّ، وهذا لا يعني أنّ جميع النساء صاحبات مكر وكيد، وإنما هو في النساء أعظم منه في الرجال وأعظم منه في الشياطين أيضا، وذلك لقوله تعالى: (إن كيد الشيطان كان ضعيفا). وعلى هذا فالمرأة أظم كيدا من الشيطان.

ثم يأتي تأكيد براءة يوسف صلى الله عليه وسلم على لسان العزيز نابعا عن قناعة بالبراءة التامة بقوله: {يُوسُفُ أَعْرَضُ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} 573.

لقد طلب من يوسف صلى الله عليه وسلم أن يعرض عن هذا الأمر ولا يذكره لأحد، بل يجعله في طي السر والكتمان، وأما امرأته فقال لها: (واستغفري لذنبك) لأنك كنت من الآثمين لأنك:

. تعمدت الخطأ.

. هممت بيوسف.

. جنيت ذنبا.

. رميت بريئا.

572 - يوسف 28.

573 - يوسف 29.

لقد ظهر للملأ براءة يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تلك التهمة التي افترت عليه بها امرأة العزيز لذلك لم يزد أن قال له: {يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا} فلا تذكره ولا تتحدث عن هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها وتصبح حديث الناس فيحصل العار العظيم بسببها، فقد أمره بكتمان هذا السر، وأما قوله: (واستغفري لذنبك) فهو دليل من جانبين على الواقعة:

الأول: أنه وقف على حقيقة الأمر من أن امرأته افترت على يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: إثبات البراءة ليوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما زُمي به.

ثمَّ قوله: (إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ) وما قال أخطأت، يدل على أنه ربّما يعلم منها أمثال ما أقدمت عليه، لأنّ قولنا لشخص، أنت منهم أو أنت من بني فلان، فهو ينتسب إليهم إمّا في الذات وإمّا في الموضوع، وعلى هذا يكون معنى قوله أنت من هؤلاء الخاطئين الذين لا تنفك الخطيئة عنهم، وهذا أحد الوجوه التي تدل على أنّ العزيز عرف منذ بداية الأمر أن الذنب للمرأة لا ليوسف، لأنه كان يعرف عنها إقدامها على ما لا ينبغي الإقدام عليه.

ومع كلّ ما جرى من عظم هذه القضية، وما له من صلة بأمس شيء في كرامة الإنسان من العرض والشرف، لم تتأثر علاقة يوسف بالعزيز، وما زاد العزيز على طلبه من يوسف إلا أن يكتّم ما جرى.

إنّ علاقة يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعزيز مصر كانت قائمة على الفطرة الإنسانية السليمة بدايةً لأنه وجد عنده ما افتقده من حنان الأمومة وعطف الأبوة وإكرام المثوى على الرغم من أنه اشتراه لنفسه، ولكنّه لم يكن عبداً أو خادماً من جملة الخدم، وإنما ليكون ولداً له يرجو منه نفع الولد للوالد وما يترتب على هذه العلاقة من:

. العاطفة.

. الاحترام.

. التقدير.

. الاعتراف.

. الحقوق.

. الواجبات.

فهذا من جانب الفطرة السليمة في الجانب الإنساني، ولا شك أن يوسف صلى الله عليه وسلم هو نبي مجتبي من الله تعالى، فما ينبغي له إلا أن يكون على هذه الفطرة السليمة حتى قبل أن يبعثه الله نبيا أو يوحي إليه بالرسالة، ثم إن الله قد عصم الآن بياء جميعا من:

. الوقوع في الخطيئة.

. أو الاقتراب منها.

. أو التفكير بها.

إنّ الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام قبل أن يبعثهم الله تعالى أو قبل أن يوحي إليهم فإنّ جلّ تفكيرهم في عظمة الله سبحانه وتعالى وقدرته أو البحث عن واجد الوجود وصولا إلى الحقيقة، وذلك بما اصطفاهم الله سبحانه وتعالى وأخلصهم لنفسه لما يكلفهم به من تبليغ البشر بالرسالة، وهكذا كان حال إبراهيم ومحمد عليهم الصلّاة والسّلام قبل البعثة، وهكذا حال جميع الآن بياء عليهم الصلّاة والسّلام أجمعين، لأنهم لم يخلقوا للدنيا، فإن كان هذا الأمر هو حال يوسف صلى الله عليه وسلم قبل بعثته، فكان من باب أولى أن يكون هكذا بعد بعثته، حتى لا يقول قائل أن هذه

القضية حدثت قبل التكلّيف أو بعده فيجعل ثغرة للدخول في متاهات الشكّ والريب.

إنّ الإنسان السوي العاقل بفطرته السليمة، يأخذ الأشياء بحلالها وليس بجرامها مهما كانت المغريات، فكيف الحال إذا كان هذا الإنسان نبيا يحمل رسالة من الله.

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل الآن بياء والمرسلين قدوة للناس وأسوة حسنة للبشر في:

. الأقوال.

. الأفعال.

. الأعمال.

. التصرف.

. السلوك.

ليقتدي بهم النَّاس، فإن كان يوسف صلّى الله عليه وسلّم قد حدثته نفسه بفعل الفاحشة وخيانة من أحسن إليه وهذا ما لا نذهب إليه، فإنّ ذلك يكون دليلا لكلّ إنسان ضعيف الإيمان تحدّثه نفسه بالفاحشة ويدعن لها، ثم يجعل لنفسه حجة بأن الله لم يريه دليلا أو برهانا للكف أو الابتعاد عنها، كما أرى يوسف صلّى الله عليه وسلّم برهان ربّه فامتنع عن فعل الفاحشة لما بدا له ذلك البرهان.

ولذا: نقول: إنّ يوسف صلّى الله عليه وسلّم لم تحدّثه نفسه بالفاحشة أصلا كي يحتاج إلى برهان مانع، لأن في الكلام حذف وتقديم وتأخير، حيث أن الكلام: ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها،

فكان البرهان سابقا على الهمّ المفترض الذي لم يصل إليه يوسف صلّى الله عليه وسلّم.

الزّوج والمرأة:

لقد خطر لنا خاطر في بحثنا في قصّة يوسف صلّى الله عليه وسلّم، لاسيما عندما ذكرت الآيات الكريمة المرأة التي راودت يوسف عن نفسه، حيث ذكرت أنّها امرأة العزيز، ولم يأت على ذكر الزوج في هذا الجانب على الإطلاق، الأمر الذي دفعنا للبحث عن الفرق بين الزوج والمرأة في هذا المجال.

الزّوج:

لقد جاء عند الراغب الأصفهاني رحمه الله في مفردات ألفاظ القرآن عند بيان معنى الزوج أنّه ذكر:

"يقال لكلّ واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوج، ولكلّ قرينين فيها وفي غيرها زوج، كالحف والنعل، ولكلّ ما يقتن بأخر ماثلا له أو مضادا: زوج، قال تعالى: {فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ الْأُنثَى} 574 وجمع الزوج أزواج

وقوله: {هُم وَأَزْوَاجُهُمْ} 575، و{احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} 576، أي: أقرانهم المقتدين بهم في أفعالهم.

وقوله: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ} 577، أي: أشباها وأقرانا.

574 - القيامة 39.

575 - يس 56.

576 - الصافات 22.

577 - طه 131.

وقوله: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا} 578 وقوله: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} 579 فتنبيهه على أن الأشياء كلها مركبة من جوهر وعرض، ومادة وصورة، وأن لا شيء يتعرى من تركيب يقتضي كونه مخلوقا، وأنه لا بد له من خالق تنبئها على أن الله تعالى هو الفرد الصمد.

وقوله: {خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} 580 فبيّن أن كل ما في العالم زوج من حيث إن له ضدا، أو مثلا ما، أو تركيبا ما، بل لا ينفك بوجه من تركيب، وإنما ذكر هنا زوجين تنبئها على أن الشيء:

. وإن لم يكن له ضد، ولا مثل فإنه لا ينفك من تركيب جوهر وعرض، وذلك زوجان.

وقوله: {أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى} 581، أي: أنواعا متشابهة، وكذلك قوله: {مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} 582، و{ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} 583 أي: أصناف.

وقوله: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً} 584 أي: قرناء ثلاثا.

وقوله: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} 585 فقد قيل: معناه قرن كل شبيعة بمن شايعهم في الجنة والنار، ونحو: {احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} 586.

578 - يس 36.

579 - الذاريات 49.

580 - الذاريات 49.

581 - طه 53.

582 - لقمان 10.

583 - الأنعام 143.

584 - الواقعة 7.

585 - التكويد 7.

وقوله: {وَزَوْجَانَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ} 587 أي: قرناهم بهن، ولم يجيء في القرآن زوجناهم حورا، كما يقال زوجته امرأة، تنبيهها أن ذلك لا يكون على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة"588

فقوله تعالى: (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) بين أن كل ما في الكون زوج من حيث أن له ضد، أو مثل ما، أو تركيب ما، بل لا ينفك بوجه من تركيب، وإنما ذكر هنا زوجين تنبيهاً أن الشيء - وإن لم يكن له ضد ولا مثل - فإنه لا ينفك من تركيب جوهر وعرض، أو روح ومادة، أو نفس وبدن، وذلك زوجان.

ومن هنا يمكن القول أن معنى الزوج في القرآن الكريم يشمل:

1. الذكر والأنثى في الكائنات الحية.
2. القرينين كالحف والنعال وما إلى ذلك.
3. لكل من يقترن بآخر ماثلا له أو مضادا.
4. الأشياء مكونة من جوهر وعرض ومادة وصورة.
5. كل شيء مخلوق ومصنوع.
6. الضد، المثل، والتركيب أزواجا.
7. الأنواع المتشابهة أزواجا.
8. الأصناف المتعددة أزواجا.
9. قرناء المكان والزمان أزواجا.

586 - الصافات 22.

587 - الدخان 45.

588 - مفردات ألفاظ القرآن، ج 1، ص 440.

فإذا اقتصر الزوجان على الذكر والأنثى فقط، فهو قصور في فهم المعنى المراد غير الحقيقي، لأن حقيقة الزوجية لا تقتصر على أنّ الأزواج هي الذكر والأنثى والزوج والزوجة فقط.

وبالنسبة لعالم النبات، فإنه أزواج من ذكر وأنثى، وأصناف، وأنواع، وقرناء في المكان الواحد، وبها المضادات؛ فالنبات أزواج، والكائنات الحية أزواج، وكلّ المخلوقات مكونة من جوهر وعرض، وجميع هذه الكائنات مخلوقة، وهذا أحد أنواع الزوجية الذي يبينه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ {589}.

فالقرآن الكريم يستخدم ألفاظ الدلالة حسب معانيها ومقاصدها من أجلّ تأدية مفهوم القضية التي وضع من أجلّها اللفظ، وقد وجدنا في قصة يوسف صلى الله عليه وسلم أنه لم يستخدم لفظ (زوج) مع المرأة التي راودت يوسف عن نفسه، علما أن هناك شبه إجماع على أنّ امرأة العزيز هي زوجته.

فمتى يأتي لفظ زوج؟

ومتى يأتي لفظ امرأة؟

وفي أي السياقات يستخدم كلّ منهما؟

ومن أجلّ الوقوف على الفرق بين الزوج وبين المرأة إن كان هناك ثمة فرق، لا بدّ من تناول كلّ لفظة على حدة في سياقات الأسلوب القرآني الذي يوضح دلالة اللفظة المقصودة والغاية منها في إيرادها بلفظ مغاير وإن كانت تؤدّي معنى آخر يفهمه المتلقي من اختلاف الألفاظ، ولكن فهم المتلقي غالبا ما يكون حسب تصورات في الذاكرة مصدرها الواقع

الناتج عن موروث ثقافي من اللغة لا يلتفت فيها كثيرا إلى دقة التعبير القرآني لاستخدام ألفاظ الدلالة على مقاصد معانيها.

فالذي نراه في لفظ كلّ من (زوج) و(امرأة) ليستا من المشترك اللفظي في شيء، ولا هما من المترادفات في المعنى ولا هما من المتضادات في اللغة.

فكيف يُعبر عن المرأة بالزوج، وعن الزوج بالمرأة؟

وهل إذا وردت لفظة امرأة تعني زوجا أو أن زوجا تعني امرأة؟

ولذا، سنتناول كلّ لفظة على حدة حتى نقف على معناها الدلالي، ويتسنى لنا معرفة إن كان هناك اشتراك في المعنى بين اللفظين المختلفين ونبدأ بالزوج فنقول:

الأزواج: جمع زوج وهو اسم للعدد المفرد الذي يُكرر الواحد مرة واحدة، وهو اسم وصفي يوصف به كما توصف أسماء الأعداد كالواحد والاثنين والثلاثة.

. فالواحد واحد، ليس مذكر.

. والاثنان ليس مثنى

. والثلاثة ليس جمع ا ولا مؤنث ولا مذكر.

. وكذلك فإنها لا تدل على النوع أو الجنس إلا بقريئة موضحة.

وإنما يظهر مفرده ومثناه وجمعه وتأنيثه وتذكيره ونوعه وجنسه من القريئة التي يصفها العدد مثل:

. رجل واحد.

. امرأتان اثنتان .

. ثلاثة رجال .

. أربع نساء .

. خمسة ما بين رجل وامرأة .

فالعدد وصف للمعدود ليس له دلالة في نفسه على نفسه إلا بقريته المعدود من الذكر أو الأنثى أو الأفراد أو الثنية أو الجمع أو النوع أو الجنس، وكذلك الزوج يأخذ حكم العدد في وصف الموصوف.

فبيان ج نس الزوج من الذكر أو الأنثى من الذكر توضحه قريته السياقية، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾{590.

فالقريته (إحداهن) تدل على ج نس الزوج المستبدل مكان الزوج الآخر، حيث بينت القريته أن الخطاب للرجال في حال استبدال امرأة مكان امرأة في الطلاق الشرعي.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾{591.

فالمخاطب هو آدم صلى الله عليه وسلم، خلقه الله تعالى بيده إنسانا عاقلا مكلفا، ولما قال له أنت وزوجك، وجب أن يكون زوج آدم صلى الله عليه وسلم:

. نظيرا له في الخلق .

590 - النساء 20.

591 - البقرة 35.

. مطالباً معه بالتكليف في السكنى.

. مُمَثِّلاً له في أكثر من حال.

. لم يظهر جنينه لعدم وجود القرينة.

ذلك أنّ زوج كلّ شيء هو ثان اثنين مع شيء آخر يجمع بينهما تقارن في حال ما. وكونه ثاني اثنين هذا يعني أنه مُمَثِّل الآخر، ومن أجلّ هذا التماثل كان كلّ منهما زوجاً للآخر ليس القصد منه النكاح بدليل قوله تعالى: {أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا} 592.

بمعنى: أنّه يجعل لأحد الطفلين زوجاً له من غير نفسه بما لا يماثل آدم وزوجه الذي جعل هـ من نفسه، ويبدو لنا أنه لما جعل الله تعالى زوج آدم من نفسه وكانت امرأة له من غير ج نسه سقط معنى الزوج (المرأة) على الحالة من هذا الباب، غير أنّ الذي يُخْرَج معناه من زوج النكاح إلى زوج المماثلة في الموضوع أو النوع أو الجنس أو أي حال ما من المشابهة أو المشاركة دليلنا في قوله تعالى: (أو يزوجهم ذكراً وإناثاً) لمن يهبه الله تعالى هذا الوهب من الأولاد، فيكون الذكر زوجاً للأنثى والأنثى زوجاً للذكر من الإخوة الأشقاء، فهذه أزواج وصفية خارجة عن موضوع النكاح الشرعي.

وإن كانت الأزواج ضمن النكاح الشرعي الذي ورد كثيراً في القرآن الكريم، فإن هذا المعنى يكون مقصوداً ثانياً، وأمّا المعنى الأول والأساس الذي يطلق على الزوج هو المماثلة في الشيء أو المقاربة في الموضوع، قال تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} 593.

592 - الشورى 50.

593 - المجادلة 1.

وهنا قد يُشكّل الأمر على البعض ويسوقون شاهداً على ما يقولون،
ودليلهم فيه تذكير الزوج المجادل فيه، وتأنيث ضمير الإضافة العائد على
المرأة المجادلة، ولكن الذي نراه أنّ المجادلة لما ارتبطت بنكاح شرعي مع
الرجل المجادل فيه، وكان هذا معلوماً مشهوراً بين الناس والله تعالى قال:
(زوجها) توهم هذا البعض أنّه لبيان الجنس الذي يفرق الذكر عن الأنثى
في الزوج، وهو ليس كذلك، لأنّ الزوج زوج للذكر والأنثى على حدّ سواء.

ولكن لما كانت المجادلة هي امرأة تجادل في رجل ارتبطت معه بنكاح
شرعي، وهما زوجان في التماثل والمقاربة والنوع وأشياء كثيرة قبل النكاح،
وجاء النكاح بعد ذلك، فقد زاد من هذا التماثل بينهما، وكان كلّ زوج
منهما أشد تماثلاً بزوجه بعد النكاح، فزاد ذلك معنى إضافياً في الزوجية
لكلا الزوجين ولم يكن النكاح هو الأصل الذي انبثق منه زوجية أحدهما
للآخر، وإن أضاف معنى زائداً من التماثل والتقارب بين الأزواج.

ويوضح ذلك الذي ذهبنا إليه قوله تعالى: { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ
يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ } 594.

فقال: وأصلحنا له زوجه بدلالة الوصفية لا بدلالة الاسمية، ولو كان
بدلالة الاسمية التي تميّز الذكر عن الأنثى لوجب القول: (وأصلحنا له
زوجته) فلما كانت الدلالة، دلالة وصفية وليست اسمية لتمييز نوع أو
جنس، جاء باللفظ الدال على الوصف الذي يستوي فيه المذكر والمؤنث،
العاقل وغير العاقل، وهو دليل اقتران في المشابهة بين الأزواج في حال ما
غير التزاوج.

ثمّ إن القرينة التي تخرج الزوج من معنى النكاح وتجعله عامّاً شمولياً في
المخلوقات العاقلة وغيرها من الحيوان والنبات، وتقصره على الاقتران بين

اثنين بحال ما من المشابهة في النوع أو الجنس أو الموضوع بوصف الواحد زوجا للواحد الآخر من أي شيئين يكون بينهما تماثلا قوله تعالى: {وَإِنْ كَلَّ لَمَّا جَمِيعَ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} 595.

فالله سبحانه وتعالى في هذه الآيات ذكر خلق الأزواج من كل شيء، والأزواج التي ذكرها مما نعلم، هي من أجلّ تذكر الأزواج التي لم يذكرها مما نعلم أيضا.

. الله تعالى خلق الأزواج كلّها.

. أزواجا مما تنبت الأرض.

. أزواجا من الأنفس.

. أزواجا من غير الأنفس.

. أزواجا مما نعلم.

. أزواجا مما لا نعلم.

وهذا ظاهر أنه لا يقتصر على الزوجين من الرجل والمرأة، وإنما جميع ما خلق الله تعالى هي من الأزواج، ويجب أن تكون كذلك وسنأتي على توضيح السبب فنقول:

إن من صفات تفرد الله تعالى بالوحدانية، ودليل على واحديته
وجب أن يكون لكلّ شيء مثيله ونظيره وقرينه بوجه من الوجوه أو أكثر
من وجه مثل:

. الخلق .

. اللون .

. النوع .

. الجنس .

. الوصف .

إلى آخر ما هنالك من صفات التماثل والتقارب بين الأشياء الحية
وغير الحية ليكون أحد الشئيين زوجا للآخر من أجل تأكيد وحدانية الله
تعالى وتفرد بالأحذية، لأن الله تعالى بعد أن ذكر جعل الأزواج من
الأنفس ومن الآن عام أزواجا وصف ذاته بالتفرد والتنزه عن الشبيه والنظير
والمثيل فقال تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا وَمِنَ الْآنَ عَامُ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ﴾ 596.

فوجب لذلك أن يكون لكلّ شيء زوجا نظيرا أو مثيلا أو مشابها،
لتمييز الخالق عن المخلوق، وأن صفات الخالق عز وجل لا يمكن أن تناظر
صفات المخلوقين، فكانت المخلوقات أزواجا، وتفرد الله تعالى بالوحدانية
وتعزز بالقدرة.

أما قوله تعالى: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ الْأُنثَى} 597. فلماذا فصلهما في الجنس من النوع الواحد وقال الذكر الأنثى؟

فالجواب على هذا من جانبين:

الأول:

أنه لما كان سياق الآيات يتكلم عن الآن سان، والإنسان من الأزواج التي خلقها الله تعالى، ومعلوم أن الخلق من بعد آدم لا يكون إلا من الذكر والأنثى إلا ما كان معجزة لسبب (كخلق عيسى صلى الله عليه وسلم) وجب ذكر الذكر والأنثى لمناسبة السياق في الكلام عن الإنسان المخلوق من الذكر والأنثى اللذان هما زوجان قبل ذلك، حيث سبقت هذه الآية قوله تعالى: {وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا} 598.

فقد خاطب الإنسان بداية في نوعه، ثم فصله بجنسه، لأن هذا التكليف والمساءلة تنسحب على جنسه من ذكره وأثناه اللذان هما من جنس ملة الأزواج التي خلقها الله تعالى.

الثاني:

. كل ذكر من النوع الإنساني هو زوج لواحد من نوعه بصرف النظر عن الجنس.

. كل أنثى من النوع الإنساني هي زوج لواحد من نوعها بصرف النظر عن الجنس.

597 - النجم 45.

598 - النجم 39-44.

.كلّ ذكر وأنثى من النوع الإنساني هما زوجان في الممّاتلة.

.كلّ أنثى وذكر من النوع الإنساني هما زوجان في الممّاتلة.

.كلّ ذكّرين من النوع الإنساني هما زوجان في الممّاتلة.

.كلّ أنثيين من النوع الإنساني هما زوجان في الممّاتلة.

والذي يؤكّد على أنّ الزوج هو الممّاتلة بين أي اثنين في شيء ما قوله تعالى: { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْآنَ عَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ } 599.

فالخلق من نفس واحدة، والزوج من تلك النفس، وليس الإنسان وحده الذي له زوج، وإنما أنزل الله تعالى أزواجاً أخرى لا تعرف للنكاح معنى يكون أصرة زوجية بالمعنى العرفي لدى الآن سان، فالزوج هنا على الممّاتلة في شيء مما ذكرنا من:

. النوع.

. الجنس.

. الطبع.

. الموضوع.

. الاشتراك.

لأنّ معنى زوجها لا يعطي معنى نكاح الأزواج بحال من الأحوال، غير أن النكاح لا يكون إلا بين الأزواج المتماثلة، فهي أزواج قبل النكاح، لأن الاسم قائم قبل حدوث الفعل، وفعل النكاح جاء بعد الاسم،

والنكاح لا يكون بين جميع الأزواج، لأنّ الذكّرين زوجين والأنثيين زوجين، وكلّ اثنين جمع بينهما تماثل في قضية ما، فهما زوجان، ويؤكد ما ذهبنا إليه تنمة الآية الكريمة في قوله تعالى: (وأُنزل لكم من الآن عام ثمانية أزواج).

وثمانية أزواج هنا ليست ثمانية في العدد، وإنما هي ثمانية على النوع الحيواني، الذي فصلته سورة الآن عام في قوله تعالى: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِيُّنِي بَعْلَمَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَمَنِ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمَنِ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ} 600.

فالأزواج الثمانية ذكر منها أربعة على النوع هي:

. الضأن.

. المعز.

. الإبل.

. البقر.

ولما ذكر أربعة من النوع وقال ثمانية أزواج، انسحب المعنى على التماثل بين كلّ ذكر وأنثاه من الآن واع الأربعة لا يربط بينها عقد نكاح بزواج.

وعلى هذا:

فكلّ أنثى لذكر من نوعه هي زوج له، وكلّ ذكر لأنثى من نوعها هو زوج لها، دون أن ينسحب المعنى على الزواج المفهوم المتعارف عليه لدى الناس.

وأما بيان أنواع الأزواج من غير جنس الحيوان ممّا يخلق الله تعالى من أزواج، نقف عليه في قوله تعالى: { وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } 601.

حيث تبين القرائن أن الاهتزاز والإنبات هي لأزواج أخرى استثنت قرائن الدلالة الواردة في الآية الأزواج من الإنسان والحيوان، وجعلتها مقتصرة على ما تنبت الأرض، فالوردة زوج لوردة أخرى، والأخرى زوج للأولى، والنخلة زوج لنخلة أخرى، والأخرى زوج للنخلة الأولى، وعليه:

. فالنخلة زوج للنخلة من حيث الصنف.

. الفحل من النخل زوج للأنثى من النخل من حيث الجنس.

. الزيتون زوج للنخلة من حيث النوع كونهما شجر.

وعلى هذا فالأزواج يجمع بينها شيء ما، قد يكون نوعا أو جنسا أو موضوعا، ومثل ذلك قوله تعالى: { أَوْمٌ يَرَوْنَ إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ } 602.

وأما إذا قصد القرآن الكريم الزوج بالمعنى المفهوم لدى الناس في الاقتران بين الذكر والأنثى من التزاوج، فإن السياق يأتي بالقرينة الدالة على هذا المعنى لأنه ليس كلّ زوجين بينهما هذا الاشتراك في التداخل الذي يدل على التوالد والتكاثر والتناسل، ما لم تأتي قرينة توضح هذا النوع من

601 - الحج 5.

602 - الشعراء 7.

الاقتران الذي نفث عليه في قوله تعالى: {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْآنَ عَامُ أَزْوَاجًا يُذَرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} 603.

فالذَّء هي القرينة التي أعطت معنى النكاح بين هذه الأزواج المذكورة هنا، ذلك أن الذَّء هو التكاثر، ولما كان الخطاب للناس، وأدخل في ج ملتهم الآن عام، والذَّء سرى على الناس والآن عام، فلا بد أن يكون هناك نكاح بين هذه الأزواج حتى تدرأ.

والأزواج عامّة ترتبطهم قضية واحدة يتشعب منها موضوعات مختلفة، فالقضية هي الأصل في كلّ زوجين، والموضوع هو فرع لكلّ زوجين، وكلّ واحد ينضوي تحت موضوع من موضوعات قضية معينة مع واحد آخر هو زوج له بسبب الرابط الذي يجمع بينهما فينسحب عليهما اسم زوج، وذلك كقوله تعالى: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} 604.

فهؤلاء ثلاثة أزواج لا بمعنى الفرد الذي هو زوج لفرد آخر يكون له نظيرا أو شبيها أو مثيلا، وإنما هي مجموعة زوج لمجموعة أخرى ربط بينهم النوع:

. أصحاب الميمنة زوج لأصحاب المشأمة ربط بينهما التضاد.

. أصحاب الميمنة زوج لسابقين السابقين ربط بينهما التوافق.

. أصحاب المشأمة زوج لأصحاب الميمنة ربط بينهما التضاد.

603 - الشورى 11.

604 - الواقعة 7-10.

- . أصحاب المشأمة زوج للسابقين السابقين رَبطَ بينهم التضاد.
 - . السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ زوج لأصحاب الميمنة رَبطَ بينهم التوافق.
 - . السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ زوج لأصحاب المشأمة رَبطَ بينهم التضاد.
- فكلّ زوج من هذه الأزواج الثلاثة هو زوج للزوجين الآخرين:

. إمّا بالمشأمة.

. وإمّا بالمناظرة.

. وإمّا بالتوافق.

. وإمّا بالتضاد.

وقبل ذلك فإنّ النوع يجمع بين هذه الأزواج الثلاثة.

ثم غلّب الزوج على كلّ من الذكر وأنثاه من الإنسان والحيوان والنبات، فعلى سبيل المثال قوله تعالى: {وَحَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا} 605.

أفاد أن يكون الذكر زوجاً للأُنثى والعكس صحيح، فالذكر زوج لأنثاه والأُنثى زوج لذكرها وصفا ليس له من الدلالة إلا ما اقترن به من نوعه أو ج نسه.

وعليه: فالزوج كلّ شيء ثان مع شيء آخر بينهما اقتران في حال ما، وهذا يظهر لنا أن الزوج اسم جامد، لأن جميع تصاريفه في الكلام يلاحظ فيها معنى كونه ثاني اثنين أو ممّائل غيره، فكلّ واحد من اثنين مقترنين في حال ما يسمى زوجاً وهذا واضح ج لي في قوله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ

يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ
قَدِيرٌ {606}.

فهذه الآية توضح معنى تماثل غيره، الأمر الذي يُخرج من معناه دلالة
الزواج (الزوج والزوجة) وذلك من خلال الآتي:

. يهب لمن يشاء إناثا.

. يهب لمن يشاء الذكور.

. يزوجهم ذكرانا وإناثا.

. الذكران والإناث إخوة.

. الإخوة هنا من الأزواج.

ومن هنا تتضح لنا مسألة التزويج ومعنى الزوج في أنه وصف لتماثل
شيئين بقرينة موضحة لا يظهر فيها معنى النوع أو الجنس إلا بهذه القرينة
وذلك كقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ
مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي
أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {607}.

فالذي بيّن معنى الزوج في النكاح وجنسه هو سياق الآية بما تحمله
من قرائن وهي:

. المتعة تكون للمرأة من الرجل.

. فإن خرجن دلت على أنّ المقصود هنّ النساء.

606 - الشورى 49، 50.

607 - البقرة 240.

. الضمائر العائدة على النساء في قوله: (فيما فعلن في أنفسهن من معرف).

ولولا هذه القرائن لم يتضح من هم الأزواج الذين يذرونهم، لذلك عندما يكون الخطاب عام غير مخصص لا يتضح منه الذكر من الأنثى، ولا يعطى دلالة التخصيص إلا ما يفهم من السياق أن أحد الزوجين هو زوج للآخر عندما يكون الخطاب على العموم ولا ترد فيه قرينة موضحة كقوله تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} 608.

فالبنين والحفدة تعطي معنى المخلوق العاقل المميز، ولا يكونون إلا من خلال التزاوج، على الرغم من أنها لم تميز الجنس من ذكر أو أنثى، وإنما شملت النوع الإنساني.

غير أنه سميت الأنثى القرينة للرجل بنكاح زوجها، لأنها اقترنت به وصيرته ثانيا، ويسمى الرجل زوجها لها لذلك بلا فرق، فمن ثم لا يقال للمرأة زوجة بهاء تأنيث لأنه اسم وليس بوصفه "وتسامح الفقهاء في إلحاق علامة التأنيث للزوج إذا أرادوا به امرأة الرجل لقصد نفي الالتباس في تقرير الأحكام في كتبهم في مثل قولهم: القول قول الزوج، أو القول قول الزوجة وهو صنيع حسن" 609.

أما قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسِ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} 610. فالبث

608 - النحل 72.

609 - التحرير والتنوير، ج 1، ص 233.

610 - النساء 1.

الذي بثّه منهما، هي أزواج كثيرة ليست كلّها متزاوجة وإن كان هناك متزاوجون، ولكن الذين لم يتزاوجوا فلا يخرجون من الأزواج المبتوتة، وعلى هذا فإنّ معنى وخلق زوجها من نوعها لم يأت بطائل، لأنّ ذلك لا يختصّ بنوع الآن سان، لأنّ أنثى كلّ نوع هي من نوعه، وعليه فإنّ لفظ الزوج تحدد النوع ولا تحدد الجنس، لأنّ الأزواج:

. قد يجمع بينها النوع والجنس

. قد تتحد في الجنس والنوع

. قد تتحد في النوع وتختلف في الجنس

ففي قوله تعالى: (وخلقناكم أزواجا) إيماء إلى ما في ذلك الخلق من حكمة إيجاد قوّة التناسل من اقتران الذكر بالأنثى، وهو مناط الإيماء إلى الاستدلال على إمكان إعادة الأجساد، فإنّ القادر على إيجاد هذا التكوين العجيب ابتداء بقوّة التناسل قادر على إيجاد مثله بمثل تلك الدقة أو أدق.

وفيه استدلال على عظيم قدرة الله وحكمته، وامتنانه على النّاس بأنّه خلقهم، وأنّه خلقهم بحالة تجعل لكلّ واحد من الصنفين ما يصلح لأنّ يكون له زوجا ليحصل التعاون والتشارك في الأُنس والتنعم، ومن هذا المنطلق نرى قوله تعالى: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} 611 دليل على هذه المؤانسة لأنهما زوجان في التماثل قبل الارتباط بالنيكاح الذي عرف فيما بعد بالزواج، فكان منه الزوجان.

ولذا عندما نقول فلان زوج فلانة، فالعبارة محذوف منها (زوجان مقترنان بنكاح)، ولهذا قيل: فلان زوج فلانة، وفلانة زوج فلان لا يلحقه

تاء التأنيث كونه وصفا وليس اسما، كقوله تعالى: {من كلّ زوج بهيج} فالذكر منهما بهيج والأنثى منهما بهيج، لأنّ الوصف على غير الاسم، فالوصف يستوي فيه المذكر والمؤنث وذلك كقولنا:

. رجل ج ربح وامرأة ج ربح.

. رجل قتيل وامرأة قتيل.

. رجل كريم وامرأة كريم.

وأما الاسم، فتلحقه تاء التأنيث المميزة للجنس ففي قوله تعالى عندما قصد الذكر قال: {إِنَّ امْرَأَتَهُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ} 612 فأبان جنس المذكر عن المؤنث كونه ليس وصفا وإتّما هو اسم لمذكر عاقل، كما قال تعالى في المؤنث: {وَإِنَّ امْرَأَتَهُ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا} 613.

المرأة:

المرأة اسم جنس للمؤنث العاقل من النوع الإنساني، ومذكر المرأة أمرؤ، وقد ورد اللفظان في القرآن الكريم في الدلالة العامة دون تخصيص أو إضافة، مثل ما ورد مخصصا أو مضافا.

ومثال دلالاته على جنس المرأة دلالة عامة غير مخصوصة جاء في قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّسُ} 614.

612 - النساء 176.

613 - النساء 128.

614 - النساء 12.

ومثال دلالة على المذكر دلالة عامة غير مخصوصة جاء في قوله تعالى: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ امْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ} 615.

ولم يأت في المعاجم من تعريف المرأة أو المرء إلا ما يدل على النوع الإنساني حيث جاء في اللسان: "المرء الإنسان تقول: هذا مرء وكذلك في النصب والخفض تفتح الميم هذا هو القياس ومنهم من يضم الميم في الرفع ويفتحها في النصب ويكسرهما في الخفض يتبعها الهمز على حد ما يتبعون الراء إياها إذا أدخلوا ألف الوصل فقالوا امرؤ وقول أبي خراش:

جمعت أموراً ينفذ المرء بعضها، من الحلم والمعروف والحسب

الضخم

وهما مرآن صالحان ولا يكسر هذا الاسم ولا يجمع على لفظه ولا يجمع جمع السلامة لا يقال أمراء ولا أمراً ولا مرؤون ولا أماريء، وقد ورد في حديث الحسن أحسنوا ملاكم أيها المرؤون قال ابن الأثير هو جمع المرء وهو الرجل ومنه قول رؤبة لطائفة رآهم: أين يريد المرؤون؟ وقد أثبتوا فقالوا امرأة وخففوا التخفيف القياسي فقالوا: مرة بترك الهمز وفتح الراء، وهذا مطرد وقال سيبويه وقد قالوا امرأة وذلك قليل ونظيره كما قال الفارسي وليس بمطرد كأثم توهما حركة الهمزة على الراء فبقي امرأة ثم خفف على هذا اللفظ والحقوا ألف الوصل في المؤنث أيضاً فقالوا: امرأة فإذا عرفوها قالوا المرأة، وقد حكى أبو علي المرأة، وقال: الليث امرأة تأنيث امرئ وقال ابن الآن باري الألف في امرأة وأمريء ألف وصل قال وللعرب في المرأة ثلاث لغات يقال: هي امرأته وهي مرأته وهي مرتة، وحكى ابن الأعرابي أنه يقال للمرأة إنهما لأمروء صدق كالرجل، قال وهذا نادر وفي

حديث علي كرم الله وجهه لما تزوج فاطمة رضوان الله عليهما قال له يهودي أراد أن يبتاع منه ثيابا لقد تزوجت امرأة يريد امرأة كاملة.

وقد جاء وصف المرأة في القرآن الكريم بأوصاف مختلفة ربما تشترك بعض النساء في أكثر من صفة منها، ولكن في ذكر الآية الكريمة للمرأة المقصودة نجد هذه الصفة واضحة جليلة بها أكثر من غيرها من الصفات أو أنها مضروبة مثلا للذين آمنوا، أو مضروبة مثلا للذين كفروا.

. امرأة مضروبة مثلا للذين كفروا، قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ} 616.

. امرأة مضروبة مثلا للذين آمنوا، قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} 617.

. امرأة مراودة، قال تعالى: {قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدُكَ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} 618.

. امرأة مالكة حاكمة، قال تعالى: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ} 619.

. امرأة قائمة، قال تعالى: {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} 620.

616 - التحريم 10.

617 - التحريم 11.

618 - يوسف 51.

619 - النمل 23.

620 - هود 71.

. امرأة ناذرة، قال تعالى: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {621}.

. امرأة خائفة، قال تعالى: {وَإِنَّ امْرَأَةً حَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} {622}.

. امرأة مؤمنة، قال تعالى: {وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ نَفْسُهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} {623}.

. امرأة حمالة: قال تعالى: {وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} {624}.

. امرأتان مجهولتان، قال تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ} {625}.

. امرأتان معلومتان، قال تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتَفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} {626}.

. امرأة حبيبة، قال تعالى: {فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} {627}.

ومن خلال تتبعنا لورود المرأة في القرآن الكريم، فقد وجدناها على ثلاثة أنواع:

621 - آل عمران 35.

622 - النساء 128.

623 - الأحزاب 50.

624 - المسد 4.

625 - البقرة 282.

626 - القصص 23.

627 - القصص 25.

الأول: امرأة نكرة غير معرّفة ولا مضافة وقد ميّزها علماء الخط في
الرسم القرآني حيث رسمت بتاء مربوطة أينما وردت:

. قال تعالى: {وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ
أُخْتُ} 628.

. وقال تعالى: {وَإِنَّ امْرَأَةً حَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ
إِعْرَاضًا} 629.

. قال تعالى: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ} 630.

الثاني: امرأة أُضيفت إلى اسم ظاهر علم معروف، وقد أثبتتها علماء
الرسم القرآني بتاء مبسوطة أينما وردت تمييزاً عن غيرها ممّا ورد نكرة أو
جاء مضافاً إلى الضمير:

. قال تعالى: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي
بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 631.

. قال تعالى: {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ
نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا} 632.

. قال تعالى: {قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ
عَنْ نَفْسِهِ} 633.

628 - النساء 12.

629 - النساء 128.

630 - النمل 23.

631 - آل عمران 35.

632 - يوسف 30.

633 - يوسف 51.

. قال تعالى: {وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا} 634.

. قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا} 635.

. قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} 636.

الثالث: جاءت جميعها مضافة إلى ضمير المفرد الغائب:

. قال تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} 637.

. قال تعالى: {إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا مِنَ الْغَابِرِينَ} 638.

. قال تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ} 639.

. قال تعالى: {قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} 640.

. قال تعالى: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَاصْكَتْ وَجَهَّهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} 641.

634 - القصص 9.

635 - التحريم 10.

636 - التحريم 11.

637 - الأعراف 83.

638 - الحجر 59، 60.

639 - النمل 57.

640 - العنكبوت 23.

641 - الذاريات 29.

. قال تعالى: {وَأَمْرَأْتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ فَلَبَسْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ
إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} 642.

. قال تعالى: {وَأَمْرَأْتُهُ حَمَّالَةٌ الْحَطَبِ} 643.

. قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي
مَثْوَاهُ} 644.

ومّا تقدم من الكلام عن الزوج والمرأة نجد القرآن الكريم يستخدم
لفظ المرأة عندما يريد الدلالة على الجنس، فيأتي باللفظ المميز له عن
المذكر لأي امرأة دون تحديد أو تخصيص أو إضافة تكون بها معرفة كقوله
تعالى: {وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ} 645.

أو أنّها وردت مضافة إلى اسم ظاهر أو ضمير، وهي لبيان الجنس
أيضاً، أضف إلى ذلك أن الزوج لا يمكن أن يؤدي الدلالة نفسها لو
استخدم لفظ زوج مكان امرأة في أي موضع للدلالة على المرأة، هذا من
جانب، وأمّا من جانب آخر فإن لفظ المرأة يحمل في موضوعه من الدلالة
ما تفتقر إليه لفظة زوج في مواطن كثيرة من حيث:

. أنّ المرأة تدل على المؤنث من النوع.

. لفظ المرأة لا يطلق على الأنثى إلا بعد مرحلة البلوغ.

. أنّ المرأة إذا أضيفت إلى المرء أعطت معنى النكاح الشرعي.

. ليس أي امرأة تضاف إلى أي أمرئ.

642 - هود 71.

643 - المسد 4.

644 - يوسف 21.

645 - النساء 12.

. إضافة المرأة إلى المرء تكون بشروط مخصوصة.

ولذا؛ فإنّ لفظ زوج لا ينطبق عليه ما ينطبق على المرأة ليحل محله في أي موضع من الكلام في سياق المعنى المقصود حيث أن لفظ زوج:

. لا تلحقه تاء التأنيث.

. يستوي فيه المذكر والمؤنث.

. قد يكون الذكران أحدهما زوج للآخر.

. قد يكون الأنثيان إحداهما زوج للآخر.

. الزوج يشمل جميع الآن واع.

ولتوضيح ذلك نقف على قوله تعالى: {وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ
الْحُطْبِ} 646.

فلو قال: وزوجه حمالة الحطب، هل كان ذلك سيؤدّي المعنى الذي
أداه قوله: (وامرأته حمالة الحطب)؟

وإذا كان التذكير والتأنيث لم يظهر من لفظ زوجه، وبينه حال الزوج
أنّه حمالة الحطب وظهر تأنيثه، فهو لا يكفي لتأدية المعنى الذي أداه لفظ
(امرأته)، لأنّ أبا لهب له أزواج كثيرة من المؤنث غير امرأته من المرأة والبنت
والأخت والعمة والخالة، فتذهب الإفهام مذاهب شتى في البحث عن
المعنى، وعن أي الأزواج صدر حمل الحطب، ولذا وجب أن يدل على
المعنى باللفظ المناسب عن صدر منه الفعل.

وأما قوله تعالى: { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } 647.

فهنا وجب أن يُقال زوجه، ولا يقال امرأته، لأنّ الموضوعات التي تجمعها الزوجية بينهما ويشتركان بها، لا يؤدّيه معنى المرأة، لأنهما:

. زوجان في المسارعة في الخيرات.

. زوجان في الدعاء رغبا ورهبا.

. زوجان في الخشوع لله تعالى.

فلو قال أصلحنا له امرأته لترتب على ذلك تغيير سياق النص، وإذا تعيّر سياقه فقد المعنى المقصود من الزوجية وذهب إلى الفصل بين النوع في تحديد الجنس، وهذا غير المراد، لأنّ المسارعة في الخيرات والدعاء والخشوع لا ينحصر في ج نس ولا هو مطلوب من ج نس دون غيره، ولكنه ممكن لكلّ الأزواج، ثمّ إنّ ذكر المرأة يكون مقصودا لذاته للدلالة على الجنس وهنا ليس كذلك على ما بيّناه.

وقياسا على ما وضّحناه من الآية السابقة، فأينما وردت لفظة زوج في مخاطبة النوع الإنساني، فإنّ دلالتها أعم من تحديد الجنس أو تخصيصه بالخطاب، لأنّ الخطاب يتعدى الذكر الأنثى، وأحيانا يتعدى النوع إلى أزواج أخرى من الآن واع، فكان القرآن دقيقا في استعمال اللفظ الدال على المعنى المقصود عندما قال تعالى: { وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ

العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُباً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {648}.

وقال تعالى: {قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} {649}.

وهنا، لا يمكن بحال من الأحوال أن يقال زوج العزيز في هذه المواضع التي تتكلم عن هذا الموضوع، لأن ذكر المرأة يوحي بشيء من ظلال المعنى قبل أن يخيم المعنى على السياق من خلال لفظ المرادة، ومن ج انب آخر أنه لو جاء اللفظ بزواج العزيز لبقِيَ المعنى ناقصاً من ج وانب كثيرة منها:

الأول: أن لفظ زوج يستوي فيه المذكر والمؤنث.

الثاني: أن للعزيز أزواج أخرى غير امرأته من جنسه ومن نوعه على حدٍ سواء.

الثالث: أن ذكر المرأة يعبر عن حاجة الذكر للأُنثى والأُنثى للذكر.

الرابع: ذكر الزوج مكان المرأة يذهب بالمعنى إلى غير مقصوده.

ومن خلال ما تقدم في البحث عن هذه القضية، تبين أن الزوج غير المرأة، وإن استعمل كل من اللفظين في الدلالة على العلاقة بين الذكر والأُنثى من النوع الإنساني، فإن كل لفظ من زوج أو امرأة:

. له دلالاته النوعية.

. له دلالاته الجنسية.

648 - يوسف 30.

649 - يوسف 51.

. له دلالاته الموضوعية.

وعلى هذا لا يستوي الزوج والمرأة في المعنى الدلالي بحال من الأحوال.

المراودة والهيته والهيم:

قال تعالى: {وَرَاوَدْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} 650.

المراودة:

هي محاولة الحصول على المبتغى والاحتياج له بكل الوسائل من أجل نيته، وقد جاء في لسان العرب: "الرود مصدر فعل الراءد، والراءد الذي يُرسل في التماس النجعة وطلب الكلاء" 651 فهذا الراءد لا يدع وسيلة إلا ويستخدمها من أجل الوصول إلى مساقط الغيث ومنابت الكلاء، لأن حياة القبيلة تتوقف على نتيجة ريادته، ولذا يطرق جميع السبل في التنقل والبحث وإيجاد المنافذ التي توصله إلى مبتغاه في هذه الريادة.

وجاءت أيضا بمعنى الإرادة إذا حملناها على وجه صرفي في اللغة في التسكين ونقل الحركات والإقلاب في تصريف الفعل بين الماضي والمضارع والمصدر، فقد جاء في اللسان: "والإرادة المشيئة وأصله الواو كقولك راوده أي أراوده على أن يفعل كذا إلا أن الواو سكنت فنقلت حركتها إلى ما

650 - يوسف 23، 24.

651 - لسان العرب، ج 3، 187.

قبلها فانقلبت في الماضي ألفا وفي المستقبل ياء وسقطت في المصدر
لمجاورتها الألف الساكنة وعوض منها الهاء في آخره "652.

وهذا الوجه أيضا ينطبق على المعنى المراد من المرادة التي صدرت
عن امرأة العزيز، لأنها تصرف بإرادة في مرادة فتاها عن نفسه من أجلّ
الوصول إلى غايتها.

الهيئة:

في هذه البيئة المترفة بالقصور والنعم التي جمعت يوسف صلّى الله
عليه وسلّم وامرأة العزيز تحت سقف واحد، وهو ليس له من الأوامر إلا
تلقاها وتنفيذها على أكمل وجه، إضافة إلى ما يحمل من أخلاق كريمة في
شكر إحسان من أكرم مثواه، وعلى ما نعتقد أن الأخلاق الكريمة التي
يتصف بها صلّى الله عليه وسلّم والحياء الشديد كان مطمعا لتلك المرأة في
التمادي بطلبات خارجة عن المألوف، لاسيما أن هذه البيئة لها مقاييسها
الأخلاقية الخاصة التي لا تحكمها قيود في نيل أوطارها أو ما تصبو إليه،
فلا بدّ بعد ذلك أن امرأة العزيز لم تدع وسيلة من وسائل الإغراء في الأنثى
إلا وقد تمثلتها على أحسن وجه لتستميل به قلب يوسف وعواطفه دون
حرج أو رادع.

والنظرة إلى يوسف صلّى الله عليه وسلّم من قبلها، إنما هي نظرة ولية
أمر إلى مولاها الغلام، تأمره فيطيع، وتنهاه فيمتنع، ويوسف في هذه
المرحلة كان مولى وترّى في ظلّ الفتنة وهو ينأى عنها، فهذه هي المحنة
الطويلة والابتلاء العظيم التي مرّ بهما يوسف صلّى الله عليه وسلّم، فقد
صمد أمامها، ونجا من تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها ومفاتها.

652 - المصدر السابق، ج 3، ص 187.

لقد أسقط في يد المرأة بعد كلِّ ما جرى منها من محاولات إغراء الاستمالة، إذن لم يبقَ بعد هذا إلا النزاع الأخير في تقديرها الخاطئ القائم على:

. وإمّا أنّها قدرت أن يوسف لم يدرك الغاية القصوى من تصرفاتها.

. وإمّا قدرت أنه خائف لمكانتها.

فعندما قدرت أحد هذين الأمرين، وأغفلت جانب الحرام والحلال والتقوى والإخلاص، أرادت أن تطمئنّه من جانب وأن تطلعه على منتهى الغاية من جانب آخر فقالت: (هيت لك).

ومهما قيل في فهم معنى الهيبة، فما نطن أنّ قولاً لفظه أعظم من معناه لما يحمل من مضمون سوى قولها (هيت لك).

والجواب الذي صدر عن يوسف صلّى الله عليه وسلّم على آخر قطرات الحياء التي أراققتها، والكرامة التي أهدرتها (قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي).

جعل المرأة تفقد عقلها كونها وصلت إلى أدنى درجات الرغبة، وهي ما هي من عليّة القوم وسيدة القصر، تعرض نفسها على من تعتقد أنه عبد لها فيترفع عنها، وهنا تثور ثائرتها في محاولة الانتقام للكرامة المهذورة حتى وصلت إلى حدّ الاستشراس من أجلّ أن تثأر لنفسها، وهذا الثأر يتمثل في أمور منها:

. إثبات القدرة في إقناع نفسها أنّها هي الأمرة الناهية.

. الأوامر التي تصدرها واجبة التنفيذ.

. الثأر لأنوثتها المهذورة.

. ردّ اعتبارها أمام نفسها.

. أخذها ما تريد بالوسيلة التي تراها مناسبة.

وهنا همّت به.

الهمّ:

جاء في لسان العرب،: "الهمّ الحزن وجمعه هموم وهمه الأمر هما ومهمة وأهمه فاهتم واهتم به، قوله عزّ وجلّ: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّؤْمَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} 653. قال همت زليخا بالمعصية مصرة على ذلك وهم يوسف صلّى الله عليه وسلّم بالمعصية ولم يأتها ولم يصر عليها فبين المهمتين فرق، قال أبو حاتم وقرأت غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله ولقد همت به وهم بها (الآية) قال أبو عبيدة هذا على التقديم والتأخير كأنه أراد ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربّه لهم بها" 654.

وقد زاد مختار الصحاح معنى الإرادة حيث قال الرازي: "الهم الحزن والجمع الهموم وأهمّه الأمر أقلقه وأحزنه ويقال: همك ما أهمك والمهم الأمر الشديد وهمه المرض أذابه وبابه ردّ، والاهتمام الاغتمام واهتم له بأمره والهمة واحدة الهمم يقال فلأن بعيد الهمة بكسر الهاء وفتحها وهمّ بالشيء أرادته وبابه ردّ" 655.

إن سياق الحدث في هذه القضية يسير على غرار القصص القرآني في تجاوز الأشياء التفصيلية والتأكيد على جوهر القضايا التي تؤدّي إلى العبرة المرجوة أو التشريع المقصود أو النتيجة النهائية، ولذا لم نعرف عمر

653 يوسف 24.

654 - لسان العرب، ج 12، ص 619.

655 - مختار الصحاح، ج 1، ص 705.

يوسف ولا عمر المرأة عندما راودته عن نفسه، ولكن يمكن أن نستنتج ذلك من خلال الأحداث التي مرّ بها يوسف صلّى الله عليه وسلّم، والتصرفات الصادرة عن المرأة المراودة في محاولة تقريب السن التي وصل إليها كلّ من يوسف والتي راودته عن نفسه فنقول:

. الذي أدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام.

. الغلام في اللغة العربيّة دون سن البلوغ.

. على هذا يكون عمره اثنتي عشرة سنة فما دون.

. لما بلغ أشده آتاه الله حكما وعلما.

. الأشد هو أوج القوّة والعنفوان.

. هذه المرحلة تكون ما بين سن الخامسة والعشرين إلى الخامسة

والثلاثين قد تزيد أو تنقص قليلا.

. شهادة النسوة تؤكّد ما ذهبنا إليه في قولهن: (امرأة العزيز تراود فتاها

عن نفسه قد شغفها حبا).

. الفتى هو الذي اكتملت فحولته.

وهذا يعطينا السن التقريبية ليوسف صلّى الله عليه وسلّم وأنّه

مكتمل النضج والبنية.

وأما امرأة العزيز عندما عهد إليها سيدها بإكرام مثوى يوسف صلّى

الله عليه وسلّم رجاء النفع أو اتخاذه ولدا فهذا يعطي دلائل ومؤشرات

كثيرة نستطيع أن نقف منها على جانبين مهمين في القضية:

الأوّل: السن التقريبية لامرأة العزيز.

الثاني: أئهما لم يرزقا بالولد.

ونكاد نجزم أئهما لم يرزقا بالولد، لأن هذا الهاجس لا يكاد يخطر ببال عائلة لها ولد حتى لا يكون منافسا لابنها الصلب، وإن كان لهما ولد فسوف يتخذان هذا الغلام عبدا أو خادما لولدهما، أضف إلى ذلك أن امرأة فرعون نطقت بذات العبارة عندما وقعت عينها على موسى صَلَّى اللهُ عليه وسلّم: (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) ولا خلاف في أن فرعون موسى لم يكن له ولد.

وهذا يعطينا مؤشرا آخر على أئهما يئسا من الإنجاب بعد مرور فترة طويلة على الاقتران، ولولا ذلك ما قال: (أو نتخذه ولدا).

وعلى ما تقدم يمكن أن نستنج سنّ امرأة العزيز ممّا يأتي:

. إن العزيز عندما قال لامراته أكرمي مثواه، هي امرأة متزوجة.

. قوله أو نتخذه ولدا يدل على مدة طويلة من الزواج لم يرزقا فيه الولد.

. كونها امرأة لرجلّ وطلب منها أن تتخذه ولدا، فهي في سن الخامسة والعشرين فما فوق.

. فإن رعت يوسف عشر سنوات أو ثلاث عشرة سنة كما بيّنا، فإنّ سنّها بين الثلاثين والأربعين سنة.

. المراودة من قبلها وتغليق الأبواب والهييت الذي صدر منها واستباق الباب يدل على أئها فتية قوية لم تتجاوز سنّ الأربعين.

وهذه سن امرأة العزيز التي نرجح أنّ الحادثة وقعت فيها، ذلك أن تصرف المرأة وسلوكها في الحادثة وما بعدها يشير إلى أنّها كانت مكتملة

قوية، جريئة ماكرة، ذات أنوثة عالية، تمتلك من الحيلة والكيد ما جعلها متهالكة على فتاها، فضلا عن شهادة النسوة بقولهنّ: (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) لأنّ كلمة فتى لا تذكر إلا ولها حقيقة من مدلولها عن السن والشخصية والبنية الإعجاب.

بعد هذا التقديم ندخل في ثنايا القضية والمحنة التي امتحن الله تعالى بها يوسف صلّى الله عليه وسلّم عندما بلغ أشده، وهذا أمر طبيعي يدخل في باب ابتلاءات الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، ولذا لا نقبل أن نسميها تجرّبة كما دأب على ذلك الكثير ممن تناول هذه القضية.

وعليه نقول: إنّ هذا الابتلاء ليوسف صلّى الله عليه وسلّم، لم يكن في مواجهة المرادة والموقف منها فحسب، في هذا المشهد الذي يصوره السياق القرآني عندما أتى على ذكر الحادثة التي كانت تتويجا لسلسلة من الإغراءات التي بلغت ذروتها لحظة المرادة.

إنّ لحظة المرادة كانت تمثل حقيقة الصراع:

. بين الهدى والضلال.

. بين الحقّ والباطل.

. بين الخير والشرّ.

. بين الفضائل السامية والقيم المتدنية.

. بين الرّوح والمادّة.

فهذه اللحظة تمثل الذروة التي كانت نتيجة لمقدمات كثيرة، وصلت صاحبة المرادة فيها إلى حالة اليأس لكثرة المقدمات التي هيأتها للفعل.

لقد كانت حياة يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فترة إكرام المثنوى من قبل امرأة العزيز، هي فترة مراهقته لا بالمعنى المبتذل، وإنما الفترة التي يمرّ بها الشاب في عنفوان شبابه هو أحوج ما يكون إلى مثل تلك المراودة وتغليق الأبواب والهيت، حاشا يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لقد أمضى يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سنوات على الأقل، هي ما بين إكرام المثنوى إلى يوم المراودة في بيئة مترفة متهتكة، ترفل بنعمة دون شكرها، كلّها في ج وقصر منعم ليس فيه من القيم الحميدة ما يكون ضابطا للسلوك أو مانعا للتصرفات، مع امرأة بين سن الثلاثين الأربعين، ففي جو هذا القصر وهذه البيئة التي يصورها السياق القرآني أمضى يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الفترة.

ثمّ نقف على أخلاق هذه البيئة في القصر من خلال الحوارات التي جرت بين أهله عندما انكشف أمر التي راودته عن نفسه، وأول هذه المواقف التي تدل على التهتك موقف سيدها عندما أُلْفِيَاها لدى الباب بعد شهادة الشاهد من أهلها وبعد وقوفه على حيثيات القضية والحالة التي وجد فيها امرأته وتبيّن له الحقّ من الباطل:

. توجه إليها بقوله: {إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} 656.

. خطابه ليوسف لم يزد أن قال: {يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن هَذَا وَاسْتَعْفِرِي لَدُنِّكَ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} 657. واكتفي بهذا التوجيه.

. انتشار الخبر في المدينة وتحذّث النساء بهذا الأمر: {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُباً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} 658.

656 - يوسف 28.

657 - يوسف 29.

ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كَلَّمَهُ وَبَدَلَا مِنْ أَنْ تَسْتَغْفِرَ كَمَا أَمَرَهَا سَيِّدُهَا، وَتَحَاوَلَ دِرَاةَ الْفَضِيحَةِ، نَجَّدَهَا تَسْتَدْعِي أَوْلَئِكَ النِّسْوَةَ لِتَبْرَهْنَ لَهُمْ عَلَى أَحْقَابِهَا فِي بَاطِلِهَا، وَلَمْ تَلْقَ بِالْأَلَا مَا قَالَ سَيِّدُهَا، فَأَعَدَّتْ لَهُنَّ مَادِبَةَ كَيْ يَرَوْنَ بِأَعْيُنِهِنَّ فَيَلْتَمِسْنَ لَهَا الْعُذْرَ فِي مَا أَقْدَمَتْ عَلَيْهِ: {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} 659.

وَلَمْ يَقِفْ أَمْرَهَا عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ بَعْدَ أَنْ تَكَلَّمَ فِي أَمْرَهَا نِسْوَةَ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَرَبَّمَا أَنْ شَهِدَتْهُمْ عِنْدَمَا أَكْبَرْنَهُ وَقُلْنَ هَذَا مَلَكٌ كَرِيمٌ، كَانَ هَذَا سَبَبًا فِي تَمَادِيهَا فِي الْغَوَايَةِ وَالْوَقَاحَةِ فِي الْإِجَابَةِ: {قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ} 660.

فَهَذِهِ الْبَيْئَةُ الَّتِي تَتَغَاضَى عَنْ هَذَا السَّلُوكِ، لَا غَرَابَةَ فِيهَا عِنْدَمَا يَسْجَنُ الْبَرِيءُ مَعَ ثُبُوتِ بَرَاءَتِهِ وَإِدَانَةِ سَجْنَاهُ، وَفَقِ الْقِيمِ الَّتِي يُؤْمِنُونَ بِهَا.

إِنَّ يَوْسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاشَ فِي هَذِهِ الْبَيْئَةِ الَّتِي تَحْمِلُ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ، وَلَنَا أَنْ نَتَصَوَّرَ مَدَى هَذَا النُّوعِ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ الَّذِي ابْتَلَاهُ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِيَكُونَ مِنْ عِبَادِهِ الْمَخْلُصِينَ. فَهُوَ ابْتِلَاءٌ عَظِيمٌ وَمِحْنَةٌ طَوِيلَةٌ مَرَّ بِهَا يَوْسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَمَدٌ لِهَمَا، وَنَجَا مِنْهُمَا وَمِنْ تَأْثِيرَاتِهِمَا وَمَغْرِيَاتِهِمَا، وَمَا يَتَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ مَعَانَاةِ التَّأْثِيرِ وَالْمَغْرِيَاتِ فِي بَيْتِ هُوَ فِيهِ مَنْصَاعٌ لِلْأَوَامِرِ وَلَيْسَ صَاحِبُ أَمْرٍ.

658 - يوسف 30.

659 - يوسف 31.

660 - يوسف 32.

إنَّ سنَّ يوسفَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وسنَّ المرأةَ التي يعيش معها تحت سقف واحد، وما فيه من المؤثرات والمغريات والأوامر، دليل على خطورة المحنة، ودليل على الصمود أمام الابتلاء هذا الأمد الطويل. ولذا؛ فإننا نقول: إنَّ المراوذة وتغليق الأبواب والهيت، كانت النتيجة النهائية لمحاولات كثيرة سبقها تمهيد من الإغراءات الطوال، إذ من الطبيعة الإنسانية بين الذكر والأنثى في الفطرة، أنَّ الرجلَ يكون هو الطالب، والمرأة هي المطلوبة، ولا شكَّ أن امرأة العزيز لم تدعُ بابا من المغريات كي تثير به يوسف صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلا طرقته قبل المراوذة وتغليق الأبواب من أجلَّ أن تكون هي المطلوبة حسب الفطرة، ولما ذهبت كلَّ محاولاتها أدراج الرياح مع إصرارها على تحقيق فعل ما تضمّر، أصبحت هي الطالبة ويوسف هو المطلوب.

لقد كانت المراوذة هي ذروة ما وصلت إليه المرأة بعد فشل محاولات الإغراء، وهذه المرة لم تكن دعوة بمعنى الحديث والسمر الذي يؤدّي إلى تحريك المشاعر لدى الطرف الآخر، فالحدث في هذه اللحظة ينم عن استغراق التهيؤ والاستعداد وامتلاك الإرادة الواعية في إصدار الأمر، فكانت دعوة سافرة من أجلَّ الامتثال إلى الفعل الأخير.

وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلا بعد استكمال دواعيها التي تدفع إلى اللحظة الأخيرة استجابة لنداء الجسد، وقد وصلت المرأة إلى هذه اللحظة الحاسمة في نقطة الذروة التي نادرا ما تصدر عن امرأة، لأنَّ المرأة عادة مهما تدنّى الموقف فإنها تحتفظ بجزء من كرامتها خوفا من أن تُصد، إلا أنَّ امرأة العزيز تجاوزت جميع المراحل وقالت: (هيت لك).

هذه الدعوة مجاهرة سافرة، لا تكون أوّل دعوة من امرأة، وإنما تكون الدعوة الأخيرة عندما تتقطع بها السبل في الوصول إلى الغاية، وقد لا تحدث هذه الدعوة أبدا من امرأة إذا لم تضطر إليها اضطرارا.

والسؤال الآن هل أن يوسف صَلَّى الله عليه وسلّم همّ بها؟

وللإجابة على هذا السؤال نعود إلى قوله تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} 661.

لقد ذهب المفسرون والباحثون مذاهب شتى في الهمّ الذي همّ به يوسف صَلَّى الله عليه وسلّم منها:

. أنه همّ بها فيما حدثته نفسه.

. أنه همّ بها رغبة مثل رغبة الصائم لشرب الماء لكنه يمتنع للتقوى.

. أنه همّ بها أكثر من ذلك رغبة في الفعل.

. أنه همّ بها ليضربها دفاعاً عن نفسه.

ومع هذا يبقى السؤال هل أنّ يوسف صَلَّى الله عليه وسلّم همّ بها أم أنه لم يهّم أصلاً؟

للإجابة على ذلك نقول:

إنّ المعاني والمقاصد التي لا توضحها سياقات صورة الحدث، يمكن أن يحكم على بيانها وحقّقتها، أساليب اللغة في سياقاتها وقرائنها وعواملها من الحذف والذكر والتقديم والتأخير والشرط ووجوبه وامتناعه وما إلى ذلك، فسياق الآية جاء على هذا النحو: (ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربّه).

. لولا: أداة شرط غير جازمة.

. معنى لولا: حرف امتناع لوجود.

. وجود الشرط منع وجود الجواب.

. جواب لولا، لا يتقدم عليها بحال من الأحوال.

. إذا لم يُذكر جوابها فهو مقدر محذوف.

وعلى هذا يكون تقدير الكلام لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها.

"قال أبو حاتم وقرأت غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله ولقد همّت به وهمّ بها (الآية) قال أبو عبيدة هذا على التقديم والتأخير كأنه أراد ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها" 662

وعليه:

فإنّ رؤية البرهان متقدمة على همّ يوسف، ولما كان البرهان موجودا، امتنع الهم من قبل يوسف، وهذا امتناع لوجود الذي يؤدّيه معنى لولا.

وفضلا عن ذلك أن قضية الهمّ حدثت بعد أن بلغ أشده.

ولما بلغ أشده آتاه الله حكما وعلما.

وقد اجتباه ربّه من قبل.

فإذا كان الحكم هو النبوة التي يؤتيها الله تعالى للأنبياء، والعلم هو وحي الله تعالى للأنبياء، فما ينبغي لني بعد ذلك أن يهّمّ بفاحشة أو يفكر بها.

ثمّ بعد ما تقدم نقف على أدلة البراءة ليوسف صلّى الله عليه وسلّم وعدم الهمّ مطلقا

من خلال سياق الآيات التي تذكر الأحداث.

662 - لسان العرب، ج 12، ص 619.

إن ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أنّ يوسف صلّى الله عليه وسلّم، هم بمثل ما همّت به تلك المرأة، ولكن القرآن الكريم يبين براءته صلّى الله عليه وسلّم، من الوقوع فيما لا ينبغي لمثله أن يقع في مثلها، فقد ساقّت الآيات شهادة جميع من له علاقة بهذه القضية، وكلّ من كان له علاقة بهذه القضية من قريب أو بعيد شهد ببراءة يوسف صلّى الله عليه وسلّم، فالذين لهم علاقة بتلك القضية هم:

1 . يوسف صلّى الله عليه وسلّم حيث قال:

{ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي } 663 .

{ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ } 664 .

2 . اعتراف المرأة:

{ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ } 665 .

{ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ

الصَّادِقِينَ } 666

3 . سيدها:

{ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } 667 .

{ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ

الْحَاطِئِينَ } 668

663 - يوسف 26.

664 - يوسف 33.

665 - يوسف 32.

666 - يوسف 51.

667 - يوسف 28.

4 . شاهد من أهلها:

{ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ
وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } 669

5 . نسوة في المدينة:

{ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا } 670

6 . شهادة الله تعالى وكفي بالله شهيدا:

{ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا
الْمُخْلِصِينَ } 671.

الاستباق:

(واستبقا الباب)

لم يكن استباق الباب من يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وامرأة العزيز
حركة مجردة عن العقل والحس والشعور، بمعنى: أنها ليست حركة مادية
قائمة على الأعضاء والجوارح فحسب، وإنما هو استباق في اتحاد الهدف
واختلاف الغاية.

لقد كان الوصول إلى الباب هدف كل واحد منهما، وعند نقطة
الهدف تفرق الغايات. فغاية يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكمن في إزالة
رتاج الباب الذي سوف يعبر من خلاله إلى عالم الفضيلة، أو إلى عالم
يفرض قيوده عندما يمنع أصحاب الرذيلة من إطلاق يدهم المقتدرة في كل

668 - يوسف 29.

669 - يوسف 26.

670 - يوسف 30.

671 - يوسف 24.

اتجاه متى شأؤوا فيما شأؤوا انطلاقاً من مركز اجتماعي واستناداً إلى أساس مادي، ولذا كان استباق الباب من يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أجل فتحه، هو هدفه الذي تكمن وراءه الغاية، حيث يتجاوز بفتح الباب دائرة الظلام التي وضعته بها امرأة العزيز، إلى دائرة النور التي يريد أن يخرجها إليها، وهنا يتضح الفرق بين الغائتين، وعليه فهذا الاستباق هو صراع عقلي:

- بين النور والظلام.

- بين الحق والباطل.

وامرأة العزيز استبقت الباب مع يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستماتت في هذا الاستباق الذي كان يمثل آخر وسيلة تكمن خلفه الغاية المرجوة، فقد اتفقت معه في الهدف، وهو محاولة الوصول إلى الباب أولاً، ولكن وصولها إلى الباب قبل يوسف وهو هدفها، ذلك من أجل منع يوسف من الوصول إلى غايته في مغادرة الدائرة التي وضعته بها، ذلك أن تحقق إحدى الغائتين سوف يقضي على الغاية الأخرى، لأنه لا يمكن أن يتحقق الشيء ونقيضه في آنٍ معاً، ومن باب أولى في ظنّها أن تتحقق غاية صاحب الشأن والسطوة والسلطان كما تراها هي، لذلك كان الاستباق يجري على أشده في محاولة كسب كلّ لحظة من الزمن الفاصل بين مكان الهيت ومكان الباب، ويبدو من سياق الآية أنّ أيّ منهما لم يصل إلى الهدف من أجلّ العبور إلى الغاية، ذلك أنّ سيدها وضعهما على الحد الفاصل بين الدائرتين (وألفيا سيدها لدى الباب).

هنا كانت مفاجأة أخرى لم تكن في الحسبان، لا من يوسف ولا من

امرأة العزيز.

كيف؟

. يوسف يريد أن يفتح الباب من الداخل ويخرج.

. امرأة العزيز تريد أن تحكم الإغلاق من الداخل منعاً للخروج.

. الباب فُتِح من الخارج.

فهل توقف الاستباق؟

نحن نقول إنّ الاستباق لم يتوقف، وإنما تغير في:

. اتجاهه.

. أسلوبه.

. مقصده.

. أمّا اتجاه الاستباق الذي كان نحو الباب، فقد تغير إلى اتجاه عقل سيدها، فهي تريد أن تستبق عقله قبل أن يسبقها إليه يوسف، وظاهر الآية يدل على أنّ هذه المرأة سريعة البديهة، وإجاباتها حاضرة تعالج المواقف في لحظاتها الآنية بصرف النظر عن قناعة الآخرين بالحجج والإجابات التي تسوقها، إلا أنّها تتمتع بقدرة كبيرة في أن تحتال لنفسها في المواقف الحرجة.

. وأسلوبه الذي كان عماده الجري على الأقدام، فقد أصبح جملة من الحجج والبراهين الباطلة التي حاولت أن تقدمها أمام المفاجأة التي وقفت حياها في الممكن غير المتوقع.

. وكان مقصد هذا الاستباق من امرأة العزيز، أن تستبق عقل سيدها في ترسيخ قناعة تلصق بها تهمة بيوسف وتثبت براءتها، فسارعت إلى القول: {مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ

أَيْمٌ {672، هذا استباق إلى عقل الآخر في محاولة تثبيت قناعات أولية، والإدلاء بإجابات قرأت أسئلتها في عقل سيدها بلحظة خاطفة تبتغي منها السبق إلى العقل بباطلها لتدحض به حق يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لقد سبقت بباطلها إلى عقل سيدها، فهل سبق الباطل إلى العقل
يمنحه أرجحية على الحق؟

إنّ الأمور لا تقاس نتائجها بهذه الطريقة، ولو أنّ الباطل سبق إلى العقل، فليس ضرورة أن يأخذ العقل بهذا السبق، هذا من جانب.

ومن جانب آخر هو أن الحق أصلا أسبق من الباطل وجودا، والباطل طارئ عليه، فالله سبحانه وتعالى هو الحق: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {673؛ فالله تعالى الذي خلق الكون كله بالحق، جعل الحق أولا، وجاء الباطل من ابتداء خلقه، وأول من ابتدع الباطل إبليس لعنه الله عندما قال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} {674. حيث نجده:

. أصدر حكما.

. أجرى موازنة.

. أفتى بغير علم.

672 يوسف 25.

673 - الحديد 3.

674 - الأعراف 12.

فكان أسبق المتكلمين بالباطل من أجلّ تثبيت موقف وتزييف حقيقة، ومع هذا بقي الباطل الكلمة خبيثة، والحقّ هو الكلمة الطيبة، وإن جاء متأخراً قولاً، ولكنه أسبق حقيقة وجوهاً ووجوداً.

ومقياس إبليس سبقت امرأة العزيز إلى عقل سيدها بباطلها عندما قالت: {مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} 675.

. سألت.

. واتهمت.

. واستنكرت.

. وقضت.

. وحكمت.

في هذا النوع من الاستباق تلاشى العنف والحركة المادية التي كنا نحسها أو نعيشها من خلال الاستباق المادي الذي تمثل في:

. الهيت.

. والهّم.

. والاستباق.

. والقّد.

ثمّ إنّ الهدف كذلك انتقل من الجانب المادي الذي كان يتمثل في الباب، إلى الجانب الفكري الذي يتمثل في عقل سيدها، فأصبح الهدف

دحض الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان والدليل بمثله، وهو على هذا اتحاد في الهدف بين يوسف وبين امرأة العزيز وصولاً إلى عقل سيدها، واختلاف بين الغائتين:

. غايتها إثبات تهمة الاعتداء عليها من قبل يوسف.

. غاية يوسف إثبات براءته.

علما أنها استبقت إلى عقل سيدها كونها أعلى مكانة وسيدة القصر، فهي التي يجب أن تتكلم وأن يُسمع لقولها، ثم يأتي دور يوسف صلى الله عليه وسلم ليقول: { هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي } 676.

فهي عبارة غاية في الإيجاز وغاية في المعنى بمنتهى البساطة والعفة، يجهر بها لسان طفل بريء تخرج من أعماق قلبه يردّ بها الاتهام الباطل، بحيث أن هذه العبارة تحمل عناصر الصدق وأدلته وهي:

. حياته في هذا القصر، خلال هذه المدة الطويلة، تشهد بعفته وطهارته.

. معرفة سيدها به وغيره من أهل القصر وإجماعهم على أخلاقه ونزاهته.

. عدم اتهامه قبلاً بمثل هذا الأمر، أو ظهور إشارات دالة على مثله.

وهنا وضع الاستباق إلى العقل رحاله، وضنت امرأة العزيز أنها هي التي سبقت إلى عقل سيدها، إلا أنّ هذا النوع من الاستباق لا تكون نتيجته متوقفة على من وصل إلى العقول أولاً، على غرار استباق الباب الذي يحدد نتيجته الزمن المستغرق للوصول.

يوسف ونسوة في المدينة:

إنّ قضية مراودة امرأة العزيز لفتاها عن نفسه الذي شغفها حبا، لم يسدل عليها الستار داخل القصر، بل أصبحت حادثة يتندر بها نساء في المدينة، وذلك لأسباب كثير منها:

. أنّ المرأة هي التي تجري وراء الرجل.

. التي تراود فتاها هي امرأة العزيز.

. سيدة القصر تسعى في إثر أحد خدمها.

قال تعالى: { وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } 677.

إنّ قولهن (قد شغفها حبا) يدل على أنّ علي بينة قريبة وواضحة من حال امرأة العزيز في اهتمامها بالفتى وسعيها في إثره من أجل أن تقضي وطرها منه، ولم يكن قولهن ذلك على سبيل ذكر الحادثة ونقل الخبر، وإنما إضافة إلى ذلك كان فيه نوع من الاستهزاء بها مما وسع لديها الجرح بأنه لم يبق في القصر إلا العبيد حتى تراودهم عن أنفسهم، حيث كانت تشعر أن هذا الحديث الذي تناولها بالطعن ناتج عن المكر لا عن النصيحة، ولذا لجأت إلى طريقة في إثبات صواب ما أقدمت عليه إن كان في هذا الفعل شيء من الصواب من وجهة نظرها على الأقل، قال تعالى: { فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } 678.

677 - يوسف 30.

678 - يوسف 31.

ولما سمّت ما ذكرنه مكرًا لا بدّ أنّها كانت مطلعتهم على شيء ما، ممّا هي فيه من شغفها بالفتى، يقول الرازي: "إنّ النسوة إنّما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف صلّى الله عليه وسلّم والنظر إلى وجهه لأنّهنّ عرفن أنّهنّ إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن. وأن امرأة العزيز أسرت إليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السرّ، فلما أظهرن السرّ كان ذلك غدرا ومكرًا، وأنهنّ وقعن في غيبتها، والغيبة إنّما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر" 679.

فعندما سمعت بمكرهن، وأنهنّ يلمنها على ما بدر منها من محبة مفرطة لذلك الفتى أرادت إظهار عذرها لرفع اللوم والحرّج عندما يقفوا على حقيقة أمرها، فأعدت لهنّ وليمة تكون مناسبة في النظر إلى فتاها وإبداء رأيهنّ بعد ذلك ثمّ تكون لها الكلمة الفصل بعد أن يقفن على حقيقة جمال الفتى وحسنه وهيبته.

فكان منها أن دعت أولئك النسوة وأعدت لكلّ واحدة منهنّ مجلسًا معينًا وآتت كلّ واحدة منهنّ سكينًا، وهذا يعني: أنّ مسألة الإعداد وإيتاء السكاكين هو عمل مبرمج مخطط مدروس من جميع جوانبه، لأنّ الموائد عادة ما يكون عليها الطعام والشراب والفاكهة، والأدوات التي تستعمل من قبل المدعوين كلّ يأخذ الأداة التي تناسبه للطعام الذي يشتهيّه.

غير أنّ الملاحظ في هذا الموقف أنّ هذه المأدبة هي مأدبة خاصة مقيدة من قبل امرأة العزيز بالتنظيم الذي فرضته على هذه المائدة في هذه المناسبة بحيث كان المتكأ جماعيًا والسكاكين فرادي، بمعنى: أنّه عمل مقصود لذاته من أجلّ ضمان نتيجة جماعية لا تستثني منهنّ أحدا، ولذا،

679 - تفسير الرازي، ج 9، ص 32.

جاءت لكلّ واحدة من المدعوات وآتتها سكيناً بيدها، لأنّها كانت تخشى لحظة دخول يوسف أنّ إحداهن في غنى عن السكين فتنخفض نسبة النتيجة التي كانت تأملها، لأنّ نجاة إحداهن من مكر امرأة العزيز يكفي لأن يردّ رأيها ويسفهاها في تصرفها بأنه لم يصبها ما أصاب الأخريات، بمعنى أنه لو واحد من عشرة قال: أنّ الشمس تبزغ من الشرق يكفي لأن يسفه عقول التسعة الآخرين على إجماعهم على الخطأ. فلما ضمنت أخذ كلّ واحدة منهن سكيناً ليستخدمنها فيما أعدته لهن قالت (أخرج عليهن) في هذه اللحظة كلّ واحدة تشتغل بما في يديها بسكينها في تقطيع اللحم أو الفاكهة ويخرج عليهن يوسف بحسنه وجماله فينظرن إليه: (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن). حيث فقدان الإحساس بالألم من شدة تأثير وقع حسن يوسف عليهن، فما الذي جعل الجانب النفسي المعنوي يطغى على الجانب الحسي العضوي فيعطل الشعور بالألم لدى هؤلاء النسوة، لأنهن بعد تقطيع أيديهن أتمن الحديث عن المشهد الماثل أمامهن فقد قلن جميعاً: (حاشا لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم). وهذا مخالف لطبيعة البدن ووظائف الأعضاء.

إنّ المتخصصين في علوم الأحياء والسلوك ووظائف الأعضاء يكادون يجمعون على أنّ الإحساس بالألم يفوق جميع الأحاسيس الأخرى، مثل الإحساس بالجوع أو العطش والمتطلبات العضوية الأخرى.

بمعنى آخر: أنّ الأحياء قد يوقفها الألم عن طلب ما تسد به جوعها وعطشها حتى عند الضرورة، وقد قرروا ذلك بناء على عدد كبير من التجارب على حيوانات مختلفة وحتى على الإنسان نفسه. وعادة ما تتم هذه التجارب بوضع حاجز يسبب ألماً شديداً للكائن الحي عند محاولة اجتيازها للوصول إلى طعامه وشرابه، فقد لوحظ أن كثيراً من هذه الأحياء تتردد كثيراً قبل اجتياز هذه الحواجز تحسباً للألم المتوقع، وقسم كبير منها

أدى به الجوع والعطش إلى محاولة هجر المكان تخلصاً من هذا الضغط العضوي المؤلم، وعند الفشل بمغادرة المكان، قد يقرر الكائن الحي اجتياز الحاجز وتحمل الألم في سبيل سد هذه الحاجة العضوية المهمة، في حين أن هناك قسماً من الأحياء تصل به عدم القدرة على تحمل الألم إلى الموت.

ومعنى هذا: أنّ التركيز من قبل الأحياء على حاجة عضوية دون حاجة فإن الشعور بالألم الحاجة المستغنى عنها يتلاشى أو يضعف نتيجة التركيز على حاجة أخرى أشد إلحاحاً

نفهم من هذا السلوك أمراً مهماً هو أنّ أي مطلب أو حالة عضوية تؤدّي بالكائن الحي إلى تجاهل الألم أو تحمل الإحساس به، فلا بدّ أن يكون ذلك المطلب أو تلك الحاجة العضوية من القوّة بحيث تعطل ولو مؤقتاً إحساس الكائن الحي بالألم، أو تقلله بخفض نسبته على الأقل.

وفي نظرة تفكر فيما تقدم بوصف حال مشابه لحال الأحياء التي تتجاوز مرحلة الإحساس بالألم للحصول على شيء أكثر أهمية، أو قل أكثر إلحاحاً في قوله تعالى: (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن) إذ تشير الآية إلى واقع حال تجاوز فيه الإحساس بالألم إلى حاجة أخرى، وهو موقف الانبهار برؤية من وقعت أعينهن عليه، حيث تعطل الإحساس بالألم قطع اليد، هذا الألم المعرفة شدته ضرورة بسبب تركيز خلايا الحس في هذا الجزء من الجسم. ولوجود مؤثر آخر هو أشد إلحاحاً كحاجة بدت نفسية أول الأمر ثمّ تحولت إلى عضوية بعد ذلك، هذا الأمر أدى إلى تعطيل إحساس النسوة بالألم قطع السكين ولو لوقت مؤقت.

وأما من جانب آخر فإنّ عملية ترتيب الأمر على هذا النحو من قبل امرأة العزيز، دليل على أنّها صاحب قرار في السلطة متمرس في العمل والإدارة والتنظيم، ذلك أن كلّ خطوة كانت تخطوها في تعاملها مع أنتشار

الخبر يدل على خبرة مكتسبة في التنظيم والإدارة من خلال مركزها الاجتماعي والسياسي بحيث وصلت إلى مبتغاهما من خلال تخطيطها في عملية تنظيم مجريات الحدث وفق ما أرادت دون أن تقع في أي خطأ يؤدي إلى إفشال ما أقدمت عليه وصولاً إلى النتيجة التي كانت تتوقعها من موقف أولئك النسوة التماساً لنفسها العذر في المراودة والهّم، فقد كان الأمر منذ بدايته يجري بعقلية مستنيرة من الوعي في الإقدام على الفعل إن صح التعبير وانطبقت الصورة هنا على هذه القضية ضمن مجريات الوعي فيما يبتغيه إنسان من إقدامه على فعل معين، ذلك أنّ تغلق الأبواب قبل الهيئ هي خطة محكمة كي لا ينكشف الأمر، ولكن على ما يبدو أنّ انكشاف السر كان بسبب المواجهة عندما ألفيا سيدها لدى الباب، وقد أفادت كثيراً من هذه التجربة الأولى، لأنّ دعوتها لنسوة في المدينة كانت بناءً على نتائج التجربة الأولى، ولذا نرى أنّ إعداد المتكأ وإيتاء السكاكين وتقطيع الأيدي لم يعلم له أحد سبباً، أو لم يعلم أحد السبب الذي قطع النسوة أيدهن لأجله، وظلّ طي الكتمان إلى أن أخبر به يوسف صلّى الله عليه وسلّم رسول الملك عندما أراد أن يستخلصه الملك لنفسه، فقال يوسف صلّى الله عليه وسلّم: {فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} 680.

السجن مثنوى:

تحول يوسف الذي أراد له الذي اشتراه من مصر أن يكرم مثنوى إلى موضع آخر غير قصر العزيز، موضع اختاره يوسف ليكون مثنوى كريماً له مصداقاً لقوله تعالى: {قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ

إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى
حِينَ {681.

هنا نتساءل:

كيف يكون السجن مثوى كريما؟

ألم يكن يوسف في مثوى كريم من قبل؟

بادئ ذي بدء من المهم القول: أنّ السجن لم يكن حدثا طارئا في
مسيرة الرسول يوسف صلى الله عليه وسلم الدعوية أو الشخصية، بل يمثل
السجن نُقْلة في حياة يوسف وفي مسيرة الدعوة وفي تحقّق الرؤيا اليقينية.

ولإثبات ذلك لا بدّ من البحث في دلالات السجن أكثر من
البحث في السجن نفسه، لأنّ السجن كغيره من المواضع التي مرت
بيوسف، فهو ضيق كضيق صدور إخوته معه، وهو لم يكن أوسع من
الجبّ الذي ألقاه فيه إخوته، ولم يكن أوسع من بيت كانت الدّعوة إلى
المعصية تلاحقه فيه، فالسجن كمكان لا يمثل بأية حال من الأحوال متغير
كبير في حياة يوسف صلى الله عليه وسلم، فقد كان من اختياره مصداقا
لقوله تعالى: (قَالَ رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي
كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)، ولو شاء لاختر غيرهن ولكن
عقيدته الراسخة رغبت في السجن أكثر من ذلك الفراش الذي كان يُدعى
إليه مع الفارق بين الاثنين على مستوى الحساب المادي، فأين هذا من
ذاك، ولكن يوسف اختار السجن مثوى كريما وهذا هو المتغير الحقيقي،
وهذا هي الدلالة الحقيقية للسجن.

كيف يكون السّجن مثوى كريما؟

الإجابة لا تكمن في السّجن من حيث كونه سجنا؛ فهو بكلّ تأكيد لو جرد من دلالاته المجازية لم يكن أبدا مثوى كريما لأحد، ولكن قيام السّجن بما تهوى النفس وما تحب، حوله من مكان للعقوبة إلى مكان للحفاظ من الكيد، هنا تحول السّجن من كونه وسيلة عقاب إلى غاية نجاة هذا من جهة.

أما كونه مثوى كريما من جهة ثانية فيتضح جليا من خلال المثوى المقابل أو لنقل المثوى البديل، فلو نظرنا في خصائص المثوى الآخر كان من البديهي أن يظهر خصائص الضد.

المثوى المقابل للسّجن، هو مثوى وفيير وفيها متع تشتتها الأنفس الطامحة خلف الرغبات المنحرفة، وفيها عشق وشغف وحب من امرأة تقدم كلّ ما تملك ليوسف، فهو من باب المادية المجردة يحمل ميزات موجبة، ولكن المقصود يوسف الرّسول الذي اجتباه ربّه فأتم نعمته عليه وعلمه، وهذه المميزات والمغريات ما كانت لتثير يوسف وإن كان من أبناء البدو الذين ما رأوا من قبل مثل هذا الرغد في العيش.

لأنّ يوسف صلّى الله عليه وسلّم كان من أبناء النبوّة وسليلها، النبوّة التي لم تكن تضع في حساباتها أن ترجح يوما دنياها على دينها.

عليه فالمثوى المقابل للسّجن في حسابات يوسف هو كيد خبيث استعان بالله ليصرفه عنه ويكرمه بمثوى كريم هو السّجن حيث تحفظ كرامة يوسف في عقيدته وشخصه وسلوكه.

وتأكيدا على أنّه مثوى كريم فقد قرر يوسف صلّى الله عليه وسلّم أن يتخذ السّجن منطلقا لاستمرار دعوته، هنا يتبادر التساؤل التالي:

ألم يدعو يوسف بدعوة التوحيد من قبل؟

ألم يكلف بالرسالة من قبل؟

إذا كلف لماذا لم يبدأ التبليغ؟

ولماذا لم يظهر ذلك في بيت العزيز؟

هل كلف يوسف بالرسالة في السجن؟

متى كلف إذا؟

من خلال سيرة الحدث الذي أخبرنا به النص الكريم الموصوف من المولى عزّ وجلّ بأنه أحسن القصص يتبين أن يوسف صلّى الله عليه وسلّم أُخبر من أبيه أن ربّه اجتباه، وهذا يعني أن يوسف أُخبر بأمر مهم هو الاجتباء المتعلق بكلّ من الاصطفاء والتكليف.

فما هو الاجتباء؟

وما هو الاصطفاء؟

وما هو التكليف؟

الاجتباء: الجمع على طريق الاصطفاء واجتباء الله العباد تخصيصه إياهم بفيض يتحصل لهم منه أنواع من النعم بلا سعى العبد وذلك للأنبياء وبعض من يقارنهم من الصديقين والشهداء⁶⁸².

وقد ذهب علماء التفسير إلى أن الاجتباء يكون للنبوة، وقال آخرون بغير ذلك:

⁶⁸² - تاج العروس، ج 1، ص 328.

الاجتباء مشتق من ج بيت الشيء إذا خلصته لنفسك ومنه جببت الماء في الحوض، واختلفوا في المراد بهذا الاجتباء، فقال البعض: يجتبيك ربك بالنبوة، والاجتباء: الاختيار أي اختياره من بين إخوته، أو من بين كثير من خلقه. وقد علم يعقوب صلى الله عليه وسلم ذلك بتعبير الرؤيا ودلالاتها على رفعة شأنه في المستقبل فتلك إذا ضُمَّت إلى ما هو عليه من الفضائل آلت إلى اجتباء الله إياه، وذلك يؤذن بنبوءته. وإثما علم يعقوب صلى الله عليه وسلم أنّ رفعة يوسف صلى الله عليه وسلم في مستقبله رفعة إلهية لأنه عَلِمَ أن نعم الله تعالى متناسبة فلما كان ما ابتدأه به من النعم اجتباءً وكمالاً نفسياً تعيّن أن يكون ما يلحق بها، من نوعها 683.

وقال آخرون: المراد منه إعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة فأما تعيين النبوة فلا دلالة في اللفظ عليه 684.

ونحن نقول: إنّ الاجتباء ورد في مواضع عدة في النص القرآني وكلّ منها له دلالة التي يمكن أن تبين ما دلالة الاجتباء، فأوّل ما ورد مع آدم صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} 685

وينبغي أن نقدم أنّ آدم صلى الله عليه وسلم لم يكن عندما أكل من الشجرة نبياً، لذلك وقع العصيان منه، والعصمة من العصيان لا تكون للنبي إلا بعد ثبوت النبوة له، وهو لم يكن نبياً عندما أكل من الشجرة

683 - التحرير والتنوير، ج 7، ص 232.

684 - تفسير الرازي، ج 8، ص 496.

685 - طه 121، 122.

وقوله تعالى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهذا عطف ب(ثم) التي تعطي المهلة ثم ذكر الاجتباء والهداية 686.

ونعتقد أنّ الاجتباء هنا بالتوبة وربما يمكن القول أنّها أول توبة لعاصي ونعتقد أن هذا هو الاجتباء المخصوص لآدم، فأدم أول من تحصل لنفسه ثم لذريته على التوبة بعد العصيان.

وقال عزّ وجلّ في قصّة يونس صلّى الله عليه وسلّم بعد قصّة الحوت، {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} 687.

وهنا الآية تبين أن الجعل من الصالحين تفسير للاجتباء، وقال بعضهم: أن جعله من الصالحين، أي جعله من الأنبياء.

كذلك ذكر الاجتباء في قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} 688.

والآية هنا واضحة الدلالة على الاجتباء بعد التكليف بالنبوة لأنّ الله عزّ وجلّ ذكر نبوتهم (من النبيين) ثم بعد ذلك ذكر اجتبائهم.

هذا يعني: أنّ الاجتباء له دلالة الخاصة، وهو غير الاصطفاء وغير التكليف، فالاجتباء هو اختصاص في الاصطفاء، بمعنى أنّ الاجتباء لا يحدث لغير مصطفي من الله.

686 - فتح القدير، ج 5، ص 32.

687 القلم 48-50.

688 - مريم 58.

الاجتناء وما يتعلّق به:

1_ الاجتناء قد يحصل بعد متغير كبير في حياة النبي أو الرسول، كما حدث بعد عصيان آدم ومغاضبة يونس.

2- قد يكون الاجتناء خصوصية غير متعلقة بمتغير كما حصل مع سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 689.

وأصل الاجتناء الجمع على طريق الاصطفاء، ويطلق على تخصيص الله تعالى العبد بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي منه ويكون للأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام.

وهذا الكلام يعني أن الاجتناء حاصل بعد الاصطفاء والتكليف بالنبوة ومصداقه ما جاء في قوله تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} 690.

والاجتناء الاستخلاص ويؤول إلى الاصطفاء والاختيار، ويقال جبوت المال وجبيته، وعبر به للإيدان بأن الوقوف على الأسرار الغيبية لا يتأتى إلا ممن رشحه الله تعالى لمنصب جليل تقاصرت عنه همم الأمم واصطفاه على الجماهير لإرشادهم.

و(من) لابتداء الغاية وتعميم الاجتناء لسائر الرّسل عليهم السّلام للدلالة على أنّ شأنه صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أمر متين له أصل

689 - النحل 12- 121.

690 - آل عمران 179.

أصيل جار على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرّسل صلوات الله تعالى
وسلامه عليهم 691.

وهذا التفسير يؤكد أن الاجتباء حاصل للرسل جميعهم إذا كانت
من لابتداء الغاية، أو بعضهم إذا كانت من تبعيضية، وهذا أمر مهم جدا
لأنّ هنا تأكيد على أنّ الاجتباء خصوصية بعد الاصطفاء وبعد التكليف
بالرسالة أو النبوة.

3- ارتباط الاجتباء بالاطلاع على الغيب.

ارتبط الاجتباء في موضعين بالاطلاع على الغيب، في قوله تعالى:
(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مَنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ)

فالله وحده مطلع على الغيوب، وأنّ بعضا من عباده عبادا مجتبيين،
لا يعلمون إلا ما علمهم الله، ولا يخبرون إلا بما أخبرهم الله به من الغيوب.
وكذلك ما جاء مع يوسف صلّى الله عليه وسلّم في اطلاعه على
غيب المستقبل المتمثل في معرفته تأويل الأحاديث والرؤى.

4- يكون الاجتباء في بعض المواضع عام مطلق للفعل الدال على
ماهية الاجتباء وغاياته دون تحديد للمخصوص من العباد مصداقا لقوله
تعالى: { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا
وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى
المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ
يُؤْتِي } 692.

691 - تفسير الألوسي، ج 3، ص 336.

692 - الشورى 13.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ
وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ حَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا
جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ
مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ
النَّصِيرُ } 693.

أي: هو اختاركم لتلقي دينه ونشره ونصره على معانديه. فيظهر أنّ
هذا موجّه لأصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أصالة ويشركهم فيه
كلّ من جاء بعدهم بحكم اتّحاد الوصف في الأجيال كما هو الشأن في
مخاطبات التشريع 694.

فالاجتباء اختصاص من الله عزّ وجلّ لعبد أو مجموعة من العباد
بأمر مخصوص، وهذا غير الاصطفاء لأنّ الاصطفاء لا يتعلق بخصوصية
معطاة بل بما يحدث للذوات المصطفاة.

دلائل الاصطفاء:

1- أنّه افتعال من الصفوة وهي ما خلص من اللطيف عن كثيفه
ومكدره 695.

2- الاصطفاء تناول صفوا الشيء كما إنّ الاختيار تناول خيره
ومنه محمّد صلّى الله عليه وسلّم مصطفاه أي مختاره.

3- اصطفاء الله عبده قد يكون بإيجاده إياه صافيا عن الشوب
الموجود في غيره 696.

693 - الحج 77، 78.

694 - التحرير والتنوير، ج 9، ص 326.

695 - التعاريف، ج 1، ص 69.

4- معنى المصطفي: المختار، من الاصطفاء، وهو الاختيار، قال تعالى: {وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} 697، المصطفين: جمع مصطفي، وهو المختار، فالمصطفي هو المختار؛ لأن الله سبحانه اختار محمدا صلى الله عليه وسلم للرسالة من بين قومه، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يختار إلا من يعلم أنه يستحق الاختيار، وأنه يقوم بالمهمة؛ لأن هذه المهمة صعبة وعظيمة، فلا يختار الله إلا من هو لها أهل 698، قال سبحانه: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} 699.

5- الاصطفاء هو النبوة

فالنبوة اصطفاء إلهي إذ جرت سنة الله في خلقه أن يصطفي بعض عباده لمهمة النبوة والرسالة كما قال تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنَ النَّاسِ} 700، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} 701.

وهذا الاصطفاء والاختيار منة إلهية امتن الله بها على الأنبياء والمرسلين فلم يصلوا إليها بكسب ولا جهد سوى طاعة الله تعالى، ولا كانت ثمرة لعمل أو رياضة للنفس قاموا بها كما يزعم البعض 702.

696 - تاج العروس، ج 1، ص 465.

697 - ص 45-47.

698 - التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، ج 1، ص 43.

699 - الأنعام 124.

700 - الحج 75.

701 - آل عمران 33.

702 - محبة الرسول بين الإتياع والابتداع/ عبد الرؤوف محمد عثمان ص 28.

ونحن نقول: إنّ هذه المعاني الواردة عن الاصطفاء فيها الكثير من الدقة والصواب ولكنها فقيرة إلى حدود واضحة تعرف الاصطفاء وتميز بين أنواعه، فالاصطفاء هو مصطلح دال على ماهية أنّه فعل الله عزّ وجلّ مع عباده، ويحمل دلالة التصفية والاختيار معا وليس واحدا دون آخر، فالمصطفون من العباد يتم اصطفائهم لطاعة الله واختيارهم لمهمة من المهام التي كلفهم الله بها.

أنواع الاصطفاء:

. اصطفاء العقيدة مصداقا لقوله تعالى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} {703}.

أعطاكم الدين الذي هو صفوة الأديان وهو دين الإسلام.

2. اصطفاء نبوة أو رسالة مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي} {704}.

3. اصطفاء مهمة مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} {705}

4. اصطفاء عام: في قوله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} {706}.

والاصطفاء غير التكليف.

703 - البقرة 132.

704 - الأعراف 144.

705 - آل عمران 42.

706 - فاطر 32.

التكليف: لغة هو: إلزام الكلفة على المخاطب 707.

والتكليف بالأمر فرضه على من يستطيع أن يقوم به، وأمر التكليف أمر يصدره من يملك التكليف للإلزام بواجب 708.

التكليف بالاصطلاح فهو هو: إلزام ما ورد به الشرع تعبداً وهو نوعان:

أحدهما: ما تعلق بحقه من أمر بطاعة ونهي عن معصية.

الثاني: ما تعلق بحقوق عباده من تقدير الحقوق وتقرير العقود ليكونوا مدبرين بشرع مسموع ومنقادين لدين متبوع فلا تختلف فيه الآراء ولا تتبع فيه الأهواء وليعلموا به ابتداء النشأة وانتهاء الرجعة فتصلح به سرائرهم الباطنة له وتخضع له قلوبهم القاسية وتجتمع به كلمتهم المتفرقة وتتفق عليه أحوالهم المختلفة ويسقط به تنازعهم في الحقوق المتجاذبة ويكونوا على رغب في الثواب يبعثهم على الخير ورهب من العقاب يكفهم عن الشر وهذه أمور لا يصلح الخلق إلا عليها ولا يوصل بغير الدين المشروع إليها إذ ليس في طباع البشر أن يتفقوا على مصالحهم من غير وازع ولا يتناصفوا في الحقوق من غير دافع لحرصهم على اختلاف المنافع 709.

ويوسف صلى الله عليه وسلم بدأ الإخبار به مجتبي (ليجتبيك ربك)، عليه وبناء على ما تقدم يتبين أن:

. إذا كان الاصطفاء قبل الاجتباء فأن يوسف كان مصطفى من قبل، ثم اجتباه ربه.

707 - التعاريف، ج 1، ص 21.

708 - المعجم الوسيط، ج 2، ص 506.

709 - أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ج 1، ص 27.

. إذا كان الاصطفاء بعد الاجتباء، يكون يوسف لم يزل لم يصطفي، وهذا غير معقول، لأنّ الاصطفاء متحقق في يوسف وآبائه وهو أمر مخبر به من قبل لكل هؤلاء المصطفين، ولكن حدثا آخر حصل وجب أن يتمّ إبلاغه به وهو الاجتباء.

أما التكلّيف بالتبليغ فلم يظهر حقيقة جليّة إلا في السّجن مصداقا لقوله تعالى: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 710.

هنا تصريح واضح من يوسف صلّى الله عليه وسلّم برسالته التي توضحت بالآتي:

. أنّها رسالة متممة للرسالة السابقة رسالة إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم.

. دعوة التوحيد أولى أولياتها.

3 . أنّها رسالة الدين القيم.

لكن هل يعني ذلك أنّ يوسف لم يدع من قبل؟

هل كان السّجن منطلق الدعوة؟

نقول: إن يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان من الموحدين مذ كان، وليس هو أمر محدث عنده وهذا يعني أن ظاهرا من القول والفعل لا بد أن يبدو عليه وعلى معاملاته مع الآخرين، وهذا واضح في عدة مواضع، فقد استعاذ بالله من دعوة امرأة العزيز مخاطبا إياها، (معاذ الله إنه ربي)، ثم دعائه (ربّ السّجن أحبّ إليّ).

وهذا أمر لا مجال للشك فيه لأنه من المسلمات أن يعبر الإنسان عن قناعاته وإن لم يدعو إليها، وذلك لأن أفعاله تصدر عنها.

هنا نقول: إن يوسف قبل السّجن قام بما عليه من عبادة الله الواحد الأحد، وإتباع أوامره وتجنب نواهيه، وبالذعاء خوفا وطمعا ربّ اصرف عني كيدهنّ، {فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 711.

لكننا نعتقد أنّ التكليف بالدعوة بدأ من حيث قدر الله له زمانا ومكانا، تبليغا عاصر معجزات وهذه هي سنة الرسالات جميعا، فقد كان يوسف يخبر أصحاب السّجن بما لم يحدث بعد، فقد كان يخبرهم بتأويل الغائب المستقبل من الأحداث، ونعتقد أنّه لم يكن مقصورا على الإخبار بالطعام بل بغير ذلك أيضا ويدل عليه تعبيره للرؤيا {يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيسْتَقِي رَبُّهُ حَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} 712، لكن ذكر الطعام لاهتمام المسجونين به فهو من مهماتهم {قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا

711 يوسف 34.

712 يوسف 41.

بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} 713.

والمعجز أن يوسف صَلَّى الله عليه وسلّم أخبر أصحاب السّجن بما
يدور في الرؤيا التي رآوها.

ولا نبعد إذا قلنا أنّ الباحث في معجزات الرّسول يوسف صَلَّى الله
عليه وسلّم ليس له إلا أن يقف أمام استعصامه بمواجهة الدعوة الشهوانية،
هذا الاستعصام والثبات عليه كان معجزته التي أثبتت صدقه وثباته على
الحقّ حين طلبه الملك، وحصل بعدها على التقدير والاعتراف من الملك
ومن معه بصدق يوسف.

أحداث السّجن:

نتبين الآن كيف أفاد يوسف صَلَّى الله عليه وسلّم من الرّمن
والمكان، فحول السّجن من مثوى أليم إلى مثوى كريم، وذلك من خلال
تعامله من المتغيرات وإفادته من الأحداث بما علمه ربّه.

وقف أوّلا مع حادثة تأويل الرؤيا لنتبين كيف حولها يوسف بعلمه
من الأفق الضيق الذي يتعلق بصاحبي السّجن إلى أفق أوسع ينطلق فيه
إلى نقطة الهدف وهو الاتصال بالملك وتبليغه دعوة الحقّ.

لقد كان لنا وقفة مع تأويل يوسف لرؤيا أصحاب السّجن من قبل،
وهنا نقف مع أمر مهم آخر هو ما جرى بعد التأويل، وبالتحديد في قول
يوسف: {وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ
الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ} 714.

713 يوسف 37.

714 يوسف 42.

نقول أوّل: ما يوجب الوقوف عنده مناقشة النسيان المذكور،
ونتساءل:

ممن كان النسيان؟

ولماذا؟

ذكر المفسرون آراء تذهب مذهبين هما:

الأوّل: أنّ الموصوف بالظن هو يوسف صلّى الله عليه وسلّم، ويكون
المعنى وقال الرجل الذي ظن يوسف صلّى الله عليه وسلّم كونه ناجيا،
ويحمل هذا الظن على العلم واليقين، وهذا إذا قلنا بأنّه عليه الصلّاة
السّلام إنّما ذكر ذلك التعبير بناء على الوحي. وورود لفظ الظن بمعنى
اليقين كثير في القرآن، قال تعالى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ} {715،
وقال تعالى: {إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّهِ} {716، أو أن يحمل هذا
الظن على حقيقة الظن، وهذا إذا قلنا إنّّه صلّى الله عليه وسلّم ذكر ذلك
التعبير لا بناء على الوحي، بل على الأصول المذكورة في ذلك العلم، وهي
لا تفيد إلا الظن والحسبان.

ثم قال تعالى: {فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ}، وفيه قولان:

الأوّل: أنّه راجع إلى يوسف، والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف أن
يذكر ربّه، فتمسكه بغير الله كان مستدركا عليه، فلما رجع يوسف إلى
المخلوق لا جرم وصف الله ذلك بأنّ الشيطان أنساه ذلك التفويض،
وذلك التوحيد، ودعاه إلى عرض الحاجة إلى المخلوقين، ثم لما وصفه بذلك
ذكر أنّه بقي لذلك السبب في السّجن بضع سنين، والمعنى: أنّه لما عدل

715 - البقرة 46.

716 - الحاقة 20.

عن الانقطاع إلى ربّه إلى هذا المخلوق عوقب بأن لبث في السّجن بضع سنين، وحاصل الأمر أنّ رجوع يوسف إلى المخلوق صار سببا لأمرين أحدهما: أنّه صار سببا لاستيلاء الشيطان عليه حتى أنساه ذكر ربّه، الثاني: أنّه صار سببا لبقاء المحنة عليه مدة طويلة.

القول الثاني: أن يقال إنّ قوله: (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) راجع إلى الناجي والمعنى: أنّ الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يذكر يوسف للملك حتى طال الأمر (فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) بهذا السبب 717.

ونحن نقول:

إنّ القيام بأمر الدعوة والرسالة عند يوسف حاصل في السّجن (أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَیْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) وهذا يعني: أنّ يوسف كان مشغولا بالدعوة إلى الله عزّ وجلّ، فإذا كان ذلك متحققا فلا شك أنّ النسيان لا يمكن أن يتحقق عند يوسف صلّى الله عليه وسلّم، لأنّ النسيان لا يحصل لأمر العقيدة عند الرّسول أو النبي، بل ربّما يحصل في بعض أمور الدنيا لذلك فنحن نعتقد أنّ النسيان لم يكن من يوسف وإتّما كان من صاحب السّجن الذي نجا وفرح بنجاته فنسي يوسف.

هذا من جانب ومن جانب آخر نقول:

لو كان يوسف الذي نسي فهذا يعني أنّ صاحب لم ينس، فلماذا لم يذكره عند الملك بما يذهب عن يوسف اللبث في السّجن؟

فالنسيان كان سبب اللبث في السّجن، لذلك عندما تذكر صاحب السّجن العاصر انتهى لبث يوسف في السّجن، ولو كان نسيان يوسف هو السبب، ما كان تذكر العاصر سببا في انتهاء اللبث.

717 - تفسير الرازي، ج 9، ص 49.

عليه نقول جازمين: أنّ النسيان كان من صاحب السّجن ودليله ما ذكرنا من النصوص والحجج المنطقية.

ومن أحداث السّجن المهمة تأويل يوسف لرؤية الملك، { وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ حُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوا أَضْعَافٌ أُخْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ حُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ } 718.

وقد تحدثنا عنها في موضوع رؤى يوسف صلى الله عليه وسلم.

والمهم في هذا الموضوع أنّ تأويل الرؤيا لم يكن لذاته وإنما كان وسيلة اتصل بها يوسف صلى الله عليه وسلم بطريق النجاة المفضي إلى الوصول إلى الحالة المثالية في التبليغ لدعوة الله عزّ وجلّ، فكون يوسف سيتصل بالملك ثم يصبح بعد ذلك عزيز مصر لا شك أنّ ذلك سيجعله في موضع القوّة والقدرة على التبليغ لدعوته بما يضمن تحقيق أهداف الرسالة.

لكن يوسف لا يريد لنفسه حتى الشبهة في هذه المسيرة الواعية، فقد طلب قبل لقاء الملك وقبل الخروج من السّجن إثبات براءته، وهذا كما نعتقد لا يتعلق برغبة يوسف الذاتية أي رغبته في إثبات صدق ذاته، وإنما هو لصالح الدعوة بالدرجة الأساس في انطلاقها القوية والجديدة، فرسول

متهم كان سيبدو أضعف في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، لذلك أصر يوسف على تصحيح الأمور وكشف الحقائق وهذا ما حدث وفقا للآتي:

سؤال النسوة.

اعتراف امرأة العزيز.

وقد بيّن الله عزّ وجلّ بدقة ما حصل فقال عز من قائل: { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } 719.

فكانت البراءة ليوسف من الفعل أو من الهم به، ولو كان هم به كما يذهب البعض لجاء في اعتراف امرأة العزيز ما يؤكّد ذلك أو ما يشير إليه، ولو كان يوسف حاشا لرسول الله قد هم لما طلب فتح الموضوع مرة أخرى خوفا على سمعته من أن تعترف امرأة العزيز بأنه هم بها وتأخر لسبب من الأسباب.

وهكذا؛ فإنّ السّجن بما فيه وبأحداثه كان مثوى كريمة لرسول الله يوسف صلّى الله عليه وسلّم، مثوى حفظ ليوسف عفته وصدقه.

بقي تساؤل آخر يدعونا إليه قول يوسف صلّى الله عليه وسلّم: (وَالْأَلَا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ):

هل لو لم يختار يوسف السّجن كان صبا إليهن؟

إنّ جملة (وإلاّ تصرف عني كيدهن) خبر مستعمل في التحوّف والتوقّع التجاء إلى الله وملازمة للأدب نحو ربّه بالتبرؤ من الحول والقوّة والخشية من تقلب القلب ومن الفتنة بالميل إلى اللذة الحرام. فالخبر مستعمل في الدعاء720.

يعني أنّ يوسف صلّى الله عليه وسلّم كان عاقد العزم على الانصراف عنهن وإتّما طلب العون من الله عزّ وجلّ للتغلب ومساعدته في رد كيدهن ليس إلاّ، وهذا يؤكده ما جاء في مضمون الاستجابة (فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدهن).

وعليه: فالكيد ليوسف صلّى الله عليه وسلّم لأسباب اقتضت الحكمة الإلهية أن ينتهي الفراق الطويل بين يوسف صلّى الله عليه وسلّم وأبيه وإخوته، بخاصة بعد أن أصبح إخوته أمامه وبمتناول يده، فكان البحث عن طريقة يتحقّق من خلالها هذه اللقاء يداعب فكر يوسف إلى أن استقر على أمر وجد فيه ما يبغى، فأمر فتيانَه بوضع صواع الملك في رحل أخيه الصغير: إذ يقول تعالى: { فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ }721.

هذه الطريقة وضعت إخوته في موضع لا يستطيعون من خلاله ملّمت الأمور وإنهائها بالنهاية التي يريدونها أن تتحقّق، ذلك أنّ ما حصل أمامهم من وجود صواع الملك في رحل أخيهم جعلهم لا يحركون ساكناً، بل ارتموا في أحضان العزيز محاولين خلاص أخيهم ممّا رأوه أمامهم.

720 - التحرير والتنوير، ج 7، ص 263.

721 - يوسف 70 - 73.

إنّ الفصل في هذا الأمر لابدّ أن تكون نهايته بما يريده عزيز مصر وإلا لم يتحقّق منه ما قد دُبر له، وهنا يتقابل حلالن:

الأوّل: طرح الأمر على إخوته فيكونون هم القضاة فيه.

الثاني: طرح الأمر على شريعة ملك مصر ومن خلالها يكون الحكم.

هذان الأمران لابدّ أن يكون أحدهما يخدم العزيز كي يحقّق من خلاله ما يريده، وذلك ضمن أمر كيدي لا يتمثل فيه الشر مطلقا بل يكون فيه الخير الذي يريد منحه لأبيه وإخوته ولأهله.

إذن، لابدّ من سماع ما يكون من شريعة الإخوة أو عرفهم أو ما هو متعارف عليه ضمن السياق نفسه، إذ يقول تعالى: {قَالُوا فَمَا جزاؤه إنّ كُنْتُمْ كاذِبِينَ} قَالُوا مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جزاؤه كَذَلِكَ نُجْزِي الظَّالِمِينَ {722}. نفوا عن أنفسهم الاتّصاف بالسرقة فأبلغ ممّا نفوا به الإفساد عنهم، وذلك بنفي الكون سارقين دون أن يقولوا: وما جئنا لنسرق، لأنّ السرقة وصف يُتعيّر به، وأما الإفساد الذي نفوه، أي التجسس؛ فهو ممّا يقصده العدوّ على عدوّه فلا يكون عارا، ولكنه اعتداء في نظر العدوّ.

وقول الفتيان: (فما جزاؤه إنّ كنتم كاذبين) تحكيم، لأنّهم لا يسعهم إلا أن يعيّنوا جزاء يؤخذون به، فهذا تحكيم المرء في ذنبه.

ومعنى (ما جزاؤه): ما عقابه. وضمير (جزاؤه) عائد إلى الصّواع بتقدير مضاف دل عليه المقام، أي ما جزاء سارقه أو سرّفته.

إنّ من وجد في رحله الصّواع هو جزاء السرقة، أي ذاته هي جزاء السرقة، فالمعنى: أنّ ذاته تكون عوضا عن هذه الجريمة، أي أن يصير رفيقا

لصاحب الصواع ليتمّ معنى الجزاء بذات أخرى. وهذا معلوم من السياق إذ ليس المراد إتلاف ذات السارق، لأنّ السرقة لا تبلغ عقوبتها حدّ القتل. وقد حَكَمَ إخوة يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أنفسهم بذلك وتراضوا عليه فلزمهم ما التزموه.

ويظهر أنّ ذلك كان حُكْمًا مشهورًا بين الأمم أن يسترقّ السارق. وهو قريب من استرقاق المغلوب في القتال. ولعله كان حكمًا معروفًا في مصر لما سيأتي قريبًا عند قوله تعالى: (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) وجملة (كذلك نجزي الظالمين) بقيمة كلام إخوة يوسف عليه السلام، أي كذلك حُكْمَ قومنا في جزاء السارق الظالم بسرقة؛ أو أرادوا، أنّه حكم الإخوة على من يقدرّ منهم أن يظهر الصواع في رحله، أي فهو حقيق لأنّ نجزيه بذلك.

والإشارة بـ(كذلك) إلى الجزاء المأخوذ من (نجزي)، أي نجزي الظالمين جزاء كذلك الجزاء، وهو من وُجد في رحله 723.

هذا الجزاء الذي يريده يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن خلاله يستطيع الاحتفاظ بأخيه وحتى يكون بعد ذلك منطلقًا في التعامل مع أبيه وإخوته.

أمّا لو كان الأمر ضمن حالة مغايرة، أي لو أنّ يوسف طرح أمر السرقة على شريعة الملك؛ فإنّ ذلك لا يتحقّق ضمن ما يصبو إليه، ففي شريعة الملك السارق:

- يغرم.

- يضرب.

723 - تفسير التحرير والتنوير، ج 7، ص 299.

وهذان الأمران لا يدخلان ضمن النسق الذي رسمه يوسف صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} 724، وفيه بحثان:

الأول: المعنى ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف، وذلك إشارة إلى الحكم باسترقاق السارق، أي مثل هذا الحكم الذي ذكره إخوة يوسف حكماً ليوسف.

الثاني: لفظ الكيد مشعر بالحيلة والخديعة، وذلك في حق الله تعالى محال، فأمثال هذه الألفاظ تحمل على نهايات الأغراض لا على بدايات الأغراض، فالكيد السعي في الحيلة والخديعة، ونهايته إلقاء الإنسان من حيث لا يشعر في أمر مكروه ولا سبيل له إلى دفعه، فالكيد في حق الله تعالى محمول على هذا المعنى. ثم اختلفوا في المراد بالكيد ههنا فقال بعضهم: المراد أنّ إخوة يوسف سعوا في إبطال أمر يوسف، والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره. وقال آخرون: المراد من هذا الكيد هو أنّه تعالى ألقى في قلوب إخوته أن حكموا بأنّ جزاء السارق هو أن يسترق، لا جرم لما ظهر الصواع في رحله حكموا عليه بالاسترقاق، وصار ذلك سبباً لتمكن يوسف صلى الله عليه وسلم من إمساك أخيه عند نفسه 725.

عليه: يكون كيد الله تعالى ليوسف فيه الصلاح والخلاص:

فالصلاح يكون لهؤلاء الإخوة في وقوف الزمن لديهم ولو لبرهة كي يتفكروا ويتعظوا، بمعنى يمرون بحالة استرجاعية يكون فيها إعادة إنتاج للماضي والحاضر، فتظهر أمامهم دائرتا المتوقع وغير المتوقع، فيتحقق لهم

724 يوسف 76.

725 - تفسير الرازي، ج 9، ص 84.

الانزياح عن دائرة التفكير الأولى التي وسموا بها، فالكيد بيوسف ظل وسمًا لا يفارقهم مهما طال الزمن، ذلك أن علاماته بدت واضحة للعيان لا سيما حالة الحزن التي رافقت يعقوب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأوصلته إلى أن ابيضت عيناه من الحزن.

أما الخلاص فكان لحالة جماعية تمثل فيها الأصول الأولى ليوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مصداقا لقوله تعالى: { اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ } 726 "هذا تعبير قرآني دقيق، أن يحضروا معهم كل من يمت بصلة قرابة لهم أو يعمل معهم، ولم يقل يوسف (بالكم) حتى لا يأتوا بالأعيان فقط.

ونلاحظ أنه لم يذكر والده في أمر يوسف لأخوته أن يأتوه بكل من يمت لهم بصلة قربي؛ لأنّ في مثل هذا الأمر من موقع عزيز مصر إجبارا للأب على المجيء، وهو يجلب أباه عن ذلك "727.

726 - يوسف 93.

727 - تفسير الشعراوي، ج 1، ص 4476.

قصة يوسف

(رواية)

قصة يوسف

(رواية)

بزغت شمس الصّباح بعد أن ملّمت الليل وطوته خلفها، فبدأت تنشر أشعتها على الأرض لتوقظ الخلق كي يبدؤوا يوماً جديداً من حياتهم، وفي أحد البيوت المتناثرة يرقد يوسف أحد أبناء النبي يعقوب عليه الصّلاة والسّلام، إذ داعبته أشعة الشمس فأيقظته من نوم عميق، فما أن تحسس حرارتها نظر إليها وكأنّه ينظر إليها لأوّل مرّة، فقد ملأ عينيه منها؛ فإذا به يقفز من فراشه ويللم أطراف أثوابه ويهرع إلى أبيه فقد انتابه شعور غريب داعب مخيلته وهزّ فيه جوانب التطلّع لما يراه في نومه.

طرق باب أبيه، وهذا من عادته، ثم استأذن بالدخول وجلس بين يديه ملقياً التحية عليه.

قال له:

يا أبت إيّ رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين.

انتفض الأب من مكانه ثم عانق يوسف عناقاً طويلاً متمتماً بكلام كلّ دعاء وطلب من الله تعالى.

نظر إلى ابنه والدموع تنهمر من عينيه.

قال يوسف:

ما بك يا أبت.

قال يعقوب:

يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إنّ الشيطان
للإنسان عدو مبين.

تساءل يوسف في نفسه:

ما هذه الرؤيا التي قلبت أبي إلى هذا الحدّ، وجعلته يخاف عليّ
وكأنني مقدم على مستقبل مظلم يجعل من إخوتي يكيدون لي كلّ هذا
الكيد؟

نظر إلى أبيه

ثم اقبل عليه يعقوب معانقا وامتتما في أذنه أنّ الأمر يجب أن
يكون سرّاً لا يطلع عليه أحد وان كانوا إخوته.

اتكأ يعقوب على وسادته متأملاً وجه يوسف كأنّه يراه لأوّل مرّة،
مرّر يده على شعر يوسف ثمّ على كتفه فقال له:
أبشر يا بني إنّ رؤياك يكمن فيها الخير كلّهُ.

تساءل يوسف:

كيف يا أبتّي؟

قال يعقوب:

لم تعد صغيراً يا بني أريد أن أخبرك أمراً ليس هو بالغريب علينا.

قال يوسف:

ما هو يا أبتّي؟

قال يعقوب:

لقد اجتباك الله تعالى وسوف يكون لك شأن عظيم رغم كيد إخوتك لك.

قال يوسف:

وهل سوف يكيّدون بي إخوتي؟

قال يعقوب:

نعم يا بني لكن كيدهم سيكون لصالحك إن شاء الله.

التفت يوسف يمينا وشمالا ثم نظر إلى وجه أبيه يتملكه شعور غريب لم يشعر به من قبل، كأنّ سحابة أظلمته، وهبة عليه نسمة فاترة داعبت وجهه الوضاء.

أحس أنّ حياته قد بدأت الآن، فهذا المجلس كان البداية التي لا يعرف كيف بدأت، فمنذ صغره يتقلب بين أحضان أبيه، يسمع عن أجداده إبراهيم وإسحاق، فقد دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

خرج يوسف من عند أبيه منتشيا واثق الخطوات بعد أن دخل متعثر الخطوات يبحث عن تأويل واضح لرؤياه، أمّا الآن فقد تملكته رغبة عارمة في معرفة متى يكون له ذلك.

كان يلزم أخيه الصغير دون إخوته الباقين، فيلعب معه ويجنو عليه كما تحن أم على ابنها.

اجتمع إخوان يوسف العشرة في مكان لا يسمعون أحد إلا ربّهم، يتملكهم إحساس عارم يفيض حسرة وتأوه وحسد.

قال أحدهم:

إنّ أبانا يفضل يوسف علينا.

قال آخر:

نعم إنّه يحبّه حبًّا جمًّا.

زاد آخر:

لماذا كلّ هذا الحبّ؟

ألا نستحقّ نحن هذا الحبّ؟

التفت أحدهم، وقال:

لدي حلّ ينهي هذا الأمر ونخلي وجه أبينا لنا ونكون من المقربّين له.

استفهم الجميع وكأنّ على رؤوسهم الطير يريدون أن يعرفوا كيف يكون الحلّ؟

التقت الوجوه فالحواب قد استعلت على العين والأذن صاغية تريد أن تسمع ما يثلج القلب.

قال الذي اقترح الحلّ:

أقول لكم عندي الحلّ.

قالوا جميعا:

نعم نحن صاغون.

قال:

اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا.

انسحبت الوجوه على ما كانت عليه، وأصابع أيديهم مررت على
أحناكهم يمينا وشمالا، فهذا الطرح لم يكن بالحسبان.

الطرح.

التغريب.

نطق أحدهم تقتلوه أرجوكم:

لا لا نلقيه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة.

اتفق الجميع على هذا الاقتراح، وكأنّ هذا الرأي هو المنتظر، فهم لا
يريدون قتله، بل يقصدون إبعاده عن أبيهم.

لم تمضي إلا أياما معدودة عن هذه الجلسة حتى عزموا أمرهم على
المضي فيما اتفقوا عليه.

كان يعقوب يتأمل الصحراء دائما فيرى عصف رياحها وكأنّه أنياب
ذئب تبحث لها عن فريسة، فتتهيج رمال الصحراء لتستقر في مكان آخر،
هذه هي مداعبة الصحراء كما يصفها، وان كانت الصحراء لا تعرف
المداعبة فهي قاسية بكلّ ما فيها، فسرايها دائم، وماؤها شحيح، وضوايرها
المفترة تبحث دائما عن صيد ثمين.

كان لا يأمن لها وان كانت سكنه، فقد جعل من عينيه سورا
ليوسف وأخيه، يخاف عليهما الآن أكثر من أيّ وقت مضى؛ فالرؤيا قد
منحته هذا الخوف الذي دبّ فيه كدبيب النار في الهشيم.

مالت الشمس عن كبد السماء ولاح أفقها على قوم يعقوب ومن
حوله، لم يكن أخوة يوسف في هذا اليوم كعادتهم، بل انتفضت أيديهم من

أعمالهم المتنوعة، وبدءوا يتوافدون على بيت أبيهم، فاكتمل عددهم وأصبحوا صفا واحدا أمام يعقوب.

قالوا له:

مالك يا أبانا لا تأمنا على يوسف.

هذا الكلام فيه خرق لقوانين الأخوة التي أرساها الله تعالى، وهم يعرفون ذلك، فأحساسهم وما يروه يخبرهم أنّ أباهم لا يأمن لهم المضي مع يوسف إلى أيّ مكان.

ألحّ الأخوة بالطلب، وكأنّ طلبهم هذا سيذر عليهم الخير والتقرب من أبيهم كما يتصورون، فشكّلهم اتسم بالتحايل والكيد بيوسف.

كان الأب يرى في هذا الجمع بداية تحقّق رؤيا يوسف؛ فليس ما فيه يدل على الخير إلا أن ما سيتحقّق مستقبلا يكمن فيه الخير الذي ارتضاه الله تعالى لهذا البيت النبوي.

كانت عيونهم عامرة بالكيد، فهي تتهرّب من النظر في عين يعقوب، وحتى أنفاسهم فهي مجبوسة تبحث لها عن مخرج.

يا أبانا أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لناصحون.

فأجاب الأب المتوجس على ابنه خوفا:

إني أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون.

نطقوا بصوت واحد:

كيف يأكله الذئب ونحن عصبة.

لا يمكن أن نتركه دون مراقبة منا.

وافق يعقوب على إرسال يوسف معهم، لكن هذه الموافقة كانت
ملؤها الخوف الذي لم يفارقه منذ تأويله للرؤيا.

لم يستبشر عزيز مصر بأن يكون له ولد من امرأته، بل كان يكابد
الأميرين:

فامرأته تطمح أن يكون لها ولد، وهو يتأسى لمن يترك كل ما يملك
من جاه ومال.

فامرأته تقضي جلّ وقتها في قصرها، فتجلس على أريكة فارهة من
خشب الزان، وترسل قديمها في إناء فيه ماء تغير لونه، فخادمتها تضيف
إليه ما يمنح أقدام سيدتها نعومة وطراوة ونقاء.

في هذا الجلوس يتبعثر شعرها ويسافر إلى جهات لم يشغلها من قبل،
فهي تحب أن تداعب شعرها بسبابتها فلا تمنحه وطنا يستقر فيه، فقد
حرصت أن تظهر دائما بأبها منظر، فلباسها يدل دائما على مكانتها،
وبشرتها النظرة تدل على اعتنائها الدائم بها.

كان لديها وفرا من الوقت فقصرها يستقبل طيلة أيام الأسبوع
صاحباتها من علية القوم فتقضي الوقت بذلك.

والعزيز يسمع حديثها بين وقت وآخر، وفي أحد المرات ما أن وصل
غرفتها ووضع يده على مقبض الباب حتى سمعها تقول لخادمتها:

لقد سئمت هذه الحياة، فكلّ يوم هو تكرار تكرار تكرار للتذي
سبقه.

فتح الباب وعيناه تفيض حزنا وألما لقد كابر مرّات ومرّات لكن هذه
المرّة كاد طرق الكلمات على إذنيه يفقده صوابه، فخطواته أصبحت متعثرة
لا يعرف كيف يصل إلى أريكته ليستقر عليها، فتدارك الأمر بأن تظاهر

بوجود ألم في ظهره، فاتكا على امرأته وخادمتها ثم جلس على الأريكة،
وبمجرد أن استقر التفت إليها قائلاً:

إنّ حياتنا سترسو على ميناء جديد وأنا ابحث عن هذا الميناء.

لم تتفاجأ بما قال، فقد كانت تعي جيداً أنّ نظراته فيها كلّ ما تريد
أن تقول. أن تقوله.

حزم الأخوة أمرهم بالذهاب إلى ما يريدون، فجمعوا كلّ ما يدل
على هذه الرحلة، ساروا في طريق لم يكن ألفوه من قبل، نادى أحدهم:

أين نحن سائرون؟ ويبدو أنّه نسي المكان المتفق عليه.

التفت الجميع نحوه وعيونهم تقدح شرراً، وطالبوه بالسكوت.

كان السير هادئاً والخطوات متثاقلة، فالوصول إلى المكان الذي
يكون فيه نهاية يوسف أصبح قاب قوسين أو أدنى.

الوصول إلى الجب تتمثل فيه نهاية الخط الذي رسموه، فما حول
الجب مكان ألفته الرعاة والسيارة.

تعالت صيحاتهم متظاهرين بالفرح لأنهم وصلوا إلى مكان اللعب إلا
يوسف فكان ينظر إليهم نظرة المستفهم وان كان صغيراً إلا أنّ كلام أبيه لم
يغيب عن مخيلته أبداً. احتبست أنفاس أخوة يوسف والتقت عيونهم قبل أن
تلتقي أيديهم لإلقاء يوسف في الجبّ.

اقبلوا نحوه وأيديهم أمامهم، فشمروا عن سواعدهم ثم حملوه نحو
الجبّ، وهو يصرخ بصوت عال:

وأبتاه.

وأبتاه.

وأبتاه.

إلا أنهم تداركوا الأمر وكمموا فاه واستلوا قميصه ثم ألقوه في الجب.

لم يكن في الجب ماء يمنح الموت ليوسف، بل إنّ إرادة الله تعالى اقتضت ذلك.

تلمس يوسف جدران الجب فوجدها ملساء تفنن صاحبها بينائها، عجز أن يجد مخرجاً، فالمسافة بعيدة وصوته عجز هو الآخر أن يصل إلى من يسمعه.

لم يسمع أصوات إخوته فقد تلاشوا في غياهب الماضي، فكان الانقطاع الذي أراده الله تبارك وتعالى.

خلف الليل النهار وعيون يوسف لم تجد ما تنظر إليه، أمّا فمه فلا يعرف ما يقول إلا باللجوء إلى الله تعالى، فهو القادر على أن يخرجهم مما هو فيه، فالظلام الذي أمامه رأى فيه كلّ ما مر به من أحداث إلا أن حدثاً واحداً تكرر عليه مرارا وهو ما وجده عند أبيه من تأويله للرؤيا التي رآها في منامه.

طالما منح هذا الجب السيارة والرعاة ماء يتلهفون عليه فالיום سيهبهم بشرى تبقى عالقة في أذهانهم.

وصل مجموعة من الأعراب إلى الجب أرادوا أن يلتقطوا أنفاسهم ويرووا عطشهم بعد رحلة شاقة. طلبوا من أحدهم أن يرمي الدلو داخل الجب، فألقى دلوه فتعلق يوسف به، فما أن وصل إلى وجه الأرض حتى تسمرت أقدام المنتظرين للدلو، فلم يكن في الدلو ماء؛ إنّما كان غلام ذو وجه جميل لم يألفوه من قبل، فتهللت البشرية على وجه الذي رفع الدلو فقال:

يا بشرى.

هرع المنتظرون إلى فتحة الجب وسحبوا يوسف يملكهم شعور
غريب تجاه شخص غريب.

قال أحدهم:

علينا أن نأخذه معنا إلى أن نصل به إلى مصر ثم نبيعه هناك، يبدو
أننا سنحقق ربّحاً لم نتوقعه لأنّ وجه هذا الفتى يبعث على السرور.

سار يوسف في قافلة جديدة كلّ من فيها غرباء، يتعاطون عبق
الصحراء، فيمتطون ریحها، ويتوسدون نجومها.

فما أن وصلوا إلى مصر حتى تزاومت الأنظار على يوسف، فكان
يغلق عينيه ويعبث بشعره، فقد جردته رحلته من الركن الذي يأوي إليه،
فالأيادي الآن تتقاذفه يمينا وشمالا يبحثون لهم عن نهاية يكون فيها الخير
الوفير لهم.

أطبق الليل جناحيه وساد الصمت في قصر عزيز مصر، فقد ذهب
كلّ من في القصر إلى فراشه كي يأوي إليه إلا امرأة العزيز وخادمتها،
فالمرأة قد سكنتها امرأة العزيز فهي تحاول الظهور بأجهى صورة حتى في
الليل، فتجلس أمامها لوقت طويل، كانت فارعة القوام، شعرها يبحث عن
نهار كي يزيله، عيناها واسعتان يسير فيهما نهران يتدفقان فيسقيان غابتنا
نخيل.

كانت خادمتها تمشي خطوات هادئة كأنها تحوم حول زهرة
البنفسج، لكن خطاها سرعان ما تحولت إلى خطى متسارعة، إذ سمعت
صوت سيدها، فنادت سيدها قائلة:

سيدتي أقدم سيدي.

قالت امرأة العزيز:

وهل من جديد؟

الخادمة:

لا يا سيدتي ولكنني أراه هذه المرة ليس كباقي مرات عودته.

قالت امرأة العزيز:

ماذا تقصدين؟

الخادمة:

أرى خطواته متعثرة يبحث عن مكان كي يجلس فيه.

امرأة العزيز:

لا عليك، ليس فيه شيء اذهبي إلى فراشك، ولا توقظيني غدا في وقت مبكر.

كان عزيز مصر يفكر دائما في علاقته مع زوجته، كانت علاقة فاترة ينتابها في كثير من الأحيان توتر عقيم، فلم يكن للولد وجود في حياتهما، كانت متسمة أمامه دائما لم يجد ما يحيلها عن مكانها مثل شجرة الصفصاف فهي تموت وهي واقفة، حتى أن ربّيعها كان قصيرا لا يكاد يظهر إلا اختفي، أما أمساكها باليد فهو بعيد المنال فهي تبتعد عنه كالأفعى التي تلوذ مسرعة بحثا عن جحر يبعدها عن صيادها.

ما أن سمعت بمقدمه حتى تسللت إلى فراشها، كانت غرفتها دافئة، وضوؤها لا يكاد يرى فيه إلا ملامح الوجه، فكل ما هو موجود في الغرفة يميل إلى اللون الأسود، فالنقوش والرسوم المتنوعة كانت تتجه ألوانها نحو تعبير خاص يدل على سوداوية غير مبررة.

دخل عزيز مصر غرفة نومه لم يحرك فيها شيئاً، فهو لا يريد أن يوقظها من نومها، فنومها هو سكة الأمان الذي لا يرتضي أن تتغير.

وضع كفيه تحت رأسه ينظر إليها بطرفة عين وبدأ يتساءل:

كيف ينهي هذه العزلة؟

كيف يخترق هذا الصمت الرهيب؟

كيف يردم هذه الهوة؟

أغمض عينيه ونام لكن عينها لم تنم فقد بقيت شاخصة تبحث لها عن ميناء ترسو فيه.

سار يوسف وسط أصحاب السيارة والأعرابي يمسك يده، دخلوا ارض مصر فرأى فيها ما لم يره من قبل، فهي مدينة عامرة بأهلها، يكتظ السوق بالناس فيبيعون ويشترون كل شيء حتى البشر، فما أن وصلوا إلى منتصف السوق حتى وضعوا يوسف على مكان مرتفع يستطيع القاصي والداني أن يراه.

يمر الناس من جنب يوسف وينظرون إليه، وكان من بين الناظرين عزيز مصر، توقف أمامه ثم ترجل إلى أن أصبح بمقربة منه، لقد خطف هذا الصبي قلب العزيز، فوجهه حين النظر إليه يمنح الناظر شعوراً غريباً، فيمسح الحزن ويبعث بالنفس السعادة والهناء، أما حياؤه فكان سمة لا يمكن تجاهلها، فضلاً عن ذلك عمره المناسب بما يفكر به العزيز، بادر بالسؤال عن سعره فاشتراه.

كان سعره زهيدا لم يمثل القيمة الحقيقية ليوسف على أي مستوى أو على أي تقدير، لكن واقع الحال جعل له سعرا.

حُمِّل يوسف في عرْبَة لم يرها من قبل ولا يعرف أين تسير به، وما هي وجهتها.

دخل عزيز مصر قصره مصطحبا يوسف معه، رأى فيه طوق النجاة الذي كان ينتظره.

أقبلت امرأته على يوسف، لم يكن وجهه مألوفا من قبل ففيه جمال يسر العين والقلب.

بادر عزيز مصر بالقول:

أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا.

تطلعت في عيني يوسف أرادت أن تلمن بؤبؤ عينيه أو تغوص فيهما كي تكسر حاجز الصمت وتبعث حياتها من جديد، وهممت في نفسها هل هذا الحسن يكون ولدا.

رجع أخوة يوسف بعد أن ألقوه في الجب، كانت خطواتهم قصيرة لا تعرف أين تتجه إلا أنّها سرعان ما انزوت خلف صخرة كبيرة حجبت أشعة الشمس عنهم ومنحتهم ظلا مؤقتا، جلسوا جميعا وكأَنهم سقطوا من مكان سحيق، فبدءوا بالنظر إلى بعضهم البعض.

قال أحدهم:

لقد انتهى الأمر لكننا كيف سنواجه أبانا؟

قال آخر:

لا بدّ أن ننهي ما فعلناه بأمر يكون من ورائه انقطاع عن السؤال عن يوسف.

رفع أحدهم قميص يوسف وقال:

هذا هو الحلّ.

نظروا جميعا إلى القميص فكان لهم بوابة الخروج والإقناع لمن يسأل
عن يوسف.

قال آخر:

دعونا نضع دما على القميص حتى ينتهي الأمر به.

وافق الإخوة جميعا وعلا صوتهم بالموافقة.

قال أحدهم:

لكن كيف نقنع أبانا.

قال آخر:

الأمر يسير كما كان أبي خائفا على يوسف من الذئب، سيكون
الذئب هو آكلّ ليوسف.

هكذا انتهى الأمر والاتفاق، لكن هناك أمرا آخر فعلوه فقد اتفقوا
أن يكون ذهابهم إلى أبيهم ليلا. فالليل يستر كلّ شيء، ذلك أنّ الظلام
يسير فيه كلّ شيء، اللصوص والقتلة وغيرهم.

فبعد انسحاب الشمس الخجول يقبل الليل بأنياه وصمته الرهيب،
فأكثر الأخطاء تفعل بالليل حتى الكيد والمكر يكون الليل هو أحد
المشتركين معهما.

وقفوا أمام أبيهم وصورتهم مشوشة كأثمّ خارجين من معركة ضارية
منحتهم غبارا مؤه شكّلهم ثم ألقتهم على قارعة الطريق، لم يكن الاتفاق
فقط بالكيد، بل اتفقوا بالطريقة التي يعبرون فيها عنه، فهمهم الأخير هو

بقاء صورتهم أمام الأب نقية كالثوب الأبيض، كالدعاء للميت في الصلاة
"اللهم نقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس".

قالوا:

يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب.

كان الأب قاعدا لكنّه بمجرد أن سمع هذا الكلام اشتط غضبا وقام
بمسكهم الواحد تلو الآخر بتلايب ملابسهم وهو يصرخ فيهم:

ماذا فعلتم بأخيكم قولوا الصدق ماذا فعلتم بيوسف؟

أخذت أنفاسه تتصاعد كأنه اصعد في السماء فبدأ هواء الحياة
ينفد.

ابتعد عنهم خطوات وهم ينظرون إلى ظهره، فقد كان شيخا كبيرا
أثقلته السنون وتقوس ظهره من الحنو على أبنائه، كان ينظر إليهم دائما
نظرة متفحصة فيقرأ في عيونهم ما يحبون وما يكرهون إلا أنّ هذا كلّ كان
يضمّره في قلبه.

التفت إليهم والدموع تسيل من عينيه، والآهات تخرج من صدره،
والتحسر وجد له بابا في قلبه، إلا أنّ الجو العام كان يخيم فيه الحزن؛
فالإخوة عند دخولهم كان الحزن يتبدد منهم ويتجلى الحزن في شكل ناعس
كأنهم أيقظوه فجأة من نومه دون أن يخبروه متى يريدون إيقاظه.

عاد إلى مكانه ووضع يديه على ركبتيه أمام عينه قابضا بهما، ينظر
إليهم، هذا المنظر وان كان متوقعا إلا أنّ حدوثه أمر مفزع، ففقدان رؤية
يوسف يعني: فقدان رؤية تفاحة القلب التي آن لها أن تغيب لتظهر في يوم
من الأيام مرة أخرى.

تدلى أمامه قميص يوسف من يد أحد أبنائه، كان ينظر إليه لكنه لم يرى فيه نعث يوسف؛ إنما يرى تحقّق الفراق الذي كان يتوقعه، أمّا الدم الذي على القميص فلم يكن لون الموت إنما كان لون الحياة الذي سيتعطر به يعقوب في يوم ما.

بعد مرور وقت من الزمن أصبح يوسف شابا فتيا وجماله يزداد بسطة يقضي طيلة وقته داخل القصر، فقد حرصت امرأة العزيز أن تكون دائما بقربه، تتبعه النظرة تلو النظرة، كانت نظراتها حادة تشع منها إرادة شيطانية تحاول أن تجد منفذا لتقطع هذا الشعاع، فيكون لها ما يكون، فأنفاسها لا تهدأ مثل بركان نائر نسي أن يخمّد، فلم تستطع الوقوف عند حاجز يجعلها تضع نهاية لما تريد. كانت تطلب من خادمتها عندما تكون مع يوسف أمام أي غريب:

لا تدعيني خارج نظرك أريدك أن تنظري إلي دائما، وتبهيني إن خرجت عن حد أكون فيه خارج امرأة العزيز.

الخادمة:

ولكنك يا سيدي عندما تكوّن مع يوسف تخرجين عن عالمنا الأرضي، وتتوسدين القمر بين النجوم، وتعبثين بقوس قزح فيكون لك وشاح يلتف حولك.

امرأة العزيز:

هل هذا الكلام معقول؟

الخادمة:

نعم يا سيدي أنّك ترتقين سلما، لا اعتقد أن تكون نهايته كما تريد.

لا عليك اتركي ما تقولين، وانتبهي لما قلته لك.

هذه التوصية لم تكن من باب المبالغة، بل هي حقيقة تكمن في علاقة امرأة العزيز بيوسف، فقد كانت تتحرى وقت وجوده، فتجلس أمامه وتتكلّم معه، وتبتدع الموضوعات المتنوعة، فنظرها يترك العالم كلّ وينشغل بعالم يوسف، فقد كانت تحلم أن تمسك يده وترحل به إلى عالم آخر يكون لها وله عالما خالصا تفعل فيه ما يحلو لها.

في هذه اللحظة استفاقت على صوت عزيز مصر، كان صوته رخيما لا يتعدى خطوات أقدامه وبخاصة عندما يتكلّم معها، نظر إليها مستفهما عن سبب خلوتها الدائمة، لم يكن غيبا بدرجة تخرجه عن كونه عزيزا لمصر، فقد كان يعي جيدا ما يراه إلا أنّه يتقهقر في النهاية كالمحارب الذي يسقط بيد أعدائه بعد أن يفقد سلاحه، كان منتصرا في الخارج منهزما في الداخل، يحاول أن يجد حل لهذه العلاقة الباردة، فلا يعرف من أين يدخل فكلّ الأبواب موصدة أمامه لا يستطيع أن يفتح واحدا منها، وان كانت معه مفاتيح خزائن مصر.

اتخذ يعقوب العزلة له دارا بعد فقدان يوسف، يأوي إليها يناجي ربّه ويدعوه بكرة وأصيلا، فلم يكن يلتفت إلى من حوله وان حضروا وتكلّموا، وسحابة المطر عندما تمر فوقه وتفتح أبوابها بالماء ينظر إليها بعيون باكية، فيلتقي ماؤها مع دموعه، هذه الحالة أوصلته أن يكون رفيقه الدائم أخو يوسف الصغير، فيمسك به ويقبله ويشمه، ويسمع ترانيمه البسيطة وكلماته التي ينطقها، فتترأى ليعقوب صورة يوسف، فيأنس بها، فتكون تعزية له ولو لمدة يسيرة، إلا أنّه سرعان ما يفيق فيمسك بلحيته فيعبث بها بعد أن استيقظ ممّا يريد رؤيته.

استمر هذا الحال وأولاده يحاولون الدخول إلى قلبه بأيّ طريقة بعد أن فقدوا ما كانوا يتوقعونه من غياب يوسف.

قال أحدهم:

يا أبتى لقد غبت عنا كثيرا، فقد عشنا بعد فراق يوسف داخل سور منيع لا باب له.

قال آخر:

يا أبتى عد لنا كما كنت فقد ذابت وجوهنا أمام الناس.

قال يعقوب:

إنني معكم أينما تكونوا، ولكن يوسف معي أينما أكون.

لملم يعقوب ثيابه واعتزلهم، إذ وجد ضالته في مكان يعتزل فيه عن القوم، لم تنفع توسلات الأبناء ولا بكاء النسوة، فقد آثر أن يكون بعيدا عنهم، كي يتأمل ما يريد ويعيد قراءة ما يستوجب الإعادة، إلا أنّ خاطرة كانت تراوده دائما، فعندما كان صغيرا كان يسمع من أبيه يقول له:

يا بني: نحن الأنبياء ذرية بعضها من بعض.

هذا الكلام لم يخرج من مخيلة يعقوب وبخاصة بعد رؤيا يوسف، فقد كانت رؤيا يوسف تبعث له الحياة من جديد، وأنّ هذا النسل المبارك مستمر يدير دفة الحياة كما يريد الله تبارك وتعالى.

استلقى يعقوب في فراشه ووضع كفه الأيمن تحت خده محاولا العبور إلى ضفة أخرى يكون فيها ما يتمناه، وفي هذه الأثناء تضاءت الشمس لتبحث لها عن مكان جديد يوقظها ويستل منها نعاسها الدائر.

أصبح عزيز مصر خارج دائرة اهتمام امرأته، ذلك أنّ يوسف قد شغل كلّ جوارحها وأحاسيسها فقد كانت تنظر إليه غير النظرة التي على أساسها دخل قصر العزيز.

كانت تتبعه حيث يكون، وتجلّس في مكان يؤمن لها النظرة التي تطمح لها، إلا أنّ هذا كلّه لا يشبع غريزتها الأثوية فقد هامت به فلم تعد ترى أي أحد أمامها سوى يوسف.

نادت على خادمتها بصوت يخفي وراءه أمر مريب قائلة:

اتركي أيّ شيء في يدك واتبعيني، فما كان من خادمتها إلا أن تبعتها بخطى مسرعة تحاول أن تلحقّ بها، فما أن دخلت إحدى الغرف حتى قامت امرأة العزيز بالهمس في أذن خادمتها قائلة:

اتركيني أنا ويوسف وامضي إلى أن اطلب منك الحضور.

لبّت الخادمة أمرها إلا أنّها حين تركت سيدتها التفتت إليها بنظرة فيها كلّ ما تريد أن تفعله سيدتها.

كان الممر المؤدّي إلى الغرفة الكبيرة التي اقترحتها مع نفسها قصيرا، إلا أنّه كان طويلا بالنسبة لها، إذ جاءت خطواتها سريعة وكأنّ الذي أمامها حلم حياتها الذي تنتظره منذ زمن طويل.

دخلت الغرفة الكبيرة؛ فاختيارها لهذه الغرفة لا ينم إلا عن إدراك واع لما تريد أن تقبل عليه.

كانت الغرفة فيها أبواب عدة يستوجب غلقها بإحكام وبروية، وهذا ما فعلته فقد مرت على هذه الأبواب واحدا واحدا وغلقتها بإحكام ويوسف ينظر إلى ما يجري أمامه دون أن يحرك ساكنا فقد أصابه الدهول.

أقبلت نحوه كالغريق الذي يريد أن يتعلق بأيّ شيء كي يتخلص من مصيره المحتوم، فيوسف هو طود النجاة الذي به تدخل عالما جديدا تتبدد عنده كلّ المعاناة، وتتجسد عنده كلّ الأماني والأحلام، وإن كانت الخطيئة هي الطريق الموصل.

نظر يوسف إلى هذه العبثية التي أمامه، كان يترقب ما يحصل ويتتبع كأسير حربّ حاول الفرار إلا أنّه قرّر أن يقاوم حتى النهاية، أو حتى تنجّلّي هذه العبثية من مصدرها فينتهي كلّ شيء، لكن ما أمامه قد استفحل وأصبح كالأسد المتربّص بفريسته كي ينالها وقد حان النيل منها.

قالت امرأة العزيز بصوت مغاير لم يألّفه يوسف من قبل:

هيت لك، إنني احبّك مذ كنت صبيا، ولا أزال، ولا حيلة لك للهروب مني.

رجع يوسف خطوات إلى الخلف يحاول أن يتدارك هذا الموقف الرهيب فهو نبي ابن نبي، وكيف له أن يخون صاحب القصر الذي أطعمه وأواه بعد أن غدر به إخوته والقوه في الحبّ، فكان له يد العون في هذه الدنيا فأنزله منازل المكرمين.

قال يوسف:

لا إنّه سيدي، فقد أحسن مثواي، كيف أخونه وانزل إلى منازل الخائنين؟

لا لا لم يعد لي مكان في هذا القصر.

بدا على وجه يوسف الحزن والاضطراب، فإذا الأبواب تفتح جميعها أمامه فيذهب مسرعا إلى أحد هذه الأبواب فتلحّقه وتمسك قميصه بيديها فيتمزق، فيكون نصفه قد تدلى والنصف الآخر على جسد يوسف، فما

أن وصل إلى أحد الأبواب؛ فإذا عزيز مصر أمامه، تنحى يوسف جانبا يتلمس ظهره، فلم يعد هناك أيّ حائل، فإذا يرى بين أصابع امرأة العزيز خيوطا صغيرة من خيوط قميصه، إلا أنّها سرعان ما أسرعت بتخليص أصابعها من هذه الخيوط.

لم يظهر عليها أيّ اضطراب، بل وقفت وقوف الأهرامات الثلاثة التي لم تعبأ بوجود أبي الهول بقربها، حتى عزيز مصر لم يظهر عليه الانفعال الشديد الذي يكون من خلاله تغيّر لخارطة حياته، بل وقف موقف المتفرج الذي لا حول له ولا قوّة، فوجود ابن عمّها (الشاهد) كان إنقاذا له في هذا الموقف، فلو لم يكن موجودا؛ فكيف يمكن أن يتصرف؟

إنّ هذا الموقف لمن يرد يوسف أن يكون فيه، تجمعوا عند عتبة الباب، يوسف وامرأة العزيز وابن عمّها والعزيز، لم يكن الصّمت خامسهم، فقد نطقت امرأة العزيز بالقول للعزيز:

- ما جزاء من أراد بأهلك سوء إلا أن يسجن أو عذاب اليم.

لم يقف يوسف مكتوف الأيدي، بل قال:

- هي راودتني عن نفسي.

امرأة متسلطة تمنح نفسها ما تمنح، حتى تمنح نوع الجزاء بمن أبي أن يسلك مسلك الخائنين، لكن لحبّها ليوسف اختارت أوّلا السّجن ولو ليوم واحد، أمّا العذاب وان بدا أليما إلا أنّه كان المحطة الثانية من الاختيار.

التفت إليها ابن عمّها، وقال لها:

لقد سمعنا حركة واضطرابا خلف الباب قبل أن يُفتح، فإذا يوسف أمامنا وقميصه قد قُد، وائيّ لأقول: إن كان قميصه قد من دبر فأنت كاذبة، وان قُد من قُبَل فأنت صادقة.

لم يكن يحتاج ابن عمها لهذه التفصيلات، فالأمر أمامه واضح إلا أنه أراد أن يبين للكُلِّ أين يكمن الحقّ، وحتى لا يتطوّر الأمر ويأخذ اتساعاً كبيراً لم يكن بالحسبان، ولهذا عمد إلى القول بعد أن تبين أنّ القميص قد من دبر:

استغفري لذنبك أنّك كنت من الخاطئين.

هذا الكلام أظهر كلّ الأمور على حقيقتها فلم يعد هناك شك بأنّ امرأة العزيز وراء كلّ ما حصل. إلا أنّ هذا الموقف يجب أن تكون له نهايته خاضعة للحفاظ على سمعة العزيز، ولهذا طلب من يوسف أن يكتّم هذا الأمر، وأن يدخله في غياهب الماضي:

يوسف أعرض عن هذا.

لم يبق خبر امرأة العزيز ويوسف حبّيس جدران قصر عزيز مصر، بل مر بأذان نسوة المدينة من زوجات وبنات الأمراء والقواد ومن كان في منصبهم. لم يرتضين فعل امرأة العزيز، فهو أمر ليس فقط غير مقبول، بل أنّ المنزلة التي فيها امرأة العزيز لا تمنحها أن تفعل هذا الفعل.

سمعت امرأة العزيز كلامهن، فأرادت أن تضع حدّاً لكُلِّ ما يقال، فأخذت تتجوّل في حدائق القصر والعصية تملكها؛ فكانت لا ترى أيّ وردة أمامها إلا قطعتها، ولا غصنا قائماً إلا درسته، فلم يستمر هذا الحال إلا دقائق محدودة حتى وقفت عند أحد الأشجار ووضعت سبابتها وإبهامها على حنكها وقالت:

سأريكن يا نساء الأمراء والقواد.

هرعت إلى بوابة القصر الداخلية الكبيرة، ودخلت راكضة رافعة ثيابها، فما أن وصلت إلى إحدى الغرف وقفت ونادت خادمتها بصوت عال:

تعالى.

قالت الخادمة:

نعم يا سيدتي إنني قادمة.

قالت لها:

أريد أن تكون هذه الغرفة على درجة عالية من الجمال.

كانت هذه الغرفة لا تقل جمالا عن بقية الغرف لكنّها حرصت أن تختارها، وأن تضيف عليها ممّا يجعل شكلها أكثر أناقة وجمالا، فجدرانها لا تخلو من النقوش، فنقشها يخيل للرائى أنّ طاووسا يتنقل بين جدران الغرفة، أمّا فرشها فكان من الحرير الخالص الذي يتموج كأنّه بحر هداً بعد رياح أيقظته من نوم عميق.

أمّا الوسائد فكانت تتقلب يمينا وشمالا تبحث لها عن ذراع يمنحها الثبات ولو لبرهة من الزمن، أمّا ألوان الغرفة فكان الرّبيع ملمم ثيابه وحملها ثم سكن فيها.

لم تهدا إلى أن عرفت أن نسوة المدينة سوف يأتين عصر هذا اليوم، ولم يتبقى لها إلا يوسف، فقد كان حبيس القصر لا يعرف أين يتجه أو أيّ شيء يفعل، فقد أعطته أجمل الثياب وطلبت منه أن يلبسها وينتظر منها ما تريده.

بدأ النسوة بالتوافد على قصر عزيز مصر، فما كان من الخادمة إلا أن ترشدهن إلى الغرفة التي أرادتھا منها سيدتها، جلس النسوة يتمايلن بالضحكات المبررة وغير المبررة، ويتبادلن النظرات التي فيها كل ما تفكر به امرأة العزيز، وفي هذه الأثناء بدأت الخادومات بالدخول تترى كل واحدة منهن تحمل وعاء كبيرا فيه كل أنواع الفاكهة، فالنسوة من عادتھن في الكلام أن يأكلن الفاكهة، وبخاصة الفاكهة التي تحتاج إلى رفع القشر والتقطيع وغير ذلك.

امتدت أيديهن نحو الفاكهة وأخذت كل واحدة منهن ما يحلو لها، وكانت السكاكين لا تفارق الأيدي، فهي تتحرك في كل الاتجاهات كي تحقق المراد منها.

استأذنت امرأة العزيز النسوة في حركة مباغته أرادت أن تقتنص فرصة الاندماج الكلي والشعور المتوحد تجاهها.

كان يوسف بالأنظار خلف الباب لا يعرف ماذا يفعل، بل كان فقط يترقب، دخلت امرأة العزيز عليه وطلبت منه الخروج على النسوة، فخرج عليهن.

ساد الصمت واتجهت الأنظار صوب يوسف، والتي لم تراه في البدء ارتفع بصرها بعد أن ساد الصمت، نست العيون أن لها جفنا، فلم ترمش أبدا، والأفواه التي كان يتعالى منها الضحك خرس وتفتحت، لكن من المفارقة أن السكاكين لم تسقط من أيديهن، بل استمر عملها، فتحول عملها من قطع الفاكهة إلى حز اليد، وبدأت قطرات الدم تسيل على الفاكهة دون أن يشعرون!!!

في هذا الموقف وقفت امرأة العزيز أمامهن وقالت:

هذا هو يوسف.

تحول المتكأ إلى مكان كأّ الندور والقرايين تقدم فيه للتكفير عن الخطيئة، فالدماء قد كقرت عن خطيئة امرأة العزيز أمام نسوة المدينة، فسرعان ما قلن:

حاشا لله ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم.

قالت امرأة العزيز:

فَدَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ.

فلم تكتفي بالملامة، بل بادرت بالاعتراف بالقول:

أنا راودته عن نفسه وان لم يستجب ليسجن أو ليكون من الصاغرين.

بعد كلامها هذا تعالت أصوات النسوة بعد الصمت المطبق الذي يأتي قبل العاصفة، وتحول الأمر إلى حالة نقضت كل الماضي، وتحولت النسوة إلى الطلب من يوسف بأن يحقق لامرأة العزيز ما تريده.

قلبت امرأة العزيز كل الموازين بمكرها، فرسمها أتى أكله، إذ وصلت الأمور إلى حد لا بد أن يكون فيه يوسف خارج الأنظار، وهذا ما تحقق، فقد اختار ما هو محبب له في الخلاص من هذا الكرب فكان السجن.

فُتح باب السجن وأدخل يوسف ثم أُغلق بعد ذلك، لم يبق يوسف واقفاً، بل أخذ له مكانا من هذا السجن، وراح ينظر إلى ما حوله، لم يكن أمامه ما يدعو إلى الخير، فالوجوه عابسة مرهقة كأثم يعيشون في مملكة سوداء ليس فيها أي شيء يدل على أي أمل، وان كانوا يشحذون الأمل من صوت السجنان عندما ينادي على أي أحد منهم.

بدا السّجن ليوسف المكان البديل المناسب للخلاص ممّا يكيّد به، ورغم كلّ ما به من معاناة وابتعاد عن العالم الخارجي الذي يفترض أن يكون المكان الأنسب لانطلاق دعوة الله تعالى، إلا أنّ مشيئته تعالى اقتضت أن تكون قاعدة الدعوة في سجن يكتظ بأنفس تبحث لها عن خلاص مهما كان ثمنه.

آثر يوسف أن يكون منعزلاً، كان غريباً عنهم لا يتحدث بحديثهم، ولا يشاركهم طعامهم، فالعبادة هي شغله الشاغل، فضلاً عن ذكر الله الذي لا يفارقه، لم يستمر على هذا الحال بل بدأت الأقدام تسير نحوه لتقف عند عتبه، رأوا فيه ما لم يُرى من قبل، فكان ينبأهم عن نوع الطعام الذي يأتيهم، استبشروا فيه خيراً، فكانوا لا ينفكون عنه، فحديثه لهم بداية عهد جديد لدعوته، فقال لهم:

إنيّ تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون.

كان معه في السّجن فتیان الأول هو ساقى الملك، أمّا الثاني فهو خبّاز الملك، إذ دخلا السّجن نتيجة أفعال ارتكبوها؛ فكان مصيرهم السّجن، وفي أحد المرات استيقظا من نومهما والعرق يتصبب من أحدهم، نظر بعضهم إلى بعض، قال الساقى:

إنيّ رأيت رؤيا لا اعلم تأويلها.

قال الساقى:

وأنا كذلك.

هلم بنا نذهب إلى يوسف فعنده التأويل.

جلس الساقى عن يمين يوسف، والخبّاز عن يساره، وكلاّ منهما ممسكا بثياب يوسف ملتصقا بالتأويل.

قال الساقى :

إني رأيت أني أعصر خمرا.

قال الخباز :

إني رأيت أحمل فوق راسي خبزا تأكل الطير منه.

نظر يوسف إليهما والصمت قائم لم يجدا له مكانا كي يقعد،
تھامس الاثنان ثم قالوا بصوت واحد:

بربك يا يوسف أخبرنا تأويل ما رأينا.

قال لهم يوسف :

سأخبركم التأويل، لكن أريد منكم أمرا.

قالا :

ما هو؟

قال يوسف :

أن تتقبلا ما أقول؟ ومهما يكن؟ فأنتم مؤمنون بالله.

قالا :

نعم.

قال يوسف :

أما الساقى فسيعود إلى الملك ويسقيه من جديد، وأما أنت أيها
الساقى فستصلب وتأكل الطيور راسك.

تقبل الخباز التأويل وقال :

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

فصلب كما أخبره يوسف بذلك.

أما الساقى فقد عاد إلى ما كان عليه، وقبل أن يخرج طلب منه يوسف طلبا، فقال له:

اذكري عند ربك.

لكن هذه الذكرى لم تتحقق إلا بعد بضع سنين مكثها يوسف في السجن، ليرى الملك رؤية ينتقل من خلالها يوسف إلى سطح الأرض فيعانق الشمس، ويرتقي على العرش فيكون عزيزا لمصر.

يتدفق ماء النيل باتجاه الشمال، فيحمل معه الخير الدائم، فيمر على مزارع المصريين؛ فيجري في سواقيهم كما الدم يجري في عروقهم، فيكون سببا في خيرهم الوفير.

فالمصريون ينظرون إلى النيل وكأنه سبب وجودهم، فإذا ما نقص ماؤه قليلا اضطربت أحوالهم، وبلغت القلوب الحناجر، وكأن ساعة وفاتهم أو شكت أن تأتي؛ فالنيل ليس نهرا عاديا؛ فالارتباط معه تجاوز المتوقع إلى ما هو غير متوقع، وكأن القداسة تجري معه حيث يجري، فكهنة مصر منحوه هذه القداسة، التي أرادوا من خلالها السيطرة على عقول الناس، كي ينقادوا إليهم، كما تنقاد الإبل الضالة إلى سارقها.

كان ملك مصر يحب النوم مبكرا فيستلقي على ظهره يبحث له عن نسمة فاترة تمر عليه من نافذته التي يترك بابها كعادته، أما زوجته فهي تحب أن تتشح بالسواد، فقد كان ذلك يروقها ويظهر بياضها عند عتمة الليل.

كانت لا تتركه ينام وحده، تحاول جاهدة أن يكون منامها معه،
فتتوسد ذراعه وتحاول أن تكون أنفاسها مع أنفاسه زفيرا وشهيقا، فيعبث
بشعرها إلى أن يسترسلا في النوم.

استيقظ الملك من نومه قبيل الفجر وعيناه تتجول في غرفته، فإذا به
يقوم من سريره ويقصد النافذة، فمن خلالها يرى نهر النيل وما حوله.

هرعت زوجته من فراشها وأنفاسها تتعالى.

ماذا بك سيدي؟

قال لها:

لا شيء.

قالت له:

هذا ليس من عادتك أن تستيقظ مثل هذا الوقت.

التفت إليها ووضع يده على كتفها قائلاً: أرجو أن تعودني إلى
فراشك وتتمني نومك.

قالت له:

لا يا سيدي كيف اترك وأنا أرى في عينيك ما لم أره من قبل.

امنحيني بعض الوقت وستعرفين ما يقلقني.

طلب منها أن تخبر خادمتها أن تحضر له بعض الحليب الدافئ
والجبن المملح.

فعلت ذلك ثم أقبلت عليه، وكأَنَّها تنتظر مولودا لها طال انتظاره،
مسك بمعصم يدها وأجلّسها إلى جنبه وقال:

لقد رأيت رؤيا في منامي، وهذه الرؤيا قد تكررت أكثر من مرة واني لأحسبها رؤية غير عادية، ففيها تكمن أمور مهمة أجهل تأويلها.

نظرت إليه وقالت:

اعتقد هذه الرؤيا غير كلّ الرؤى التي رأيتها سابقا.

قال:

كيف عرفت ذلك؟

قالت له:

إنّ تقاسيم وجهك يصدر منها ما يثير كثيرا من التساؤلات التي تريد أن تعرفها.

قال:

أصبت.

لكنني أريد أن أجمع الكهنة اليوم وأعرضها إمامهم كي اعرف تأويلها.

عسى أن تجد مرادك عندهم.

دخل الملك إلى إحدى قاعات القصر وحاشيته يسرون خلفه، فإذا الكهنة مصطفيين أمام عرشه، فقد أبلغوا صباحا بالحضور أمام الملك لأمر هام.

جلس الملك على عرشه ثم أذن للكلّ بالجلوس، بدأ بالكلام قائلاً:

ألا تعرفون لما أرسلت لكم؟

قال الكهنة:

كَلَّا لَا نَعْرِفُ لَكِنَّا أَبْلَغْنَا أَنَّ الْأَمْرَ هَامٌ؟

إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا فِي مَنَامِي، وَأُرِيدُ مِنْكُمْ أَنْ تَقُولُوا لِي هَذِهِ الرَّؤْيَا وَهِيَ:
"أَبْيُّ أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعَ سَنِبَلَاتٍ خَضِرٍ
وَأُخْرٍ يَابَسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ"

التفت الكهنة إلى بعضهم البعض، ولم ينطقوا بأيّ كلام حائرون
وكأهمّ تائهون في صحراء لا يعرف لها بداية أو نهاية.

قال الملك:

ماذا تؤولون هذه الرؤيا؟

قالوا:

هذه أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

ساد الصمت في القاعة ثم ما لبث الجميع أن تهاوسوا فيما بينهم إلا
الملك فهو ينظر إليهم نظرة فاحصة يرى فيها امتعاضه واشتمتازه من
الكهنة. وفي هذه اللحظة استفاقت ذاكرة الساقى ليكون يوسف حاضرا
في هذا الأمر، إذ اقبل على سيده يستأذنه بالكلام، فيأذن له الملك.

قال الساقى:

كان معي فيما مضى في السجن شاب يستطيع أن يؤوّل الأحلام.

قال الملك:

اذهب الآن إليه وتبيّن منه تأويل هذه الرؤيا.

تسمر كلّ من في القاعة، وساد السكون، فمن يرى القاعة يعتقد أنّه
يتجوّل في متحف الشمع.

هرع الساقى إلى يوسف يحمل في جعبته رؤيا الملك، لم يسلك الطريق المعتاد إلى السّجن، بل راح يبحث عن أقصر الطرق وان كانت فيها من الوعورة ما تعيقه وتمنحه متاعب لم تكن بالحسبان.

كانت صورة يوسف أمامه لا تفارقه طيلة سيره؛ فهو يتوقّع التأويل الصحيح من رجلٍ عرفه حقّ المعرفة، أضحت التلال أمامه كأثما أمواج ترتفع به شيئاً فشيئاً، كلّ واحدة ترتفع به لتسلمه إلى الأخرى، فالوديان أمامه تلاشت لا يرى منها إلا خيوط واهية كخيوط العنكبوت، أمّا السماء فقد تناثرت غيومها هنا وهناك كي تحجب نور الشمس عن عينيه، فما أن وصل إلى باب السّجن حتى صاح بصوت عالٍ:

افتحوا الباب أنا رسول الملك.

فُتح الباب فدخل الساقى إلى المكان الذي فيه مدير السّجن طالبا منه فتح باب السّجن.

دخل السّجن باحثاً في زواياه المختلفة عن يوسف، فإذا هو جالس في المكان نفسه الذي تركه فيه، أقبل الساقى نحو يوسف ثم جلس قرّبهُ ما سكا بأطراف ثوبه قائلاً:

اعتذر منك يا نبي الله؛ فقد نسيتك.

قال يوسف:

لا حاجة للاعتذار؛ فكلّ شيء يجري بأمر الله تعالى وتقديره.

قال الساقى:

يوسف أيها الصديق إنني جئتك بأمر مهم.

ما هو؟

لقد رأى الملك في منامه رؤيا ويريدك أن تؤول هذه الرؤيا.

ما هي الرؤيا؟

تلى عليه الساقى الرؤيا ويوسف ينصت له، وبعد أن انتهى الساقى قال له يوسف:

إن تأويل هذه الرؤيا هو { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ } 728.

لم يتمالك الساقى نفسه أمام يوسف فقد ذهب مسرعا إلى الملك يتملكه شوق عارم في أن يكون هذا التأويل سببا في خروج يوسف من السجن.

وصل الساقى إلى بلاط الملك والوجوه الحاضرة عيونها تنظر نظرة غريبة، منها ما يريد معرفة تأويل رؤيا الملك، ومنها من يفرح بعودة الساقى بخفي حنين.

وقف الساقى بين يدي الملك يخبره بما كان من تأويل يوسف.

صمت الملك ثم أخذ ينظر يمينا وشمالا، ثم نزل من كرسيه ماشيا نحو الساقى، قال للساقى:

اذهب حالا واتني به.

أمرك مولاي.

عاد الساقى إلى يوسف والفرح يرفرف بين جوانحه، لكن هذه الفرحة لم تتحقق، إذ قال له يوسف:

ارجع إلى ربك فسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

لم يتسرع يوسف بالخروج من السجن، بل أراد أن تتبرأ ساحته من كلّ التهم التي وجهت له، وأصبحت فيما بعد دينا ثقيلا أثقل حياته، فكان لديه إحساس متعطش يبحث عن الخلاص ممّا يعانیه، وقد آن الأوان أن يصحح الماضي، وأن لم يكن فيه أخطاء ارتكبتها يوسف.

إنّ كلمات يوسف ما أن وصلت إلى مسامع الملك حتى قام من مجلسه طالبا حضور النسوة أمامه.

وقف النسوة أمام الملك ينظرن يمينا وشمالا، فعيونهن تبحث لها عن كهف يقيها من برق ورعد عيون الملك. فالانتظار كان فيه تساؤلات جعل عقول النسوة تبحر في بحر غيبه الظلام، ولم يسمع فيه إلا صوت المستغيثين المشرفين على الغرق، فالموت قد دنا منهم، وبدأت علاماته تتراءى لهم.

وقف الملك أمام النسوة وقال:

ما خطبكن إذ راودتن يوسف.

قالت النسوة بصوت واحد فيه بحّة:

حاشا لله ما علمنا عليه من سوء.

يبدو من حسن خلق الملك أنّه لم يضع امرأة العزيز في مكان خارج النسوة، فهو يعرف مسبقا ما علاقتها بيوسف، ولهذا عمد إلى جعلها

معهن ضمن حركة مرتبطة بالتصرف الملكي الذي يحاول مللمت الأمر،
ويخرجها من السياق الذي يمنحها العفن الغير مبرر.

تقدمت من بين النسوة امرأة العزيز وقالت:

أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقن.

نظر الملك إلى وجوه النسوة ثم أخذ نفسا عميقا تبعه حركة بطيئة
باتجاه كرسيه، جلس على الكرسي ما سكا بقبضتيه على مقدمة الكرسي
إلا أنّ التوتر أخذ منه وطرا من تصرفاته، وفي هذه الأثناء تقدمت امرأة
العزيز خطوة واحدة، ونظرها صوب الملك قائلة:

ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب.

أرادت هنا أن تمنح نفسها فرصة الاعتراف بأنّ نفسها أمانة بالسوء
كباقي الأنفس، وهذا لا يخرجها من لباس الإنسانية العام، فهي مكلفة
والتكليف يوجب الانسياق وراء الشرائع الموجودة.

التفت الملك إلى الساقني، وقال:

احضر يوسف حالا وقل له إنّ الملك بانتظارك.

لم يمض وقت طويل؛ فإذا يوسف قدماه تمان أرضية القصر، ومن
حوله ينظرون إليه نظرة ملؤها الإعجاب والتحقّق من هذا الرجل الذي
شغل الملك.

سار بين أعمدة القصر، والذكريات تنهال عليه، فالطفولة والشباب
أسبغت عليه ثقافة انحدرت من جدران وأعمدة ونقوش وألوان القصر، كأنه
مر بركة دائرية لم تكن حاضرة في فكره، فالقصر، ثم السجن، ومن ثم
القصر مرّة أخرى، إنّها تجليات الدعوة إلى الله تعالى عليه.

سمع مناديا ينادي:

مرحبا بالقادم.

لم يكن هذا الصوت غريبا على مسمعه، إذ تذكر حالا أن هذا الصوت هو لأحد مرافقي العزيز، كان يتحدث معه دائما، إلا أن هذا الأمر لم يثر انتباهه، بل عمد إلى منح نفسه بعضا من زهوة النصر التي افتقدها طيلة السنوات الماضية، وبخاصة حين دخل على الملك، فكل ما حول الملك يتنفسون الصعداء، ينتظرون رؤية يوسف وسماع تأويله للرؤيا مرة ثانية.

إنّ اعتراف امرأة العزيز منح يوسف مكانة خاصة في قلب الملك، هذه المكانة سوف يتشكل من خلالها مصير يوسف ومصير مصر.

بدت الوجوه شاحبة، والأيدي ترتعش، ولم يعد هناك لعرائش الكروم ظل ظليل، فقد تحققت رؤيا الملك، فلم تستطع الأشجار مسك أوراقها، فهي سرعان ما تهاوت وعادت إلى الهواء بعد أن سحقته الأقدام، فاصفرارها لم يمنحها حتى المكوث قليلا على الأرض، والأرض تشققت وأصبحت مأوى للثعالب وقطاع الطرق، والنيل توقف عن منح الحياة والموت، فمياحه كانت تعبت بالمرزوعات وتدغدغ جذور الأشجار فتجعلها تطول أكثر فأكثر كي تديم نعمة الحياة لها وتهدى للإنسان طعام الحياة، أما الموت فكان مرافقا لنعمة الحياة؛ فالنيل لم يتوقف عن الطفو فوقه طفل صغير، أو شاب نحيل، أو شيخ كبير، وربما حيوان أليف، فالموت عنده مثل الحياة لا يتوقف، إلا أن يكون واهبا للموت فقط فهذا جديد، فلم تمنع صلوات الكهنة الدجالين، ولا مشورة العرافين الكذابين، في إعادة الماء إلى نهر النيل، بل وقفوا كما يقف باقي الناس، فتمائمهم سقطت من

رقابهم، وأحزمة العون الكهني انحلت من وسطهم، ونظراتهم الخارقة انطفت، وراحت تبحث لها في الأرض عن مكان تختبئ فيه.

استبشر يوسف بالقحط، فلم يكن استبشارا يفهم منه حبّ التجويع للناس، بل كان استبشارا بتحقق تأويل الرؤيا التي رآها الملك، ففي هذا الأمر مدعاة لتحقيق دعوته التي أمر بها الله تعالى.

بدأ تصرف يوسف في معالجة القحط يؤتي أكله، فأنظار الناس جميعا تتجه نحو مصر، فقد بدءوا يتوافدون على خزائن مصر، كي يحصلوا على نصيب يعينهم على مواجهة القحط الذي جعلهم متشابهين في كل شيء حتى في وجوههم.

بدأت القوافل تدخل مصر كي تشتري الحبوب لتسد بها جوعها بعد أن أصاب الناس ما أصابها من القحط، ومن بين الناس كان أخوة يوسف، فلم يكن لهم من مخرج إلا بالذهاب إلى مصر، ففيها كما يقول الناس الخير كله.

دخل إخوة يوسف مصر باحثين عن المكان الذي يكون فيه بيع الحبوب، فما أن وصلوا إليه وقفوا كما رأوا الناس يقفون، كان المكان مزدحم بالناس وبالعاملين والحركة قائمة على قدم وساق، فرأوا أن الذي أمامهم أمر غريب، فالمزودين بالحبوب لم يكونوا كلهم ضمن لباس واحد أو حتى ضمن تشكيل يمنحهم التساوي في التعامل مع الناس، كانت وقفتهم تدل على وجود شخص بينهم ليس بالعادي، فالتأهب يظهر على وجوههم، وعيونهم تلاحظ كل ما هو موجود، كان من بين الواقفين يوسف (عزيز مصر) يتابع سير بيع الحبوب، فقد التزم هذا الأمر بعد أن عهده الملك إليه.

تفحص يوسف الوجوه فرأى أنّ هذه الوجوه ليست بغريبة عليه وأنّ
غيرتها السنون، تعرّف عليهم وبدأت ملاحظته تتغيّر، فقد غابت عنه مصر
وخزائنها، والعزير لم يعد عزيزا لمصر، فالدماء التي أمامه دماء يعقوب،
وأنفاسهم أنفاس أهله، ووجوههم تراث خالد يكمن فيه الأخوة والغربة،
زارتهم عيونهم وتفحصتهم واحدا واحدا، فقد أخذ منهم الشيب وطرا،
وتعب السفر أرهقهم، أمّا القحط؛ فكان بساط الريح الذي حملهم إلى
مصر.

همس يوسف في أذن أحد مساعديه طالبا منه أخذ إخوته إلى مكان
آخر خارج ما هم واقفون فيه.

أقبل عليهم طالبا منهم أن يتبعوه، فتهامس الأخوة فيما بينهم
يحاولون أن يجدوا مبررا لذلك، لكنهم عجزوا عن ذلك فقال أحدهم:
ليس بوسعنا أن نفعل شيئا إلا أن نتبعه.

أشار عليهم المساعد أن يأخذوا قسطا من الراحة إلى حين أن يعود
إليهم مرة ثانية.

كانت وجوههم شاحبة، ورمال الصحراء تتحرك فوق رؤوسهم،
ولحاهم كأنّها أخطأت طريقها فتشعبت كي تبحث لها عن نهاية.

دخل عليهم يوسف بلباس عزيز مصر فهاهم ما رأوه.

قال لهم:

كيف هي الصحراء؟

قال أحدهم:

لقد جف الضرع، ونضب الماء، وقل العشب.

قال آخر:

تغيرت الأحوال، فالفحط يفترس كلَّ يوم واحد منا، فلم نجد حلَّ إلا
بالجوء إلى مصر.

قال يوسف:

سوف لن نتخلى عنكم، ونمنحكم ما يقوّم حياتكم، ويمنحكم القوّة
كي تتجاوزوا المصاعب. ثمّ نظر إليهم جميعا وأنفاسه تتعالى كأنّه يريد البوح
بما يكن في صدره إلا أنّه سرعان ما تمالك نفسه، فقال:

أترون هذا الكأس الذي بيدي؟

قالوا:

نعم.

قال:

إنّه يخبرني أنّ لكم أخ من أبيكم لم يأتي معكم.

بدا على وجوههم التعجب والدهشة، فلم يتكلّموا بأيّ كلام، بل
وقفوا متسمرين لا يعرفون ماذا يقولون أو حتى كيف يتصرفون.

قال لهم:

المرة القادمة لا كيل لكم عندي إلا أن تأتوني بأخيكم الذي من
أبيكم.

اندهش الإخوة من هذا الطلب وظهر ذلك عليهم، فقد تسلل
الخوف إليهم، وارتعدت أوصالهم، وأصبح كلامهم غير مفهوم، كأنهم
يساقون إلى الموت.

قال:

لم أسمع الرد منكم.

سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون.

أمر يوسف فتيانه أن يعيدوا بضاعة إخوته في رحالهم، نُقِّد الأمر
بجذر كي لا يتم التعرف عليها في مصر، ترك الإخوة مصر وهم يلتفتون
إليها بين آونة وأخرى، لا يعرفون ماذا يقولون.

إذ بدت الأمور أمامهم غامضة فيها تساؤلات متعددة يتعين عليهم
الوصول إلى تأويل يجعل ما أمامهم واضحا إلا أنهم سرعان ما يعجزون عن
مسح الضباب وإبداله بقطرات الندى التي يرسم من خلالها يوما جديدا.

سارت قافلتهم إلى ديارهم وهي تحمل ما يُنتظر منها.

تدافع قوم يعقوب ومن معهم صوب الطرق المؤدية إلى مصر، كانت
أعينهم تشحد النظرة كي ترى ما هو منتظر، فقد تعبوا من الأنظار،
فأصواتهم انخفضت، ولغة الإشارة وجدت لها مكانا في التفاهم فيما بينهم.

نادى أحدهم:

أرى طلائعهم.

تجمهروا والأصوات تتعالى تبحث لها عن من يحقق مرادها.

دخل الإخوة على أبيهم ونظرهم تبحث عن مكان تسكن فيه، فهم
مضطربون وأفكارهم مشتتة.

كيف يفتحون أباهم بما أراده منهم عزيز مصر؟

في خضم هذا الحدث نادى منادي:

يا آل يعقوب تعالوا وانظروا.

هرع الأخوة إليه؛ فإذا هو يحمل بين يديه بضاعتهم التي رفعوها إلى
مصر كي يأتوا ببدل منها ممّا يعينهم على مواجهة الجوع.

عادوا إلى أبيهم مرة ثانية والاستفهامات مصاحبة لهم، جلسوا بين
يديه.

قال أحدهم:

لا نعرف يا أبتى من أين نبدأ كلامنا، قالها وهو يحرك رأسه يمينا
وشمالا.

ما بك يا ولدي أرى في وجهك أمرا.

نطق بصوت مبحوح:

يا أبت سمعنا ورأينا أمرا عجيبا.

ما هو؟

عندما كنّا عند العزيز أبلغنا أنّ المرّة القادمة لا كيل لكم عندي إلا
أن تأتوا باخ لكم من أبيكم، وعندما عدنا إلى ديارنا فتحنا متاعنا فوجدنا
بضاعتنا قد ردت لنا، ولم يأخذها العزيز مقابل ما أعطانا من المؤونة.

اسند الأب ظهره إلى الحائط، وبدأ يتلمس وجهه وعيناه التي ابيضت
من الحزن إلى أن وصل إلى لحيته، فبدأ يعبث بها ويتمتم بكلمات غير
مفهومة، ثم قال:

صِفوا لي هذا العزيز.

أخذ الأبناء يحدثونه عن العزيز عن سماته الخلقية والخلقية.

كان يسمع كلامهم وتترأى له صورة يوسف إلا أنه كان حريصا
على أن يسمع ما يقولون، ويتساءل عن العزيز.

اكتملت صورة العزيز أمام يعقوب بعد أن نفذ ما بحوزتهم من مؤونة،
وبدأت الوجوه تبحث لها عن خلاص جديد.

لم يكن لها أيّ خلاص إلا بالعودة إلى مصر ففيها ما يطلبون.

ملت الشمس خيوطها وانسحبت خلف التلال كأنها وجدت بيتها
الذي ينتظرها ليمنحها هدوءا مؤقتا، أمّا قوم يعقوب فقد دب فيهم
السكون، فمن جوعهم أن أبوابهم لم تغلق جيدا فليس لديهم ما يخافون
عليه.

نام الجميع إلا أخوة يوسف فقد توافدوا على أبيهم، لم يكن
حضورهم مفاجئ لأبيهم، بل كان يدرك أنّ ذلك سيحصل، جلسوا أمامه
ولم يبدا منهم إلا وجوههم، كان الضوء خافتا فلم يكن من صنيع أبيهم،
لأنّه لا يعرف الليل من النهار؛ فكلّه عنده سواء حتى الشمس لا تمنحه
دفاها، ذلك أنّ الحزن على يوسف أكسبه عالما خاصّا غير مرتبط بأيّ
سياق.

قال أحدهم:

يا أبت نحن الآن أمامك، ونريد حلاّ ينقذنا وينقذ قومنا، والحلّ كما
تعرف بيدك.

رفع يعقوب رأسه والحزن يسكنه.

فقال:

هل تريدون أن آمنكم على أخيكم كما أمنتكم على يوسف من قبل.

كيف أتحمل أن يحصل ثانية كما حصل مسبقا.

هذا الأمر مستبعد تماما.

ساد الصمت فلم يسمع من أبنائه إلا أنين الحيرة والحسرة والتّدم، أمّا الجوع فقد سكن بجوارهم وفي كلّ بيت من بيوت قوم يعقوب، فأصبح صاحبهم الدائم ينام معهم ويضع رأسه على وسادتهم، ويخرج ويدخل مع أنفاسهم، ويقف على أبوابهم وينادي فيهم، هل بقي لكم من بقية.

لم يكن من نبي الله إلا أن يفرج عن كربّ أبنائه وقومه، فهم ينظرون إليه ويعرفون أنّ مكان علمه ترشده إلى البحث عن نجاتهم.

رفع رأسه بالقول:

سوف أرسل معكم أحاكم، ولكن بشرط.

قالوا جميعا بصوت واحد:

ما هو يا أبتى؟

قال:

أن تأتوني موثقا من الله.

لم يتردد الأخوة لحظة واحدة، بل أعطوا أبيهم ما أراداه للحفاظ على أخيه.

استيقظ يوسف من نومه بعد يوم شاق، فطل من شرفته على مصر يتأملها ويتأمل المكانة التي هو فيها الآن إلا أنّ سرعان ما بُعثر هذا التأمل

بذكر إخوانه؛ فقد أحسّ أنّهم قادمون لا محالة، فقوّتهم يتحقّق فيه الآن النهاية. كانت زوجته تعلم ما يدور في خلدّه فقد حدثها عن أبيه وإخوته وماذا فعلوا به.

كانت أطرافه ترتجف، وعيناه ينهمر منهما الدّم حين يتحدّث عنهم، فالغرّة والشوق والحنين والتطلع إلى اللقاء شكّلت تداعيات مختلفة في حياته حتى طعامه كان يجد صعوبة في الدخول إلى جوفه، فقد كان يتحسّسهم في أبسط الأشياء حتى ساعة نفاذ قوتهم.

تقاطر الإخوة في الدخول إلى مصر، ولم يدخلوا من باب واحد؛ إنّما دخلوا من أبواب متفرقة تنفيذا لوصية أبيهم.

لم يدركوا أن عيون العزيز تجوب شوارع مصر تبحث عنهم وتتصيد لقاءهم، فسرعان ما وصل خبر مقدمهم إلى يوسف، فما أن سمع بذلك حتى نهض من مكانه مسرعا نحو المكان الذي يقصده إخوته.

تعالى الأصوات وتنخفض في مكان يعدونه الناس مركزا للتمويل ففيه الخير الذي يريدونه، وقف إخوة يوسف ومن بينهم أخاه، يحاولون التخفي للوصول إلى غايتهم دون علم العزيز إلا أنّهم سرعان ما انكشف أمرهم.

وقف يوسف أمامهم موقف الغريم الذي ينتظر لسنوات طويلة، لم يرد الانتقام منهم، بل أراد التواصل معهم ووضع نهاية للانقطاع الطويل.

اخذوا ما يطلبونه ثم جاءهم رسول العزيز يدعوهم لمأدبة أعدّها لهم.

دخل الإخوة على يوسف فوقفوا بين يديه ثم طلب منهم الجلوس، كانت أعينهم شاخصة لا تعرف ما ذا يجري أمامها.

اختار يوسف مكانا يشرف عليهم كلّهم، ثمّ بدأت الموائد تدخل عليهم وتوضع أمامهم، طلب منهم تناول الطعام.

امتدت الأيدي نحو الطعام لكن العيون والقلوب كأنّها تتدحرج من قمة جبل لا يعرف له واد.

تفحصهم يوسف واحدا واحدا وعرف أخيه الصغير الذي كان أكّله مختلف عنهم، فهو يأكلّ وينظر إلى يوسف والابتسامة تعلو على ملامحه، وعيناه تفيض منهما البراءة.

تركهم يوسف يأكلون ثم خرج إلى غرفة مجاورة يراهم من خلالها ولا يرونهم.

أجهش بالبكاء ونحيبه استدعى زوجته وابنه، مسك بيد ابنه وقال له:

أتعرف من هؤلاء؟

قال:

لا يا أبتى.

هؤلاء أعمامك.

التفت إليه ابنه مستفهما.

ألم يلقوك في الجب يا أبتى؟

نعم، ولكنني أصبحت فيما بعد عزيزا لمصر.

مسك يد ابنه ثم دخل عليهم مرحبا وشاكرًا لهم على وفائهم بإحضار أخيهام معهم، ثم طلب من أخيه الصغير أن يجلس بجانبه، فسأله:

كيف حال أبيك؟

هو بخير لكنّه فقد بصره.

هل لديك أخ من أمك وأبيك.

نعم ولكن إخوتي يقولون أنّه مات لأنّ الذئب قد أكله.

تلعثم يوسف وظهرت عليه ملامح الحزن والاضطراب فقال له:

لكنني أود أن أخبرك.

إنّ أخاك حي وموجود الآن من بين الجالسين.

انتفض أخو يوسف من مكانه، لكن يوسف سرعان ما طلب منه أن يلتزم السكينة، ويحافظ على شكله في الجلوس، ذلك أنّ التوتر قد بدا عليه.

لم يكن قبول هذا الأمر سهلاً، فالأخ تربّى على ذكر يوسف وان سمع من إخوته بأنّ يوسف قد أكله الذئب إلا أنّ لمسات الحنان، ولهفة الأب به منحنه وجودا يوسفيا يشغل ما هو مفقود.

مسك يوسف بيده وهمس في أذنه قائلاً:

أنا أخوك يوسف.

نظر إليه أخوه ودموعه تنهمر منه وصوته غادر إلى ارض مجهولة لم يجد له حتى ولو صدى بسيط يظهر وجوده.

منح يوسف أخاه خلوة يسيرة تعانقا فيها عناقا أعاد الطفولة والماضي البعيد، لتكون له هنا عتبة لدار الأمل التي آن لها أن تجمعهما من جديد.

طلب يوسف من أحد مساعديه أن يضع في متاع أخيه الصغير صواع الملك، فبعد أن أتمَّ إخوته رحالهم عزموا أمرهم على المضي نحو ديارهم، فانتظار أهلهم أوشك إن يجد له حدا ما بين لحود الميتين.

بدأت رحالهم تغيب شيئا فشيئا إلا أنّها لم تغب عن فكر وعقل يوسف، فهم هاجسه الوحيد الذي كبر ولم يجد له حدا يقف عنده.

نادى منادى على الإخوة:

قفوا.

قفوا.

قفوا.

التفتت إليه الوجوه، فلا تعرف ما سبب هذا النداء.

ما خطبك؟

وقف أمامهم ووجه يشتم غضبا، وأنفاسه تتعالى، لقد فقدنا صواع الملك، وهو موجود في رحل أحدكم.

تعالت الأصوات بالرفض.

لا لا يمكن أن يكون في رحل أحدا منا، فنحن أمناء ولا يصدر منا مثل هذا الفعل بعد أن أكرمنا العزيز.

لكن إذا وجدنا صواع الملك في رحل أحدكم.

قالوا:

قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين.

إن كَلَام إخوة يوسف فيه طرح لشريعة إبراهيم عليه السلام، ففي شريعته أن السارق يدفع إلى المسروق، هذا الحكم هو الذي ينشده يوسف كي يحقق من خلاله بقاء أخيه معه دون أن يلجأ إلى حكم الملك ففيه ما يتعارض مما يريده.

بدأ الجنود بتفتيش رحالهم واحدا واحدا ألا أنّ درجة الوثوق بأنفسهم جعلتهم يساعدون الجنود في عملية التفتيش، فسرعان ما بهتوا عندما رأوا صواع الملك يستخرج من متاع أخيهم الصغير.

اقتاد الجنود الإخوة إلى مكان يجعلهم يغيبون عن عالمهم الواقعي ويدخلون عالما جديدا لم يكن في حساباتهم. إلا أنّهم سرعان ما قالوا:

إن سرق فقد سرق أخ له من قبل.

نظر إليهم يوسف فقال في نفسه:

أنتم شر مكانا.

أنتم شر منزلة في السرقة؛ لأنكم سارقون بالصحة، لسرقتكم أحاكم من أبيكم، فلم يصح لي ولا لأخي سرقة، وليس الأمر كما تصفون.

تدافع الأبناء واحدا تلو الآخر يفدون أخيهم الصغير كي يكونوا مكانه.

قالوا ليوسف:

إنّ أخانا هو قريب إلى نفس أبينا، حبيب له لا ينفك عنه البتة، هو نفسه الذي يتنفسه.

خذ أحدنا على وجه الاسترهان أو الاستعباد إنا نراك من المحسنين.

لم تنفع توسلاتهم ولا التذكير بالأب الفاني الذي يقترب من نهايته،
فقد قطع يوسف كلّ أملهم، وأخذ حكم بقائه من أفواههم.

قال كبيرهم:

- ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله، ومن قبل ما
فرطتم في يوسف.

- لن اترك ارض مصر حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله وهو خير
الحاكمين.

طلب منهم الذهاب إلى أبيهم وإخباره بما حصل لأخيهم.

لم يصدقهم يعقوب بما قالوه، فقال:

عسى الله أن يأتيني بهم جميعا.

ذلك لأنهم حين ذهبوا بيوسف كانوا اثني عشر فضاع يوسف وبقي
أحد عشر، ولما أرسلهم إلى مصر عادوا تسعة لأنّ بنيامين حبسه يوسف
واحتبس ذلك الكبير في مصر، فكان الغائبون ثلاثة.

أخذ الحزن من يعقوب منزل فلم يبارحه، بل تعاضم عليه الأمر وعاد
ذكر يوسف من جديد في حالة يغمرها التأسف على يوسف وما حصل
له.

نظر إليه الأبناء وقالوا له:

يا أبانا أنت لا تفارق ذكر يوسف، ونحن نخاف عليك أن يضعف
جسمك، وتذهب قوتك، فيكون الهلاك مصيرك.

رفع رأسه:

قال:

إنّما أشكو بثي وحزني إلى الله واعلم من الله ما لا تعلمون. عسى ربّي
أن يجمعني بكم جميعاً.

يا بني تحسسوا من يوسف وأخيه.

ولا تقطعوا الأمل والرجاء بالله تعالى؛ فإنه لا يقطع الرجاء والأمل إلا
القوم الكافرون.

لم ينتظروا، بل أسرعوا بالذهاب إلى مصر وكأنّ ما يريدونه ينتظرهم
هناك، كانت أعينهم لا تنام، استمروا بالسير ليلاً ونهاراً إلى أن دخلوا مصر
ووقفوا بين يدي عزيزها (يوسف)، كان منظرهم يبرر سبب مجيئهم دون أن
يتكلّموا لكنّهم تكلموا بطريقة فيه ترانيم البحث عن الخلاص الذي تغلغل
بين شغاف قلوبهم، واتكأ بعد أن تعب من مشوار لم يجد فيه أيّ تحقيق لما
يطمح إليه.

قالوا له:

- أيّها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة.

كان كلامهم فيه تفخيم لمقام العزيز، وترقيق لماهم فيه، إلا أنّ من
المفارقة أن وصل بهم الأمر إلى طلب الصدقة منه.

ضحك يوسف حتى بدت ثناياه، فقال لهم:

- ما فعلتم بيوسف وأخيه وأنت جاهلون؟

التمس لهم العذر بالجهل، ولم يتحدث إليهم بعزّة الكبرياء، وغرور
المكانة التي وصل إليها، وهدفه أن يخفف عنهم صدمة المفاجأة، فذكر لهم
أنّهم فعلوا ذلك أيّام جهلهم.

هذا السؤال أجهتم، فقالوا:

- أأنتك لأنت يوسف.

قال:

- أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتقي ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين.

لم يصمتوا بل بادروا بالقول:

- لقد خصّك بشيء فوق ما خصّ به الآخرين، وهو لم يُؤثرك بظلم لغيرك، ولكنك كنت تستحقّ ما آثرك به من الملك وعلو الشان والمكانة.

أقروا بخطئهم تجاهه، فلم يلومهم، بل دعا لهم دعوة الأخ المحب بأن يغفر الله تعالى لهم فسبحانه هو أرحم الراحمين.

التفت يمينا فأخذ قميصه وأعطاه لهم، وقال:

- اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين.

التقط الأخ الأكبر القميص ليسير به نحو يعقوب، ليمحو الماضي الملطخ بالكيد والحسد، ولتبدأ صفحة اللقاء التي آن لها أن تتحقّق بعد صبر وبكاء ودروس وعبر.

تصدعت الأرض وتداخلت حبيبات التربة فيما بينها ناسجة جغرافية جديدة لم تكن قبل مسيرة قميص يوسف نحو يعقوب، فالقميص قد منح البشير أجنحة طيران تنقله بين جنبات الأرض المتنوعة، فلم يقف في أيّ مكان، ولم يفكر أن يحل ضيفا عند أحد، بل التحف السماء،

وتوسد القميص وهو يجري في موج يمنحه اختزال المسافات للوصول إلى مهد يوسف ومنبته.

أكفهر الليل والنهار عند يعقوب، فلم يميز بينهما، فقد ابيضت عيناه من الحزن على يوسف فهو لم يكثرث ما يسمعه من أهله، بل آثر أن يعزل نفسه عنهم، فيلملم جراحه وآهاته ويسكبها في كنانة مثقوبة ثم يكرر لملمته مرارا، وهذا يفتت قلبه ويدخله في غياهب لا يُعرف لها نهاية.

فتح يعقوب باب غرفته بعد أن منحته الشمس دفئا باهتا استطاع أن يترك فراشه المرطب. كان الباب واهنا إلا أنّ خيوط العنكبوت منحته قوّة تعينه على البقاء ولو لفترة يسيرة.

وقف أمام فتحة الباب أهله، فالجميع انتابهم شعور غريب كأثم يروه لأول مرة فقد التفوا حوله وأجلسوه وجلسوا حوله.

قال:

إني لأشم ريح يوسف.

نظروا إلى بعضهم البعض وعلامات التعجب لا مست نظراتهم، فلم تعرف شفاههم الثبات، بل أسرعت إلى النطق بالقول:

لقد مرّ زمن طويل على موت يوسف وما زلت تذكره؟

لم يجد يعقوب ما يثلج صدره ممّن حوله فقام وتركهم وطلب من صبي صغير أن يقوده إلى ربّوة يقضي فيها بقية يومه.

وصل القميص إلى حيث يسكن يعقوب وأبنائه، اندفع الناس نحو البشير وعلامات الاستفهام ظاهرة عليهم إلا أنّ من المفارقة أنّه طلب مقابلة يعقوب دون باقي الناس.

واصل البشير مسيرته نحو يعقوب إلى أن وصل إليه؛ فاخرج قميص يوسف وألقاه على وجه يعقوب.

مسك يعقوب القميص بكلتا يديه وقد غطى كل وجهه وأخذ يتمتم بكلمات فيها ترانيم السماء وعبق الأبوة، قال:

إيَّي لأشم ريح يوسف.

إنك لفي ضلالك القديم.

لم يدم الأمر طويلاً، بل بدا يعقوب بسحب القميص من على وجهه، فلما سقط القميص في حجره انبهر ما حوله فقد عاد إليه بصره، فقال لأبنائه:

ألم اقل لكم إيَّي اعلم من الله ما لا تعلمون.

فرح يعقوب فرحاً كبيراً، فالأرض لم تعد تسعه إن اللقاء قريب.

ارتقى الأبناء على يعقوب ما بين باكٍ ومسترحم.

يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين.

نظر إليهم نظرة النبي المرسل ونظرة الأب العطوف، فقال لهم:

سوف أستغفر لكم ربِّي إنَّه هو الغفور الرحيم.

وصل يعقوب وأهله إلى مصر، تحمهر النَّاس ليروا يعقوب النبي ووالد عزيزها، ومن بين المستقبلين كان بطبيعة الحال يوسف، فقد حرص أن يظهر بملابس العزيز، فقال لهم:

ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين.

فما أن وصلوا إلى قصر العزيز حتى رفع يوسف أبويه على العرش، ثم
نظر إلى إخوته فإذا هم يسجدون له، التفت إلى أبيه وقال له:

هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقًا. وقد أحسن بي إذ
أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني
وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم.

النبي

يوسف من السُّنة

نبي الله يوسف عليه الصَّلَاة والسَّلَام، تعرَّض لما تعرَّض إليه من ابتلاءات ومكائد ومع ذلك استعصم، وأنجاه الله من كلِّ ما تعرَّض إليه. وقيل فيه ما قيل كغيره من الأنبياء العظام وهو براءة من كلِّ ما قيل فيه بغير حقّ. وقد سمّيت سورة من سور القرآن الكريم باسمه. قصّته من أجمل القصص القرآنية التي ظهرت فيها عناية الله تعالى ورعايته له نبيا كريما من الأنبياء المصطفين الأخيار.

كان يوسف عليه السَّلَام رائع الجمال خَلقا وخلقاً، وله عند ابيه شأنٌ عظيمٌ، فكان ذلك سبباً في حقد إخوته عليه وغيرتهم منه وكيدهم له.

وذات يوم وهو في صباه رأى في المنام أنّ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون له، فأسرع إلى والده يخبره برؤياه جمالا وروعة، {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} 729، ومن خلال نفاذ بصيرة والده علم أنّه سيكون ليوسف شأنٌ عظيمٌ ومكانةٌ رفيعةٌ، فطلب من يوسف ألا يخبر أخوته بتلك الرؤيا العظيمة حتى لا يكيدوا له ويدبروا له أمرا لا يليق.

وكما قال النبي الوالد لابنه كان بالتمام، حيث اجتمع الإخوة ليدبروا مؤامرة ليوسف كي يبعده عن والده الذي يحبّه حبّاً شديداً، فاقترح أحد الأخوة بأن يقتلوا يوسف، بينما اقترح آخر بأن يلقوا يوسف في أرضٍ بعيدة كي ينساه والده ويحبّهم حبّه.

729 يوسف 4.

وأخيراً اتفق الإخوة أن يلقوا يوسف عليه السلام في بئرٍ على طريقِ تمرٍّ به القوافل كي تأخذه إحدى هذه القوافل وتذهب به بعيداً، ثم ذهبوا إلى أبيهم وطلبوا منه أن يسمح لهم بأن يأخذوا يوسف في رحلةٍ معهم، وقالوا له: { يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } 730. لكن والده يعقوب أحسّ بقلب الأبِّ المحبِّ لولده بشيءٍ من الخوف عليه، وأنّ طلبهم هذا لا ينذر بخير؛ فرفض ذلك، وقال لهم: { قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ } 731، ولكنهم أقنعوه ووعدوه بالمحافظة على يوسف؛ فقالوا: { قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ } 732؛ فكان لهم ما يريدون؛ فألقوا يوسف في بئرٍ، ثم عادوا إلى أبيهم مساءً ليكون ويزعمون أنّ الذئب قد أكل يوسف عليه السلام وهم متعللين أنّ الذئب قد أكله بعد أن ذهبوا للسباق وتركوه عند متاعهم. وقد جاؤوا على قميصه بدمٍ كذبٍ كشاهدٍ على كذبهم، لكنّ يعقوب عليه السلام لاحظ أنّ قميص يوسف لم يمزق، وأحسّ بمؤامرتهم فأوكل أمره إلى الله واحتسب، وقال لهم: { بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } 733.

بقي يوسف في البئر، حتى أتى ذلك اليوم الذي مرّت به قافلةٌ متجهةٌ إلى مصر، فأرسلت القافلة واحداً منهم لطلب الماء لهم من البئر، فلما ألقى بالدلو في البئر تعلّق به يوسف، فلما رأى الرّجل يوسف فرح كثيراً واستبشر به؛ فأخذته القافلة إلى مصر كي يعرضه للبيع، وبينما هو في السّوق معروضاً للبيع، أتى عزيز مصر ليشتري غلاماً له؛ فوقعت عينه

⁷³⁰ يوسف 11، 12.

⁷³¹ يوسف 13.

⁷³² يوسف 14.

⁷³³ يوسف 18.

على يوسف وقرّر أن يشتريه، فاشتراه ببضع دراهم. ثمّ عاد به إلى البيت وطلب من زوجته أن تهنّئ بيوسف وتحسن معاملته فقد يصبح ولدًا لهما.

كبر يوسف وترعرع في بيت عزيز مصر، وكان جماله مثيرا لامرأة العزيز؛ فعجبت به ولفنت نفسها إليه شهوة، وبدأت إغرائه بكلّ ما يلفت النظر، غير أنّ يوسف كان مستعصما؛ فلم تقدر عليه، وقد أوقعها كيدها به في نفسها فخسرت الرّهان.

ومن هنا تعدّ قصة يوسف عليه السّلام من أروع القصص وبخاصّة في العفة.

فقد راودته امرأة العزيز عن نفسه؛ فرفض يوسف وحاول الهروب منها وعندما حاولت إمساكه وهو هارباً من كيدها وصل إلى الباب وفتحها؛ فوجد سيدها عند الباب وقميصه قد مزّق من دبرٍ، ولخشيتها من أن يخبر زوجها عن فعلتها، أو لقهرها منه، لقت قصة متهمه إيّاه فيها بالتحرش بها، فاحضر حكم ليحكم بينهما فقال الحكم إن كان قد قميصه من دبرٍ فهو صدق وهي من الكاذبين، وإن قدّ من قبل فهي صدقت وهو من الكاذبين؛ فراوا قميصه قدّ من دبرٍ؛ فعرف العزيز أنّها الكاذبة.

وقد سمعت امرأة العزيز أنّ مجموعة من النسوة في المدينة يتكلمن عن فعلتها فأحضرتهن وأحضرت يوسف ثمّ أحضرت لكلّ واحدة منهنّ سكّينا ليقطعن الفاكهة؛ فقالت زليخة ادخل؛ فلما دخل عليهن يوسف قطعن أيديهنّ من شدّة جمال يوسف؛ فدعى يوسف ربّه أنّ السّجن أهون عليه ممّا يمكرن به النسوة تجاهه.

فكانت الدّعوة استجابة؛ فوضع يوسف في السّجن بسبب الفتنة التي أثارها في قلوب نساء المدينة، ودخل معه السّجن فتیان، أحدهما خبّاز والآخر ساقّي، ونظراً لما رأياه من أخلاق وأدب يوسف، أقبلوا عليه ذات

يوم يقصّان عليه ما رآياه في نومهما. {وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} {734؛ ففسّر لهما الرؤى بأنّ أحدهما سوف يُصلب وتأكل الطير من رأسه، والآخر سوف ينجو ويعمل عند الملك. وطلب ممن ينجو منهما بأن يذكر قصّته للملك عسى أن يعفو عنه، ولكنّه نسي أن يقصّ على الملك قصّة يوسف المسجون ظلماً؛ فكان ذلك سبباً في أن يبقى في السّجن سنيماً.

كيد النساء والرّجال:

الكيد هو العمل المسيء الذي يدبّر ثم يفعل لكيد المحسود أو المرغوب الممتنع، كما هو حال يوسف عليه السّلام الذي كان كيد امرأة العزيز له بأسباب المحبّة وليس بأسباب الكريهة.

ولهذا فالكيد يُفعل بغاية في نفس من يقدّم على أفاعل الكيد التي لا تكون نتائجها إلّا مؤلمة على المستهدف بأعمالها وأفعالها وسلوكياتها.

قال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُؤْيَدًا} {735}.

فقوله تعالى: (وَأَكِيدُ كَيْدًا) هذه الآية ضميرها يعود على المكيد الذي بيده أمر الكيد متى ما شاء وكيفما يشاء، ولأنّه المكيد بالطلق جاء قوله (وَأَكِيدُ كَيْدًا) أمراً مطلقاً أي أنّه يكيد أي كيد دون تحديده، ومهما تنوّع وتعدّد كيد الكائدين.

في هذه الآيات الثلاثة ضمائر ثلاثة هي:

⁷³⁴ يوسف 36.

⁷³⁵ الطارق 15 . 17.

1 . الضمير العائد على الكافرين بقوله تعالى: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا).

2 . الضمير العائد على المكيد الأعظم، (وَأَكِيدُ كَيْدًا).

3 . الضمير العائد على الشاهد الممهّل (النبي محمد عليه الصلاة والسلام) الذي سيشهد العاقبة ماثلة أمام عينيه أنّ الكافرين كيدهم مكادا وهم لا يمتلكون القوّة ولا القدرة مصداقا لقوله تعالى: (فَمَهَّلِ الْكَافِرِينَ أَمَّهُلُهُمْ زُؤِيدًا). وفي هذا الأمر قصّة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام غير بعيدة، وهي خير قصّة لإبطال الكيد حتى وإن كان سببه حبّا.

ولسائل أن يسأل:

كيف يكون الكافرون مكيدون، ويكون الله مكيدا؟

أقول:

. كيد الكافرون (كيد).

. كيد المكيد تعالى (كيد الكيد).

. كيد الكافرون تعزيز باطل.

. كيد المكيد عزّ وجلّ مناصرة حقّ.

. كيد الكافرون غايته فسخ المجال أمام من يشرك ويكفر.

. كيد المكيد عزّ وجلّ إبطال غاياتهم بفسخ المجال أمام من يؤمن ويسلم وجهه لله ربّ العالمين واحدا أحدا لا شريك له بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير.

. كيد الكافرون تعويق سبل النّجاح.

. كيد المكيد الأعظم إعاقة معوقاتهم ليفسخ سبل النّجاح.

. كيد الكافرون إفسادي.

. كيد المكيد تعالى إصلاححي.

. كيد الكافرون ظلالات.

. كيد المكيد هداية.

. كيد الكافرون تقليل شأن.

. كيد المكيد تعالى رفعة شأن.

. كيد الكافرون تفريق شمل.

. كيد المكيد تعالى جمع شمل.

. كيد الكافرون تحقيق ألما.

. كيد المكيد إزالة ألما.

. كيد الكائدون إخفاء حقيقة.

. كيد المكيد إظهار حقيقة وكشف زيف كما حصل مع يوسف نبي

الله تعالى.

وبناءً على ما تقدم يتضح الفارق بين (الكيد) الذي لا يتم إلا على يد كافرٍ أو مفسدٍ أو ضالٍ وظالمٍ وبين (كيد الكيد) الذي لا يكون إلا على يد القادر العادل ولا يكون إلا على إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

ولذا قلنا:

1 . الكيد إفسادي.

2 . كيد الكيد إصلاححي.

أي أنّ الكيد أفعاله قصديه لتحقيق الألم لمن يسلك سبل النّجاح،
وكيد الكيد أفعاله قصديه لتحقيق الطمأنينة لمن يسلك سبل النجاح أو
يهدى إليه.

إذا (الكيد) معابة لا يقدم عليه إلا من هو على عيب (على
باطل)، و(كيد الكيد) لا يقوم به إلا الحقّ، أو من يتّبع سبيل الحقّ.

وعليه أتساءل:

من هو المكيد؟

نقول:

هو من بيده قوّة المغالبة، وهو بالملق الله تعالى، وفي دائرة الممكن
المتوقّع وغير المتوقّع هو الإنسان، وفي هذا الأمر وجهان يتضحان:

الوجه الأوّل: مغالبة المطلق هي مغالبة حقّ.

الوجه الثاني: مغالبة النسبي على نهجين:

1. مغالبة مُصلح في الأرض (مغالبة حقّ) وهذه المغالبة راسخة.

2. مغالبة مُفسد في الأرض (مغالبة باطل) وهذه المغالبة ليست
براسخة، ولهذا فهي تتطلّب فاعل وفعل لإبطالها كيدا.

وعودا على الآيات الكريمة السابقة في قوله تعالى: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ
كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤُودًا)، نقول:

هناك اختلاف وفارق موضوعي من حيث:

1. أنّ الكائدين هم الذين يصطنعون مواقف الكيد اصطناعا ترتيبيا
وإعدادا وإخراجا وتبسيئا وتنفيذا (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا) أي بدون وجه حقّ

هم ينسجون خيوط التآمر على العباد الذين يسلكون سبل الإصلاح والإصلاح والعمل الإعماري ولا يقترفون ذنبا أو يسببون ألما فيكاد لهم كيدا بليّة دون وجه حقّ، والمكيدون عليهم اللعنة قلوبهم على الخير تشتتا وقلوبه على الشرّ تمرّكزا.

2 . أنّ المكيد هو الذي يكيد كيد الكائدين فيبطله ويدمغه حتى يزهق، وفي هذا الأمر يتحقّق كيد الكيد؛ فلا تتحقّق غاياته وينجوا من الألم من كان مكادا له بكيد الكائدين، أي أن المكيد يريد للظلم أن تسقط رأيته وللحقّ أن تُرفع، ولذلك نقول:

أنّ المكيد هو من يبطل الباطل الذي هو كيد كائدين، ومن يسقط كيد الكائدين يزيل ألما ويحقّ حقّا ويزيح ظلما ويطفئ نار فتنة ويسلم مصلحا بفك أيدي المفسدين وقبضاتهم من رميه بغير حقّ؛ فينجوا ليستمر الإصلاح والإعمار وينتهي الإفساد وسفك الدماء في الأرض بغير حقّ.

وعليه: ألا يحقّ لنا أن نخلص بنتيجة مفادها أنّ الكيد فتنة وأنّ كيد الكيد إطفاء نارها.

ولأنّ الأمر بالتمام هو كذلك، ألا يحقّ لنا أن نصف من يكون سببا في كيد العباد بأسواء الصّفات وأن نصف المكيد للكيد بأحسنها؟

ولأنّ الإجابة لا تكون إلا بنعم. إذا المكيد بالمطلق هو صاحب الصّفة الحسنة بالمطلق والمكيد في دائرة النسبية هو صاحب الصّفة النسبية، ولهذا لا مجال للمقارنة وعلى المستوى البشري فمن أراد ثوبا وجنة عمل على كيد الكائدين ومن أراد ظلما ونار جهنّم ليس له بدّا إلا كيد العباد.

وباستقراء النصّ السابق نتبيّن مجموعة من القيم السالبة التي تؤسّس المكائد عليها منها:

- . التضييل .
 - . الاستغفال .
 - . الغدر .
 - . المخادعة .
 - . التحايل .
 - . المكر .
 - . الاستدراج في غير محله .
 - . التشكيك .
 - . قلب الحقائق .
 - . الغش .
 - . تبييت لأمرٍ عن سوء نية .
 - . الكذب والافتراء .
- أمَّا المترتب على كيد الكائدين مجموعة من الأفعال منها:
- . إنزال الضيم .
 - . التشويه .
 - . الإسقاط .
 - . إنهاء الدور أو الوظيفة أو الرّسالة أو إعاقتهما .
 - . الإداء .

. الإذلال.

. التسفيه.

. تقليل الشأن.

. إيقاد نار الفتنة.

. القتل.

ولتبيان أهمية هذه القيم في ارتكاب أفعال الكيد يتم تناول مجموعة من الآيات العظام من القرآن الكريم ذات العلاقة بالتحليل والتفسير استمدادا للقوة الفكرية والمنطقية والقيمية والفضائية التي ترشد إلى كشف مكائد الكائدين وكيدها من المكيد المطلق.

قال تعالى: { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ } 736.

قوله تعالى: (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) الكيد جاء نكرة بحيث يدل على أي كيد في دائرة الممكن مما يجعلك أحيانا متوقعا له ويجعلك أحيانا متفاجئا بأسباب عدم توقعك له، ولهذا يقول يعقوب لابنه يوسف عليهما الصلاة والسلام: لا تستغرب من إختوك إن كادوا لك كيدا، وهكذا هم فعلوا ما هو متوقع من قبل يعقوب.

وعليه الكيد: هو العمل الذي يؤسس على الحسد والمخادعة وسوء النية المبيتة في دائرة غير المتوقع، ولذلك يترتب عليه الاستغراب والمفاجئة وأحيانا نقص حُسن التصرف تجاهه مما يجعل البعض يقعون بأسبابه في

736 يوسف 4 ، 5.

الفخ، وقد لا يُفك عنهم بسهولة ويسر، ولذا يجدون أنفسهم بين أيدي الكائدين حيث لا قدرة ولا حول ولا قوّة، فتكون المساومة أحيانا في غير موضوعية ومنطق، ويكون الثمن المترتب على ذلك غالبا إن لم يحدث التدخل الذي به يكاد كيد الكائدين وتكون ساعة الفرج بمفاتيح من المكيد المطلق قوّة وقدرة وعزّة ونصرا.

ولهذا فالكيد هو فعل وعمل مَن تتوقّع غير المتوقّع. كما جرى ما جرى مع يوسف من قبل امرأة العزيز التي نظر إليها في مقام الأم ونظرت إليه في مقام العشيق.

ولأنّ المكيد هو الله تعالى فهو بكيده المتين يكيد كيد الكافرين والمشركين والضّالين والمنافقين والحاسدين والظّالمين ويجعلهم في أسفل سافلين، مصداقا لقوله تعالى: { قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَهْلِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ } 737،

ولأنّ كيد الكائدين مُكاد من المكيد المطلق؛ فكانت النتيجة المترتبة على كيد الكائدين لإبراهيم سلامة إبراهيم ونجاته من النار التي كانوا يظنون أنّها القاضية على إبراهيم وعمله الذي هو في مرضاة الله تعالى، ولهذا

فالمكيد هو النَّاصر والنَّصير لعباده الصَّالحين من صديقين وأنبياء ورُسل كرام صلوات الله وسلامه عليهم.

إذا أراد الكفَّار إهلاك إبراهيم؛ فكانت النتيجة إهلاكهم، ولهذا فالمكيد هو نعم المولى ونعم النصير الذي ناصر إبراهيم ونصره على الكافرين والمشركين الذين دسَّوا له الدَّسائس والمكائد والحمد لله ربَّ المكيد لكيد الكائدين مهما تعدد وتنوع وكثر أصحابه ظلما وبهتاناً.

وبنجاه إبراهيم من النَّار التي كانت عليه برداً وسلاماً بأمرٍ من الله تعالى أصبح إبراهيم في عليين محفوظاً من الهلاك وكيد الكائدين، وأصبح الكائدون في أسفل السَّافلين سفلة في حسرة وألم شديد.

ومع أنَّ الكيد نكرة إلى أن يُعرَّف بنوع العمل أو الفعل أو السُّلوك، إلا أنَّ الكافرين هم دائماً يكيِّدون كيِّداً، والكافرون هم الذين يكفرون بالله تعالى ويكفرون بما نهى عنه وحرَّمه ويكفرون بالحقِّ وأصحابه ويكفرون بأنبيائه ورُسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم ويكفرون بالعدل وميزانه، ولهذا فهؤلاء دائماً هم المكيِّدون، مصداقاً لقوله تعالى: { فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ } 738 أي هم المغلوب أمرهم، ولذا فهم لا يستطيعون قدرة ولا قوَّة وليس لهم مفراً من الهزيمة ومغالبة ما يكيِّدون به المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله ربِّ العالمين.

من طبيعة المكيِّدون من الكفرة والمشركون أنَّهم يتألَّمون إذا أصابت المؤمنين حسنة من الحسنات ويفرحون إذا أصابتهم سيئة وفي مقابل ذلك المؤمنون لا يتمنَّون مكروه لمؤمن بالله تعالى ولا لإنسان خُلِق في أحسن تقويم، ولهذا فهم لا يُكرهون أحداً على الإيمان حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الرِّشد من الغي، ولكنهم يعلمون أن المكيِّدون لا خير فيهم

مصدقا لقوله تعالى: {إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَابَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} 739.

ولهذا فهم صابرون وهم يعلمون حقا أن كيد الكائدين لا يضرهم شيئا وذلك لعلمهم بإحاطة المهيمن المحيط بما يعملون ويكيدون من ضلال ونكران، مصدقا لقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا} أي مهما كاد الكائدون يكادون بكيد من المكيد المطلق.

ولهذا فالذين يسعون إلى كيد العباد في الحياة الدنيا يكادون في الحياة الآخرة أشدّ مما يكيدون به العباد في الحياة الدنيا، وذلك يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا مصدقا لقوله تعالى: {يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} 740.

وهنا فالمكيد تعالى هو المكيد في الحياتين بالمطلق والمكيدون من الناس ليس لهم كيدا إلا مؤقتا، وليس لهم نتيجة موجبة، ولهذا فهم المكادون حيث لا ناصر لهم سوى ما يخبثون ويؤبسون من سوء نية.

وعليه الكيد يُدبّر من مدبّر مسبقا ليحدث الكيد ويقع المكيد في المصيدة، ولهذا الكيد نسيج ممزوج بالحسد وسوء النيّة وعمل يدبّر لإيقاع من يُراد كيده في المصيدة، ولذلك فالمكيد من أعمال التأمّر الظالمة.

الكيد لا يكون إلا مع من هو على القوّة، أمّا الضعفاء فالمواجهة كافية لإزاحتهم من الطريق وإنهائهم دون تأسف، ولذا عندما لا يستطيع المكيد في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع على المغالبة يميل ويتّجه إلى

739 آل عمران 120.

740 الطور 46.

التحايل والمخادعة وإظهار ما لم يُظن لأجل الالتفاف على من يراد كيده حتى يغدر به.

ولذلك فمن النَّاس من لا يحبُّ الخير لغيره وأن رآه في خير تضيق الدنيا برحابة وسعها عليه، ولأنَّ المكيد من النَّاس لا يستطيع المغالبة في الحقِّ يلتجئ إلى كيد الناجحين والمتميزين والصَّادقين والمصلحين المسلمين كما التجأ الكافرون والمشركون إلى كيد الأنبياء والرَّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، وكذلك كيد المؤمنون الذين اتبعوهم على الهدى والوحدانية.

ولأنَّ المكيد تعالى واسع الفضل؛ فكان لكيدهم المكيد بالمرصاد مصداقا لقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} 741.

لقد ظنَّ أصحاب الفيل بكيدهم أنَّهم قادرون على تدمير الكعبة وإزاحتها من الوجود كفرا وطغيانا، فعَدَّوا عدتهم وأفياهم ليهجموا على الكعبة ومن فيها من المسلمين، ولكن المكيد العظيم كادهم بالقوَّة والقدرة التي لم يمتلكون منها إلا القليل؛ فبقيت الكعبة بقوَّته تعالى شامخة إلى اليوم وستكون إلى أبد الأبدين قبلة للمسلمين، ولهذا دائما كيد الكافرين في ضلال مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} 742، فمع أنَّ موسى عليه الصَّلَاة والسَّلَام نبيًّا ورسولا مرسلا بآيات وسلطان مبین إلا أنَّ فرعون وهامان وقارون قد كفروا، وقالوا هذا

741 الفيل 1 . 5.

742 غافر 23 . 25.

ساحرا كذاب: ومع أنه قد آتاهم بالدليل إلا أنهم أصروا على أن تقتل أبناء الذين آمنوا معه وأمروا المفسدين منهم في الأرض بأن يستحيوا نسائهم، ولكن المكيد لكيد الكائدين حفظه وحفظ أبناء ونساء المؤمنين من كل سوء وشرّ وألم، ولهذا كان كيد الكائدين في ضلال، أي في غير محله (إنه كيد الضّعفاء).

قال تعالى: { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءِ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ } 743.

الكيد مكوّن قيمي سالب ممّا يجعل كيده (كيد الكيد) مسببا قيميا موجبا، ولهذا في كلّ كيد مسببات البطلان والفساد والإفساد، ولذا فإنّ الكيد لا يصمد أمام الحقّ مهما تعاضد المتعاضدون في سبيله كيدا.

ولو كان الكيد قادرا على أن يصمد لصمد كيد فرعون وهامان وقارون لموسى عليه الصلّاة والسّلام الذي بُعث نبيا ورسولا إلى أن توفاه الله ورفع له باقيا في المقامات العظام.

كلّ المكائد البشرية التي على غير حقّ هي مكائد شيطانية سواء أكانت من شياطين الإنس أم من شياطين الجن، وهي ضعيفة لا تحيف المؤمنين الذي أسلموا وجهوهم لله طائعين، ولهذا المؤمنون يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت مصداقا لقوله تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } 744.

743 غافر 36، 37.

744 النساء 76.

وعليه الكيد قد يكون على أيدي منها:

. يد رجل شيطاني.

. يد امرأة شيطانية، قال تعالى: ﴿وَرَاوَدْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ
وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ
لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ
لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ
وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَْا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ
بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا
رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ 745، كل
من يقرأ هذه الآيات الكريمة يتعرف على المكيدة التي حاولت أن تكيد بها
امرأة العزيز يوسف عليه الصلوة والسلام الذي حفظه الله من مكائدها.

. يد جن شيطاني.

أمَّا كيد الكيد؛ فلا يكون إلا على يد الله تعالى أو الذين آمنوا به
واحداً واحداً وأطاعوه بالمطلق عبادة مُصَدِّقِينَ صَالِحِينَ ومصلحين لا
مفسدين ولا مبدلين ولا سافكي دماء بغير حق.

ولسائل أن يسأ:

أيهما أشد كيدا، الرجال أم النساء؟

أقول إنما الأعمال بالنيات.

ولكن كيد الرّجال حسدا وظلما لا هدف من ورائه إلا الإطاحة وإيقاع الضّرر بالملكاد به. أمّا كيد النساء فمعظمه كيد محبّة فاشلة كما هو كيد امرأة العزيز بيوسف بعدما شغفت به وخسرت الرّهان.

وعليه لا يكون الكيد إلا عمل شيطاني وهو مفسدة ويترتب عليه الألم، ولهذا ينبغي أن يكاد كيد الكائدين بإبطاله وكشف أسراره وتصحيح المعلومات الخاطئة بمعلومات صحيحة.

يوسف في السّجن:

يعدّ السّجن فصل آخر من فصول قصّة يوسف عليه السّلام، إذ أدخل السّجن ومعه شخصان، ويقال أنّهما ساقى الملك وخبّازه، فأعجبهما في يوسف عبادته وتوكّله على الله تعالى، وشاهد كلّ واحدٍ منهما رؤيا على شاكلته، فرأى الأول أنّه يعصر الخمر من ثلاث عنقايد عنب قد امتلأت؛ فعصر منها وسقى الملك، والآخر أنّه يحمل ثلاث سلالٍ من الخبز على رأسه، والطيّر تأكل منه، فسألا يوسف عن ذلك، فأخبرهما في البداية أنّه ما من حلمٍ يحلمانه إلا ويخبرهما بتأويله، وبداية أخبرهما أنّه يوحد الله تعالى، وأنّه على ملّة أبيه وأجداده يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السّلام، وأخبرهما بتأويل حلمهما بأنّ الخباز سيصلب وتأكل الطير من رأسه، وأنّ السّاقى سيخرج من السّجن ويعود لسقى الملك، وأنّ هذا أمرٌ مقضي سيحصل في العاجل أم الآجل، وطلب من الذي ظنّ أنّه ناجٍ (السّاقى) أن يذكره عند الملك وما ألم به من ظلم. لكنّ الشيطان أنسى الناجي أن يذكر يوسف عند الملك لبضع سنين، بقي فيها يوسف في السّجن، والتي من بعدها أراد الله تعالى إخراج يوسف من السّجن، فرأى الملك رؤيا وهي أنّه كان على حافة النّهر فخرجت سبع بقراتٍ سمانٍ يرتعن في الخضرة هنالك، فخرجت سبع بقراتٍ هزال ضعاف فرتعن معهنّ، ثمّ أكلنهنّ، فاستيقظ مذعورا ونام بعدها، فرأى سبع

سنبلاتٍ خضِرٍ في قصبَة واحدة، فإذا بسبع يابساتٍ آخر يأكلونهنّ، فقصّها على قومه فأخبروه أنّها من الأحلام التي لا تعبیر لها، وأنّ لا خبرة لهم بتفسير الرّؤى، وعندها تذكّر السّاقى الذي نجى من السّجن يوسف عليه السّلام وقدرته على تفسير الرّؤى وأخبر الملك عنه، وطلب أن يرسله إلى يوسف كي يفسّرها له، فأخبرهم يوسف بأنّه يأتيهم سبع أعوامٍ يخضّر فيها الزرع ومن بعدها سبعٌ يأتيهم فيها القحط، ومن بعدها يأتيهم عامٌ فيه الخير ويرزق فيه النّاس ويعودون إلى عصر ما كانوا يعصرونه من الزيتون والعنب والسّمسم وغيره، وأخبرهم ما يفعلون في كلّ من السنين كي يتغلّبوا على القحط. عندما علم الملك بعلم يوسف أراد أن يخرجّه ويجعله من حضرته، ولكنّه أبى ذلك وطلب من رسول الملك الذي أتاه أن يعود إلى الملك ويطلب منه أن يسأل العزيز عن التّهم التي وضع على إثرها في السّجن كي تظهر براءته أمام النّاس جميعاً، وعندما سأل الملك عن ذلك أخبره أنّه تمتّع عنهنّ وأخبرت امرأة العزيز أنّ الله قد أظهر الحقّ واعترفت بذنبها، كي يعلم العزيز أنّها لم تخنه من دون علمه، فبانت براءة يوسف عليه السّلام أمام الجميع قبل خروجه من السّجن وما كان به من الظلم، وعندما ظهر للملك ما كان به من الظلم والعفة وما يمتلكه من العلم والحكمة طلب أن يأتوه به كي يكون من أكابر القوم عنده، وطلب من الملك أن يوليه على خزائن الأرض كي يستطيع إخراج النّاس من الضيق الذي سيحصل بحسب رؤيا الملك، فهو علم أنّه يستطيع ذلك وله من القوّة والعلم والأمانة ما يؤهّله لذلك، ولهذا طلب بنفسه أن يتولاه.

تولى يوسف المهمة ونجح فكراً وتخطيطاً وتنفيذاً؛ فأخرج مصر من السنين العجاف وفقاً لما رسمه من سياسات. أي كما أخرجّه الله من التهم والابتلاءات أخرج مصر ممّا ابتليت به من أعوام الجفاف الجذباء. ولذلك فالابتلاء من سنن الله التي لا تتبدّل ولا تتغيّر، ويكون عظم الابتلاء على

قدر عظم منزلة المبتلى عند الله، ومن القصص القرآني الوارد في الابتلاء قصة يوسف عليه السلام وما لقي من الظلم على يد إخوته في صباه، وما لقيه من السجن في شبابه بسبب كيد امرأة العزيز⁷⁴⁶

جمال يوسف:

وصف رسول الله عليه الصلاة والسلام بقوله: "ليلة أسري بي رأيت موسى عليه السلام وإذا هو رجل ضربت من الرجال كأنه من رجال شنوءة" وقال صلى الله عليه وسلم واصفا عيسى عليه السلام عندما رآه في الإسراء: «ليس بيني وبينه نبي وإنه نازل؛ فإذا رأيتموه؛ فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل» وقد جاء وصف الرسول صلى الله عليه وسلم في كتب السنة والسيره فلم يرد فيها شيء مما ينفر أو يشذ فقد كان سوي الخلقه حسن الصورة بأكمل ما يكون. وقد جاء عن وصف يوسف عليه السلام لما رآته نسوة المدينة حين دعتة امرأة العزيز لما شاع خبرها بأنها راودت فتى العزيز، قال الله تعالى واصفا حالهن حين رأين يوسف عليه السلام {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} 747، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم واصفا يوسف وقد رآه في الإسراء أعطي يوسف عليه السلام شطر الحسن⁷⁴⁸

وعليه: لقد جمع النبي يوسف جمال الخلق والأخلاق والمعاملة وكان في مظهره يلبس رداءً ملونا يُعرف به، كما كان يمتلك جسما قوي البنية،

⁷⁴⁶ دروس للشيخ مصطفى العدوي، 30، ص 1، بتقييم الشاملة آليا.

⁷⁴⁷ يوسف 31.

⁷⁴⁸ الحاجة إلى الرُّسل، ص 13، بتقييم الشاملة آليا.

متناسقا مع وزنه، يتكلم بهدوء، ويقال بأن النبي يوسف عليه السلام أخذ نصف جمال الدنيا، كما وهبه الله عز وجل موهبة تفسير الأحلام. وعليه فكل الكيد والمكر الذي لقق للنبي الكريم يوسف باء بالفشل، بل ويوسف أصبح بين يدي الملك مدللاً بما تميّز به من علم ودراية ورسالة، قال تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولَىٰ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} 749.

الذين أقسموا هم الكفرة والمشركين بأنه إن بعث الله لهم نبيا رسولا ليكونن من المهتدين فلما بعث الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام رسولا مبشرا ومنذرا ازدادوا تمسكا بكفرهم وشركهم وإفسادا في الأرض، ولكن النتيجة التي لحقت مكرهم السيئ هي أحلال المكر بهم من خير الماكرين (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ) وهذه سنة الحياة عبر الزمن لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، ولذا فالذين يمكرون بالعباد هم الذين يُفسدون في الأرض ويسفكون الدماء فيها بغير حق، وهم الذين يقدمون على أداء مجموعة من الأعمال والأفعال السيئة التي منها:

1 . الظلم.

2 . الكيد.

3 . الدس.

- 4 . التحايل .
- 5 . المخادعة .
- 6 . المراوغة .
- 7 . الانقلاب .
- 8 . التقلب (التبدل) حيث لا ثوابت .
- 9 . إظهار غير الباطن .
- 10 . النصب والاحتيال .
- 11 . الغدر .
- 12 . الخيانة .
- 13 . الكذب والافتراء .
- 14 . الاستكبار والإفساد في الأرض وسفك الدماء فيها بغير حق .

المستوى الثاني:

ما يقوم به العباد الصالحين والصدّيقين والذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين من مكر بالماكرين السيئين وهم يتلون آيات الله أنا الليل وهم يسجدون مصداقا لقوله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} 750، إنهم المتقون حقًا الذين يسعون في الخيرات والأعمال الحسان التي منها:

⁷⁵⁰ آل عمران 113 . 115 .

- 1 . إذا حكموا بين الناس عدلوا.
- 2 . إذا قالوا صدقوا.
- 3 . إذا عاهدوا أوفوا.
- 4 . إذا عملوا أحسنوا.
- 5 . يحبون الخير ويعملون عليه.
- 6 . يحقون الحقّ ويزهقون الباطل.
- 7 . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.
- 8 . مؤمنو الجانب.
- 9 . مؤمنون بالله خير الماكرين.
- 10 . مؤمنون بكلّ أمر ونهي وتحريم ومجتنبين لكلّ ما يجب اجتنابه طاعة لله ربّ العالمين.

المستوى الثالث:

ما يقوم به خير الماكرين من إبطال لمكر الماكرين السيئين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ويسفكون الدماء فيها بغير حقّ، مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ زِكْرِي وَتَمَحَّصْ يَوْمَ الصَّالَةِ إِنَّكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [آل عمران: 41].

فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {751}.

⁷⁵¹ آل عمران 54، 55.

أي مَكَرَ بنو إسرائيل بعيسى عليه الصلّاة والسّلام كثيرا حتى بلغ بهم الأمر الإقدام على صلبه فظنوا أنّهم قد قتلوه صلبا، والحقّ تعالى شَبَّهَ لهم صلبه وقلته تشبيها مصداقا لقوله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} 752.

وعود على الآية الكريمة (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) يُفْهَم منها ثلاثة أمور:

1 . أنّهم قد مكروا، أي أنّ فعل المكر كان متحققا من بنو إسرائيل لعيسى عليه الصلّاة والسّلام، فهم الذين قد بدءوا بمكرهم دون مبرر (بدون وجه حق)، وفي هذا المعنى أنّهم لم يتركوا سيئة كبيرة كانت أم صغيرة إلا وقد فعلوها.

2 . إنّ الله قد مكر بمكرهم الذي هو صلب عيسى فأبطله بالشبه حتى أنّهم ظنوا قتل عيسى يقينا (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) ولأنّ إبطال الباطل حقّا جاء المكر بمكرهم حقّا، وفي غير مقارنة ولكن لتبيان الحقّ من الباطل فإنّ الفرق كبير بين من يزرع مكرًا وبين من لا يجعله نباتا، فالمرزوع لا خير فيه، لذا كان عدم إنباته خيرا، فلو نبت لكانت المفسدات ونار الفتن منتشرة وموقدة، ولهذا كان الخير كلّ الخير في عدم انتشارها وعدم إيقاد نارها. وهذا بالتمام مثل ما فعل بيوسف من مكر امرأة العزيز ونسوة المدينة، فكان خير الماكرين خير ماكر بمكرهنّ.

3 . ولأنّ المكر بالمكر خير فإنّ فاعله هو خير الماكرين، ولذا فخير الماكرين هو فاعل الأفعال الحسنی، وقد يتساءل البعض:

من الذي يفعل الخير؟

أقول:

خير الماكرين (من يمكر بالماكرين) أنه العادل في ملكه إنه مُحَقِّقُ الْحَقِّ.

ومع أنّ الآية الكريمة جاءت بصيغة الماضي إلا أنّ الباقي على الخير باقٍ، ولهذا فمتى ما يمكر الماكرين يمكر الله بمكرهم؛ فيبطله ويلحق أصحابه الضّرر مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِبُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} 753 وكذلك يفهم من هذه الآية الكريمة أنّ مكر الله مترتب على مكر سابق من الماكرين الذين كفروا؛ فيمكر الله بهم وبمكرهم؛ ذلك لأنّه عزّ وجلّ هو خير الماكرين.

وخير الماكرين سبحانه وتعالى على دلالة من المعنى حيث قد يفشل البعض من العباد من إبطال ما يكيد الكائدون من مكائد وما يمكرون به من مكر، ولكن قد لا يُوفِّقوا في بعض الأحيان، ولهذا فخير الماكرين هو القادر دائما، ولأنّه القادر؛ فهو الله وهو خير الماكرين.

إذن خير الماكرين هو القادر على المكر بالمطلق، أمّا الماكر؛ فهو القادر في دائرة النسبية ولا قدرة له بالمطلق، ولهذا لا قادر على المكر الذي هو خير إلا الله تعالى أمّا المكر الذي هو سيئ فالمفسدون في الأرض قادرون عليه، ولذا يُزين لهم مكرهم تزيينا، مصداقا لقوله تعالى: {بَلْ زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ لَهُمْ

عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
وَاقٍ {754.

ولأنّ صفات الخالق ثابتة وصفات المخلوق متبدلة، لذا فلا تبديل
لمكر خير الماكرين، ولا صعوبة في تبديل مكر الماكرين، أي أنّ مكر خير
الماكرين هو المبطل لمكر الماكرين، ولهذا فكل مكرٍ ينهار ويتلاشى وينعدم
أمام خير الماكرين، وعليه الصّفات المتبدلة في دائرة الممكن المتوقّع وغير
المتوقّع سهلة التغيير، والصّفات الثابتة باقية بالمطلق لا تتغيّر.

ولأنّ الماكر قادرا على عدم إظهار ما يكتنه من مكرٍ إلى حين وقته
فحين يأتي وقته لا يتأخر في إظهاره بأسواء الأساليب وأقبحها، أمّا خير
الماكرين (الماكر العظم) بيده الأمر إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون، وهو
يعلم بكلّ باطن قبل ظهوره ويعلم بكلّ علانية، وهو على كل شيء قدير،
ومن هنا؛ فله المكر جميعا قال تعالى: { وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ
الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى
الدَّارِ {755.

قوله تعالى: (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) تدلّ على شواهد في التاريخ
الذي هو خير شاهدٍ على ما فعل النمرود من مكرٍ بإبراهيم عليه الصّلاة
والسّلام وخير شاهدا على ما فعل فرعون من مكرٍ بموسى عليه الصّلاة
والسّلام وما عمل اليهود من مكرٍ بعيسى عليه الصّلاة والسّلام، ومكر
امرأة العزيز بيوسف عليه الصّلاة والسّلام، وهكذا من قبلهم مكر قوم نوح
بنوح عليه الصّلاة والسّلام وكلّ الأنبياء تعرضوا للمكر السيئ من السيئين
عليهم اللعنة، ولكن بقيت الحياة بشواهدا شاهدةً على ما أحقّه خير
الماكرين من حقّ حيث يريد الله أن يتم نوره ولو كرها الكافرون والمجرمون

754 الرد 33، 34.

755 الرد 42.

المفسدون في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حق، قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} 756، وقال تعالى: {وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} 757.

أمّا قوله تعالى: (فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) تدل إثباتا على أنّ كلّ شيء بالمطلق هو بأمر الله تعالى، ولذلك لا شيء يفلت من يديه سواء أكان مكر الماكرين وما تكته صدورهم أو تعلقه أم أكان تلك الأقوال والأفعال الحسان التي يؤمن المسلمون بها اتباع تنزيل من العزيز الحكيم.

ولأنّ لله الْمَكْرُ جَمِيعًا، إذا لا خوف إلا من الله، ولهذا تقواه واجبة وطاعته عبادة، والمؤمن يقول الحقّ ويفعله ولا يُفسد في الأرض ولا يسفك دما فيها بغير حقّ وهو متيقنا أنه لن يصيبه شيئا إلا ما قد كُتِبَ له مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} 758.

وعليه بما أنّ لله المكر جميعا، فلماذا الخوف؟

لا خوف بما أنّهم يمكرون والله خير الماكرين، الخوف فقط إن لم يؤمن بخير الماكرين، ولذا المؤمن بخير الماكرين إن آمن حقّا لا يضره كيدهم ولا مكرهم ولا سحرهم شيئا فمن يتوكل على الله فهو حسبه، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ

756 التوبة 32.

757 الأنفال 7، 8.

758 التوبة 51.

يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ
قَدْرًا {759}.

وحيث لا مقارنة ولكن للتوضيح نقول:

الفرق كبير بين من يمكر بعد أن يعلم بالأمر الذي كان سببا في
إقدامه على أفعال وأعمال المكر، وبين من يعلم بالأمر قبل وقوعه أو
حدوثه ثم يُظهره في بواطن الماكرين الذين يظنون أنّ أمرهم غير معلوم لدى
أحدٍ ثم يُظهره في أقوالهم وأعمالهم وأفعالهم ليكون شاهدا عليهم يوم لا
ينفعهم مال ولا بنون قال تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى
اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} {760}، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ
أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ قُلْ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ
فِي فِئْتَيْنِ التَّقَاتِ فِيمَا تُفَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهَا مِنْ لَدُنْهِمْ رَأْيَ
الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ زَيْنٌ
لِّلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ
وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ
حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أُوْتِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ

بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ {761}.

يفهم من هذه الآيات الكريمة أنّ خير الماكرين هو أرحم الرّاحمين،
ولهذا مكر الله خير ورحمة على العباد فلولا مكره تعالى بالماكرين لفسدت

759 الطلاق 2، 3.

760 الشعراء 88، 89.

761 آل عمران 10، 15.

الأرض وعمّت المظالم وهلك النَّاس، ولكن بواسع رحمته جعل الخير رحمة
من جانبين:

الأول: بالرَّغم ممَّا يفعله الماكرون من مكرٍ فالحقّ دائماً يعلو ولا شيء
يعلو عليه.

الثاني: بالرَّغم من المكر المتنوّع والمتعدّد الذي يمكره الماكرون إلا أنّ
خير الماكرين خير باطلا له.

فالحمد لله ربّ العالمين خير الماكرين.

ولأنّ خير الماكرين هو علام الغيوب فكلّ ما يمكره الماكرون فهو عند
الله مصداقا لقوله تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ
مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} 762.

ما قام به الماكرون من مكرٍ الله يعلمه فهو ليس بمخفي عنه (وعند
الله مَكْرُهُمْ) ولأنّه لا شيئا مخفيا عنه؛ فهو العالم بحاله وحالمهم ويعلم ما يجب
اتجاهه واتجاههم، والمؤمنون هم بذلك يؤمنون فيسلمون أمرهم إليه وعليه
يتوكلون في مواجهة كيد الكائدين ومكر الماكرين وكلهم ثقة أنّ الحقّ
سيحقّ ولو كرها الكافرون والمشركون والمجرمون والفاسقون والكاذبون
والضالون. قال تعالى: {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ
وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَبَلَغْ بِيَوْمِهِمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} 763.

أي أنظر إلى الدليل الذي تركناه شاهدا على ما فعلوا من مظالم
ومكايد ومكر عظيم، فكانت العظمة بما فعل خير الماكرين من مكر

762 إبراهيم 46.

763 النمل 51. 53.

بمكرهم تدميرا شاملا لهم ولقومهم أجمعين فبقيت بيوتهم أثارا خاوية
بأسباب ما اقترفت أيديهم من مفاسد في الأرض ظلما وعصيانا وبهذا
المكر الخيّر من خير الماكرين تحققت النجاة للذين آمنوا وكانوا متقون في
كلّ قول وعمل عملوه وهم للحقّ فاعلون.

ولأنّ خير الماكرين محقّ للحقّ؛ فالماكرون بالعباد هم في حقيقة أمرهم
لا يمحرون إلا بأنفسهم وذلك بأسباب العقاب التي لا بدّ وأن تلحقّ بهم
(الكافرين والمجرمين والمفسدين في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حقّ،
والكائدين والماكرين من شياطين الإنس والجن أجمعين) قال تعالى:
{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ جُرْمِهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا
بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا
أُوْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ
عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ } 764. يفهم من هاتين الآيتين
أنّ أكابر المجرمين هم أشدّ مكرًا وأشدّ إفسادا في الأرض ومثل هؤلاء هم
في كل قرية، ولهذا القرى التي يُراد لها أن تُدمر بأسباب ما تُقدّم أيدي
سكانها يأمر الله مترفيها فيفسقوا فيها فتُدمر تدميرا مصداقا لقوله تعالى:
{ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ
فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } 765، ولذلك تكون النتيجة عودة المكر على رؤوس
أصحابه وينجي الله الذين آمنوا من مكرهم كما نجى نوح ومن تبعه من
المؤمنين من الطوفان في الفلك المشحون وكما نجى موسى والرّسل الكرام
صلوات الله وسلامه عليهم من كل كيدا ومكر عظيم، قال تعالى: { وَأَتْلُ
عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي

764 الأنعام 123، 124.

765 الإسراء 16، 17.

بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ
عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ
مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدْرِبِينَ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ثُمَّ
بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا
قَوْمًا مُجْرِمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ قَالَ
مُوسَى اتَّقُوا اللَّهَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ قَالُوا
أَجِئْتَنَا لَتَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا
نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ وَقَالَ فِرْعَوْنُ اانْتَوِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ
قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ
السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ
بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ
مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ
الْمُتَسْرِفِينَ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ
مُسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَحْنَا
بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَ لِقَوْمِكَ
بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَ
مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا
لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا
حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} 766.

بناء على ما تقدّم من آيات عظام نقول الحمد لله أنه خير الماكرين، ولذا جاء اسمه خير الماكرين في مقابل تلك الأفعال التي يقوم بها شر الماكرين في الأرض الذين بأسباب مكرهم تدمر قراهم وبأسباب مكرهم يخسرون ويفوز الذين آمنوا في الدارين فيكونوا هم الوارثون حقًا بما آمنوا وعملوا من الصالحات.

وعليه أقول: على المستوى البشري يظهر أشر وأسوأ الماكرين وفي مقابل ذلك يكون الله هو خير الماكرين سبحانه نعبده ونحن مؤمنين ولا نشرك به شيئاً ومن يتخذ من دونه أرباباً فهو من الخاسرين، قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} 767 وقال تعالى: {قُلْ مَنْ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} 768.

ولأنّ الله عزّ وجلّ هو خير الماكرين؛ فهو لا يظلم أحدا من خلقه، ولكن أنفسهم يظلمون، ولهذا جعل الذين أجرموا صغار عنده ولهم عذاب شديد بما كانوا يمكرون مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ

767 التوبة 30، 31.

768 الرعد 16.

سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا
يَمْكُرُونَ {769}.

ولأنّ المكر عمل شيطاني فهو يُنسج من الأقارب والأبعد على
السواء كما نسج أخوة يوسف مكرهم به مصداقا لقوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ
أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ
يَمْكُرُونَ} {770}.

والمكر عادة تُنسج خيوطه في الغياب ليفاجئ بها من نُسجت إليه
أو نُسجت من أجله عند الحضور، ولهذا في المكر تكاد المكائد التي فيها
مغالبة من يمكر به، ولول فضل الله بخير مكره لهلكت الأرض وهلك العباد
وعمّ الأرض الفاسد، ولكن بحمد خير الماكرين يبطل كل مكرٍ وينتصر
المؤمنين، ولهذا فالصبر مفتاح الفرج ومزيل الكرب فمن يصبر على الإيمان
بالحق ينتصر ويفوز، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
مُحْسِنُونَ} {771}، في هاتين الآيتين الكريمتين مخاطبة لرسول الله محمد عليه
الصلاة والسلام بالصبر فالصبر لا يكون إلا من عند الله تعالى ولهذا لا
مخافة مما يمكرون فالصبر على الإيمان كفيل بمغالبتهم، ولذلك لا تحزن
عليهم يا محمد ولا تكون في ضيق مما يمكرون فالله ناصرٌ مصداقا لقوله
تعالى: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} {772}، فالذين
تضق بهم الأحوال هم الأخسرون فاصبر وما صبرك إلا بالله تعالى هو
وليك فتوكل عليه وثق أنّ الذين يمكرون ليس لهم إلا السيئات مصداقا

769 الأنعام 124.

770 يوسف 102.

771 النحل 127، 128.

772 النمل 70.

لقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْوَرُ} 773، بدون شك الذين يَمْكُرُونَ السيئات هم في ضلال بعيد فعمل السيئات كفيل بقلب السحر على الساحر، ولذا فارتكاب السيئات كفيل بتحقيق المكر لمن يعملها.

إذا فمن كان يريد العزة فعليه بالإيمان بالله تعالى وطاعته أمر ونهي وتحريماً وتجنباً وابتعاداً وأخذاً، وعليه بالكلم الطيب في مرضاته والعمل الصالح الذي به تزداد الرفعة إلى بلوغ المقامات العظام ولا يلتفت إلى ما يعمل الماكرين من سيئات فأولئك لهم عذاب شديد يوم لا ينفع مالا ولا بنون {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} 774.

قال تعالى: {وَرَاوَدْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَرَبِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ

773 فاطر 10.

774 الشعراء 88، 89.

سَكِينًا وَقَالَتْ اِخْرُجْ عَلَيَّهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ
لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لُمْتُنِّي فِيهِ وَلَقَدْ
رَأَوْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ
الصَّاغِرِينَ {775}.

وعليه في المكر إكراه بأساليب ملتوية عن الحق والصواب، وفيه تأمر
على الأبرياء والأوفياء وفيه الخدعة في الظرف المتوقع وغير المتوقع، وفيه
التزيين في غير محله وفيه التغير والتزوير وفيه الإغراء والإغواء وفيه التسفيه
والحاق الهلاك وفيه الكيد والظلم والسوء. لعن الله الظلمة كيدا ومكرا وفي
الختام الصلوة والسلام على يوسف الذي سلّمه الله وأنجاه من كيد ومكر
امرأة العزيز، والصلوة والسلام على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

يوسف يدير الدولة:

يقال ذات مرة سأل يوسف الملك قائلا: "كيف رأيت صنيع ربّي
فيما خولني، فما ترى لي؟ قال الملك: الرأي رأيك، وإنا نحن لك تبّع،
قال: فإني أشهد وأشهدك أيّ أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت
عليهم أموالهم وأملاكهم" 776.

وروي أنّ يوسف (عليه السلام) كان لا يشبع من طعام في تلك
الأيّام، فقيل له: "تجوع ويبيدك خزائن الأرض، فقال: أخاف أن شبع أن
أنسى الجائع" 777.

ولأنّ لغة يوسف لغة المؤمن المتمكّن حلقا وعِلما ومعرفة وعدلا
واقْتصادا؛ فهو في تسييره لإدارة الدولة (مصر) أمر طبّاحي الملك أن يجعلوا

775 يوسف 23 . 32.

776 تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 5، ص 234

777 تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 5، ص 234.

الغداة نصف النهار، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين، ويحسن إلى المحتاجين، ففعل الطهارة ذلك، ومن ثم جعلت الملوك غداءهم نصف النهار.

وفي زمن إدارة يوسف عليه السلام قصد الناس مصر من كلّ حذب يمتارون، فجعل يوسف لا يمكّن أحدا منهم وإن كان عظيما بأكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس وتوسّعا عليهم، وتزاحم الناس عليه وبخاصّة قد أصيبت أرض كنعان وبلاد الشام من القحط والشدة ما أصاب سائر البلاد، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس؛ فأرسل بنيه إلى مصر للميرة، فأمسك بنيامين أخا يوسف لأتمه؛ فدخّلوا عليه؛ فعرفهم يوسف وأنكروه لما أراد الله أن يبلغ يوسف فيما أراد.

قال ابن عباس: وكان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا مصر أربعين سنة؛ كان يوسف جالسا على سريره والتاج على رأسه فلم يعرفونه.

قال بعض الحكماء: المعصية تورث الكبر، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ 778 فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية، قال لهم: أخبروني من أنتم؟ وما أمركم؟ فإني أنظر شأنكم، قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار، قال: لعلكم عيون تنظرون عورة بلادي، قالوا: والله ما نحن جواسيس وإنما نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق يقال له: يعقوب، نبي من أنبياء الله، قال: وكم أنتم؟

قالوا: كنّا اثني عشر؛ فذهب أخ لنا إلى البرية؛ فهلك فيها، وكان أحبنا إلى أبينا، فقال: فكم أنتم ها هنا، قالوا: عشرة، قال: فأين الآخر؟ قالوا: عند أبينا لأنه أخ الذي هلك من أمه، وأبونا يتسلّى به، قال: فمن

يعلم أنّ الذي تقولون حقّ؟ قالوا: أيّها الملك إنّنا ببلاد لا يعرفنا أحد، قال يوسف: فأتوني بأخيكم الذي من أيكم إن كنتم صادقين، فأنا أرضى بذلك.

قالوا: إنّ أبانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه وإنّا لفاعلون، قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم فاقتربوا بينهم فأصابته القرعة شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف وأبرّهم به فخلّفوه عنده، فذلك قوله تعالى: {وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِنْ أَيْكُمْ أَلَّا تَرَوُنَّ أُنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ} 779.

يوسف خير مثال:

يصوّر لنا النبي صلى الله عليه وسلم اختلاف النّاس في تمثيل بليغ رائع، قيل له: (من خير النّاس؟ قال: أتقاهم، قيل: ليس عن هذا نسألك، قال: نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله، وهو يعني: يوسف عليه السّلام. قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العربّ تسألوني؟ النّاس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" 780

أعمال أخوة يوسف لم تجعل منهم أنبياء:

عندما جاء الإخوان إلى مصر للمرّة الثانية، أحسن يوسف استقبالهم وأعدّ وليمة لهم، ولكنّه أعطى اهتماماً خاصاً لبنيامين. أراد يوسف أن يختبر ماذا ستكون ردّة فعل إخوانه إذا أبقى بنيامين معه، فأمر يوسف بأن تُملئ أكياس إخوته بالحنطة وأن يوضع معها المال الذي دفعوه ثمناً للبضاعة، إضافةً لذلك أمر بوضع كأساً فضية (الصّعب) من الكؤوس التي له بين أغراض بنيامين. في صباح اليوم التالي همّ الإخوان بالرحيل ولكن قبل ذلك جاء مُرسل من يوسف يتهمهم بسرقة الكأس الفضية. قام المرسل

779 يوسف 59.

780 دروس الشيخ محمد الدويش، 32، ص 5، بتقييم الشاملة آليا.

بالتفتيش في أغراض إخوة يوسف وعندها وجد الكأس الفضية في أغراض بنيامين مما اضطرهم إلى الرجوع، قال تعالى: {قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نُنْجِزِي الظَّالِمِينَ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} 781. وهنا أخبرهم بأنه سيأخذ بنيامين للحجز؛ ولكن منظر أخوته أثر في نفسه فقام بكشف نفسه لهم وطالب بأن يرى والده يعقوب. قام يوسف بإرسال العديد من الهدايا إلى أبيه وطلب من إخوته أن يجلبوه بسرعة.

أخوة يوسف عليهما السلام لم يكونوا أنبياء، ولهذا لم يذكرنا نصًا بذلك لا في القرآن الكريم ولا من السنة الصحيحة، ولا من إجماع، ولا من قول أحد من الصحابة رضي الله عنهم. وإما يوسف صلى الله عليه وسلم فرسول الله بنص القرآن قال عز وجل {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا} 782 وأفعال أخوته تشهد أنهم لم يكونوا أنبياء ولا رسل، ولكن الرسلين أباهم وأخاهم قد استغفروا لهم وأسقطا التثريب عنهم. وكيف يكونوا أنبياء ويقول لهم النبي يوسف عليهم السلام: {أَنْتُمْ شَرُّ

781 يوسف 72 . 77.

782 غافر 34.

مَكَانًا {783 ولهذا؛ فهذا القول الصادق لا يمكن أن يجعل منهم أنبياء ولا مرسلين"784. ومع ذلك فإنَّ استغفار يعقوب لهم وعفو يوسف عنهم جعلهم على حالة من الرِّضاء التام.

ابتلاء يوسف وقتنته:

تعرّض يوسف لعدد من الابتلاءات، ولكنّه سلم منها جميعا، ذلك لأنّه نبي الله ورسوله الذي اصطفاه وجعله آية. روى أنس رضي الله عنه قال: "أوحى الله تعالى إلى يوسف عليه السّلام قائلا: "من أستنقذك من القتل حين هم إخوتك أن يقتلوك؟ قال: أنت يا ربّ. قال: فمن أستنقذك من الجبّ إذ ألقوك فيه؟ قال: أنت يا ربّ. قال: فمن أستنقذك من المرأة التي همّت بك؟ قال: أنت يا ربّ. قال: فما بالك نسيتني، وذكرت آدميا؟ قال: يا ربّ، كلمة، تكلمّ بها لساني! قال: وعزّتي لأخذنك في السّجن بضع سنين"785

كان يوسف عليه السّلام جميلا في أحسن تقويم، بل كما ذكر الرسول عليه الصّلاة والسّلام أنّه أعطي شطر الجمال786، إنّهُ جمال أهل الجنّة، ولهذا فتنت امرأة العزيز التي راودته في بيتها، وكذلك نسوة المدينة اللاتي قطعن أيديهنّ. فهو مؤمن على الكمال والرّفعة وعلى الفضائل في مرضاة الله تعالى، {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

783 يوسف 77.

784 الفصل في الملل والأهواء والنحل، 4، ص 7.

785 جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، ص 561.

786 فضائل الصحابة، محمّد حسن عبد الغفار، 7، ص 2، بتريقيم الشاملة آليا.

الظَّالِمُونَ} 787، وهكذا كما سبق تبيانه كانت الابتلاءات ليوسف
وهكذا سلم يوسف منها. 788

دعاء يوسف دعاء أهل جنّة:

قيل: ما من نبي إلا ودعا بدعاء يوسف عليه السّلام "أنت وليي في
الدنيا والآخرة توفي مسلما والحقني بالصالحين". وفي الخبر عن النبي صلّى
الله عليه وسلّم: "إنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى لا يكون بينه وبين
الجنّة إلا شبر" 789.

ومن دعاء يوسف عليه السّلام: "اللهمّ إنّّي أتوجه إليك بصلاح
آبائي إبراهيم خليلك وإسحاق ذبيحك؛ ويعقوب إسرائيلك" 790.

وجاء في الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والردّ على أهل الشرك
والإلحاد قول يوسف الذي يحمل في مضمونه مفهومي دالين على: إظهار
الإيمان والدّعاء بالقبول من خلال التوحيد الذي لا شرك فيه؛ فقال تعالى
عن يوسف عليه السّلام: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} 791

وقال كما جاء في قوله تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمَنِي
مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ} 792. والحمد لله ربّ العالمين.

787 يوسف 23.

788 دروس الشيخ محمد الدويش، 13، ص 35، بترقيم الشاملة آليا.

789 الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، 3، ص 791.

790 هذه مفاهيمنا، ص 76.

791 يوسف 38.

792 يوسف 101.